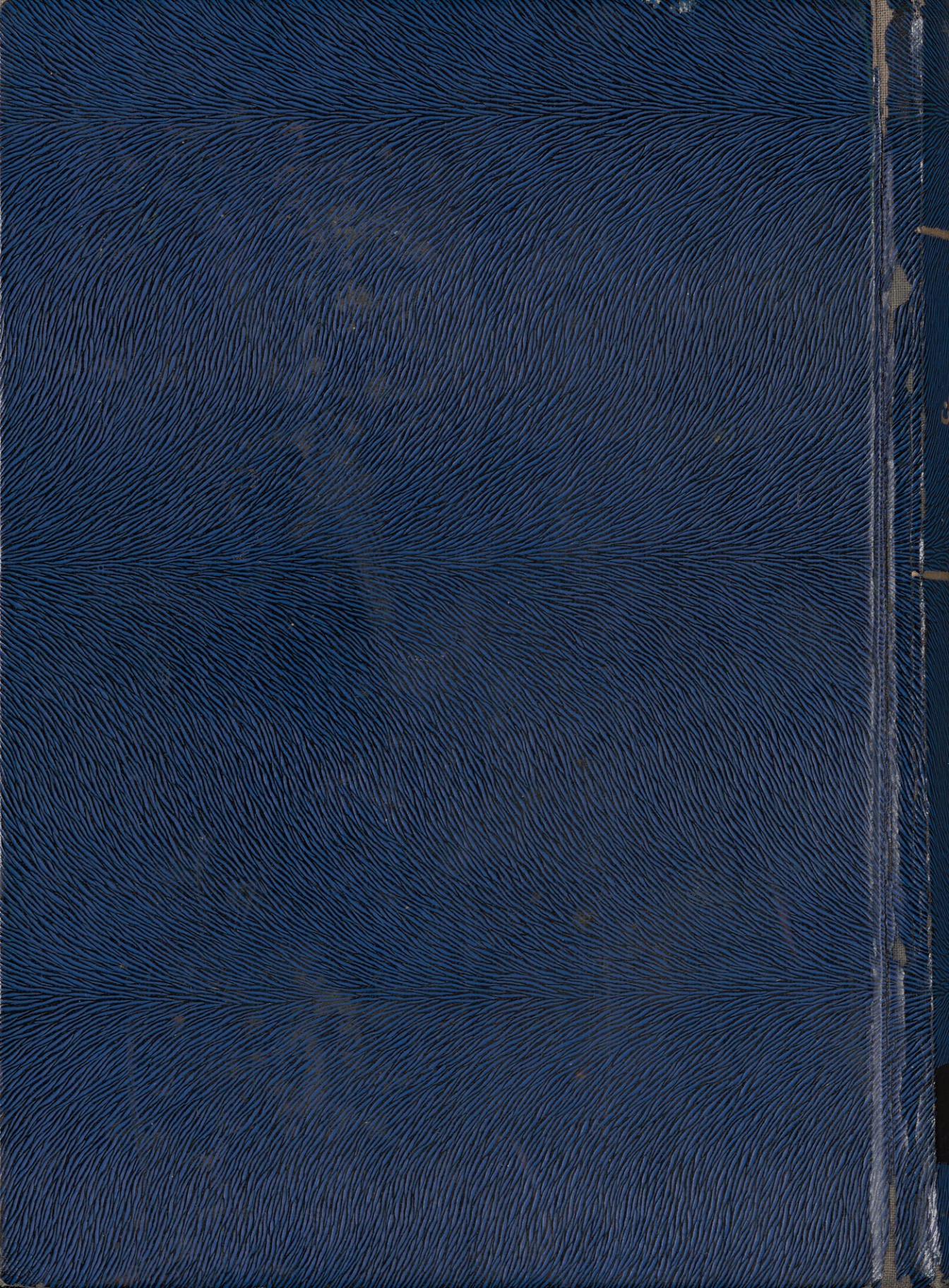




A. U. B. LIBRARY

11

تجليد صالح الدقر
٢٢٩٧٧ تلفون

مخفارات

من مقالات امرسن

تعريب

محمود محمود

المراقب العام للتعليم المصرى بالسودان

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا

١٩٥٥

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

تقديم المترجم

رالف والدو أمرسن كاتب أمريكي — بل كاتب عالمي — عاش في القرن التاسع عشر ، ونشر بين معاصريه كثيراً من الآراء الطريفة والأفكار النافذة . وقد ولد في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو من عام ١٨٠٣ في مدينة بوسطن بأمريكا لأب من رجال الدين . وبعدما تخرج في جامعة هارفرد اشتغل بالتعليم . ولكنه لم يلبث على هذه الحرفة طويلاً ، بل التحق بإحدى الكنائس قسيساً كأيّيه . ولما كان يميل بطبعه إلى حرية الفكر ، فقد أخذ يذيع على الناس خلال عظاته مبادئ ثورية لم تتفق وعقائدهم في ذلك الحين . فاشتد سخط العامة عليه ، وتبرمهم به ، حتى اضطر إلى التخلي عن عمله ، ثم رحل إلى أوروبا والتقى بكبار كتابها وشعرائها ، وتعرف إلى كولردج ووردزورث وكارليل . وعاد بعدئذ إلى أمريكا واشتغل أستاذاً بجامعة بوسطن ، وألقى كثيراً من المحاضرات العامة التي لفتت إليه الأنظار ؛ وحينئذ أدرك الناس أن بينهم أديباً كبيراً وقائداً عظيماً من قادة الفكر ، وقوة تدفع الرأي الأمريكي إلى الأمام . ومات أمرسن في عام ١٨٨٢ بعدما اعترف له الأمريكيون جميعاً بالصدارة في الأدب ، والزعامة في الفكر .

يقدموا له من معونة المال ما يكفي لبناء مسكن جديد ، والقيام
بالرحلة إلى مصر التي طالما كان يحلم بها . فاستطاع في أخريات
حياته أن يحقق إحدى رغباته الدفينة ، ورحل إلى مصر في
شتاء عام ١٨٧٢ فجددت شمسها الدفينة قواه ، وأنعشت سماؤها
الصفية ، ونيلها وصحراؤها ، وآثارها ، نفسه وقلبه . وكأنه التمس
الحل للغز الحياة عند أبي الهول . وطاف بأنحاء الأسكندرية
والقاهرة ، ثم استقل « ذهبية » نيلية سارت به جنوباً يشق بها
صعيد مصر ، حتى بلغ الأقصر ، فشهد آثارها ، ثم واصل رحلته
إلى أسوان ، لأنه كان يتحرق شوقاً إلى أن يطأ بقدميه جزيرة فيلة
التي كان يعتقد أنها مستقر أوزيريس . وجاء في إحدى رسائله
« إن الرحلة إلى مصر كانت مليئة بما يسر القواد ، ولقد تنبّهت إلى
ما في هذه البلاد القديمة من عجائب . وسوف أذكر معابدها الضخمة
التي تنتشر فوق مئات الأميال ، والتي تتحدى زماننا الذي نعيش
فيه ، وترغمنا على التقدير والاحترام » . وفي موجز العبارة ، كان
لأمرسن في شتاء مصر الدافئ ، الدواء الناجع لجسمه الضعيف ،
وفي آثارها ، وصفاء سمائها ، تجديد لنشاطه الذهني ، واطمئنانه
الروحي .

هذه كلمة أقدم بها هذا الكاتب الأمريكي الخالد إلى قراء العربية ،
واختتمها بهذه العبارة التي وردت في إحدى مقالاته :

« يؤثر الكاتب في عقول الجماهير بمقدار ما عنده من عمق التفكير ... فالكاتب الذى يستمد موضوعه من أذنه ولا يستمده من قلبه ، ينبغي أن يعلم أنه يخسر بمقدار ما يربح ... ولا تقوم الشهرة الأدبية على الحظ ، فإن أولئك الذين يصدر عن الحكم النهائي على الكتاب ليسوا هؤلاء القراء المتحيزين الصاخبين الذين يضجون للكتاب عند ظهوره ، إنما هي محكمة كأنها من الملائكة ؛ هي جمهور لا يرتشى ، ولا يتوسل إليه ولا يروّع ؛ ذلك الجمهور هو الذى يقرر شهرة الكاتب ، ولا يبقى من الكتب إلا ما يستحق البقاء . فالغلاف المذهب ، والورق الصقيل ، والجلد المتين ، ونسخ الهدايا الفاخرة التى تقدم للكاتب ، وكل أولئك لا يكفل للكتاب الذبوع إلا إلى أمد قصير » .

وليس من شك فى أن « مقالات » أمر من التى تقلنا إلى العربية بعضها من بين تلك الكتب الخالدة ، التى يشير إليها الكاتب والى لا تقوم شهرتها على ما يشور حولها من صخب وضجيج ، ولكن على ما لها من قيمة ذاتية ؟

محمود محمود

محتويات الكتاب

ج	...	...	...	...	...	...	تقديم المترجم
١	...	...	...	...	...	...	مقدمة بقلم بروكس اتكنسن
٢٣	...	...	...	...	...	...	العالم الأمريكي
٥٩	...	...	...	...	...	...	خطاب
٩٣	...	...	...	...	...	...	التاريخ
١٢٧	...	...	...	...	...	...	الاعتماد على النفس
١٦٩	...	...	...	...	...	...	التعويض
٢٠١	...	...	...	...	...	...	الحب
٢٢١	...	...	...	...	...	...	الصداقة
٢٤٧	...	...	...	...	...	...	البطولة
٢٤٧	...	...	...	...	...	...	العقل
٢٩١	...	...	...	...	...	...	الشاعر
٣٢٩	...	...	...	...	...	...	الخبرة
٣٦٩	...	...	...	...	...	...	الشخصية
٣٩٥	...	...	...	...	...	...	الآداب
٤٣١	...	...	...	...	...	...	السياسة

مقدمة

بقلم : بروكس اتكنسن

— ١ —

كان رالف والدو أمرسن أول فيلسوف أمريكي الروح ... فمع أن أمريكا قد نالت استقلالها السياسي قبل مولده باثنتين وعشرين عاماً ، إلا أنها كانت لا تزال تستمد ثقافتها من الخارج ، فكان كوبر يكتب طبقاً لتقاليد سكوت ، وواشنطن إيرفينج يكتب بأسلوب أديسون . وقد عاش أمرسن سني حياته في عصر من عصور التوسع حينما كان الأمريكيان يتقدمون غرباً بأعداد وافرة لم يسبق لها مثيل ، ويطبقون مبدأ الديمقراطية في عزة وحماسة . وصاد الجو في كل مكان استقلال تام في الروح ، وفي الواقع . وأعلن الرئيس منرو هذا الاستقلال للجمهور في مبادئه عام ١٨٢٣ ، كما صرح كلاي بشجاعة « اننا (أي الأمريكيان) نتطلع إلى الخارج أكثر مما ينبغي .. ولكننا أمريكيين حقيقيين صادقين » .

وما حققه رجال الدولة في ميدان السياسة طبقه أمرسن في مجال الثقافة ، لا بطريق العمل ، ولكن بالإرشاد والتوجيه . وقد ذكر في مقدمة كتابه الأول في عام ١٨٣٦ « إن عصرنا رجعي ، يعيش

على الماضى ، فلماذا لا تكون لنا علاقة أصيلة بالعالم ؟ لماذا لا يكون لنا شعر وفلسفة يتميزان بنفاذ البصيرة لا بالتقاليد ، ودين من وحي أنفسنا ؟ ... دعنا نطالب بأن تكون لنا أعمال خاصة وقوانين وعبادة خاصة . وفى خطاب جرى له فى العام التالى عن « العالم الأمريكى » يقول : « لقد أطلنا الاستماع إلى آلهة الفنون الأوربية الظرفية » . ثم نصح أمرسن العلماء المجتمعين فى كمبردج أن يعيشوا ويفكروا كما يعيش ويفكر أحرار الرجال . وفى العام التالى هاجم فى أحاديثه الشعائر والتقاليد الدينية . وما ذكره فى هذه الأحاديث كان منفراً لكثير من الناس فى بوسطن وكمبردج حتى لقد انتفض زهاء الثلاثين عاماً قبل أن تشعر جامعة هارفارد انه رجل ليس من ورائه خطر فترده إليها .

ولم يكن ذلك راجعاً إلى أن له برنامجاً أو أسلوباً خاصاً فى التفكير ، وإنما كان أمرسن فيلسوفاً شاعراً يركن إلى الإلهام أكثر مما يركن إلى العقل ، وكان يدرك دائماً أن محاضراته ومقالاته ينقصها الاتصال ، فيتألم من أجل ذلك . وكان يعجز عن الجدل ، ويتحاشى — ما استطاع ذلك — الكلام فى الموضوعات ذات الأهمية الشائعة ، لأنه كان يعتقد أن مواهبه يجب أن تتجه نحو تنوير العقل عامة . فقد كان رجلاً حراً فى روحه وعقله ، وكان من الناحية الشخصية رجلاً ذا صفات ممتازة ، تأثيره عظيم بالغ ، فأشعل عقول الرجال والنساء فى العالم أجمع . كان رجلاً جازماً فى حزم .

وما دام موضوعه الأساسى هو قدرة الفرد التى لا حـد لها على الإسهام فى كل ما يمتد إليه الكون ، فإن كتاباته ما فتئت جديدة كما كانت حيناً جمعها فى مشقة من الآراء الشتىة ، ومن لمحات البصيرة الزائلة .

ولا مرأى فى أنه كان رجلاً ثائراً ، وإن شق علينا أن ننعتة بهذا الوصف ، لأنه كان ليناً ، ضعيفاً ، ودوداً ، دمث الأخلاق ؛ وقد عاش عيشة هادئة فى كنكورد بمساشوستس كأكثر المواطنين وقاراً . وهو ينحدر من سلالة عريقة من رجال الدين فى « نيو انجلند » . وكان أحد أفراد أسرة تميل بطبعها نحو الكهنوت . فقد ولد فى بوسطن فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو من عام ١٨٠٣ ، وهو ابن راعى الكنيسة الثانية وواحد من أخوة خمسة . ثم مات أبوه بعد ثمانى سنوات . ومع أن أمه قد أصبحت تعول أسرة فى سبيل النمو وفى ظروف مالية يائسة ، إلا أنها كانت سيدة ذات إرادة قوية جداً ، فصممت على تربية أبنائها . وقد أفلحت ، فأتت أربعة منهم تعليمهم الجامعى . وكان كل واحد منهم يعاون من يتلوه وهو على أهبة الدراسة . وكانت حياة شاقة عسيرة ، تركت من غير شك أثرها فى صحة الأطفال ، فمات منهم اثنان وهما لا يزالان فى سن الشباب . ولم تكن صحة رالف قوية فى يوم من الأيام ، فقد ساءت

إلى حد الخطر مرتين ، ولم يخل أخوه الأكبر البتة من الألم والاضطراب الجثامى . ويبدو أن سلالة أسرة أمرسن لم تكن قوية البنية في عهد رالف ، فقد مات له أخ وأخت في سن الطفولة ، وأخ آخر لم ينضج عقله قط . وكان للفاقة التى منيت بها أسرة أمرسن بعد وفاة الوالد أثر سيء بنوع خاص على أجسام عليلة .

التحق أمرسن بكلية « هارفارد » فى عام ١٨١٧ وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ومع أنه كان فى النصف الأعلى من فصله ، إلا أنه لم يُظهر امتيازاً ، وتخرج فى عام ١٨٢١ ، وظل أربع سنوات يعاون أخاه باشتغاله بالتعليم فى مدرسة تكميلية للبنات فى بوسطن . وبعد التعليم فى المدارس فى مناطق أخرى التحق بمدرسة هارفارد الدينية ، غير أن ضعف رثتيه وبصره وما أصابه من روماتزم كاد يحول دون تعليمه الدينى من أول الأمر ، واضطر إلى قضاء شتاء بأ كمله للاستشفاء فى الجنوب . وبعد ما أتم تعليمه فى عام ١٨٢٩ عين راعياً مساعداً للكنيسة الثانية حيث كان أبوه يقوم بالوعظ ، وسرعان ما خلف الراعى ، وبات يحمل تبعة الدائرة الدينية بأ كملها . وعندئذ تزوج من « إلن تكر الكنكوردية » من نيو هامبشير ، ولكنها عاشت بعد الزواج عاما ونصف العام فقط .

ولما خاب أمله فى حياته المهنية ، وأزعجه موت زوجته وأحد إخوته ، وكان هو نفسه معتل الصحة ، فقد أقلع إلى إيطاليا فى

الشتاء . واسترد صحته في هذه الرحلة ، التي كانت حافزاً لعقله ، فقد استمتع بكنوز الفن العظمى في إيطاليا . وزار لاندُر الذي أعجب بكتابته . وفي إنجلترا التقى بكولردج ووردزورث وكارليل الذين كان يهتم بمؤلفاتهم بنوع خاص . وكانت زيارته لكارليل حدثاً له أهميته في حياته ، فقد ألفاه حافزاً على التفكير خفيف الظل في شخصه كما هو في مؤلفاته . وعاد إلى أمريكا معافى بعد عام واستقر به المقام نهائياً في كنكورد حيث كان والد زوج أمه الدكتور ازرا رپلى يعيش في مانس القديمة . وسارع أمرسن إلى شراء بيت وقطعة من الأرض على طريق بوسطن پوست ، وتزوج من ليدان چاكسن من أهالى پليموث واستقر في حياة سعيدة تطورت به إلى مستقبل عظيم . وكان وقتئذ في الثانية والثلاثين من عمره . وانتهى كل ما أصابه من حرمان في طفولته وما لاقى من صراع روحي في حياته المهنية . ولبث سبعة وأربعين عاماً بعد ذلك يزداد عظمة وحكمة ، ويضفي على العالم من فضله .

كانت كنكورد خير البلدان لأمرسن ، لأنها كانت مدينة جميلة ، يفرح أهلها بحب الطبيعة ، هذا الحب الذي يكمن وراء فلسفته . وكانت لها مكانة عالية في قصة قتال أمريكا في سبيل الاستقلال ، فقد حدثت موقعة كنكورد قريباً من مانس القديمة ؛ وأثلج هذا التاريخ المشرق للمدينة صدر أمرسن . وكانت الحياة الاجتماعية في كنكورد كذلك فاتنة ، فقد ضمت في حياته

برنسن إلكت المدرس الملهم ، وناثانيل هورثون الروائي الخجول
المعتزل ، وهنرى ثورو فارس الطبيعة ، ووليم ألرى تشاننج الشاعر
المحدث ، ورجالا أفاضل من أمثال صمويل هور والقاضى ا . ر .
هور وأدمند هوزمر المزارع صاحب العقل الراجح ، وصاحب
القداسة ازرا رپلى ، الراعى المسيحى القوى صاحب الضمير الحى .
ولعب أمرسن دوراً فعالاً فى حياة المدينة ، فقد انتخب فى إحدى
الوظائف العامة عند أول إقامته فى كنكورد ، وكان عضواً فى جمعية
إطفاء الحريق ، وكانت الدلاء الجلدية والكيس الصوفى دائماً مدلاة
من السلم عند المدخل الجانبي ، وبلاشتراك مع جيرانه كان يكافح
حرائق الغابات بأغصان الصنوبر . وفى أول عهده بالمدينة ألقى خطبة
من أكثر الخطب التاريخية أهمية فى عيد انقضاء مائتى عام على
استعمار كنكورد . وكان بين الحين والحين يعتلى منبر الخطابة فى
المدينة . كما كانت معلمات مدارس الأحد يلتقين بمسز أمرسن فى
البهو الأمامى . وباعتباره مديراً لنادى كنكورد الأدبى عاون على
إيجاد غرفة عامة للمطالعة حيث كانت الصحف والمجلات تحفظ فى
أكداس مرتبة . وبالمحافظة على نشاط النادى الأدبى ، عمل هو
وثرورو على تنبيه الحياة العقلية فى كنكورد .

وانتعشت حياة امرسن كلها هناك ، فزرع حديقة واشتغل بها
مستهيماً بالوقت الذى كان ينبغى له أن ينفقه فى مكتبه . وزرع حديقة
للفاكهة أفرط فى اعترازه بها . وأخيراً اشترى قطعة أخرى من

الأرض واشتغل بمزرعة صغيرة استأجر فيها العمال . وأغرم بغابات والدن فاشترى بها رقعة من الأرض لمجرد المتعة . وقد أقام ثورو منسكه المشهور في غابات امرسن . وكانت كنكورد كذلك قرية من بوسطن التي كانت تسيطر على الحياة العقلية في أمريكا في تلك الأيام . وكانت عربة الانتقال تقف بجوار بيت امرسن وتبلغ بوسطن في خلال ساعتين أو ثلاث ؛ وبعد ذلك بقليل قرب خط فتشبرج الحديدي بوسطن من كنكورد . فكانت كنكورد من جميع نواحيها مجتمعاً مثالياً لرجل في مثل مزاج امرسن . أحبا في شبابه عندما زار الدكتور رپلي في بيته القديم ، ولبث على حبه لها ، وبمرور الزمن أحبته كنكورد باعتباره شيخ المدينة الوقور .

وفي أول إقامته في بيته الخاص مع زوجته الشابة اعتلى المنابر هنا وهناك وألقى الخطب بين الحين والحين . بيد أنه كان لفترة ما يتدبر كتاباً فلسفياً شعرياً عن تأثير الطبيعة الأساسية في حياة البشر ، وأسماه في بساطة « الطبيعة » ، وأتمه ونشره في عام ١٨٣٦ . نشر منه خمسمائة نسخة غفلا من اسم المؤلف . ومع أن كارليل قد هلل لهذا الكتاب فإنه لم يقابل بحماسة ولم يُعد طبعه حتى عام ١٨٤٧ . غير أن امرسن كان قد بدأ عمله الذي شغل به حياته . وكان خطابه عن « العالم الأمريكي » أمام جمعية هارفارد في بيتا كپا في عام ١٨٣٧ حدثاً مثيراً في تاريخ الثقافة الأمريكية ، وقد وصفه أولثر وندل هولمز بأنه « إعلان استقلالنا العقلي » . وأثار هذا

الخطاب الشباب خاصة ، وأقبل الناس بحماسة على شراء النسخ المطبوعة منه بأعداد وافرة بمجرد ظهوره في المكتبات . وفي العام التالي ألقى أمرسن خطاباً على الطلبة المتخرجين في مدرسة اللاهوت ، وعارض فيه القيمة الحقيقية لتاريخ المسيحية الأولى وقدح في الأسلوب الرسمي المتكلف للخطب المنبرية . وقابل رجال الدين هذا النقد للكهنوت والتفكير الديني بالاستنكار والسخط ، ووصموه بالضلال ، ووسموا أمرسن بالكفران ، ولم يلق بعد ذلك ترحيباً فوق المنابر أو على منصات المحاضرات التي كانت من قبل تكرم وفادته . ومع أنه لم يشترك في الجدل الذي ثار حوله عدة أشهر ، إلا أنه ظن لفترة ما أنه ربما اضطر إلى البحث عن طريقة جديدة للعيش لكي يعول نفسه وأسرته .

بيد أنه سرعان ما اكتشف أن الناس يستمعون بالترحاب يوم الأربعاء إلى الأمور التي تبدو لهم كفراً يوم الأحد . فقفى بقية حياته يحاضر بنوع خاص في موضوعات روحية وفلسفية في جميع أرجاء البلاد . وكان في فصل الصيف من كل عام يجمع شتات أفكاره في صيغة خطب . وعند ما كان يستيقظ في الفجر وينسل من غرفة النوم تسأله زوجته « هل أنت مريض ؟ » فيجيبها « كلا . إنما أنا أتصيد فكرة » . وكان في فصل الشتاء من كل عام يقرأ محاضراته حينما دعى — متقللاً بالعربات ومركباً بالجليد ، والزوارق والبواخر والقطارات . مخترقاً نيو انجلند وولايات الاطلنطي والغرب الأوسط ،

ويقيم في الفنادق البدائية بجميع أنواعها ، ويعبر المسيحي فوق الجليد ، ويستمتع أشد الاستمتاع بتقدم الحياة في البلاد . ومع أنه كان رجلاً ذا جسم نحيل وكتفين محدودين ، إلا أنه كان خطيباً شعبياً مصقلاً ، يجذب إليه الناس بشخصيته الرفيعة ، وبصوته ذى الرنين الذى يذهل الأسماع ، فاعترف له الجميع بأنه أستاذ فى فن الخطابة .

وكانت حياة المحاضرة شاقة . إذ أن أمر من كان رجلاً فقيراً من رجال الأعمال ، يخطب عادة بأى أجر يقدم إليه ، فلم يكسب قط مالا كثيراً . إلا أنه كان ذا مزاج متفائل بطبعه ، يعتقد بسهولة فى أوجه الخير من كل شيء ، وقد أدخل السرور على نفسه طوال حياته إيمانه العميق ، إذ أن واجب العالم فى اعتقاده هو « أن يدخل البهجة فى النفوس ، وأن يسمو بالناس ، ويرشدهم ، ويبيّن لهم الرشد من الغي » . وفى غضون أسفاره فى عرض البلاد « مُفرغاً ما بجعبته من حكمة شعبية » — على حد تعبيره عن محاضراته — كان يحس أنه يُغنى حياة الناس ويقوم بالعمل الذى يلائم نبوغه . وكان يلقي محاضراته كتجربة على أوساط مختلفة من المستمعين ، ثم يعيد كتابتها كمقالات وينشرها فى صورة كتاب . وتكاد كتاباته كلها — ما خلا الشعر — أن تكون حديثاً فى مبدأ الأمر ملقى من فوق منصة الخطابة .

ولم يفقه كل الناس ما كان يتحدث عنه ، أو يواقفه عليه . ويبدو أن الشباب كان أسلس له قياداً من الشيوخ . وقد قال أحد

وكلاء النيابة في بوسطن إن محاضرات أمرسن « لا معنى لها البتة لدى » ، ولكن ابنتي ، وعمر إحداها خمس عشرة سنة ، والأخرى سبع عشرة سنة ، يفقهانهما تماماً . وقد سألت مسز هورمره خادمة كانت تواظب دائماً على الاستماع إلى محاضرات أمرسن في كنسكورد . « هل تفهمين مستر أمرسن ؟ » فأجابت الخادمة بقولها : « لا أفهم كلمة واحدة ، ولكنني أحب أن أذهب وأشاهده واقفاً هناك وهو يبدو كأنه يحسب كل فرد إنساناً طيباً مثله » . ويفتخر أحد الفلاحين في بوسطن بأنه استمع إلى كل محاضرة أمرسن في النادي الأدبي « بل وقد فهمها » . وقد أدركها بوضوح أحد المواطنين البارزين في كنسكورد إلى حد أنه اعترض على ما تضمنته من آراء نائرة ، فاستوقف أمرسن في الطريق ذات يوم وقال له : « لست أعرف غير أشخاص ثلاثة فقط تمت آراءهم هذه الجماعة ، وأولئك هم تيودور پاركر ووندل قلبس وأنت يا سيدي — إن جاز لي أن أخلص القول » .

وبعد أكثر من عشر سنوات قضاها أمرسن في البحث المضي والمحاضرة ، لبي بسرور بالغ في عام ١٨٤٧ دعوة لإلقاء بعض محاضراته في إنجلترا ، وقضى هناك عاماً . وفي أسفاره في بطون إنجلترا أتيحت له فرصة الاتصال الوثيق بكثير من طبقات الشعب الإنجليزي . وباعتباره من رجال أمريكا المشهورين دعتة كثير من البيوت الإنجليزية دعوات خاصة واستقبلته استقبالا حاراً . ووجد

صداقاته القديمة وبخاصة مع كارليل الذي تغضن قليلا من فعل
السنين . وزار أمرسن كذلك فرنسا في خلال فترة من القلائل
السياسية العظيمة . وأهم ما أسفر عنه عام من العمل قضاء أمرسن
في الخارج كتاب « الصفات الانجليزية » وهو تاريخ وتحليل نفسى
في آن واحد للخلق الانجليزى .

ومع أنه كان رجلا محبباً ، إلا أنه كان خجولاً ، متواضعاً ،
تنقصه الروح الحية ، وكان يحس أن به فتوراً لا يمكنه من الاختلاط
الاجتماعى . وفي خلال الأيام التى قضاها فى التعليم بالمدارس كان
اضطرابه أليماً ، وقد استغل الطلبة هذا الاضطراب للتفكه به . ولم
يسيطر على الجماعات بقوة الشخصية ، وكاتب أقوى أفكاره تطراً
له فى خلوته . غير أن الفترة التى عاش فيها كانت فترة اختمار اجتماعى
غير عادى ، فكان المصلحون يجذبون العالم من جذوره ،
ويصوغون من الأهواء الفردية نظاماً عامة ، تلك كانت فترة الجمعيات
الفلسفية — بجمعية بروك فارم وفروت لاندز . وباعتبار أمرسن
الفيلسوف الأول لما فوق العقل فى عهده ، كان يستشير
ويتوسل إليه كل من يبتدع نظاماً جديداً ، من المتنبيين الصادقين
إلى الشواذ وضعاف العقول . كانوا جميعاً يقصدون بيته ، ويجلسون
إلى مائدته ، فيستقبلهم ويكرم وفادتهم . غير أن أمرسن لم يكن
يستسيخ فكرة الاجتماع ، فانتزع نفسه من بينهم فى ثبات وحزم .
وكانوا يبدون له كأنهم أصحاب آراء متحيزة .

وكان من الناحية السياسية محجماً . وقد اعتقد من أول الأمر أن العبيد يجب أن يتحرروا ، غير أنه تحاشى ما امتطاع الجمعيات الثورية التي كانت تعمل على إلغاء الرق . وحينما استُحث لى يسهم فى العمل المباشر قال : « إن روحى حبيسة سجن سحيق ، لا يزوره أحد إذا لم أفعل أنا ذلك » . ولكن لما علا الضجيج حول الرقيق بدأ أمرسن يأخذ فيه بنصيب . وحينما صدر قانون العبيد الهاربين ، واعتقد أمرسن أن بطله دانييل وبستر قد خان عهد الجمهور ، ظهر فى المجتمعات العامة فى كينكورد وبوسطن ونيويورك وتكلم بحماسة غريبة على رجل فى مثل رزائته . وبالرغم من أن غرائزه كلها كانت تعارض فى الإسهام فى العمل السياسى ، وبالرغم من انعدام ثقته فى معرفته بالشئون السياسية ، فقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية إلغاء الرق بعد صدور قانون العبيد الهاربين . وذات مرة أبدى لأحد أطفاله ملاحظة ، وكان على هذا الطفل أن يكتب موضوعاً مدرسياً عن بناء المنزل ، فقال له أمرسن : لا ينبغي أن يبنى منزل دون أن يكون فيه مكان لإخفاء عبد هارب . واستضاف چون براون فى بيته ، وأسهم فى قضية الإلغاء بأكثر مما تستطيع قدرته المالية ، وتكلم مدافعاً عن چون براون بعد هاربرز فرى . وكان فى السابعة والخمسين من عمره عندما اشتعلت الحرب الأهلية ولم يأخذ فى القتال بنصيب .

وفى عام ١٨٦٥ دعى أمرسن لإلقاء خطاب فى بيتا كيا فى

هارقارد مرة أخرى . وكانت هارقارد في هذه المرة قد نسيت فضيحة خطبة البكالاريا في عام ١٨٣٨ . وبعد ذلك بقليل انتخب عضواً في مجلس المراقبين . وفي عامي ١٨٧٠ و ١٨٧١ حاضر في الفلسفة في هارقارد ، غير ان السن تقدمت به ، وبدأت تظهر عليه علامات جهد عمر قضاءه في نشاط عقلي متواصل ، كما بدأت تخونه الذاكرة ، فقد كان يقترب من نهاية مستقبل عظيم . وفي يولييه من عام ١٨٧٢ أتلفت النيران جزءاً من بيته ، فهرع هو وزوجته للنجاة بحياتهما ولم يتسع لهما الوقت لارتداء ملابسهما ، وأجهدا قوتيهما محاولين أن ينقذا بعض ما يملكان . وكانت صدمة هذه الكارثة أشد مما يستطيع أمرسن احتماله ، فقد كادت أن تودي به ، وانتقل مرة أخرى إلى مانس القديمة ، حيث قضى طفولته السعيدة ، واعد له مكتب في القرية .

ولكن سرعان ما اتضح انه لا يستطيع العمل . وأخيراً تدخل في الأمر بعض أصدقائه ، وأرسلوه إلى مصر مع ابنته ألن ، وفي أثناء غيبته أعادوا بناء بيته وجددوه . وعندما عاد في شهر مارس التالى دقت نواقيس المدينة وصحبه حشد كبير من الأطفال والجيران والأصدقاء من محطة السكة الحديدية وتحت قوس من أقواس النصر إلى بيته الجديد . واستقر شاكرأ وأخذ يعد كتاب مقالات كان قد وعد به أحد الناشرين في لندن . ولكنه لم يعد قادراً على السير في عمل متصل . وفي نهاية الأمر اضطر صديقه جيمس إليت كابوت

إلى أن يضمّن الكتاب كثيراً من المحاضرات والمقالات وإلى تنسيق الذكريات تنسيقاً حسناً .

وعاش أمرسن حياة هادئة قانعة مع أسرته وأصدقائه حتى أبريل من عام ١٨٨٢ حينما أصيب بالتهاب رئوي بسبب سيره في المطردون قبة أو معطف . وقضى نحبه في مساء ٢٧ أبريل . وبعد الساعة التاسعة من ذلك المساء دق ناقوس كنيسة يوتاريان تسعا وسبعين دقة معددة سنى حياته ، ومعلنة النبأ المفجع في كل أنحاء القرية . وعرفت كنكورد — التي عاش فيها أمرسن مواطناً معظم حياته — أن أعظم أبنائها قد انتهى . وكانت وفاته نبأ قومياً فديح كتاب المقالات الصحفية والنعاة أعمدة كثيرة في الصحف فيها معلومات وفيها تقدير نقدي . وحضر إلى الجنازة في قطار خاص من بوسطن كثير من الأصدقاء الممتازين . وحضر كذلك الرئيس اليوت من هارفارد وأولفر وندل هولمز وجورج وليم كيرتس وتشارلس اليوت نورتن . وقرأ من الإنجيل في صلاة الجنازة الدكتور و . ه . فرنس من رجال الدين في فيلادلفيا وصاحب القداسة جيمس فريمان كلارك من بوسطن .

غير أن كنكورد التي أحبت أمرسن باعتباره أعظم مواطنيها تأثرت تأثيراً بالغاً وساد الجنازة جو محلي . وتكلمت بالسواد المساكن والمخازن والمنشآت العامة في كل مكان . وبعد الظهر بعد الانتهاء من صلاة الجنازة الخاصة ، سار القرويون وراء النعش من البيت

الكبير في طريق بوسطن پوست إلى الكنيسة القديمة . وتكدست
حول المذبح أغصان من شجر الصنوبر التي كان يقدها أمرسن .
وعزفت على القيثارة الأوسط في ذكره بأعواد النرجس الصفراء
لويزام . الكت . أما القاضي ا . ر . هور الذي لم يكن من أهل
القرية فحسب ، بل كان كذلك جاراً حمياً وعضواً في نادي السبت
المشهور ، فقد تكلم بالنيابة عن أهل بلده وعبر عن محبتهم الخاصة له .
وأما برنسن ألكت المعلم الذي ألهم أمرسن وأزعجه عدة سنوات ،
فقد قرأ بصوت جهورى أنشودة وضعت لهذه المناسبة .

وبعد ما انتهت الصلوات انسل خلف النعش ، الذي استقر فيه
هادئاً في النهاية ذلك الرجل النحيل صاحب الملامح المديية ، انسل
أولئك الذين أفلحوا في اقتحام الكنيسة وأولئك الذين تجمعوا
محزونين عند الأبواب في الخارج . وقراءة المساء في يوم من أيام
الآحاد الدفيئة الصافية من شهر أبريل ، تحرك موكب الجنازة إلى
مقبرة سلسيبي هولو حيث دفن ثورو وهوثورن ، ثم إلى أعلى الجبل
بين صفوف مكشوفة من الأوساط الاجتماعية بكنكورد . وورى
أمرسن التراب تحت شجرة من أشجار الصنوبر إلى جوار قبر أمه
وقبر ابنه والدو .

كان أمرسن في فلسفته يتخطى العقل ، ويعتقد في « روح عليا »
— وهي تلك الروح المطلقة التي يكون كل شيء حتى جزءاً منها .

وحق في أيام أمرسن كان هذا التعبير « فوق العقل » يعتبر من دواعي الارتباك الذهني ، وما زال المعنى الشائع للكلمة « غامضاً ، مبهماً ، خيالياً » . ولم يستطع العلماء الذين ألفوا المعرفة الدقيقة أن يفقهوا معنى لمدرسة أمرسن في الفكر . ولم يكن ذلك عجيباً ، فإن « ما فوق العقل » مذهب لا نظام له ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الفكر . قال أمرسن مرة : « إن ما يسميه العامة بيننا فوق العقل إن هو إلا المذهب المثالي » . إن الرجل المادى يستمد منطقته من الحقائق الواقعة ، ومن تاريخ الإنسان وحاجاته الحيوانية ، وعلى خلاف ذلك الرجل المثالي الذى يعتقد في « قوة الفكر والإرادة » ، وفي الإلهام والمعجزة ، وفي الثقافة الفردية » . فالمثالية تكشف عن الإيمان بالله بقوة تنفي كل ما يعارض هذا الإيمان .

وفي بلد ناهض ، بدأ من عهد قريب فقط يستمتع باستقلاله ويتوسع منهوما في كل ناحية من النواحي ، كان هذا الأسلوب من أساليب الفكر طبيعياً ومرضياً . فهو يعتقد إن أى شئ يمكن إنجازه ، كما إن أساليب التفكير وطرائق التعليل تبدو خائفة لقوم ذوى مزاج مبتهج يتطلعون إلى كل ثمار الأرض فيجدونها طيبة . كان يسيراً عليهم أن يؤثروا البدهاة على التجربة ؛ فيبدو لهم أن الحق الأسمى لا ينحصر فيما تم عمله وإنما ينحصر فيما يمكن أدائه . فالحياة تدب في الرجل الذى يؤمن بما فوق العقل من الزهور والسحب والطيور والشمس ، ومن برودة الطقس ودفئه ، وجمال المساء ، ومن

المزارع ومحلات التجارة والسكك الحديدية حيث تنبض الحياة وتقع الحوادث الطيبة .

وبالرغم من أن فلسفة أمرسن لم تكن نظاماً شاملاً ، فقد سارت على شبه خطة في الطريقة التي عالجها بها . كان موقفه من الحياة يقوم على حبه الطبيعة وقد ذكر ذلك في أول كتبه « الطبيعة » ، وهو كتاب صغير نشره دون ذكر اسم مؤلفه . وقد عاب عليه نقاد الكتب أنه تعبير مرح عن وحدة الكون ، أسلوبه فاتن غير أنه تافه الدلالة . ومع ذلك فإن هذا الكتاب يمثل سنوات عدة من التفكير المقصود حينما كان أمرسن يحاول أن يصوغ آراءه على نسق معين . وقد بدأ في المقدمة بتعريف المصطلحات . فهو يقول : « الطبيعة في المعنى العام تشير إلى الجوهر الذي لا يغيره الإنسان . هي الفضاء والهواء والنهر وأوراق الشجر . والفن يطلق على امتزاج إرادة الإنسان بهذه الأشياء ، فمنه البيت والقناة والتمثال والصورة » ومن دواعي السرور عند أمرسن أن يكون الإنسان جزءاً من الطبيعة وأن تكون الطبيعة موطنه .

وبعد ذلك بخمس سنوات نشر أمرسن كتابه الأول من « المقالات » وهو يتألف من المحاضرات التي ألقاها في بوسطن خاصة . وقد حوى هذا الكتاب الجديد مقالا عن « الروح العليا » ويمكن اعتبار هذا المقال حجر الزاوية في عقيدة الرجل .

وكانت عقيدة منشئة ؛ فقد بدت الحياة طيبة في أساسها ،

وأمكن الوثوق في الطبيعة والإنسان ، وباتت الحياة شيئاً لا نتعلمه ولكن نحياه . وأصبح ذلك الوقت هو الساعة الملائمة لبداية جديدة . كانت هذه العقيدة مذهباً يقبل الجديد ، ويؤمن بأن النظرية الناقصة التي تحتوي على لمحات من الحق خير من النظم المهضومة التي أدركها الفناء .

كانت عقيدة أرسن قوة محرّكة ، ومن ثمّ بدا لشباب عصره كأنه المحرر الثقافي الأعظم . كان دائماً يؤيد الكشف بالخيال ، فهو يقول في مقاله « العالم الأمريكي » أن المنفعة الوحيدة للكتب هي الإلهام . « إنما ينبغي للمرء أن يكون منشئاً لكي يحسن القراءة » . وبدا له أن اشتغال العالم بعلم الكتاب يودى به إلى الهلاك . واستحث العالم لكي يصبح من رجال العمل فيتعلم من الحياة رأساً : « الحياة قاموسنا . وإنك لتحسن اتفاق عمرك لو عملت في الريف ، وفي المدينة ، وفي تبصر الحرف والصناعات ، وفي الاتصال الخالص بكثير من الرجال والنساء ، وفي العلم ، وفي الفن ؛ وذلك لكي تحذق في كل الحقائق لغة توضح بها مدركاتك وتصوغها فيها » . وإذا كان مقاله عن « الروح العليا » هو حجر الزاوية من فلسفته ، فإن مقاله عن « الاعتماد على النفس » هو أقوى إعلان عن معناها . وكثير من مقالاته غير قاطع ، وكثير منها يفتقر إلى التنسيق . ولم يستطع في كل موضوع أن يستجمع شتيت تأملاته . غير أنه في مقاله « الاعتماد على النفس » يحض قراءه في شجاعة على

أن يعملوا وفقاً لخير ما لديهم من دوافع وألا يتهاونوا في الواجب .
فهو يقول : « من العبقرية أن تعتقد في رأيك الخاص ، وأن تعتقد
أن ما تراه حقاً في نفسك حق للناس جميعاً » . ثم يقول إنه من
الطبعي للإنسان أن يكون في سلوكه شيء من عدم الاكتراث
وشيء من الانفة ؛ ويقول لا رياء في العادات ؛ ولا ضعف في حب
البشر ؛ ولا عملاً طيباً نفاقاً لضمائر الناس ؛ ولا انقياداً أعمى ، ولا
تشبث بثبات الرأي خوفاً وفزعا . الجماعة نحض على الحذر ؛
والعادات الاجتماعية تحد من حرية العمل ، والاتباع مريح . ولكن
أمرسن يرى « ألا شيء في النهاية مقدسا اللهم إلا نزاهة عقلك » .
وبالرغم من أنه كان رجلاً لين العريكة في شخصه ، إلا أنه يدعو في
هذه الرسالة بجرارة إلى الاستقلال ، فيقول : « ليعلم الإنسان إذن
قيمه ، ويجعل الأشياء تحت قدميه . فلا يسترق النظر أو يسرق ،
أو يسير متخفياً كأنه يطلب الإحسان ، أو كأنه ابن زنا ، أو
مدسوساً على الدنيا التي وجدت له » . لا تندم ، ولا تقلد . وينتهي
بقوله « لا شيء يجلب لك الطمأنينة غير نفسك . ولا شيء يجلب
لك الطمأنينة سوى انتصار المبادئ » . وبعد ذلك بعدة أعوام نفي
طالب روسي إلى سيرييا لحيازته نسخة من رسالة أمرسن « الاعتماد
على النفس » .

وقد انتقد بعض الناس أمرسن لصراحتة ، فقالوا إنه قبض على
زمام الناس « من خير مقابضهم » واعتقد بسهولة زائدة في خيارهم .

العالم الأمريكى

(هذا هو خطاب « فى بيتا كيا » الذى ألقاه أرمسن
فى هارفارد عام ١٨٣٧ ، وقد قوبل بحماسة شديدة)

The American Scholar
(85)

العالم الأمريكى

سيدى الرئيس . سادى :

أحييكم فى بداية عامنا الأدبى مرة أخرى . إن عيدنا السنوى عيد أمل وربما لا يكون عيد عمل كاف . إننا لا نجتمع لاستعراض حذقنا لألعاب القوة وإثبات مهارتنا ، أو لرواية التاريخ والمآسى والأناشيد كما كان قدماء الإغريق يفعلون ، أو لمجالس الحب والشعر كما كان يفعل التروبادور ؛ ولم نجتمع لدراسة تقدم العلوم مثل معاصرنا فى العواصم البريطانية والأوربية . لقد كانت عطلتنا حتى اليوم مجرد علامة ودية على بقاء حب الأدب فى شعب أكثر انشغالا من أن يعطى الأدب أكثر من ذلك . ومن ثم فإن للعطلة قيمتها كعلامة على ميل لا يمكن القضاء عليه . وربما حان الوقت لوجوب تغيير هذا الميل ولسوف يتغير . ربما حان الوقت لكى يتطلع العقل المتبدل فى هذه القارة من تحت غطاءه الحديدى ويحقق أمل العالم المنتظر بشىء أحسن من ممارسة المهارة الآلية . إن يوم اعتمادنا على غيرنا ، وتعلمنا الطويل على علم بلاد أخرى ، يقترب من نهايته . إن الملايين من حولنا التى تندفع نحو الحياة لا تستطيع دائماً أن تعيش على البقايا الذابلة من المحصول الأجنبى . فهناك أحداث وأعمال تنشأ وينبغى أن تتغنى بها . وربما أنشدت بنفسها . من ذا الذى

يستطيع أن يشك في أن الشعر سوف ينتعش وتكون له الصدارة في عصر جديد ، كالنجم في مجموعة (هارپ) الذي يشتعل الآن فوق سمت الرأس ، والذي يصرح الفلكيون بأنه سوف يصبح النجم القطبي ذات يوم ويبقى كذلك ألف عام ؟

بهذا الأمل أقبلُ الموضوع الذي يبدو أن العادة بل وطبيعة اجتماعنا هذا قد كرسَتْ له هذا اليوم — وأعني بهذا الموضوع « العالم الأمريكي » . إننا نؤمن هذا المكان عاماً بعد عام لكي نقرأ فصلاً جديداً من تاريخ حياته . ولنبحث عن الضوء الذي ألقته الحوادث والأيام الجديدة على شخصيته وآماله .

من الأساطير القديمة التي تنقلُ إلينا من عهد قديم غير معروف حكمةً غير منظورة أن الآلهة في بداية الأمر قد قسمت الإنسان إلى أناسي كي يكون أكثر عوناً لنفسه ، كما انقسمت اليد إلى أصابع لكي تحسن أداء الغرض منها .

وهذه الأسطورة القديمة تشتمل على مبدأ دائم الجدة والسمو ؛ وهو أن هناك « إنساناً واحداً » يوجد في كل فرد على حدة إما وجوداً جزئياً أو في إحدى كفاياته العقلية ؛ ولا بد لك أن تأخذ الجماعة كلها لكي تجد هذا الإنسان كاملاً . ليس « الإنسان » مزارعاً أو أستاذاً أو مهندساً ، إنما هو كل ذلك . الإنسان قسيس وعالم ورجل دولة ومنتج وجندي . وفي حالة الاجتماع — أو حالة الانقسام — تتوزع هذه الوظائف على الأفراد ، ويهدف كل منهم

إلى أداء نصيبه من العمل المشترك ، ويؤدي كل من الآخرين نصيبه كذلك . وترى الأسطورة إلى أن الفرد لكي يملك نفسه يجب أحياناً أن يعود من عمله الخاص لكي يحتضن كل الأعمال الأخرى . ولكن — لسوء الحظ — هذه الوحدة الأصلية — هذا ينبوع من القوة — قد توزعت بين الجماهير ، وانقسمت أجزاء صغيرة وانتشرت ، حتى باتت تتساقط قطرات لا يمكن جمعها . إن التجمع حالة يكابد فيها الأفراد البتر من الجذع ، ويخطرون في مشيتهم مخلوقات شائهة — أصبع جيدة ، أو رقبة ، أو معدة ، أو مرفق ، ولكنه ليس البتة إنساناً .

رهكذا يتحول الإنسان إلى شيء ، أو إلى عدة أشياء . فالزارع — وهو الإنسان الذي يخرج إلى الحقول ليجمع الطعام — قلما يتهج لأية فكرة عن كرامة مهنته . إنه يرى مكياله وعربته ، ولا يرى غير ذلك ، ثم يرتد فلاحاً ، بدلاً من أن يرتد إنساناً فوق الحقل . والتاجر قلما يقدر عمله قدرأ رفيعاً ، وإنما يخضع لسياق مهنته ، كما تخضع روحه للمال . ويصبح القسيس صورة ، ووكيل النيابة كتاباً من كتب القانون ، والميكانيكي آلة ، والبحار جبلاً من جبال السفينة .

وفي هذا التقسيم للوظائف يكون العالم هو العقل للبعوث ، وهو في وضعه الصحيح « الإنسان المفكر » ، أما في حالة التدهور حينما يكون فريسة للمجتمع ، فإنه يميل إلى أن يتحول إلى مجرد

مفكر ، بل إلى أسوأ من ذلك ، فقد يتحول إلى بيغاء يردد تفكير غيره من الناس .

وفي وصفه « بالإنسان المفكر » تنحصر نظرية وظيفته . الطبيعة تحركه بكل صورها الهادئة والصاخبة ، والماضى يعلمه ؛ والمستقبل يدعوه . أفليس كل إنسان حقاً طالب علم ، وهلا توجد الأشياء لفائدة طالب العلم ؟ وأخيراً ، أليس العالم الحق هو وحده السيد الحق ؟ غير ان كاهناً قديماً قد قال « لكل شيء يدان ، وحذار من اليد الخاطئة » . وفي الحياة كثيراً ما يخطئ العالم مع البشر ويفقد ميزته . دعنا نشاهده في مدرسته ، وتدبر أمره بالإشارة إلى المؤثرات الرئيسية التي تؤثر فيه .

١ — ان أول هذه المؤثرات في العقل من حيث الزمن والأهمية هو الطبيعة . الشمس تشرق كل يوم ، ثم بعد غروب الشمس يقبل الليل ونجومه . والرياح لا ينقطع هبوبها ، والعشب لا يتوقف نموه . وحديث الرجال والنساء يستمر كل يوم — يشهدون ويُشاهدون . والعالم من بين الناس جميعاً هو الذى يشغله هذا المنظر ، ولا بد له من تقدير قيمته في عقله . ماذا تكون الطبيعة بالنسبة إليه ؟ ليس لنسيج الله هذا المتصل المبهم أول ولا آخر ، وإنما هو قوة دائرية تعود إلى نفسها دائماً . وهو في هذا يشبه روح العالم نفسه ، التي لا يجد لها أولاً أو آخراً — فهي شاملة جداً ، ليس لها حدود . تسارع الطبيعة إلى أن تعرض نفسها على العقل كلما

أشرق سناؤها ، على نظام في إثر نظام ، ينطلق كالأشعة إلى أعلى وإلى أسفل ، ليس له مركز أو محيط — كتلة واحدة أو جزءاً جزءاً . ويبدأ التقسيم ، فيرى العقل الصغير كل شيء مفرداً قائماً بذاته . ثم يعرف بعد فترة كيف يصل بين شيئين ويرى فيهما طبيعة واحدة . ثم يصل بين ثلاثة أشياء ، فثلاثة آلاف . وهكذا تتحكم فيه غريزة التوحيد فيواصل ربط الأشياء بعضها ببعض ، ويقلل مما بينها من فروق ، ويكشف عن الجذور تمتد تحت الأرض فتربط بين الأشياء المتنافرة المتباعدة وتزهر من ساق واحدة . وسرعان ما يعلم انه كان هناك منذ فجر التاريخ استجاء وتصنيف دائم للحقائق . ولكن التصنيف ليس سوى الإدراك بأن هذه الأشياء ليست مشوشة وليس بعضها غريباً عن بعض ، وإنما لها قانون ، هو كذلك قانون العقل البشرى . يكتشف الفلكي أن الهندسة ، وهى تجريد مطلق للعقل البشرى ، هى قياس حركة الكواكب . ويكتشف الكيميائى النسب والقواعد المعقولة فى المادة كلها ، وليس العلم سوى كشف التشابه والتطابق فى أكثر الأجزاء تباعداً . وتقف الروح الطموحة أمام كل حقيقة منفصلة ، فتخضع كل المركبات الغريبة وجميع القوى الجديدة ، واحدة بعد الأخرى ، إلى أصنافها وإلى قانونها ، وتستمر كذلك إلى الأبد تبحث بالبصيرة الحية فى آخر خيط من خيوط النظام العام ، فى أطراف الطبيعة .

وهكذا يلح هذا الصبي الدارس وهو تحت قبة النهار المستديرة أنه هو والطبيعة قد نشأ من جذر واحد ، أحدهما ورقة والآخر زهرة ، الصلة والتعاطف بينهما تهتران في كل عرق . وماذا عسى أن يكون الجذر ؟ أليس هو روح روحه ؟ يالها من فكرة جريئة ، وحلم شارد . ومع ذلك فإنه عندما يكشف هذا الضوء الروحاني قانون طبائع أرضية أخرى — أى بعد ما يتعلم أن يعبد الروح وأن يرى ان الفلسفة الطبيعية الكائنة الآن ليست سوى تحسس الروح الأولى بيدها الضخمة ، حينئذ يتطلع أمامه إلى معرفة دائمة التوسع كأنه يتطلع إلى خالق آت . سوف يرى أن الطبيعة تجابه الروح ، وتجيها جزءاً بجزء ، أحدهما الخاتم والآخر المختوم . جمالها جمال عقله . عندئذ تصبح الطبيعة لديه مقدار ما يحصله ، وبمقدار ما يجهل من الطبيعة يكون القدر من عقله الذي لا يملكه ، وفي عبارة موجزة يصبح المبدأ القديم « اعرف نفسك » والمبدأ الحديث « ادرس الطبيعة » في النهاية مبدأ واحداً .

٢ — والمؤثر الكبير الثاني في روح العالم هو عقل الماضي — في أية صورة ينطبع هذا العقل ، سواء في الأدب ، أو الفن ، أو النظم . والكتب خير مثال لأثر الماضي ، وربما أدركنا الحقيقة — وعرفنا مقدار هذا الأثر في سهولة أكثر — إذا تدبرنا قيمة الكتب وحدها .

نظرية الكتب نظرية نبيلة . كان العالم في العصر الأول يتلقى في

نفسه العالم الذى حوله ، ويتدبره ، ثم يضيف عليه ترتيباً جديداً من عقله ، ويعبر عنه ثانية . كان العالم يدخل فى نفسه حياةً ويخرج منه صدقاً ، كان العالم يأتيه حركات قصيرة المدى ويخرج منه أفكاراً خالدة ، يأتيه عملاً ويصدر عنه شعراً . كان حقيقة ميتة ثم أصبح فكراً خاطفاً يستطيع أن يظهر ويستطيع أن يختفى . وهو مرة يثبت وأخرى يتبدد وثالثة يوحى . ويتناسب عمق العقل الذى تصدر عنه الأفكار تناسباً دقيقاً والارتفاع الذى تخلق فيه هذه الأفكار وطول النغم الذى ترنمه .

ولعلنى أستطيع أن أقول إن الفكرة تتوقف على مدى ما تصل إليه عملية تحويل الحياة إلى صدق . وعلى قدر كمال عملية التقطير يكون نقاء الإنتاج وصلابته . غير انك لن تجد أحداً كاملاً كل الكمال . وكما أن مضخة الهواء لا تستطيع البتة أن تخلق فراغاً كاملاً فكذلك لا يستطيع الفنان حينما يكتب أن يستبعد البتة التقاليد المرعية أو اللون المحلى أو ما هو زائل ، وهو أيضاً لا يستطيع أن يكتب كتاباً من الفكر الخالص ، يكون له — من كل نواحيه — من الأثر على الأجيال البعيدة ما له على المعاصرين أو حتى على الجيل التالى . ولقد تبين انه لا بد لكل عصر من أن يكتب كتبه : أو قل ان كل جيل يكتب للجيل التالى ، فكتب العهد القديم لا تلام هذا العهد .

ومن ثم ينشأ ضرر بليغ ، فإن القداسة التى تتصل بعملية

الإبداع وعملية التفكير تنتقل إلى ما يدوّن . كان الشاعر ينشد
فيشعر الناس انه رجل مقدس ، ومن ثم كان إنشاده مقدساً كذلك .
وكان الكاتب روحاً عادلة حكيمة ، ومن ثم يتقرر كمال الكتاب ،
ذلك لأن حب البطل يفسد فيصبح عبادة تمثاله . ثم سرعان ما يصبح
الكتاب شراً ويلاً ، والكاتب مستبدّاً . إن فكر الجماهير
خامل معوج ، لا يغزوه العقل في يسر . فإن غزاه مرة واستقبل
كتاباً من الكتب ، تراه يتشبث به ، ويصيح إذا أسىء إليه .
وعلى هذا الكتاب تقوم الكليات الجامعة ، وعليه يضع المفكرون
الكتب ، ولا أقول « الإنسان المفكر » ، وإنما أقصد ذوي
المواهب الذين يبدأون بداية خاطئة ، وينطلقون من المذاهب
الثابتة ، لا من رأيهم الخاص في المبادئ العامة . وينشأ الشباب
الدليل في المكتبات ، وهم يعتقدون أن من واجهم أن
يقبلوا الآراء التي أدلى بها شيشرون ولوك وباكون ، ناسين أن
شيشرون ولوك وباكون إنما كانوا شباباً في المكتبات عندما ألفوا
هذه الكتب .

ومن ثم فبدلاً من « الإنسان المفكر » يكون لدينا قراء
الكتب ، فنشأ طبقة المتعلمين من الكتب الذين يقيمون للكتب
وزناً لأنها كتب ، لا لأنها ترتبط بالطبيعة وتكوين الإنسان ،
ولكن لأنها تكون مع العالم والروح ثالوثاً متباعد الأطراف .
ومن ثم يظهر أولئك الذين يردون كل مقروء إلى أصله ، ومصححو

الكتب ، والمولعون باقتنائها على اختلاف درجاتهم .
الكتب خير الأشياء إذا أحسن استعمالها ، أما إذا أسئء فهي
من شر الأمور . ماهو الاستعمال الصحيح ؟ ماهو الغرض الوحيد
الذى تهدف إليه كل الوسائل ؟ ليس للكتب غرض سوى الإيحاء .
وإنه خير لى ألا أرى كتاباً من أن تضلنى جاذبيته عن مجالى ضللا
مبيناً ، أو أن أصبح تابعاً بدلا من أن أكون صاحب رأى مستقل .
إن الشيء الوحيد الذى له قيمة فى العالم هو الروح الفعالة ، وكل
إنسان جدير بها ، وكل إنسان يضمها فى دخيلته ، وإن قامت أمامها
العقبات فلم تولد عند أكثر الناس . الروح الفعالة ترى الحق المطلق
وتنطق الحق ، أو تبتدع . وهى فى هذا العمل موهبة ، وليست
ميزة يختص بها هذا الرجل المعزز أو ذاك ، ولكنها ملك خالص
لكل إنسان ، وهى فى صميمها تقدمية . والكتاب والكلية
ومدرسة الفن وأى نوع من أنواع النُظم ، كل هذا ينتمى إلى
ما تفوه به قديماً نابغة من النوابع . يقولون : هذا حسن ، دعنا
نتمسك به . انهم بذلك يحقوننى ، لأنهم يتطلعون إلى الورا لا إلى
الأمام . ولكن العبقريّة تنظر إلى الأمام ، فإن عيني الإنسان فى
مقدمة رأسه وليستا فى مؤخرته . الإنسان يأمل ، والعبقريّة تخلق .
ومهما تكن المواهب فإن الإنسان إذا لم يخلق لا يكون النور
الإلهى الخالص ملكا له . وقد يكون لديه رماد ودخان ، ولكن
لن تكون لديه شعلة النار . وهناك آداب خالقة ، وأعمال خالقة ،

وكلمات خالقة ؛ أى هناك آداب وأعمال وكلمات لا تدل على عادة أو سلطان ، ولكنها تنبع تلقائياً من إحساس العقل نفسه بالخير والعدل .

ومن ناحية أخرى ، فبدلاً من أن يرى العقل بنفسه ، تراه يتقبل الصدق من عقل آخر ، كأنه في فيض من النور ، بغير فترات من العزلة أو البحث أو استجمام النفس ، وحينئذ يتحقق ضرر قاتل . ففي عبقرية الفرد دائماً عداء كاف لعبقرية فرد آخر وذلك بتأثيرها الزائد . ويؤيدني في ذلك الأدب في جميع الأمم ، فإن شعراء الدراما الإنجليز قد ترمموا أثر شكسبير حتى اليوم مائتي عام .

وليس من شك في أن هناك طريقة صحيحة للقراءة بحيث تصبح خاضعة للقارئ خضوعاً شديداً . ولا ينبغي « للإنسان المفكر » أن يخضع لأدواته . إنما الكتب لترجية فراغ العالم . فإنه إن استطاع أن يطالع الله رأساً عز وقته فلا ينبغي أن يُنفق فيما دونه الآخرون من مطالعاتهم . ولكن إذا ما حان حين الظلام ، ولا بد أن يحين — عند ما تختفي الشمس وتسحب النجوم ضياءها — نعود إلى المصابيح التي أشعلت من أشعتها لكي نرشد خطانا صوب « الشرق » مرة أخرى حيث مطلع الفجر . ونستمع لكي نستطيع أن ننطق . وفي ذلك يقول المثل العربي ما معناه « إن شجرة التين إذا اطلت على شجرة للتين أخرى أثمرت » .

ما أعجب لون السرور الذي نستمدّه من خير الكتب . إنها

تحميلنا على أن نعتقد أن الكاتب والقارئ من طبيعة واحدة .
فنحن نقرأ ما نظمه أحد كبار شعراء الإنجليز ، مثل شوسر ، أو
مارقل ، أو دريدن ، بأحدث سرور — أقصد إننا نقرأ باستمتاع
ينشأ إلى حد كبير عن تجريد « الزمان » كله من نظمهم . ويتمتج
سرور الدهشة بشيء من الرهبة حينما نجد أن هذا الشاعر الذي
عاش في عالم قديم منذ مائتي أو ثلاثمائة عام يعبر عما يقع قريباً من
روحي ، أو عما فكرت فيه وعبرت عنه أنا كذلك منذ وقت قريب .
ولولا ما قدمنا من دليل على المذهب الفلسفي الذي يقول بوحدة
جميع العقول لافترضنا ثبوت نوع من أنواع الانسجام بين الأرواح
قديم ، أو لون من ألوان بعد النظر عند الأرواح من عهد بعيد ،
وضرب من ضروب إعداد المؤن لحاجات المستقبل ، كالذي نشاهد
بين الحشرات التي توفر الطعام قبل موتها للديدان الصغيرة التي
لن تراها .

ولن يعجل بي حب أي نظام عام ، أو المبالغة في الغرائز ، إلى
الخط من قيمة « الكتاب » . فكلنا يعلم أنه كما يتغذى جسم
الإنسان بأي طعام حتى إن كان عشباً مغلياً ومرق الأضحية ،
فكذلك عقل الإنسان يتغذى بأي لون من ألوان المعرفة . وقد
ظهر رجال عظماء أبطال لم تكذب تلغهم معرفة إلا عن طريق الصحف
المطبوعة . إنما أقول إن استساغة هذا الطعام تتطلب عقلاً قوياً .
فلكي تحسن القراءة يجب أن تكون منشئاً ، أو كما يقول المثل

« من يريد أن يجلب لبيته ثروة جزر الهند لا بد أن يبذل جهداً للحصول على ثروة جزر الهند ». فهناك إذن قراءة منشئة ، كما أن هناك كتابة منشئة . حينما يقوى العقل بالعمل والاختراع تصبغ صفحة أى كتاب نقرأ مضيئة بالإشارات العديدة . وتتضاعف دلالة العبارة الواحدة ، ويتسع فهم المؤلف اتساع العالم . حينئذ نرى ما هو حق دائماً ، نرى أنه كما أن الساعة من رؤيا الرأى قصيرة نادرة في خضم الأيام والشهور ، فكذلك تدوينها ربما كان أقل جزء من أجزاء مجلده . وبعيد النظر هو الذى يقرأ فى أفلاطون أو شيكسبير ذلك الجزء القليل فقط ، أى تلك الكلمات الأصلية التى ينطق بها الملهمون ؛ أما ما عدا ذلك فإنه ينبذه ، حتى إن كان لأمثال أفلاطون وشيكسبير .

وهناك جانب من القراءة بطبيعة الحال لا غنى عنه البتة للرجل الحكيم . لا بد له من دراسة التاريخ والعلوم الدقيقة عن طريق القراءة الشاقة . وللكتابات كذلك وظيفتها التى لا غنى عنها — وهى أن تعلم المبادئ . ولكنها لا تؤدى لنا خدمة رفيعة إلا إذا لم يكن هدفها التدريب وإنما الإنشاء . وذلك حينما تجمع من بعيد كل شعاع من أشعة العبقرية المتنوعة إلى موئلها الذى يحسن استقبالها ، ثم تشعل قلوب الشباب من هذه النيران المتجمعة . فالفكر والمعرفة من الطبائع التى لا يجديها جهاز أو ادعاء . وثياب العلماء والأسس المالية ، حتى إن كانت مدائن من ذهب ، لا تعوّض أقل عبارة أو

كلمة ينم عنها الذكاء . فإذا ما نسينا ذلك تأخرت جامعاتنا الأمريكية في أهميتها العامة ، مع ازدياد ثروتها عاماً بعد عام .

٣ — تسود الجميع فكرة تقول بأن العالم ينبغي أن يكون ناسكا ، أو كأنه مريض في دور النقاهة — لا يصلح لأشغال يدوية أو أعمال عامة ، كما لا تصلح المبراة أن تكون فاساً . إن من نسيمهم « رجالا عمليين » يهزأون بالرجال المتأملين ، كأنهم — لأنهم يتأملون أو ينظرون — لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً . ولقد نعى إلى أن رجال الدين — وهم دائماً ، أكثر من أى طبقة أخرى في العالم ، علماء يومهم — يحبون الخطاب الرقيق ، ولا يستمعون إلى حديث الرجال الجاف التلقائي ، وإنما يستمعون إلى الحديث الأنيق الخفيف . إنهم كثيراً ما يُحرمون فعلاً من حقهم في الانتخاب ، وهناك في الواقع من يدافع عن عزوبتهم . وليس من العدل والحكمة أن يصدق ذلك على الطبقات المولعة بالدرس . وإن كان العمل للعالم ثانوياً فهو ضروري ، وبدونه لا يكون رجالا . وبدونه لا ينضج الفكر فيثمر الحق . وما دامت الدنيا تبدو للعين كأنها محابة من الجمال ، فإننا لانستطيع أن نرى حتى جمال الدنيا . إن عدم العمل جبن ، ولا يمكن أن يكون هناك عالم بغير العقل العامل الجريء . إن مقدمة التفكير ، أو التحول الذي يمر به الفكر من اللاشعور إلى الشعور ، هو العمل . فالمرء لا يعرف إلا بمقدار ما يعيش . وبذلك تعرف في الحال من الذي كلماته محملة بالحياة ، ومن

والهنة والحزب ، والمدينة والريف ، والأمة والعالم ، كل ذلك لا بد أن يمضى ويتلاشى ثم يستحيل نشيدا .

وإن من يضع كل قوته في أعمال مناسبة تعود إليه الحكمة — بطبيعة الحال — كأعلى ما تكون . إننى لن أحبس نفسى بعيداً عن دنيا العمل هذه ، وأنقل السنديانة إلى آنية الزهر ، لتجف فيها وتذبل . ولن أثق فيما تجلبه لى موهبة وحيدة ، وأرهق وتراً واحداً من أوتار الفكر ، فأكون أشبه بأهل ساقوى الذين كانوا يحصلون على عيشهم بنحت تماثيل الرعاة والراعيات والهولانديين وهم يدخلون لكل أنحاء أوربا ، فلما قصدوا الجبل ذات يوم للبحث عن الخشب اكتشفوا أنهم قد قطعوا آخر شجرة من أشجار الصنوبر ليحرقوها . لدينا مؤلفون عديدون استنفدوا قدرتهم على الكتابة ، ثم دفعتهم حكمة حميدة فأقلعوا إلى بلاد اليونان وفلسطين ، أو اقتفوا أثر الصائد فى المروج ، أو تجولوا حول بلاد الجزائر ، لكي يزودوا أنفسهم بالبضاعة الراجعة .

لو أن العالم لا يقصد إلا التعابير فإنه لا بد يتشوق إلى العمل ، فالحياة قاموسنا ، وإنك لتحسن إنفاق السنين لو أنفقتها فى العمل بالريف ، أو بالمدينة ، أو فى تبصر الحرف والصناعات ، أو فى الاتصال الخالص بالرجال والنساء ، أو فى العلم ، أو الفن ؛ وذلك لغرض واحد هو إتقان لغة نوضح بها ونصوغ فيها آراءنا فى حقائق هذه الأشياء جميعا . وإننى لأعرف فى الحال من المتكلم مقدار

ما أصاب من معيشة ، وذلك من خلال حديثه التافه أو العظيم .
إن الحياة تكمن خلفنا كأنها الحجر الذى نحصل منه على الآجر
والحجارة لما نشيده اليوم . وبذلك تتعلم قواعد اللغة . أما
الكليات والكتب فهي تكتفى بأن تحاكي اللغة الق صنعها الحقل
وميدان العمل .

يبد أن قيمة العمل النهائية — شأنها فى ذلك شأن قيمة الكتب
بل أكثر من قيمة الكتب — هى أن العمل مورد من الموارد .
إن القانون العظيم للتروح فى الطبيعة ، الذى يتبدى فى شهبق
الأنفاس وزفيرها ، وفى الاشتاء والاكتفاء ، وفى مد البحر وجزره ،
وفى الليل والنهار ، وفى الحرارة والبرودة — ذلك القانون الذى
يكون أشد انطبعا فى كل ذرة وكل سائل ، إنما نَعْرِفُهُ باسم
« الإستقطاب » ، وهذه « الثوبات من الانتقال السهل والانعكاس
اليسير » — كما عبر عنها نيوتن — هى قانون الطبيعة ، لأنها
قانون الروح .

يفكر العقل مرة ، ويعمل مرة أخرى ، وكل نوبة تبعث
الأخرى . عندما يستنفد الفنان أدواته ، فلا يصور خياله ، وعندما
يكف عن فهم الأفكار وتصبح الكتب مملولة — فإن لديه دائماً مورد
« الحياة » . والشخصية أسمى من العقل . التفكير هو الوظيفة ،
والعيش هو صاحب الوظيفة ، والتيار يتراجع إلى منبعه ، والروح
العظمى تقوى على العيش كما تقوى على التفكير . وهل تنقصها الأداة

أو الوسيط لإذاعة ما لديها من حقائق ؟ . إنها تستطيع أن تركز إلى هذه القوة المبدئية ، وهي قوة العيش وفقاً لهذه الحقائق . وإن هذا لعمل كلى ، في حين أن التفكير عمل جزئى . حينئذ يشرق على الروح جلال العدالة . ويهيج جمال المحبة مأواها ، فإن أولئك « البعيدين عن الشهرة » الذين يقطنون ويعملون معها سوف يحسون قوة بنائها في أعمال يومها وما يمر بها فيه ، وذلك خير من أن يقاس هذا البناء بالتظاهر أمام الجمهور تظاهراً مقصوداً . إن الوقت سوف يعلم صاحب هذه الروح ، إن العالم لا يضيع الساعة التي يحياها كرجل . ففي هذه الساعة يكشف عن غرائزه التي تشبه الجواهر المقدسة ، ويبعدها عن المؤثرات ، وما يفقده في التظاهر يكسبه في القوة . إن أولئك الذين أرهقت نظم التربية ثقافتهم لا يظهر من بينهم ذلك العملاق الذى يعين على هدم القديم وبناء الجديد ، وإنما يخرج هذا العملاق من الطبيعة الوحشية التي لم تلوث قط ؛ وإنما يخرج الفردُ وشيكسبير في النهاية من المحارب النوردي الهمجى المتهور ، ومن الكاهن الكلتى في بلاد الغال القديمة وبريطانيا .

ولذا فإنى أستمع بسرور إلى كل ما بدأ الناس يذكرون عن كرامة العمل وضرورته لكل مواطن . فلا تزال للفأس والمعول فضيلتهما لأيدى المتعلمين وغير المتعلمين على السواء . مرحباً بالعمل في كل مكان ؛ إننا دائماً نُدعى إليه ، ولكن علينا أن نلاحظ هذا

الشرط : وهو أن الرجل لا ينبغي له من أجل اتساع نطاق العمل أن يضحى بأية فكرة في سبيل أحكام العامة وأساليب العمل .

تحدث الآن عن تربية العالم عن طريق الطبيعة ، وعن طريق الكتب ، والعمل . وبقى أن أقول شيئاً عن واجباته .

انها الواجبات التي تلائم «الإنسان المفكر» . ويمكن أن تشملها كلها الثقة في النفس . وظيفة العالم هي أن يدخل البهجة في نفوس الناس ، ويعلو بهم ، ويرشدهم ، وذلك بأن يوضح لهم الرشد من الغي . انه يشار على القيام بالملاحظة البطيئة التي لا تجلب شرفاً ولا مالا . إن فلان مستيد وهرشل في مرصدهما البلورية يستطيعان أن يقرأ النجوم بما يسر الناس جميعاً . وهذه النتائج العظيمة النافعة تكفل لهما الشرف الرفيع . ولكن العالم ، في مرصده الخاص ، وهو يحسب نجوم العقل البشري المعتمدة المظلمة ، التي لم يفكر فيها قبل اليوم إنسان — وهو يقرب بضع حقائق أياماً وشهوراً في بعض الأحيان ، مصححاً سجلاته القديمة ؛ هذا العالم لا بد له من بند التظاهر والشهرة المباشرة . وفي خلال فترة استعداده الطويلة لا بد له غالباً من أن يفضح جهلاً وجموداً في الفنون الشعبية ، فيجلب على نفسه ازدراء القادرين الذين ينحونه جانباً . ولا بد له من التعثر طويلاً في كلامه ، وكثيراً ما يهجر الأحياء إلى الأموات . وأسوأ من هذا ، انه لا مناص له من قبول الفقر والعزلة — وما أكثر ما يفعل ذلك ! وانه ليستعيض عن السهولة والمتعة في طرُق الطريق القديم ، وقبول الطراز السائد وما تتبعه الجماعة في التربية والدين ، يستعيض عن ذلك بما ينشئه

لنفسه ، وإنه ليصبح من أجل ذلك هدفا بطبيعة الحال لاتهام النفس وضعف القلب ، والشك في قيمة الوقت وضياعه في كثير من الأحيان ، وهى أمور كالحشائش والكروم المعقدة تعترض سبيل الاعتماد على النفس والتوجيه الذاتى ؛ كما يستهدف الخصومة الحقيقية يبدو فيها عدو المجتمع وبخاصة المتعلمين منه . وماذا يقابل كل هذا الحسran والازدراء ؟ انه يجد عزاءه في ممارسة أعلى وظائف الطبيعة البشرية . انه رجل يسمو بنفسه عن الاعتبارات الخاصة ويتنفس ويعيش على الآراء المشرقة العامة . هو عين العالم ، وقلبه . انه يقاوم الرفاهية الدنيئة التى تعود بنا دائماً نحو البربرية ، وذلك بنقله مشاعر البطولة والسير النبيلة ، وعذب الشعر ، وعبر التاريخ ، وكل حكمة عبر عنها قلب الإنسان فى كل ظرف طارئ وكل ساعة رهيبة ، تعليقاً على عالم الأعمال — كل حكمة من هذا القبيل يتلقاها العالم ويعلمها غيره . وكل حكم جديد ينطق به العقل من كرسى الحصين على ما يمر اليوم من رجال وأحداث — كل حكم من هذا القبيل يصغى إليه ويصوره .

ولما كانت هذه هى وظائف العالم ، فخير به أن يستشعر كل الثقة فى نفسه ، وألا يذعن أبداً لصوت الجماهير ، فهو وحده الذى يعرف العالم . والعالم فى أية لحظة من اللحظات ليس إلا مظهرًا . والعمل الذى يكون له بريق ، أو الحكومة التى يقدسها الشعب على غير أساس ، أو الصناعة الزائلة ، أو الحرب ، أو الإنسان — هذه

أمر قد يؤيدها نصف البشر وقد يعترض عليها النصف الآخر ،
كأن كل شيء يتوقف على هذا التأييد أو ذاك الاعتراض . والأرجح
أن الموضوع كله لا يستحق أدنى تفكير ينفعه العالم في الإصغاء إلى
الجدل . وعلى العالم ألا يتخلى عن عقيدته في أن البندقية الفارغة
لا تعدو أن تكون بندقية فارغة ، حتى إن أكد لنا القدامى
والأشراف في هذه الأرض أنها تنطلق فتقتضى على الدنيا . ليشق
العالم في نفسه ، في صمت وثبات وتجرد مطلق ؛ وليضم ملاحظة
إلى أخرى ، صبوراً على إهمال الناس له ، وعلى لومهم إياه ، ويتقرب
الوقت لنفسه — وكيفيه سعادة أنه يستطيع أن يقنع نفسه
وحده أنه في هذا اليوم قد شاهد شيئاً ما على حقيقته . وإن
النجاح ليجدو خطوة صحيحة . لأن الغريزة التي تدفعه إلى أن يخبر
أخاه بما يرى غريزة صادقة ، وسوف يدرك بعد ذلك أنه حينما يفوض
في أسرار عقله إنما يهبط إلى أسرار العقول جميعاً . وإنه حينما يتحكم
في أى قانون من قوانين فكره الخاص ، إنما يتحكم في جميع الناس
الذين يتحدث بلغتهم ، وفي جميع من يتكلمون لغة يمكن أن تُترجم
إليها لغته . فالشاعر الذي يذكر في عزلته التامة أفكاره التلقائية
فيدونها ، إنما يدون ما يجده الناس في المدائن المزدهمة حقاً لديهم
كذلك . والخطيب يرتاب أول الأمر في صلاحية اعترافاته الصريحة ،
وفي نقص علمه بالأشخاص الذين يخطبهم ، حتى يجد أنه متمم لسامعيه ،
وأنهم يستقون من كلماته لأنه يعبر عن طبيعتهم نيابة عنهم . وكلما

اشتد غوصه في خواجه الخاصة الدفينة يشتد عجبه حينما يجد أن ذلك هو أشد الأمور قبولا ، وأكثرها شيوعا ، وأصدقها عند الناس أجمعين . فالناس يسرون منها ؛ ويشعر الجانب الطيب في كل انسان : أن هذه هي موسيقاه وتلك هي نفسه .

وتشتمل الثقة في النفس على جميع الفضائل . فالعالم يجب أن يكون حراً — وجريئاً . يجب أن يكون حراً على حد تعريف الحرية « دون عائق لا يصدر عن نفسه » ، وجريئاً ، لأن الخوف شيء يخلّفه العالم وراءه بحكم وظيفته ، لأن الخوف دائماً ينشأ عن الجهل . وعار عليه إذا كان هدوءه ، في الأوقات العصيبة ، ناشئاً عن اقتراضه أنه من الطبقات المحمية ، كالأطفال والنساء ؛ أو إذا كان يبحث عن السلام المؤقت بتحويل أفكاره من السياسة أو الموضوعات الشائكة ، مخفياً رأسه كالنعامة في الشجيرات المثمرة ، ناظراً في مناظيره المكبرة ، أو ناظراً للشعر ، كما يصفر الطفل لكي يحتفظ بشجاعته . فالخطر لا يزال هو الخطر ، والخوف أسوأ . وإنما يجب عليه أن يلتفت إليه ويواجهه كما يفعل الرجال . وليحدق في عين الخطر ويبحث عن طبيعته ، ويفحص أصله — ويرى منبت هذا الأسد — الذي لا يبعد وراءه كثيراً . سوف يجد في نفسه حينئذ إدراكا كاملا لطبيعته ومداه ؛ ولسوف تلتقي يده في الناحية الأخرى ، ومن ثم يستطيع أن يتحداه ويمر به في استعلاء . إنما الدنيا لمن يستطيع أن يخترق مزاعمها بالنظر . وما ترى من صمم

ومن عادة عمياء ومن خطأ متفاقم إنما مرده إلى رضا المرء باحتماله .
فإن نظرت إلى ذلك على أنه أ كذوبة ، فقد قضيت عليه بضربة
لازب .

أجل إنما نحن الأذلاء — نحن الذين لا نثق في أنفسنا . وإنها
لفكرة شريرة تلك التي تزعم أننا قد قدمنا إلى الطبيعة متأخرين ،
وأن العالم قد تم منذ زمان بعيد . وكما أن الدنيا كانت مرنة سائلة في
أيدي الله ، فهي كذلك دأمة في كثير من الصفات التي نجلبها
لها . إنها كحجر الصوان عند الجاهلين والخطائين ، فأولئك
ينصاعون لها ما أمكنهم ذلك . ولكن بمقدار ما في المرء من قداسة
يخضع الكون له ، ويتخذ طابعه وصورته . وليس عظيمًا من
يستطيع أن يغير المادة ، وإنما العظيم من يستطيع أن يغير حالتي
العقلية : إنما عظماء العالم هم الذين يصفون لون تفكيرهم الراهن
على الطبيعة كلها وعلى الفن كله ، ويحملون الناس بمعالجتهم الأمر
في جد وانسراح على أن هذا الذي يعملون هو بمثابة التفاحة التي
كانت العصور الماضية تتوق إلى قطفها ، والآن تم نضجها ، وهي
تدعو الأمم إلى جنيتها . فالرجل العظيم هو من يحقق الأمر العظيم . فأينما
يجلس « ماكدونالد » يكون رأس المائدة . ولقد جعل « لِنَاوُس »
علم النبات أكثر الدراسات تشويقاً ، واكتسب ذلك من الفلاح والمرأة
التي تجمع العشب ؛ وكذلك فعل « ديفي » بالكيمياء ؛ و « كوفير »
بالحفريات . إنما يكسب اليوم من يعمل فيه بجد ولأغراض سامية .

ويظفر بتقدير الناس — الذى لا يستقر على حال — من امتلاء عقله بالصدق ، ويتراكم له التقدير كما تتراكم أمواج الأطلانطى فى إثر القمر .

والسبب فى دعوتنا إلى الثقة بالنفس أعمق من أن يسبر غوره — وأظلم من أن يستنير . وربما لا أستطيع أن أظفر بمشاعر المستمعين إلىّ عند ما أصرح لهم بعقيدتى . ولكنى قد أبنت لكم أساس آمالى ، وذلك عندما نهت إلى المذهب القائل بوحدة الإنسان . وإنى أعتقد بأن الإنسان قد أسىء إليه ، أو أنه قد أساء إلى نفسه . وكاد أن يفقد النور الذى يمكن أن يردّه إلى ما تميز به . ولم يعد للناس وزن . فهم فى التاريخ ، وهم فى عالم اليوم كالهوام أو بيض السمك ، ويسمون « الجموع » أو « القطيع » . وفى كل قرن ، أو فى كل ألف عام ، يظهر رجل واحد أو رجلان ، أعنى واحداً — أو اثنين — يقربان من الحالة الصحيحة التى ينبغى أن يكون عليها كل إنسان . وكل من عداه — أو عداها — يرى فى البطل أو فى الشاعر وجوده الساذج البدائى — فى حالة النضوج ؛ أجل ، وإنه ليرضى أن يكون أقل من ذلك ، لكنى يتم لذلك البطل نموه . وياله من دليل ، يتم عن المجد ويدعو إلى الحسرة ، ذلك الدليل الذى يقدمه — ليلبى حاجة نفسه — الرجل الفقير فى القبيلة ، أو العضو المعدم فى الجماعة ، حينما يبتهج للمجد يظفر به زعيمه . فى ذلك يجد الفقير والوضيع شيئاً من العوض لكفائتهما المعنوية الهائلة . عوضاً

عن هبوطهم إلى الحضيض في معترك السياسة والاجتماع . لقد رضوا لأنفسهم أن يزالوا كالندباب من طريق الرجل العظيم كي يتمكنوا له من إقامة العدل لتلك الطبيعة المشتركة التي يتوق الناس جميعاً إلى أن يروها معظمة ممجدة . إنهم يستدفئون بالحرارة المنبعثة من الرجل العظيم ، ويشعرون بأن هذه الحرارة ، أو ذلك الضوء من إشعاع أنفسهم . إنهم ينبذون كرامة الإنسان من نفوسهم الذليلة ليضعوها على أكتاف البطل ، وإنهم ليقضون نخبهم لكي يضيفوا قطرة من دماء ينبض بها ذلك القلب الكبير ، وتجعل تلك الأعصاب الجبارة تقاتل وتنتصر . هذا الرجل العظيم يعيش لنا ، ونعيش فيه . والناس — كما هم — من الطبيعي جداً أن يطلبوا المال والنفوذ ؛ وإنما يطلبون النفوذ لأنه بمثابة المال — أو غنيمة الوظيفة كما يقال . ولم لا ؟ فهم يتطلعون إلى ذروة العلا ، وهذا ، في أحلام يقظتهم ما يعتقدون أنه ذروة العلا . أيقظهم يتخلوا عن هذا الخير الزائف ويقفزوا إلى الحقيقة ، ويتركوا الحكم للكتابة والمكاتب . ويمكن إشعال هذه الثورة بترويض فكرة الثقافة تدريجاً . إن أهم ما يصبو إليه العالم لبلوغ المجد واتساع الأفق هو بناء الإنسان . وها هي ذى مواد البناء ملقاة على الأرض . إن الحياة الخاصة لرجل واحد سوف تكون مملكة أبهى سناء ، وأشد ذعراً للعدو ، وأحلى وأجدى نفوذاً للصديق ، من أية مملكة في التاريخ . لأنك إن أنعمت النظر إلى الرجل ألفتيه ينطوي على الطبائع الموزعة على الناس جميعاً . وكل

فيلسوف ، وكل شاعر ، وكل ممثل قد أدى لى نيابة عنى ما أستطيع ذات يوم أن أؤديه لنفسى . والكتب التى كنا فيما مضى نقومها كما نقوم إنسان العين قد استوعبناها تماما . ولا يختلف ذلك عن قولنا إننا قد التقينا فى وجهة النظر التى طبعها العقل العالمى فى عيني الكاتب . لقد كنا ذلك الرجل ، ثم انصرفنا . أننا ننزع مستودعات الماء جميعا واحداً بعد الآخر ، ولما كنا ننمو من كل هذا المدد فأننا نشتهى طعاما أحسن وأوفر . أن الرجل الذى لا يطعمنا البتة لم يعيش قط . والعقل الإنسانى لا يمكن أن يُدّخر فى شخص يضع سداً فى أى جانب من جوانب هذه الامبراطورية التى لا تحد . أنها نار واحدة مركزية ، تشتعل مرة بين شفتى اتنا فتضىء رؤوس صقلية ، ومرة أخرى من حلق فيزوف فتبعث الضوء إلى بروج نابلس وكرومها . انه ضوء واحد يشع من ألف نجم . انها روح واحدة تبعث الحياة فى جميع الناس .

ولكنى ربما أكون قد أسهبت إلى حد الإملال فى الحديث عن العالم كموضوع مجرد . ولا ينبغي لى أن أتلكأ أكثر من ذلك فى ذكر ما أريد التنويه عنه من الاشارة القرية إلى هذا العصر وهذا البلد .

إننا نحسب — من الناحية التاريخية — أن هناك فارقا فى الآراء التى تسود فى العصور المتعاقبة ، وأن هناك من الحقائق ما يميز العقلية الكلاسيكية ، من العقلية الرومانتيكية ، ومن عقلية

العصر الحديث ، عصر التفكير أو الفلسفة . وبعد الآراء التي قدمتها عن وحدة العقل أو مماثلته في جميع الأفراد ، لن آبه كثيراً بهذه الفوارق . بل إنني لأعتقد أن كل فرد يمر بالمراحل الثلاث . فالصبي يوناني ، والشاب رومانيكي ، والراشد مفكر . ومع ذلك فإنني لا أنكر أننا نستطيع أن نتبع في جلاء تطوراً في الفكرة الرئيسية .
إننا نندب عصرنا لأنه عصر « انطواء » ، ولكن هل هذا شر ؟ يبدو أننا ناقدين ، تحيرنا أفكار الآخرين ، ولا نستطيع أن نستمتع بشيء لأننا نتلف على معرفة مصدر السرور . نحن مبطنون بالعيون ، حتى إننا لنرى بأقدامنا ، وعصرنا مصاب بما أصاب هاملت من شقاء .

« مرضى بالوان من التفكير شاحبة »

وهل هذا شر ؟ إن النظر هو آخر ما يتحسر عليه الانسان ، هل نرضى لأنفسنا العمى ؟ هل نخشى أن نرى أبعد من الطبيعة ومن الله ، ونشرب الحقيقة على جفاف ؟ إنني لأنظر إلى مسخط طبقة الأدباء على أنه اقرار منهم بأنهم لا يجدون أنفسهم في الحالة العقلية التي كان عليها آباؤهم ، ويأسفون لأنهم لم يجربوا حالة المستقبل ، كما يخشى الغلام الماء قبل أن يعلم أنه يستطيع السباحة . ولو أن هناك عصرًا يود الانسان أن يولد فيه فهو ألا يكون عصر « الثورة » حينما يقف القديم والجديد وجهًا لوجه ، ويتعرضان للمقارنة ، حينما يتأثر نشاط الناس جميعاً بالخوف والأمل ، حينما

يستعاض عن أمجاد الماضي التاريخية بأمكانيات العصر الجديد الغنية .
إن هذا الوقت ، كغيره من الأوقات جميعا ، وقت طيب جداً ،
لو عرفنا كيف نستغله .

إننى أقرأ بشيء من السرور عن علامات الأيام المقبلة التى تبشر
بالخير ، وهى تتلأأ خلال الشعر والفن ، وخلال الفلسفة والعلم ،
وخلال الكنيسة والدولة .

وإحدى هذه العلامات هى أن الحركة عينها التى أدت إلى رفع
مستوى ما كان يسمى بأحط الطبقات فى الدولة ، اتخذت فى الأدب
صورة واضحة جداً تشبهها رقفاً ورأفة . فبدلاً من السامى والجميل
بحث الأدباء عن القريب والوضيع والمألوف ، ونظموا فيه الشعر .
وما كان يدوسه بالأقدام ويهمله أولئك الذين كانوا يعدون أنفسهم
ويتزودون للرحلات البعيدة فى الأقطار النائية ، وُجد فجأة أنه أغنى
من كل بلد أجنبى . فموضوعات اليوم هى أدب الفقير ، ومشاعر
الطفل ، وفلسفة الشارع ، ومعنى الحياة المنزلية . وأنها خطوة
عظيمة . أليس من علامات القوة أن يدب النشاط فى الأطراف ،
وأن تجرى تيارات من الحياة الدافئة فى الأيدى والأقدام ؟ إننى
لا أبحث عن العظيم ، والبعيد ، والخيالى ، ولا أسأل عما يجرى
فى إيطاليا أو بلاد العرب ، أو على الفن الإغريقى ، أو أناشيد
« بروفنسال » وإنما أنا أحتضن الأمر العادى ، وأكتشف الشيء
المألوف والشيء الوضيع واجلس عند قدميه . بصّرني باليوم ،
أعطك العالم القديم وعالم المستقبل . ماذا عسانا حقاً نحب أن

نعرف له معنى ؟ الطعام في الإناء ، واللبن في الوعاء ، والقصة المنظومة في الشارع ، وأنباء الزورق ، ولحمة العين ، وهیئة الجسم ومشیئة . أرني الأسباب البعيدة لهذه الأمور ، وأرني الوجود السامی للأسباب الروحية العليا كامنة — كما تكمن دائماً — في هذه الضواحي وهذه الأطراف من الطبيعة ، ودعني أرى التوافه وهي تتناول إلى الاستقطاب الذي يردها تواءً إلا القانون الأبدي ، دعني أرى الحانوت ، والمحراث ، ودقتر الحسابات الذي يصدر عن نفس السبب الذي تنشأ عنه ذبذبة الضوء وغناء الشعراء . دعني أرى كل ذلك ولن تكون الدنيا بعد ذلك خليطاً مملاً كالحجرة يتراكم فيها سقط المتاع ، بل تكون على صورة ونظام . ليس هناك أمر تافه ، أو لغز ، وإنما هناك خطة واحدة توحد بين أعلى القمم وأسفل الأخاديد وتبعث فيها الحياة .

هذه الفكرة ألهمت عبقرية جولدميث وبرنز وكوبر ، وفي عصر أحدث ، ألهمت جيته ووردزورث وكارليل . هؤلاء تابعوا هذه الفكرة على صور مختلفة وبدرجات متفاوتة من النجاح . وتباين كتابتهم مع أسلوب يوب وچونسن وجبُن الذي يبدو بارداً متكلفاً . أما كتابتهم ففيها دفء الدماء . وأن الإنسان ليدعشه أن يرى أن الأشياء القريبة ليست أقل جمالاً وعجبا من الأشياء البعيدة . القريب يفسر البعيد . وليست القطرة إلا محيطاً صغيراً . والإنسان متصل بالطبيعة كلها . وهذه الفكرة عن قيمة الشيء الشائع تنفع

في كشف ما استتر . ولقد كان جيته في ذلك أحدث المحدثين ، ومع ذلك فقد أطلعنا — كما لم يطلعنا أحد من قبل — على عبقرية القدماء .

هناك رجل عبقرى واحد أدى خدمة كبرى لفلسفة الحياة هذه ، ولم تقدر بعد تقديرأ صحيحا القيمة الأدبية لهذا الرجل — ذلك هو عمانويل سودنبرج^(١) . كان أبعد الناس خيالا ، ومع ذلك فقد كان يكتب بدقة العالم الرياضى ، محاولا أن يطبع المسيحية الشائعة في عصره . بطابع قواعد الأخلاق الفلسفية الخالصة . ومثل هذه المحاولة لا بد لها — بطبيعة الحال — من أن تلقى صعوبة لا يستطيع التغلب عليها أى عبقرى . ولكنه رأى العلاقة بين الطبيعة وصلات النفس وأطلعنا عليها . لقد اخترق الصفة الرمزية أو الصفة الروحية للكلمة المرئية والمسموعة والمحسوسة . وكان شيطانه في الشعر الذى يحب الظلال ، يخلق خاصة فوق أجزاء الطبيعة السفلى ويفسرها . وأظهر الرابطة العجيبة التى تصل ما بين الشر الخلقى والصور المادية الدنيئة . وقدم لنا فى تشبيهات من شعره القصصى نظرية عن ضعف العقل ، وعن الوحوش ، وعن الأشياء الدنيئة المفزعة .

وعلاوة أخرى من علامات العصر الذى نعيش فيه ، تتميز

(١) فيلسوف سويدي ولد فى عام ١٦٨٨ فى استكهلم بالسويد . ومات عام ١٧٧٢ ، واشتهر بفلسفته الطبيعية المجردة .

كذلك بحركة سياسية مشابهة ، هي الأهمية الجديدة التي أعطيت للفرد . وكل ما يرمى إلى عزل الفرد — وإحاطته بمحاجز الاحترام الطبيعي ، حتى يحس كل فرد أن الدنيا له ، ويعامل الإنسان أخاه الإنسان كما تعامل الدولة ذات السيادة دولة أخرى ذات سيادة — يرمى كذلك إلى الوحدة الحقيقية ، وإلى العظمة . يقول پستالوزي ذلك الرجل المكتئب : « عرفت أن ليس هناك إنسان في دنيا الله الواسعة هذه يحب أو يستطيع أن يعين إنساناً آخر » . إن العون لا بد أن يأتي من صميم القلب وحده . والعالم هو ذلك الرجل الذي يجب عليه أن يتقمص في شخصه كل ما في عصره من قدرة ، وكل ما وهبه لنا الماضي ، وآمال المستقبل . يجب أن يكون جامعة من المعارف . وإن كان هناك درس يجب أن يطرق أذنه أكثر من غيره فذلك هو « إن الدنيا لا شيء ، والإنسان كل شيء » . ففي نفس الإنسان قانون الطبيعة كلها ، وأتم لا تدركون بعد كيف ترتفع فقاعة الماء . وفي نفس الإنسان يرقد العقل كله . فعليكم أن تعرفوا كل شيء ، وعليكم أن تقتحموا كل شيء .

سيدي الرئيس ، سادتي :

إن هذه الثقة في قوة الإنسان التي لم تُبحث بعد تخص العالم الأمريكي بكل دوافعها وكل ما تبشر به وكل استعداد لديها . لقد استمعنا طويلاً إلى آلهة الشعر الأوربية الظرفية ، ووصمناروح الرجل الحر الأمريكي بالجبن والتقليد والاستثناس . إن الشراة العامة

والخاصة لتجعل الهواء الذى نتنفسه كشيئاً غليظاً . والعالم رقيق
مترخ لطيف . فانظر إلى العواقب الوخيمة . إن عقل هذا البلد —
الذى تعلم أن يهدف إلى الوضع من الأمور — ليأكل بعضه
بعضاً . ليس هناك عمل إلا للخانع القانع . أما الشبان الذين
تتوقع منهم أحسن الرجاء ، والذين يبدأون الحياة على شواطئنا
منتفخين بريح الجبال ، تسطع عليهم كل نجوم الآلهة ، فإنهم
لا يجدون الأرض تحتهم متفقة مع هذه الأشياء ، فيعوقهم عن العمل
نفور من المبادئ التى تسير عليها الأعمال ، فينقلبون عمالاً
كادحين ، أو يموتون من النفور ، وبعضهم يقضى نحبه انتحاراً .
وماذا عسى أن يكون العلاج ؟ أنهم لم يروا بعد ، ولا يرى كذلك
ألوف الشباب المتفائلين مثلهم والمتراحمين الآن حول الحواجز التى
تقف فى سبيل مستقبلهم ، لم يروا أن الفرد إذا ركن إلى غرائزه
ركونا راسخاً ، وتمسك بها ، فإن الدنيا العريضة سوف تنقاد له .
صبراً ، صبراً ، والتمسوا الصحبة فى ظلال الخير والعظمة ، والعزاء
فما يترأى أمام حياتكم التى لا تنتهى ، والعمل فى دراسة المبادئ
ونقلها إلى الناس ، وفى سيادة هذه الغرائز ، وفى هداية العالم . أليس
أكبر عار فى الدنيا ألا يكون الفرد وحدة ، وألا يعد شخصاً ،
وألا يُشمر تلك الثمرة الخاصة التى خلق كل إنسان ليثمرها ؛ وإنما
يُحسب فى المجموع ، فى المثات ، أو الآلاف أو الحزب أو الفريق
الذى ينتمى إليه ، وإن يمكن التنبؤ برأى الفرد منا جغرافياً ،

فيقال انه من الشمال أو من الجنوب ؟ لا تكونوا كذلك ، إخواني
وأصدقائي — اللهم لا تجعلنا كذلك . إنما نريد أن نمشي على
أقدامنا ، وأن نعمل بأيدينا ، وأن نعبر عما يجول في خواطرنا .
ولن تكون دراسة الآداب بعد اليوم مدعاة للإشفاق ، وللشك ،
ولمتعة الحواس . ولسوف تكون رهبة الإنسان ومحبه سورا
للدفاع وإكليا من البهجة يكلل هامات الجميع . ولسوف توجد
لأول مرة أمة من الرجال ، لأن كل فرد يعتقد أنه ملهم من الروح
المقدس الذي يلهم كذلك الناس جميعاً .

خطاب

(ألقى هذا الخطاب أمام الفرقة العليا في مدرسة هارفارد اللاهوت في مساء يوم الأحد ، ١٥ يولية من عام ١٨٣٨ . وكان أمرسن قد دعى لإلقائه لا من موظفي المدرسة ، ولكن من طلبة الفرقة العليا . وقد اعترض كثير من رجال الدين على ما جاء بهذا الخطاب حتى إن موظفي المدرسة قد اتصلوا علنا من تبعته . واثقضى زهاء الثلاثين عاما قبل أن يُدعى أمرسن مرة أخرى للخطابة في هارفارد) .

خطاب

إيها لنعمة في هذا الصيف المتلألئ أن يستنشق المرء أنفاس الحياة . فالعشب ينمو وراعم الأزهار تتفتح ، والمراعى مرقشة بألوان الزهور النارية والذهبية . والهواء يموج بالطير ، ويحلو برائحة الصنوبر وريحان جيلعاد والبرسيم الجاف الجديد . والليل لا يبعث في القلب الكتابة بظلاله التي ترحب بها النفوس . وخلال الظلام الشفاف ترسل النجوم أشعتها التي تكاد أن تكون روحانية . وأن الإنسان ليبدو تحت هذه النجوم كأنه طفل صغير وكرته الأرضية ألعوبة ، والليل البارد يرطب الدنيا كأنه نهر ، ويعد العيون مرة أخرى للفجر القرمزي . إن لغز الطبيعة لم يبد قبل اليوم أكثر من ذلك سعادة . فلقد نالت المخلوقات جميعاً ما شاءت من حنطة ونبيد ، والصمت الذي لا يُشق والذي لازمته الوفرة من قديم لم يقدم حتى الآن كلمة من كلمات التفسير . وإن المرء ليُكره على تبجيل كمال هذا العالم الذي تتناجى فيه حواسنا . ما أفسحه ، وما أغناه . وأية دعوة من كل خاصة من خواصه يقدمها لكل موهبة من مواهب العقل الإنساني ! إن العالم في تربته المثمرة ، وفي بحره الصالح للسلاحة ، وفي جباله المعدنية والحجرية ، وفي غاباته وأحراشه ، وفي حيواناته ، وفي أجزائه الكيميائية ، وفي قوى الضوء ومسيره ، والحرارة ، والجاذبية والحياة ، إن العالم في كل ذلك قمين بأفئدة عظماء الرجال وقلوبهم يخضعونه ويستمتعون به .

وإن التاريخ ليسره أن يكرّم المزارعين والميكانيكيين والمخترعين والفلكيين ، ومشيدى المدن والقواد .

ولكن عندما يفتح العقل ويكشف عن القوانين التى تسير فى العالم وتجعل الأشياء كما هى ، حينئذ تتضاءل الدنيا العظيمة فوراً إلى رسم أو أسطورة من أساطير العقل . إن الروح الإنسانى ليتساءل فى لهفة إلى المعرفة لا ينطفىء أوارها : « ماذا عساي أن أكون ؟ وما هو الكائن ؟ » . أنظر إلى هذه القوانين السبّاقة ، التى يستطيع إدراكنا الناقص أن يراها تميل فى هذا الاتجاه أو ذاك ، ولكنه لا يراها كاملة الاستدارة ، أنظرة إلى هذه العلاقات التى لا حصر لها ، تتشابه مرة ، وتختلف أخرى ؛ ما أكثرها ، ولكنها واحدة . وإنى لأحب أن أدرس ، وأحب أن أعرف ، وأحب أن أعجب دائماً . إن أعمال العقل هذه كانت فى كل العصور تسليية الروح البشرى .

ولكن جمالاً أعذب وأقوى وأشدّ خفاء يظهر للإنسان عندما يفتح قلبه وعقله للإحساس بالفضيلة . إنه حينئذ يتعلم شيئاً أعلى منه ، يعلم أن وجوده لا حد له ، وأنه إنما ولد للخير وللكمال ، برغم المكانة الدنيئة التى جلبها له الشر والضعف . إن ما يقدهه لا يزال ملكاً له ، ولو أنه لم يدرك ذلك حتى الآن ، وإنما ينبغى له أن يدركه . أنه يعلم معنى تلك الكلمة العظيمة ، بالرغم من أن تحليله يعجز عن وصفها . أنه عندما يستطيع براءته أو بإدراكه

العقل أن يقول! » إني أحب الحق ، والصدق جميل دائماً في الداخل وفي الخارج . أيتها الفضيلة ، أنا لك ، خلصيني ، استخدمي ، سوف أخدمك ، ليلاً ونهاراً ، في الكبير والصغير ، حتى لا أكون فاضلاً ، بل أكون الفضيلة نفسها » . عندما يقول ذلك يتحقق الغرض من الخليقة ، وتحقق إرادة الخالق .

إن الإحساس بالفضيلة تقديس لوجود بعض القوانين الإلهية وابتهاج بها . فهذا الإحساس نستطيع أن ندرك أن هذا الدور الساذج الذي نلعبه في الحياة ينطوي على مبادئ تذهل العقول وإن بدا في حركات تافهة . إن الطفل وسط ألعبيه يتعلم تأثير الضوء ، والحركة ، والجاذبية ، والقوة العضلية . وفي لعبة الحياة الإنسانية يتفاعل الحب والخوف والعدالة والشهوة والإنسان وكل ما هو مقدس . وهذه القوانين تستعصى على التعبير الصحيح عنها . إنها لا تكتب على الورق ، أو يُعَبَّر عنها باللسان . أنها تستعصى على التفكير المباشر ، ومع ذلك فنحن نقرأها كل ساعة بعضنا في وجه الآخر وفي فعاله ، وفي ضمائرنا . إن الصفات الخلقية التي تتركز جميعاً في كل عمل أو فكر فاضل ، ينبغي لنا أن نميزها في الكلام ، وأن نصفها أو نشير إليها بالتعداد المضي لكثير من التفاصيل . ولما كان هذا الإحساس هو لب الدين ، فدعوني ألفت أنظاركم إلى الأهداف الدقيقة له . فأعدد لكم بعض أنواع تلك الحقائق التي يظهر فيها هذا العنصر جلياً .

إن الإدراك الفطرى للإحساس الخلقى هو تبصر بكمال قوانين الروح . وهذه القوانين تنفذ نفسها بنفسها ، خارجة عن الزمان والمكان ، ولا تخضع للظروف . ولذا فإن في روح الإنسان عدالة جزاؤها سريع وشامل . من يعمل عملاً صالحاً يكرم في حينه ، ومن يعمل عملاً طالحاً ينقبض من مجرد قيامه بهذا العمل الطالح . ومن يخلع الدنس ، يلبس بذلك الطهارة . وعندما يصبح الإنسان عادلاً في صميمه ، فإنه يحقق إرادة الله ، لأن سلام الله ، وخلود الله ، وجلالة الله ، سوف تتمثل في كل ما يفعله الرجل العادل . وإذا كان الرجل يتظاهر ويخضع فهو إنما يخضع نفسه ، ولا يتفق مع وجوده . (١) الرجل أمام الخير المطلق عابد خاضع تمام الخضوع ، غير أن كل خطوة يخطوها في هذا السبيل إلى أسفل هي خطوة إلى أعلى . (٢) الرجل الذى ينكر ذاته يدركها .

انظروا كيف تعمل هذه الطاقة السريعة الجوهرية في كل مكان ، تصلح الأخطاء ، وتصحح المظاهر ، وتجعل الحقائق منسجمة مع الأفكار . وأثرها في الحياة ، وإن أدركته الحواس في ببطء شديد ، إلا أنه في النهاية أكيد كما هو كذلك في الروح . هذه الطاقة تجعل الإنسان سيد نفسه ، يصف عمله الصالح بالخير وخطيئته بالشر . فإن صفات الأشياء تُعرف دائماً . والسرقات لا تغنى ، والإحسان لا يفقر ، وجريمة القتل تنطق بها الأسوار الحجرية . وأقل أثر من آثار (٣) الحداق — كوصمة الغرور ، أو محاولة إيجاد تأثير حسن أو مظهر ملائم — يلوث النتيجة فوراً . أما إن نطقت صدقاً فإن الطبيعة

والأرواح كلها سوف تعينك على التقدم إلى الأمام تقدما غير منظور . إنطق الصدق وسوف يسندك كل حى وأعجم ، بل ان جذور الحشائش نفسها التى تنمو على الأرض تبدو كأنها تهتز وتتحرك لكى تشهد لك . وتأكدوا كذلك من كمال القانون وهو يطبق نفسه على ما بين الناس من صلات ، ويصير قانون الجماعة .
فكما نكون يكون رفاقنا . الطيب بالتشابه يبحث عن الطيب ،
والخبث بالتشابه يبحث عن الخبيث . ولذا فإن الأرواح تسير إلى
الفردوس أو إلى الجحيم بإرادتها .

هذه الحقائق كانت توحى دائماً إلى الإنسان بالعقيدة السامية التى تؤمن بأن الدنيا ليست نتيجة لقوى متعددة ، وإنما هى نتيجة لإرادة واحدة وعقل واحد ، وهذا العقل الواحد ناشط فى كل مكان ، فى كل شعاع من أشعة النجم ، وفى كل موجة من موجات البرق . وكل ما يقف فى سبيل هذه الإرادة يفشل ويتعرقل فى كل مكان ، لأن الأشياء هكذا خلقت ، ولم تخلق على صورة أخرى . الخير إيجابى ، والشر شخصى محض ، وليس مطلقا ، فهو كالبرودة ، التى هى انعدام الحرارة . الشر كله موات أو عدم . أما الخير فهو مطلق وحقيقى . وعلى قدر ما عند الإنسان من خير ، يكون ما لديه من حياة ، لأن كل شئ يصدر عن روح واحدة تسمى بأسماء مختلفة ، كالحب ، والعدالة ، والاعتدال ، حسب تطبيقها فى مختلف النواحي ، كما يسمى المحيط بأسماء مختلفة على الشواطئ المختلفة التى يرتطم بها .

كل شيء يصدر عن روح واحدة ويتأمر معها . ومادام الإنسان يهدف إلى أغراض طيبة فإنه يزود نفسه بقوة الطبيعة كلها ، وكلما بعد عن هذه الأغراض حرم نفسه القوة ، وحرم نفسه كل معين ، وينكمش وجوده عن كل تيار بعيد ، ويتضاءل ثم يتضاءل ، حتى يصبح ذرة أو قطرة ، ويصير السوء المطلق موتاً مطلقاً .

وإدراك قانون القوانين هذا يوقظ في العقل احساساً نسميه الإحساس الديني ، وهو الذي تنشأ عنه سعادتنا القصوى . وما أعجب سحره وسلطانه . إنه جبل من الهواء ، وهو الذي يعطر العالم . هو مرث وميعة يابسة وكلورين وحصا البان . إنه يعلو بالسما والجبال ، وهو أنشودة النجوم الصامته . به يسلم العالم وتحلو الإقامة فيه ، ولا يكون ذلك بالعلم أو بالنفوذ . ربما كان أثر الفكر في الأشياء بارداً جامداً ، لا يلتبس غاية أو وحدة ، ولكن إشراق الإحساس بالفضيلة في القلب يعطينا « القانون العام » ويؤكد لنا ان هذا القانون يسود جميع الطبائع ، فتبدو العوالم والزمان والمكان والأبد ، كأنها تنفطر من السرور .

هذه الإحساس سماوى إلهى . هو سر سعادة الإنسان . هو الذى يجعله غير محدود . وعن سبيله تعرف الروح نفسها أولاً . وهو الذى يصحح الخطأ الأكبر فى الإنسان الصغير ، الذى ينشد العظمة باتباع العطاء ، ويأمل أن يستمد الفائدة « من غيره » — وذلك لأن هذا الإحساس يريه أن مصدر الخير فى نفسه ، وأنه — كغيره

من الناس جميعاً — منفذ إلى أعماق العقل . حينما يقول « ينبغي لى » ،
 وحينما يدفعه الحب ، وحينما يختار العمل الصالح العظيم بتبنيه من
 العلا ؛ حينما يفعل ذلك تتخلل روحه الأناشيد العميقة من « الحكمة
 العليا » . حينئذ يستطيع أن يتعبد ، وأن يعظم بالعبادة ، لأنه
 لا يستطيع أن يتخلف عن هذا الإحساس . وفي أسمى تحليق للنفس ،
 لا يمكن أن يُقهر الصواب ، أو يتفوق على الحب شيء .

وهذا الإحساس أساس من أسس المجتمع ، وهو يخلق بالتتابع
 كل صور العبادة . إن مبدأ التقديس لا يموت أبداً ، والإنسان الذى
 يقع فريسة للخرافة ، أو لمتع الحسية ، لا يفقد البتة رؤى الإحساس
 الخلقى . وكذلك يكون كل ما يعبر عنه هذا الإحساس مقدساً وثابتاً
 على قدر طهارته . وما يعبر عنه هذا الإحساس يؤثر فينا أكثر مما يؤثر
 كل المركبات الأخرى . وعبارات الأزمنة القديمة التى تعبر عن هذا
 الورع ما برحت جديدة عطرة . وقد كانت هذه الفكرة دائماً أشد
 تعمقاً فى نفوس الناس فى الشرق التقيّ المتأمل ، لا فى فلسطين
 وحدها حيث بلغت أظهر صورة من صور التعبير ، ولكن فى مصر
 كذلك ، وفى بلاد الفرس والهند والصين . وكانت أوربا دائماً مدينة
 بدوافعها الإلهية إلى العبقرية الشرقية ، فإن ما قاله هؤلاء المنشدون
 المقدسون وجدّه عقلاء الرجال جميعاً ملائماً صادقاً . والأثر الفريد
 ليسوع المسيح على البشر — وليس اسمه مكتوباً فى تاريخ هذا العالم
 بل محفور فيه حفرأ — لدليل على الفضل العظيم لهذه التعاليم
 المتغلغلة فى النفوس .

وما دامت أبواب المعبد مفتحة ، ليلا ونهاراً ، أمام كل إنسان ، وما دام الكهان الذين ينطقون بهذا الحق لا يكفّون ، فإنه لا يبقى سوى شرط واحد صارم ، وذلك هو الفطرة السليمة . فإن الحق لا يدخل النفس مبتدلاً ، وإنك في الواقع لا تستطيع أن تتلقى من روح أخرى علماً وإنما تتلقى حافزاً . ما يبشر به غيرك لا بد أن تجده صادقاً في نفسك أو تنبذه . وإن كلماته ، وتبعيتك له — أيا كان هو — لا تجعلك وحدها تتلقى منه شيئاً . بل على النقيض من ذلك ، فإن في انعدام هذا الإيمان الأوّلي بذور التدهور . فكما يكون المد يكون الجزر . وإذا زال هذا الإيمان ، أصبحت الكلمات نفسها التي صدرت عنه أو الأعمال التي قام بها زائفة مؤذية ، وبذلك تنهار الكنيسة ، والدولة ، والفن ، والأدب ، والحياة . إذا نسينا مبدأ تقديس الطبيعة الإنسانية أصيبت النظم بالعلّة التي تجعلها تتضاءل . كان الإنسان فيما مضى كل شيء ، وهو اليوم زائدة تدعو إلى القلق ، وحيث أن «الروح العليا» السكّنة في كل شيء لا يمكن تحاشيها كلية ، فإن المبدأ الذي يبشر بها لا يحتمل هذا التناقض : وهو أن الطبيعة الإنسانية المقدسة تُنسب إلى شخص أو شخصين ، وتُنكر على بقية الأشخاص ، بل وتُنكر في غضب شديد . لقد فقدنا مذهب الإلهام ، واغتصب المبدأ الوضع — مبدأ أكرثية الأصوات — مكانة مبدأ الروح . ولا توجد المعجزات والنبؤات ، والشعر ، والحياة المثالية ، والحياة المقدسة ، إلا باعتبارها تاريخاً قديماً خُسر ؛ فهي

ليست من عقائد الناس أو من آمالهم ، وتبدو مضحكة حينما يشار إليها . والحياة تكون مدعاة للهزل أو للإشفاق بمجرد ما تختفي عن الأبصار أغراض الوجود السامية ، ويصبح الإنسان قصير النظر ، ولا يستطيع أن يلتفت إلا إلى ما يخاطب الحواس .

هذه الآراء العامة — التي لا ينازعها أحد مادامت عامة — تجد لها أمثلة وافرة في تاريخ الأديان وبخاصة في تاريخ الكنيسة المسيحية ، وفي هذه الكنيسة ولدنا جميعاً ونشأنا ، وستشرعون يا أصدقائي في تعليم الصدق الذي تتضمنه هذه الحقيقة . وإن لها لأهمية تاريخية كبرى . ولستم بحاجة إلى أن أحدثكم عن كلماتها المباركة التي كانت عزاء الإنسانية . وسوف أحاول أن أؤدي واجبي نحوكم في هذه المناسبة بالإشارة إلى خطأين في إدارة الكنيسة ، يتضحان يوماً بعد يوم من وجهة النظر التي اتخذناها منذ حين .

إن يسوع المسيح ينتمى إلى الجنس الصادق من الأنبياء ، ولقد رأى بعين مفتوحة لغز الروح ، وجذبه انسجامها الشديد ، وفتنة جمالها ، فعاش فيها ، وكان وجوده هناك . وهو وحده في التاريخ كله الذي قدر عظمة الإنسان . رجل واحد كان مخلصاً لما في نفسك وما في نفسي . رأى أن الله يجسد نفسه في الإنسان ، ويتقدم دائماً من جديد لكي يستولى على دنياه . وفي عيد الذكر لهذه العاطفة السامية يقول « أنا مقدس ، والله يعمل من خلالي ،

ويتكلم من خلالي . إن أردت أن ترى الله فانظر إلى . أو انظر
إلى نفسك إذا كنت كذلك تفكر كما أفكر أنا الآن . ولكن
أى تحريف عانى مبدؤه وعانت ذكره في عصره ، وفي العصر الذي
تلاه ، والعصور المتعاقبة ! ليس هناك مبدأ من مبادئ « العقل »
يمكن أن يُعلم عن طريق « الفهم » . إنما أضغى فهم الإنسان إلى
هذه النعمة العالية من بين شفق الشاعر ، وقال في العصر التالي
« هذا هو الله (يهوه) نزل من السماء ، وسأقتلك إن قلت انه كان
إنسانا » ، واحتلت تعابير لغته وضروب فصاحته مكانة صدقه ، ولم
تُبْنِ الكنائس على مبادئه ، وإنما بنيت على استعاراته ومجازيه ،
وصارت المسيحية أسطورة ، كما صارت من قبل التعاليم الشعرية
اليونانية والمصرية . تحدث عن المعجزات لأنه أحس بأن حياة
الإنسان معجزة ، وكل ما يعمل الإنسان معجزة ، وعرف ان هذه
المعجزة اليومية تشرق كلما ارتفعت الشخصية . غير إن كلمة للمعجزة
كما تنطق بها الكنائس المسيحية تعطي معنى زائفاً . انها كالحَيوان
الخرافي ، ولا تتفق والطبيعة التي تتمثل في البرسيم المزهر والمطر
المتساقط .

وأحس بالاحترام لموسى والأنبياء ، ولكنه لم يشعر بأن وحيهم
الأول يصلح للبقاء للساعة الراهنة وللإنسان الحالي ، أو يصلح أن
يكون وحياً أبدياً في القلب . ولم يعطف على هذه الفكرة . وهكذا
كان المسيح إنساناً حقاً . ولما رأى ان القانون الكامن في أنفسنا

متسلط لم يرض له بالخضوع ، وأعلن شجاعة ، ويده وقلبه وحياته
إن هذا القانون هو الله . هذا هو المسيح ، كما أظن ، الروح
الوحيدة في التاريخ التي قدرت قيمة الإنسان .

١ — من وجهة النظر هذه ندرك العيب الأول للمسيحية التاريخية .

لقد وقعت المسيحية التاريخية في خطأ يفسد كل محاولة لنشر الدين .

فإنها تبدولنا — كما بدت عدة عصور — كأنها ليست مذهب الروح ،

وإنما مبالغة فيما هو شخصي وما هو إيجائي ، مبالغة في الطقوس .

ولقد اهتمت — ولا تزال تهتم — في مبالغة شديدة بشخص المسيح ،

ولكن الروح لا تعرف الأشخاص ، انها تدعو كل فرد إلى أن

يمتد حتى يبلغ دائرة الكون بأسرها ، وهي لا تؤثر شيئاً سوى

الحبة التلقائية . بيد أن هذه المسيحية التي تشبه الملكية الشرقية ،

التي قامت على التراخي والخوف ، قد جعلت صديق الإنسان رجلاً

مؤذياً له . والطريقة التي يحاط بها اسمه بعبارات كانت فيما مضى

نفحات من الإعجاب والمحبة ، ولكنها تحجرت الآن في ألقاب رسمية ،

هذه الطريقة تقتل كل عطف كريم أو محبة . وكل من يستمع إلى

يخس أن اللغة التي يوصف بها المسيح في أوروبا وأمريكا ليست من

أماليب الصداقة والحماسة لقلب طيب نبيل ، ولكنها لغة خاصة

رسمية — تصور نصف إله ، كما كان الشرقيون أو الأغريق

يصفون أوزيرس أو أبولو . لو قبلتم التعاليم التي فرضت عليكم فيما

مضى بطريقة السؤال والجواب فأوذيتم بها لوجدتم ان الأمانة

نفسها وإنكار الذات إنما كانتا من الخطايا الكبرى إذا لم تتصفا باسم المسيحية . وإن المرء لخير له أن يكون :

« وثنياً يرضع لبان مذهب بال »

من أن يُخدع في حقه الإنسانى ، فيأتى إلى الطبيعة ويجحد أن الأسماء والأماكن ، والبلدان والمهن — ليست وحدها — بل كذلك الفضيلة والحق ، قد حُبست واحتكرت . بل انك لن تكون رجلاً . لن تملك الأرض ، لن تجرؤ على العيش في سبيل القانون الأبدى الذى يحل بك ، ويصحب الجمال الأبدى الذى تعكسه لك الأرض والسما في كل صورة جذابة . وإنما ينبغى لك أن تُخضع طبيعتك لطبيعة المسيح . ينبغى لك أن تقبل تفسيرنا وترى صورته كما ترسمها العامة .

ان خير الأمور ما يُسلمنى إلى نفسى . وإن المذهب الرواقى العظيم : « أطع نفسك » ليشير في نفسى السمو والرفعة . ما يُظهر الله في نفسى يعزنى ، وما يُظهر الله خارج نفسى يجعلنى زائدة جلدية أو غدة دهنية ، فلا تبقى علة ضرورية لوجودى . وإنما تزحف على ظلال النسيان قبل الأوان ، فأموت إلى الأبد .

المشردون المقدسون أصدقاء فضيلتى ، وعقلى ، وقواى . انهم ينهونى إلى أن الأشعة التى تومض في عقلى ليست لى ، إنما هى لله ؛ وإلى أنهم كانوا يملكون مثل هذه الأشعة ، ولم يعصوا رؤى السماء ، ولذا فإنى أحبهم . عنهم يصدر الإيعاز النبيل ، الذى يدعونى إلى مقاومة الشر ، وإلى أن أخضع الدنيا ، وإلى أن أكون . وعلى

هذه الصورة وحدها يخدمنا المسيح بأفكاره المقدسة . أما أن يهدف إلى أن يهدي الإنسان بالمعجزة فذلك تدنيس للروح . الهداية الصادقة ، والمسيح الصادق ، إنما يتم اليوم — كما كان يتم دائماً — بتقبل العواطف الجميلة . وحقاً ان روحاً عظيماً غنياً كروحه إذا هبط بين قوم سذج كان له الرجحان ، فيشمل العالم ، كما فعل روحه . هؤلاء السذج يبدو لهم أن الدنيا وجدت له ، ولم يُشربوا روحه فيروا أنهم لا يكبرون أبداً إلا إذا تابوا إلى أنفسهم ، أو إلى الله في أنفسهم . وانها لمنفعة يسيرة أن تعطيني شيئاً ، ومنفعة كبرى أن تتمكني من أداء شيء بنفسى . ولسوف يأتى الوقت الذى يرى فيه الناس جميعاً ان هبة الله للروح ليست فى القداسة التى تزدهر وتتسلط وتستبعد كل شيء سواها ، وانما هى فى الخير العذب الطبيعى ، خير كالذى عندك والذى عندى . هى الهبة التى تدعو خيرا وخيرى إلى أن يوجد وأن يضموا .

وإن العسف الذى تنطوى عليه نعمة الوعظ العامة لايسىء إلى يسوع أقل مما يسىء إلى الأرواح التى يدنسها . ان الوعاظ لا يدركون انهم لا يجعلون بشرى المسيح سارة وانهم ينزعون عنه شارات الجمال وصفات السماء . اننى عندما أشاهد رجلاً جليلاً مثل ابا مينونداس أو واشنطن ، وعندما أرى بين معاصرى خطيئاً صادقا أو قاضياً عادلاً ، أو صديقاً حميماً ، وعندما اهتز لما فى القصيدة الشعرية من موسيقى وخيال ، حينئذ أرى جمالاً يُشتهى . وإن موسيقى المذمدين

العنيفة التي تغت بالإله الحق في كل العصور لترن في أذني فيطمئن لها كياني البشرى اطمئنانا أشمل من ذلك . وإذن فلا تحطوا من شأن حياة المسيح ومحاوراته فتخرجوها من دائرة هذا السحر ، وذلك بعزلها وتخصيصها . دعوا هذه الحياة وهذه المحاورات تقع من نفوسنا كما هبطت ، حية دافئة ، جزءاً من الحياة البشرية ومن منظر الطبيعة ومن اليوم السعيد .

٢ — والعيب الثاني في الطريقة التقليدية المحدودة لاستخدام فكرة المسيح نتيجة للعيب الأول ، وذلك هو أن القانون الخلقى ، قانون القوانين الذي يُدخل وحيه العظمة — بل الله نفسه — في الروح المتفتحة ، ذلك القانون لا يُكشف عنه باعتباره منبع التعاليم السائدة في المجتمع . فصار الناس يتحدثون عن الوحي كأنه قد أُوحي به وانتهى من عهد قديم ، كأن الله قد مات . وإن هذا الضعف في الإيمان ليخلق الواعظ نفسه ، كما يصبح خير النظم صوتاً متردداً غير فصيح .

ولا مرء في أن الاتجاه إلى جمال الروح يؤدي إلى الرغبة بل والحاجة إلى تلقين الآخرين المعرفة نفسها والمحبة ذاتها . فإن الفكرة إذا حُرمت التعبير عنها تبقى عبثاً على عاتق صاحبها . من يَرّ لا بد له دائماً من القول . لا بد له من التحدث عن حلمه بطريقة ما ، فيشره على صورة ما في جد وسرور ؛ فهو يمثل معبود روحه مرة بقلم الرصاص على لوحة التصوير ، وأخرى بالأزميل

God Dead

في الحجر ، أو في البروج وممرات الكنائس المصنوعة من الجرانيت ؛
ومرة في الأناشيد ذات الموسيقى الناعسة ؛ ولكن أحلامه أوضح
ما تكون وأثبت ما تكون في الألفاظ .

والرجل الذي تستهويه هذه البراعة يصبح لهذه الأحلام قسيساً
أو شاعراً ، وكلتا الوظيفتين قد وجدتاً منذ خلقت الدنيا . ولكن
انظر إلى شرط الوظيفة أو حدها الروحي . إن الروح وحدها تستطيع
أن تعلم . فلا يقدر على التعليم أي رجل دنس ، أو أي إنسان مادي ،
أو كاذب ، أو رقيق . وإنما الذي يعطى هو وحده الذي يملك ،
والذي يخلق هو الكائن ، والرجل الذي تهبط عليه الروح ،
والذي تتحدث الروح بوساطته ، هو وحده الذي يقدر على التعليم .
فالشجاعة ، والورع ، والمحبة والحكمة ، يمكنها أن تعلم .
ويستطيع كل إنسان أن يفتح بابه لهذه الملائكة ، ولسوف تأتبه بهبة
الأسنة . أما الرجل الذي يهدف إلى الكلام كما تمكنه الكتب ،
وكما تقول مجامع العلماء ، وكما ترشد الآراء الشائعة ، وتهدي المصالح ،
ذلك الرجل إنما يهذي ، وخير له أن يسكت .

ولهذه الوظيفة المقدسة تعترمون أن تكرسوا أنفسكم . ووددت
لو أحسستم بواجبكم كأنه نبض الرغبة والأمل . فإن وظيفتكم في
مقدمة الوظائف في هذه الدنيا ، وقد بلغت من الحق حداً لا يجعلها
تحتل نقصاً من الزيف . ومن واجبي أن أقول لكم ان الحاجة إلى
إلهام جديد لم تكن في أي وقت من الأوقات أشد مما هي الآن .

ومن الآراء التي عبرت لكم الآن عنها تستنبطون عقيدتي المؤلمة — التي يشاركني ويعتقد فيها معي عدد عديد — في التدهور الشامل للإيمان في المجتمع الذي يكاد أن يبلغ الموت في هذه الأيام . فالروح لم تنعظ ، والكنيسة كأنها تترنح وتؤول إلى السقوط ، وتكاد حياتها كلها أن تبيد . وفي هذه المناسبة ، من الجرم أن يتلطف معكم متلطف — أمله ورسالته أن يعلمكم العقيدة المسيحية — فيخبركم أن هذه العقيدة قد بُلّغت .

لقد حان الوقت لكي ترتفع التهمة المكبوتة التي يتمتم بها الرجال المفكرون ضد القحط الذي أصاب كنائسنا ، وذلك الأتني الذي يصدر عن القلب ، لأنه حُرم العزاء والأمل والجلال الذي لا يأتي إلا من تثقيف الطبيعة الخلقية — يرتفع فيُسمع خلال سنة التراخي ، ويعلو على طنين العمل المألوف . هذا العمل العظيم الخالد يقوم به الواعظ لم يؤد بعد . الوعظ تعبير عن الإحساس الخلقى عند تطبيقه على واجبات الحياة . خبروني في كم كنيسة ، وعن طريق كم من المبشرين ، يُدفع الإنسان إلى الإحساس بأنه روح لا يحد ، وإلى أن الأرض والسموات تتخلل عقله ، وأنه يتشرب دائماً روح الله ؟ وأين اليوم الذي يرن فيه ذلك الصوت الذي يدفع قلبي بموسيقاه إلى سكنى الفردوس ، فيؤكّد أن أصله في السماء ؟ أين أسمع مثل تلك الكلمات التي كانت في العصور القديمة تجذب المرء فيترك كل شيء ليتبعه — يترك الأب والأم ، والبيت والأرض ،

والزوج والولد ؟ أين أسمع القوانين العظمى للوجود الخلقى التى
ينطق بها الناطق فتملأ مسمى ، وأشعر بالتكريم عندما أهب أقصى
جهدى وأحر عواطفى ؟ ان اختبار الإيمان الصادق يجب — من غير
شك — أن يكون فى قدرته على سحر الروح والتسلط عليها ، كما
تتسلط قوانين الطبيعة على نشاط الأيدى — يتسلط علينا هذا
الإيمان إلى حد أننا نجد المتعة والشرف فى طاعته . يجب أن يختلط
الإيمان بضوء الشمس المشرقة والشمس الغاربة ، وبالسحاب الزائل ،
والطير المغنى ، وأنفاس الزهور ، بيد أن يوم الدين (يوم السبت)
قد فقد الآن عند القسيس سناء الطبيعة ، إنه يوم بغىض يسرنا
انتقضاؤه . وإنا لنستطيع أن نجعل — بل إنا لجاعلون فعلا —
حتى جلوسنا فوق مقاعد الكنيسة ، خيرا لنا من ذلك بكثير ،
وأقدس وأحلى .

الصلوة
{ وكلما اغتصب منبر الخطابة رجل رسمى ، تُخدع العابد واثباته
الكتابة . إننا ننكش عندما تبدأ الصلاة التى لاتسمو بنا وإنما تقضى
علينا وتلى إلينا . وإنا حينئذ لنتوق أن نلتف فى أرديتنا ولنتمس
— ما استطعنا ذلك — مكانا معتزلا لا نستمع فيه إلى أحد .
أصغيت مرة إلى واعظ فأغراني بشدة أن أقول إنى لن أقصد
الكنيسة مرة أخرى ، فالناس ، كما ظننت ، يذهبون إلى ما ألقوا
الذهاب إليه ، وإلا لما قصد المبد أحد فى المساء . إن عاصفة ثلجية
تهب حولنا ، هذه العاصفة حقيقية ، وليس الواعظ إلا خيالا ،

وإن العين لتحس التباين الأليم عندما تنظر إليه ، ثم تنظر من
النافذة خلفه إلى تلك الظاهرة الجوية الجميلة ، ظاهرة التليج . لقد
قضى حياته عبثاً . ليست لديه لفظة واحدة تدل على أنه ضحك أو بكى ،
تزوج أو أحب ، أثنى عليه أو خُدع أو اغتم . وإذا كان قد عاش
وعمل ، فإننا لم نكتسب من ذلك حكمة . إنه لم يتعلم سر مهنته
الرئيسي ، وهو أن يحوّل الحياة إلى الحقيقة . ولم يبت في
مبادئه واقعة واحدة من كل خبرته . هذا الرجل حرث وزرع
وتكلم واشترى وباع ، وقرأ الكتب ، وأكل وشرب ، وآلمه
رأسه ، ونبض قلبه ، وابتسم وكابد ، ومع ذلك ليس في كل حديثه
تلميح أو إشارة إلى أنه عاش أبداً . ولم يرسم خطأ واحداً من
التاريخ الحقيقي . إنما يُعرف الواعظ الحق بهذا : انه يشرح للناس
حياته ، الحياة التي اكتوت بنيران الفكر . أما الواعظ السيء
فلا يستطيع أن تقول من موعظته في أي عصر من عصور الدنيا
عاش ، وهل كان له ابن وولد ، وهل كان مالكا لعقار أو معدما ،
وهل كان يسكن المدينة أو الريف ، أو أي واقعة أخرى في تاريخ
حياته . وإنه ل يبدو عجيباً أن يقصد الناس الكنائس ، كأن يوتهم
لا تسلى البتة ، فأثروا هذا الضجيج الذي لا ينم عن معنى . ويدل
ذلك على أن في الإحساس الخلقى قوة جاذبة ترسل بصيصاً ضئيلاً من
الضياء على الملل والجهل وقد اتخذنا اسمه ومكانته . ان المستمع
الكريم على ثقة من أن قلبه يُمس أحياناً ، وعلى ثقة من أن هناك

ما يُبتَغى ، وأن هناك الكلمة التى يمكنها أن تحقق الهدف . وعندما يستمع إلى هذه الكلمات الباطلة يعزى نفسه لأنها تمت بالصلة إلى ذكرياته عن ساعات أحسن منها ، ولذا فهى تقعع ويعاود صوتها دون أن يصددها شيء .

لست أجهل أننا حينما نقدم الموعدة التى ليست لها قيمة لا يكون ذلك دائماً عبثاً باطلاً ، فإن لبعض الناس آذاناً طيبة تستمد من كل طعام تافه غذاء للفضيلة . وهناك حقيقة شعرية تختفى فى الأدعية والمواظ العادية . وهى وإن كانت تُذكر فى حماقة ، يمكن الإصغاء إليها فى حكمة . لأن كل دعاء منها أو موعظة تعبير مختار انطلق فى لحظة من لحظات الورع من روح مكتئبة أو مبتهجة ، وقد جعلت براعة الصياغة العبارة شيئاً مذكوراً . إن الدعوات — بل والعقائد الثابتة — فى كنائسنا أشبه شيء بالبرج الفلكى فى دندره أو الآثار الفلكية عند الهندوس ، تنعزل انعزالاً تاماً عن أى شيء مما يوجد اليوم فى حياة الناس وأعمالهم . انها تشير إلى أعلى نقطة بلغتها المياه فى وقت من الأوقات . غير أن هذه الدماعة هى من الطيبين المتدينين حذراً للشر والأذى . إن الصلاة الدينية عند كثير من الناس تنبعث عنها آراء وعواطف أخرى مخالفة . وليست بنا حاجة إلى لوم المصلى المهمل ، بل إنا لنشفق عليه من سرعة ما يلاقى من جزاء على استرخائه . وواحسرتاه على الرجل التعس الذى يُدعى إلى اعتلاء المنصة ولا يُعطى خبز الحياة . إن كل ما يقع تهمته له . هل يطلب المعونة

للارساليات الأجنبية والداخلية ؟ ما أسرع ما يعلو الحجل خديه
عندما يقترح على أبناء دأثرته الدينية أن يرسلوا مالا على بعد مائة
أو ألف ميل لإمداد طعام يسير كالذى عندهم فى بلدهم ، وربما كان
خيراً له أن يسير المائة أو الألف ميل هرباً من هذا الموقف . أم هل
يحث الناس على طريقة ربانية للعيش ، وهل يستطيع أن يطلب إلى
زميل له أن يأتى إلى الاجتماعات الدينية يوم السبت ، فى حين أنه
وهم جميعاً يعرفون إن أقصى ما يتوقعونه هناك ضئيل ؟ وهل يدعوهم
دعوة خاصة للعشاء الربانى ؟ أنه لا يجرؤ على ذلك . وإذا كان القلب
لا يدفىء هذه الشعائر ، فإن صوريتها الجوفاء الجافة الصارخة تصبح
واضحة ، فلا يستطيع أن يجابه رجلاً ذا فطنة ونشاط ويدعوه بغير
وجل . وماذا عساه قائل فى الشارع للقروى الجرىء الذى يكفر
بالله ؟ . ان القروى الكافر يرى الخوف فى وجهه القسيس
وهيئته ومشيته .

دعنى لا أصم إخلاص هذه الدعوى بالتغاضى عن حقوق الرجال
الأخيار . إننى أعرف وأقدر نقاء الضمير وصرامته عند عدد كبير
من رجال الدين . إن ما تحتفظ به الصلاة العامة من حياة إنما مرده
إلى فئة مبعثرة من الرجال الأتقياء ، الذين يعظون الناس هنا وهناك
فى الكنائس ، والذين يقبلون أحياناً فى رقة بالغة مذاهب الأقدمين ،
بيد أنهم لم يقبلوا من غيرهم — ولكن من قلوبهم — الدوافع
الحقيقية للفضيلة ، ولذا فهم لا يزالون يرغموننا على حبهم ورهبتهم

لقداسة أشخاصهم . ثم ان الاستثناء لا يُلتَمَس في وعاظ قلائل
بارزين بمقدار ما يُلتَمَس في أحسن ساعاتنا جميعاً ، في آمالنا
الصادقة . أجل ، في لحظات الإخلاص عند كل إنسان ، ولكن
مهما يكن الإستثناء ، فمن الحق مع ذلك ان القاليد من مميزات
الوعظ في هذا البلد ، وهو يصدر عن الذاكرة ، ولا يصدر عن
الروح ، وهو يرمى إلى المألوف ، ولا يرمى إلى الضروري والأبدى ،
وإن المسيحية التاريخية بذلك تحطم قوة الوعظ ، بصرفه عن كشف
الطبيعة الخلقية عند الإنسان ، حيث يكون السمو ، وحيث مصادر
الدهشة والقوة . وما أقسى ما في ذلك من ظلم لذلك القانون — وهو
فرحة الأرض بأسرها — الذي يستطيع وحده أن يجعل الفكر عزيزاً
غنياً ، ذلك القانون الذي تحذو حذو صحته الأكيدة المدارات
الفلكية فلا تجيد الاحتذاء . لقد انقلب هذا القانون هزلاً وانحطت
قيمته ، ولم يذكر بخير أو بحمد ، بل ولم ينطق أحد بصفة من صفاته
أو كلمة من كلماته . وأن منبر الخطابة بإغفاله هذا القانون إنما يغفل
سبب وجوده ، ويتحسس شيئاً لا يدركه . ولنقص في هذه الثقافة
اعتلت روح الجماعة وفقدت إيمانها ، وهي ليست بحاجة إلى شيء
حاجتها إلى تربية مسيحية صارمة عالية رواقية ، كي تعرف نفسها
وتعرف اللاهوت الذي يتكلم بوساطتها . أن الإنسان اليوم ليخجل
من نفسه ، وهو يتوارى ويتسلل في هذه الدنيا ، يقصد التسامح
معه ويقصد الإشفاق عليه . وقل أن تجد في كل ألف عام رجلاً

يجرؤ على الحكمة وعلى الخير ، فيستقطر دموع النوع البشرى
ويستمطر بركته .

ولقد صرت عصور أمكن فيها بالتأكيد أن يظهر إيمان أكبر
في الأسماء والأشخاص وسط ركود التفكير في بعض الحقائق . فقد
وجد البيورتنان في إنجلترا وأمريكا في مسيح الكنيسة الكاثوليكية
وفي العقائد الموروثة من روما مجالا لورعهم الشديد وتشوقهم إلى
الحرية المدنية . غير أن مذهبهم أخذ في التلاشي ، ولم ينشأ مذهب
آخر ليتخذ مكانته . ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يقصد إحدى
كنائسنا ، وأفكاره معه ، دون أن يحس أن ما كان للكنيسة من
سلطان على الناس قد ولى أو هو في سبيل الإنهاء . لقد فقدت
الكنيسة سيطرتها على عواطف الأخيار ومخاوف الأشرار . وفي
الريف ، وفيما يجاورنا من بلاد ، أصبحت نصف الدوائر الدينية
« تنشد لمجرد النشيد » على حد التعبير المحلي . وبدأت البوادر تدل
على أن الأخلاق والدين تختفي من الاجتماعات الدينية . سمعت رجلا
متديناً يقيم لليوم الديني وزنه يقول في حرارة القلب « يبدو أنه من
الإثم أن يقصد المرء الكنيسة يوم الأحد » . وليس الباعث الذي يدفع
الأخيار إلى هناك اليوم سوى الأمل والإنظار . وما كان فيما مضى
أمراً عارضاً ، وهو أن يلتقي في يوم من الأيام الأخيار والأشرار في
الدائرة الدينية ، والفقراء والأغنياء ، والعلماء ، والجهلاء ،
والشباب والشيخوخ ، كما يلتقي الزملاء في بيت واحد ، دليلاً

على المساواة في حق الروح — قد صار دافعاً ذا أهمية قصوى
إلى الذهاب إلى هناك .

أظن أنني في هذين الخطأين — أيها الأصدقاء — أجد أسباب
انهيار الكنيسة والجحود القاتل بالله . وأنة كارثة أكبر من فقدان
العبادة يمكن أن تحل بأمة من الأمم ؟ إن ذلك يؤدي إلى تدهور
كل شيء . وذلك يدعو النابغين إلى هجر المعابد لارتداد الأسواق
ومجالس الشيوخ . ويصير الأدب ماجناً ، والعلم بارداً . ولا تستضيء
عيون الشباب بالأمل في عوالم أخرى ، وتخلو الشيخوخة من
الوقار . ويعيش المجتمع للتوافه ، وبعد ما يموت الناس لا نذكرهم .

وقد تسألوني الآن يا إخواني : ماذا نستطيع أن نصنع في هذه
الأيام اليائسة ؟ انني وصفت لكم العلاج في أساس شكواي من
الكنيسة ، إننا أوجدنا بين الكنيسة والروح تبايناً . وفي الروح
يجب أن نلتمس الخلاص . حينما يحل الإنسان ، يحل التجديد ، إنما
القديم للأرقاء . إذا جاء الإنسان باتت جميع الكتب مقروءة ،
وصار كل شيء شفافاً ، وكل الديانات صوراً . الإنسان هو المتدين ،
وهو محدث العجائب ، وإنه ليبري وسط المعجزات ، وكل الناس
يباركون ويلعنون . والإنسان الصادق وحده هو الذي يقول :
لا ونعم فقط . إن جمود الدين ، والزعم أن عصر الإلهام قد ولى ،
وأن الإنجيل قد استغلق ، والخوف من الخط من شخصية المسيح

بتمثيله في صورة رجل ، كل ذلك يدل في وضوح كاف على خطأ
علمنا بالدين . وواجب المعلم الصادق أن يرى أن الله كأئن اليوم ،
لا كان فيما مضى . وانه يتكلم ، لا تكلم وانتهى . إن المسيحية
الصادقة — أقصد إيماننا كإيمان المسيح في قدرة الإنسان التي لاتحد —
قد ضاعت . ولم يعد أحد يعتقد في روح الإنسان ، وإنما يعتقد الناس
في رجل أو شخص هرم وولى . ويلي ! إننى لا أرى أحداً يسير
وحيداً . إنما يسير الناس قطعاناً إلى هذا القديس أو ذلك الشاعر ،
غافلين عن الله الذى يرى في الخفاء . انهم لا يستطيعون الرؤية في
الخفاء ، ويؤثرون أن يكونوا عمياناً وسط الجماهير . انهم يحسبون
أن الجماعة أحكم من روحهم ، ولا يدركون أن روحاً واحدة ، وأن
روحهم أحكم من العالم بأسره . انظروا كيف انما وأقواما تسبح
فوق بحر الزمن ولا تخلف وراءها موجاً خفيفاً يدل على المكان
الذى طفت فوقه أو غاصت فيه ، في حين أن روحاً واحداً طيباً يجعل
اسم موسى ، أو زينون ، أو زرادشت ، مقدساً إلى الأبد . ليس
هناك من يحاول ذلك الطموح الصارم كي يصبح « نفس » الأمة
و « نفس » الطبيعة ، وإنما كل فرد منكم يود أن يكون تابعاً سهلاً
لفكرة من أفكار المسيحية ، أو رابطة من الروابط الطائفية ، أو
رجل من الرجال البارزين . وأنت لو تركت علمك الخاص بالله ،
وتركت عاطفتك ، واتخذت علماً ثانوياً ، كهلم القديس بولس ،
أو جورج فوكس ، أو سودنبرج ، بعدت عن الله عاماً بعد عام

ما دامت هذه الصورة الثانوية ، فإذا دامت الصورة — كما هي اليوم — قرونا ، فإن الهوة تنفرج إلى حد لا يكاد أن يعتقد الناس معه أن فيهم شيئاً إلهياً .

وإني أنصحكم قبل كل شيء أن تسيروا وحدكم ، وأن ترفضوا النماذج الطيبة ، حتى تلك التي يقدسها الناس في خيالهم ، وتشجعوا على محبة الله بغير وسيط أو حجاب . وسوف تجدون من الأصدقاء من يكفي لأن يطلعكم على أمثال وزلي وأوبرلين ، والقديسين والأنبياء لكي تفقدوا بهم . اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار ، ولكن ليقل كل منكم « أنا كذلك إنسان » . إن التقليد لا يمكن أن يرتفع فوق النموذج ، والمقلد يحكم على نفسه بضعف لا رجاء فيه ، وإنما يخترع المخترع لأن الاختراع لديه طبيعة ، ولذا فإن لاختراعه سحرآ . أما المقلد فالطبيعي عنده شيء آخر . انه يحرم نفسه جماله كي يقرب من جمال إنسان آخر .

كل منكم منشد من منشدي الروح القدس ولد حديثاً ، فلينبذ وراءه كل تقليد ، وليعرف الناس مباشرة بالله ، وليُراع كل منكم أولاً ذلك فحسب : إن السائد والمألوف والسلطة والمتعة والمال ، ليست له شيئاً يذكر — ليست ضمادات على أعينكم تمنعكم من النظر — وإنما أريدكم أن تعيشوا مع ميزة العقل الذي لا يحد . ولا يشغلنكم شاغل عن زيارة جميع الأسر ، وكل أسرة ، في حدود دائرتكم الدينية بين الحين والحين . وعندما يقابل أحدكم رجلاً أو امرأة

منهم ، فليكن له انسانا مقدسا ، وليكن له فكراً وفضيلة . ولتجد
الآمال المحدودة لهؤلاء الرجال والنساء لديكم أصدقاء ، ولتجد
غرائزهم المعتهنة متنفساً طيباً في جوكم . ولتعرف شكوكهم أنكم
سبقتموها بالشك ، وليشعر إحساسهم بالتعجب أنكم سبقتموه بالعجب .
إنكم إن وثقتم في أنفسكم ظفرتم بثقة أكبر في نفوس الآخرين .
وبرغم ما عندنا من حكمة في الأمور المادية ، وبرغم ما في نفوسنا
من استرقاق للعادات يحطم الروح ، فإننا لانشك في أن الناس جميعاً
لديهم أفكار سامية ، وإن الناس جميعاً يقدرّون ساعات الحياة
الحقيقية القليلة حق قدرها . انهم يحبون أن يُسمعوا وأن يُشاهدوا
وهم يحسون بالمبادئ . إن المقابلات القليلة التي اجتمعنا فيها — في
سنوات موحشة من عمل رتيب وخطيئة — بالأرواح التي جعلت
أرواحنا أحكم ، والتي عبرت عما كنا نفكر فيه ، والتي أخبرتنا بما
كنا نعلم ، والتي سمحت لنا أن نكون ما كنا في دخيلة أنفسنا ، هذه
المقابلات نجدها مضيئة في الذاكرة . أدوا للناس واجب القسيس ،
يتبعوكم — في حضرّتكم وغيبّتكم — بمحبّتهم كاملاً لئلا تـ .

ولتحقيق هذا الغرض ينبغي لنا ألا نهذف إلى مراتب عادية
من الجدارة . ألا نستطيع أن تترك — لمن يحب ذلك — الفضيلة
التي تلمع لكي تظفر ببناء الجماعة ، ونقتحم نحن الأماكن النائية
المنعزلة القمينة بالتقدير والجدارة المطلقة ؟ ما أيسر أن نبلغ مستوى
الخير في الجماعة ، وما أرحص الحصول على ثناء الجماعة . ويكاد جميع

الناس أن يقنعوا بهذا التقدير الميسور . غير ان أول أثر من آثار الاتصال بالله هو إهمال هذا التقدير . من الناس من لا يمثل ولا يخطب ، ولكنه ذو أثر . هؤلاء أعظم من الشهرة ومن الظهور . انهم يزدرون الفصاحة ، وكل ما نسميه الفن والفنانين يبدو لهم شديد الصلة بالمظاهر والأغراض القرية ، وبالمبالغة في كل ما هو محدود وأناى ، وبكل ما يفقد الصفة العالمية . ان الخطباء والشعراء والقواد إنما يعتدون علينا كما تعتدى علينا النساء الحسنات ، أى بمقدار ما نتسامح ونخضع . استصغر شأنهم بما لديك مما يشغل العقل . استهن بهم — وإنك لتستطيع ذلك جداً — بالأغراض العالمية العليا ، استهن بهم يحسوا تواء إنك صاحب حق ، وانه ينبغي لهم أن يضيئوا فى الأماكن الدنيا . إنهم يشعرون كذلك بحقك ، لأنهم وإياك معرضون لفيض الروح العليمة بكل شئ ، التى تتبدد أمام ظهورها الوهاجة الظلال الضئيلة ودرجات الذكاء المختلفة فى المؤلفات التى نحسبها أحكم من غيرها أو أحكم من كل شئ .

دعنا فى مثل هذا الاجتماع الرفيع ندرس السمات الكبرى للاستقامة : هى حب للخير شديد ، واستقلال عن الأصدقاء ، حق لا تنقص الرغبات المتعسفة عند أولئك الذين يحبوننا من حريتنا ، ولكى نقاوم من أجل الحق تلك الشفقة التى تتدفق بغير حساب ، ونناشد عواطف أرقى من هذه العواطف ؛ وكذلك نوع من الامتياز البارز ، الامتياز الذى لا يأبه برأى الناس ، ولكنه فى صميمه

وفي ظاهره فضيلة ، من المسلم به أنها تخطو الخطوة الصحيحة
الجريئة الكريمة دون أن يفكر أحد في الشاء عليها (وهو أسمى
صفة نعرف بها هذا العنصر الجميل) انك تمتدح المهرج إذا قام بعمل
طيب ، ولكنك لا تثني على الملاك . والصمت الذي نتقبل به جدارة
الجدير كأنها أقرب شيء في الدنيا إلى الطبيعة ، هو أعلى من كل
تصفيق . أمثال هذه الأرواح — عندما تظهر — هي حرس الفضيلة
الإمبراطوري ، هي المعين الدائم ، هي التي تتحكم في الأقدار . وليس
المرء بحاجة إلى الشاء على شجاعته . فهي قلب الطبيعة وروحها .
أيها الأصدقاء ، ان لدينا لموارد لم نستغلها ، ومن الناس من ينهض
منتعشاً حينما يستمع إلى تهديد ، ومن الناس من تأتيم الأزمات
رشيقة مستحبة كالعروس ، وهي الأزمات التي تفزع أكثر الناس
وتصيبهم بالشلل ، لأنها لا تتطلب منهم القدرة على التبصر والتدبر ،
وإنما تتطلب الإدراك والسكون والاستعداد للتضحية . يقول نابليون
عن مسينا انه لم يكن نفسه حتى بدأت رحي المعركة تدور ضده .
وعندما بدأ الموتى يسقطون حوله صفوفاً ، تيقظت قدرته على الجمع
بين الأشياء ، فارتدى ثياب الفرع والنصر في آن واحد . وكذلك
الحال في الأزمات الوعرة ، وفي القدرة على الاحتمال التي لا تسلك ،
وفي الأغراض التي لا تعباً بالعواطف فتُظهر الملاك الخفي . ولكن
هذه أعجاب لا نكاد نذكرها أو نتطلع إليها دون ندم أو خجل .
ولنحمد الله على وجود هذه الأشياء .

والآن دعنا نبذل ما استطعنا من جهد كي نعيد إشعال النار الحامدة التي أوشكت أن تنطفئ على المذبح . إن مساوى الكنيسة القائمة الآن ظاهرة . وإنا لنتساءل مرة أخرى : ماذا نصنع ؟ انى أعترف أن كل محاولة للتفكير فى عبادة جديدة وإقامتها على شعائر وصور جديدة يبدو لى عبثاً باطلا . ان الإيمان يصنعنا ولا نصنع الإيمان ، والإيمان يصنع صورته الخاصة به . وكل محاولة لاستنباط نظام ما محاولة فاترة فتور العبادة الجديدة التى أوجدها الفرنسيون للإلهة « العقل » . انها اليوم لعب وزينة ، ولكنها تنتهى غداً بالجنون والقتل . وخير لكم أن تتنفسوا أنفاس الحياة الجديدة عن طريق الصور القائمة فعلا . لأنكم إن دبتم فىكم الحياة وجدتم هذه الصور مرنة وجديدة . وعلاج نقائصها هو الروح أولا ، والروح ثانياً ، والروح فى كل حين . ان بابوية بأسرها من الصور تستطيع نبضة واحدة من نبضات الفضيلة أن ترفعها وتحييها . لقد أعطتنا المسيحية ميزتين لا تقدران ، أولاهما « اليوم الدينى » ، وهو بهجة الدنيا بأسرها ، التى يشرق ضياؤها فىلقى ترحيباً فى برج الفيلسوف كما يلقاه فى المصنع أو غرفة السجن ، ويوحى فى كل مكان — حتى للأدنياء — بكرامة الكائن الروحانى . فليقم هذا اليوم دائماً محراباً ترد المحبة الجديدة والإيمان الجديد والشهد الجديد إليه سناء أبهى من سنائه الأول للبشر . وثانيتهما فكرة الوعظ . أو حديث المرء للناس . وهو بطبيعته أكثر الأدوات وأكثر الصور مرونة .

وماذا يمنعكم اليوم ، في كل مكان ، فوق المنابر ، وفي قاعات المحاضرات ،
وفي البيوت والحقول ، وحيثما ترشدكم دعوة الناس ، أو ترشدكم
ظروفكم ، ماذا يمنعكم من النفوذ بالحق الذي تعلمتموه من حياتكم
ومن ضماؤكم ؟ ماذا يمنعكم من تشجيعكم لقلوب الناس المترتبة الواهنة
بأمل جديد وكشف جديد ؟

انى لأتطلع إلى الساعة التي يتكلم فيها في الغرب كذلك ذلك
الجمال العلوى الذى افقتنت به أرواح أولئك الشرقيين ، وبخاصة
أولئك العبريين ، الذين تحدث الأنبياء من خلال شفاههم لكل
زمان . ان الكتب المقدسة العبرية والأغريقية تتضمن عبارات خالدة
كانت للملايين خبز الحياة . ولكن هذه العبارات ليس لها تكامل
الملاحم ، متقطعة ، لا تبدو للذهن منظمة مرتبة . وإنى لأتطلع إلى
المعلم الجديد الذى يتابع هذه القوانين المشرقة ، حق يراها
كاملة الامتدادة ، ويرى جمالها الكامل الشامل ، ويرى العالم
مرآة الروح ، ويرى التطابق بين قانون الجاذبية وطهارة القلب ،
ويثبت أن ما ينبغى أن يكون ، أو الواجب ، هو والعلم والجمال
والسرور شيء واحد .

المقالات

المجموعة الأولى

(نشر أمهرسن كتابه الثانى فى عام ١٨٤١ . وقد صدر بعد ذلك مباشرة تقريباً فى انجلترا بمقدمة لكارليل . وأكثر المقالات يتألف من محاضرات ألقاها أمهرسن فى أماكن متنوعة خلال السنوات السابقة) .

التاريخ

ليس هناك كبير أو صغير
عند الروح التي تصنع كل شيء :
والتي حيثما تحل ، تكون جميع الأشياء ،
وأنها لتحل في كل مكان .

* * *

أنا مالك الكرة الأرضية ،
ومالك النجوم السبعة والسنة الشمسية ،
ومالك يد قيصر ، وذهن أفلاطون .
ومالك قلب السيد المسيح ، ولحن شيكسبير .

للناس جميعاً عقل واحد مشترك . وكل فرد مَنفَذ لهذا العقل ،
وله كاه . ومن يُعطى القدرة على التفكير يصبح مالكا حراً لضيعة
العقل كلها . فما فكر فيه أفلاطون يستطيع أن يفكر فيه ، وما
أحس به أى قديس يستطيع أن يحس به . وما حدث لأى إنسان
فى أى وقت يستطيع أن يدركه . من يصل إلى هذا العقل العالمى
يكن شريكاً فى كل ما يُعمل أو ما يمكن أن يعمل ، لأن ذلك هو
العامل الوحيد الذى يسود .

والتاريخ سجل لأعمال هذا العقل . ولا تظهر قيمته إلا من سلسلة الأيام كلها . ولا يمكن تفسير الإنسان بأقل من التاريخ بأسره . ان الروح الإنسانية تسير قدما في غير عجلة وغير ركود من البداية لكي تضم إليها كل موهبة وكل فكرة وعاطفة تخصها ، في حوادث ملائمة . غير أن الفكرة تسبق الواقع دائما ، وكل وقائع التاريخ سبق وجودها في العقل على صورة قوانين . وكل قانون بدوره يجعله الظروف سائداً ، وحدود الطبيعة لا تعطى القوة إلا لقانون واحد في الوقت الواحد . والإنسان هو موسوعة المعارف كلها . وانك لو اجد خلق ألف غابة في ثمرة واحدة من ثمار البلوط . وقد كانت مصر واليونان وروما وبلاد الغال وبريطانيا وأمريكا مطوية في الإنسان الأول .

هذا العقل البشرى دوّن التاريخ ، وهو الذى لا بد أن يقرأه ، وعلى أبي الهول أن يحل لغز نفسه . وإذا كان التاريخ كله في إنسان واحد فإن التجربة الفردية تفسره كله . وهناك علاقة بين ساعات حياتنا وقرون الزمان . وكما ان الهواء الذى استنشقه ينسحب من مستودعات الطبيعة العظمى ، وكما أن الضوء الذى يسطع فوق كتابي يصدر عن نجم يبعد ألف مليون من الأميال ، وكما أن وضع جسمي يعتمد على ائزان القوى الطاردة والقوى الجاذبة ، فكذلك الساعات ينبغي أن تتعلم من العصور ، والعصور تفسرها الساعات . وكل فرد صورة مجسدة جديدة للعقل العالمى . تتركز فيه كل خواص

هذا العقل . وكل حقيقة جديدة في خبرته الخاصة تلقى ضوءاً على ما قامت به جماعات كبرى من الناس . وأزمات حياته تشير إلى الأزمات القومية . وقد كانت كل ثورة في مبدأ أمرها فكرة في عقل فرد واحد ، فإذا ما طرأت الفكرة عينها لفرد آخر فهي مفتاح ذلك العصر . وكل إصلاح كان فيما سبق فكرة خاصة ، فإذا ما أصبح فكرة خاصة مرة أخرى ، فإنه يحل مشكلة العصر . والحقيقة التي تُروى ينبغي أن تقابل في نفسى شيئاً لكي يمكن تصديقها وفهمها . وينبغي لنا حين نقرأ أن نصبح من اليونان أو الرومان أو الأتراك ، وأن نصبح من القيسيين والملوك ، ومن الشهداء والقاتلين . ينبغي لنا أن تربط هذه الصور بحقيقة من الحقائق في خبرتنا الخفية ، وإلا ما تعلمنا شيئاً حق العلم . إن ما حل بأسدربال أو قيصر بورچيا ، يفسر قوى العقل وفساده كما يفسرها ما حل بنا . كل قانون جديد وكل حركة سياسية لها لديك معنى . قف أمام كل لوحة من لوحاتها وقل « تحت هذا القناع أخفت طبيعتي المتغيرة نفسها » . وفي ذلك علاج للنقص الذي نعانيه من اقترابنا الشديد من أنفسنا ، وهو يلقى بأعمالنا في حدود المنظور . وكما أن السرطان والحمى والعقارب والميزان ووعاء الماء تفقد وضاعتها عندما تُتعلق بدائرة البروج ، فإنني كذلك أستطيع أن أرى آثامى بغير حرارة في أشخاص سليمان والسييادس وكاتلاين الأقدمين .

هي الطبيعة المطلقة التي تكسب الأفراد والأشياء قيمتها .

والحياة الإنسانية التي تحتوى على ذلك لغز ولا يمكن اقتحامها ، ونحن نحيطها بالعقوبات والقوانين . ومن ذلك تستمد جميع القوانين السبب في وجودها ، وكلها تعبر بدرجات مختلفة من الوضوح عن سلطانها على هذه الروح العليا التي لا تحد . والملكية كذلك تستولى على الروح ، وتشمل حقائق روحية عظمى ، ونحن بالفريزة في مبدأ الأمر متمسك بها بحمد السيف والقانون واتحادات واسعة معقدة . والإحساس الغامض بهذه الحقيقة هو ضياء يومنا كله ، وأقصى أمانينا . هو ذريعتنا للتربية والعدالة والإحسان ، وأساس الصداقة والمحبة ، والبطولة والعظمة التي تتعلق بالأعمال التي تتصل بالاعتماد على النفس . وما يستلفت النظر أننا — رغم إرادتنا — نطالع دائماً باعتبارنا كائنات عليا . فالتاريخ العالمى ، والشعراء ، وكتاب القصص الخيالية ، فى أنغم صورة لهم — فى الكهنوت وفى قصور الملوك ، وفى انتصار الإرادة أو العبقريّة — لا تعدم منا آذانا مصغية فى أى مكان ، ولا تجعلنا فى أى مكان نحس أننا دخلاء ، وإن ذلك من شأن رجال أحسن منا . بل انه لمن الحق أننا نحس بأقصى الطمأنينة إزاء أعظم ما أبدعت قرائحهم . كل ما يقوله شيكسبير عن ملك من الملوك يحس مدى صدقه على نفسه ذلك الصبي المغمور الذى يقرأ فى إحدى الزوايا . وإننا لنعطف على لحظات التاريخ الكبرى ، والكشوف العظمى ، وكل مقاومة عنيفة ، والخصائص الكبرى للرجال ، لأنه — فى هذه الحالة أو تلك — قد نفذ قانون ،

أو جرى البحث في محيط ، أو وجدت أرض ، أو ضربت من أجلنا ضربة ، كما لو كنا فعلنا نحن أنفسنا — أو شجعنا على ذلك — في هذا الموقف .

وإنما لنهتم هذا الاهتمام عينه بالأحوال والأشخاص . نكرّم الغنى لأنه يملك في ظاهره الحرية والنفوذ والجلال التي نشعر بملاءمتها للإنسان وملاءمتها لنا أيضاً . ولذا فإن كل ما يضيفه روائي أو كاتب مقال شرقي أو حديث على « الرجل الحكيم » إنما يصف لكل قارئ آراءه الخاصة ، ويصف له نفسه التي يمكن تحقيقها ولكنه لم يحققها بعد . والأدب كله إنما يكتب شخصية الرجل الحكيم . وليست الكتب والآثار والصور والأحاديث سوى رسوم يحد فيها القارئ الملامح التي تكون نفسه . الصامت والمفصح يثنى عليه ويناديه ، وحيثما انتقل تنبهه الإشارات الشخصية . ولذا فإن الطّموح الصادق ليس بحاجة إلى التماس الإشارات الشخصية التي تتضمن التمجيد في الحديث . فهو يستمع إلى الشئ المستطاب على تلك الشخصية التي يبحث عنها — لا على نفسه — في كل كلمة تقال بشأن الشخصية ، بل أكثر من ذلك في كل حقيقة وكل ظرف ، في النهر الجاري وفي حفيف نبات القمح . من الطبيعة الصامته ، ومن الجبال ومن أنوار السموات يُشاهد الشئ ، ويُقدّم الولاء ، ويفيض الحب .

هذه الإشارات ، التي كأنها تساقطت من النوم ومن الليل ،

دعنا نستخدمها في وضع النهار . ينبغي للطالب أن يقرأ التاريخ قراءة إيجابية لا سلبية ، وينبغي له أن يقدر حياته متنا ، والكتب شرحا . فتجد آلهة التاريخ نفسها مرغمة على النطق بالكلام المقدس ، وهي لا تفعل ذلك البتة لأولئك الذين لا يقدرّون أنفسهم . ولست آمل أن يقرأ التاريخ قراءة صحيحة رجل يحسب أن مافعله في عصر بعيد رجال رن صيتهم في الآفاق له معنى أعمق مما يفعل هو اليوم . إنما الدنيا قائمة لتعليم كل إنسان ، وليس هناك عصر أو حالة من حالات المجتمع أو أسلوب من أساليب العمل في التاريخ ، لا يناظره شيء في حياته . كل شيء يميل بشكل عجيب أن يختصر نفسه ويقدم فضيلته إليه . وعليه أن يدرك أنه يستطيع أن يعيش التاريخ كله في شخصه . وينبغي له أن يبقى في وطنه صلباً ، ولا يجشم نفسه مشقة التعرض لاستبداد الملوك والإمبراطوريات ، وإنما يعرف أنه أعظم من بلدان الدنيا كلها وحكوماتها . يجب أن ينقل وجهة النظر التي منها يُقرأ التاريخ عادة ، من روما وأثينا ولندن إلى نفسه ، ولا ينكر اعتقاده أنه الحكم ، وإذا كانت إنجلترا أو مصر لتقول له شيئاً ، فليتدبره ، وإذا لم تذكر له شيئاً ، فليقتيا إلى الأبد صامتين . يجب أن يبلغ ذلك المشهد المرتفع حيث تقدم الحقائق مغزاها الخفي ، وحيث يكون الشعر والتاريخ سواء ثم يثبت هناك . هذه الغريزة من غرائز العقل ، وهي الهدف الذي ترمى إليه الطبيعة ، تكشف عن نفسها في انتفاعنا بروايات التاريخ

الأساسية . إن الزمن يحول الحقائق ذات الاتجاه الواحد الثابت إلى
أثير مشرق . ولا تجدى المراسى والجبال والأسوار في إبقاء الحقائق
حقائق . فها هي ذى بابل وطروادة وصور وفلسطين بل وروما في
عهدا الأول تتحول إلى خيال . وجنة عدن ، والشمس الساكنة
في جبيون ، هي منذ اليوم شعر عند جميع الأمم . من ذا الذى يهمه
ما كانت الحقيقة عليه ، بعد أن جعلنا منها مجموعة نجمية معلقة في
السما شارة خالدة ؟ ولابد أن تسير لندن وباريس ونيويورك في نفس
الطريق . قال نابليون : « ليس التاريخ سوى أسطورة اتفقنا عليها »
إن حياتنا الراهنة لتلتصق بمصر واليونان وبلاد الغال وانجلترا ،
وبالحروب والاستعمار والكنيسة والبلاط والتجارة ، كما تلتصق بكثير
من الزهور وزخارف الطبيعة الرزينة والمرحة . ولن أبسطها أكثر
من ذلك ، فإني أعتقد في الخلود ، وإني لأستطيع أن أجد في ذهني
اليونان وآسيا وإيطاليا وإسبانيا والجزر — وأن أجد فيه عبقرية
كل عصر (بل وجميع العصور) ، وما يتميز به من أسس الخلق
والإبداع .

إننا نلتقي دائماً بحقائق التاريخ المؤكدة في تجاربنا الخاصة ،
ونتحقق من صدقها هنا . ويصبح التاريخ كله ذاتياً ، أو بعبارة
أخرى ليس هناك تاريخ ثابت ، إنما هناك سير فحسب . وكل عقل
ينبغي له أن يعرف الدرس كله لنفسه — وينبغي له أن يطوف
الأرض كلها . ما لا يراه وما لا يحياه لا يعرفه . وما لحضه العصر

السابق في صيغة أو قاعدة لسهولة التناول ، يفقد العقل ميزة تحقيقه لنفسه بسبب الحائل الذي تقيمه هذه القاعدة . وفي مكان ما وفي وقت ما يتطلب العقل ، ويجد ، عوضاً عن هذه الخسارة بأدائه العمل بنفسه . لقد اكتشف فرجوسن في الفلك أشياء كثيرة كانت معروفة من زمان قديم ، وأفاد من ذلك .

التاريخ إما أن يكون ذلك أو لا يكون شيئاً . كل قانون تنفذه الدولة يشير إلى حقيقة في الطبيعة البشرية ، وهذا هو كل شيء . يجب أن نرى في أنفسنا الباعث الحقيقي لكل واقعة ، نرى كيف يمكن أن تكون وكيف ينبغي أن تكون . هكذا يجب أن نجابه كل عمل عام أو خاص ، وأن نجابه خطابة بيرك ، وانتصار نابليون ، واستشهاد سير توماس مور ، وسدني ، ومار مديوك روبنسن ، وأن نجابه حكم الإرهاب في فرنسا ، وشق الساحرات في سالم ، وتعصب حركة الإحياء ، والتنويم المغناطيسي في باريس ، أو في أمريكا . إننا نفرض أننا تحت تأثير مشابه لهذا تتأثر تأثيراً مشابهاً ، ونقوم بعمل مشابه ؛ ونهدف إلى أن نسيطر على الخطوات التي خطاها زميل أو قريب لنا ، ونبلع ما بلع من رفعة أو انحطاط .

كل بحث في القديم — كل تشوق إلى معرفة الأهرام ، وحفريات المدن ، وستوننج ، ودوائر أوهيو والمكسيك وممفيس — ينبغي أي ينتهي بالاستغناء عن المكان والزمان البعيدين بما يتصفان به من همجية وتوحش واستحالة ، ليحل محلها المكان والزمان

القريبان - إن بلزوني يحفر وقيس قبور المومياء والأهرام في طيبة حتى يرى غاية الفرق بين هذا العمل الهائل وبين نفسه ، فإذا ما أقنع نفسه عموماً وتفصيلاً أن ذلك العمل العظيم قام به شخص مثله ، بمثل سلاحه ودوافعه ، ولأغراض كان ينبغي له هو نفسه كذلك أن يعمل لها ، حلت المشكلة ، فتعيش أفكاره بين صفوف المعابد وآباء الهول والسراديب جميعاً ، وتربهم كلهم راضية مرضية ، وهذه الأشياء تحيا مرة أخرى في العقل ، أو تصبح حاضراً بعد ماضيها .

إن الكاتدرائية القوطية لتؤكد أننا نحن الذين شيدناها ، ونحن الذين كذلك لم نشيدها ، لاشك أنها من صنع الإنسان ، ولكنها لا نبجدها في إنسانتنا . ولكننا نطابق بين أنفسنا وبين تاريخ إنشائها ونضع أنفسنا مكان منشئها وفي حالته . إننا نذكر ساكني الغابات ، والمعابد الأولى ، وكيف كان النموذج الأول ، وزخرفته ، كلما زادت ثروة الأمة . إن القيمة التي يكتسبها الخشب بالنقش أدت إلى نحت كاتدرائية في جبل بأسره من الحجر . وبعد ما تمر بهذه العملية ، ونضيف إليها الكنيسة الكاثوليكية ، بصليبتها ، وموسيقاها ، ومواكبها ، وأعياد قديسيها وعبادتها الصور ، نمسى كأننا الرجل الذي نصب القسيس ، ونذكر كيف يمكن أن تكون الأمور وكيف ينبغي أن تكون . ويصبح لدينا الإدراك الكافي .

وإنما يفترق إنسان عن إنسان في القاعدة التي يسير عليها في

ربط الأشياء . بعض الناس يصنفون الأشياء بلونها وحجمها وغير ذلك من العرض الظاهر . وبعضهم الآخر يصنفها بما بينها من تشابه ذاتي ، أو بالعلاقة بين الأسباب والنتائج . ويتقدم الدهن نحو زيادة الوضوح في رؤيا الأسباب ، بحيث تُهمل الفوارق السطحية . فالأشياء كلها ودية ومقدسة ، والأحداث كلها نافعة ، والأيام كلها مقدسة ، والرجال كلهم قديسون ، في نظر الشاعر والفيلسوف والقدّيس . لأن العين تحدد في الحياة ، وتهمل الأعراض . إن كل مادة كيميائية وكل نبات ، وكل حيوان في نموه ، يعلمنا وحدة الجوهر ، وتنوع المظهر .

ولما كانت هذه الطبيعة التي تبتدع كل شيء تحملنا وتحيط بنا ، فتسبغ علينا ليناً وسيولة تجعلنا كالسحاب أو كالهواء ، فلماذا نكون متحذلقين جامدين ، فنكبر صوراً محدودة ؟ ولماذا نأبه للزمان ، أو للعظمة أو لأي شكل من الأشكال ! إن الروح لا تعرف هذه الأشياء ، والعبقرية التي تخضع لقانونها الذاتي تعرف كيف تتلاعب بها كما يلعب الطفل بالأواني الخزفية وفي الكنائس . العبقرية تدرس الفكر المسبّب ، وترى — في أصول الأشياء السحيقة — الأشعة التي تصدر عن أحد الأجرام الشمسية ، فتتفرق إلى خطوط لا حصر لها قبل سقوطها . العبقرية ترقب الجوهر الفردي الحى في كل صورة يتقنع فيها . العبقرية تكشف في الذبابة وفي الفراشة وفي الدودة وفي البيضة الفرد الثابت . وترى خلال الأفراد

العديدين النوع الثابت ، وخلال الأنواع الكثيرة الأجناس ،
وخلال جميع الأجناس الأصل الثابت ، وخلال جميع ممالك الحياة
المنظمة الوحدة الخالدة . الطبيعة سحابة متقلبة ، هي دائماً نفسها
— وليست بعينها — إنها تصب الفكرة الواحدة في صور عديدة ،
كما يخلق الشاعر عشرين أسطورة لها مغزى واحد . ان الروح
الريقة تخضع كل شيء لإرادتها خلال المادة الجامدة ، والحجر الصلب
يتشكل أمام الروح في صورة لينة ولكنها محددة ، غير أن شكله
وتكوينه يتغيران مرة أخرى أثناء نظري إليه . ليس هناك شيء
سريع الزوال كالصورة ، وهي مع ذلك لا تنكر نفسها أبداً كل
الإنكار . وفي الإنسان مازلنا نتلمس البقايا والإشارات لكل ما نحسبه
من سمات العبودية في الأجناس الدنيا ، ومع ذلك فهذه البقايا وتلك
الإشارات تحفز ما لديه من نبل وجلال . كقصة أيو عند ايسكس
التي تحولت إلى بقرة فأساءت إلى الخيال ، ولكن كيف تبدلت
الحال عندما اتخذت شكل إيزيس في مصر والتقت بأوزيريس —
خوف ، على هيئة امرأة جميلة ، ولم تبق لديها من دلائل التحول
سوى القرون القمرية تزين جبينها زينة فاخرة ! .

إن تشابه حوادث التاريخ هو — كهذه القصة — من طبيعة
التاريخ ، وكذلك تنوعها واضح وضوحه فيها . هناك في الظاهر تنوع
للأشياء لا حصر له ، وفي الجوهر بساطة في الأسباب . كم من أعمال
الرجل الواحد ما تبين فيها نفس شخصيته ! لاحظ مظاهر علمنا

بالعبقريّة اليونانية . لدينا التاريخ المدني لهذا الشعب ، كما قدمه لنا
هيرودوت ، وثيوسديد ، وزنفون ، وفلوطارخس . وهو دليل
كاف على نوع أفراد هذا الشعب وعلى ما فعلوا . ولدينا كذلك
عقلهم القومي عينه كما عبرت عنه آدابهم مرة أخرى ، في شعر الملاحم
والشعر الغنائي ، والتمثيلات ، والفلسفة ، وإنها لصورة كاملة .
وهو لدينا مرة أخرى كذلك في فن النحت ، وهو « لسان يوشك
أن ينطق » . صور متعددة في أقصى حرية للحركة ، ولا تتجاوز البتة
الهدوء المثالي ، كأنها أصحاب نذور يؤدون رقصة دينية أمام الآلهة ،
وبرغم ما يكابدون من ألم ممض أو قتال مميت ، لا يجرؤون بتاتاً أن
يخرجوا على شكل الرقص وذوقه . وهكذا فإن لدينا أربعة أشكال
تتمثل فيها عبقريّة شعب واحد مجيد : وما أبعد التشابه لدى
الحواس بين أنشودة لِنَسْدَار ، أو تمثال مرمري لقنطروس
الحيوان الخرافي ، ودهليز في البارثنون ، وآخر عمل من أعمال
فوسيون ؟ .

كل منا شاهد وجوها وأشكالاً تترك في الرأى أثراً متشابهاً دون
أى تشابه في ملاحظتها . إن صورة من الصور ، أو مقطوعة من الشعر
المنظوم ، قد لا يبعثان نفس السلسلة من الخيالات التي تبعثها مشية
وحشية جبليّة ، ولكنهما تبعثان ما تبعثها المشية من عاطفة ، بالرغم
من أن التشابه لا يتجلى للحواس على أية صورة من الصور ، ولكنه
خفي لا تدركه الأفهام . الطبيعة مزيج وتكرار لا حصر له لبضعة

قوانين . وهي تتغنى بالأنشودة القديمة المعروفة ، في أنغام لا يحصرها العد .

الطبيعة ملأى بالتشابه العائلي السامى فى كل عمل من أعمالها ، ويسرها أن تفجأنا بالتشابه فى نواح لا نتوقع فيها التشابه بتاتاً . رأيت رأس شيخ كبير لإحدى القبائل الهندية الأمريكية فى الغابات فذكرنى فى الحال بقمة جبلية جرداء ، وذكرتنى أخايد الجهة بطبقات الصخر ، وهناك أناس لآدابهم نفس الأبهة التى تظهر على التمثال البسيط الرائع القائم على أفريز البارثنون ، وعلى آثار الفن الأغريقى القديم . وهناك من المؤلفات ماله نفس القوة التى كانت فى كتب العصور السالفة جميعاً . ليس رسيجليوزى أورورا لجيدو سوى فيكرة صباحية ، وليس الحيل فيها سوى سحابة من سحب الصباح . ولو أن أى إنسان جشم نفسه مشقة ملاحظة الأعمال المتنوعة التى يميل إليها فى بعض حالات العقل ، وتلك الأعمال التى ينفر منها بنفس الدرجة ، لأدرك عمق صلة القرابة بينهما .

قال لى مصور إن أحداً لا يستطيع أن يرسم شجرة دون أن يصبح شجرة فى صورة ما ؛ أو أن يرسم طفلاً بمجرد دراسة تخطيط هيئته ، أما إذا لاحظ لفترة ما حركاته وألعا به فإنه يدخل طبيعته ، ويستطيع عندئذ أن يرسمه إن أراد فى كل موقف . هكذا دخل روس « أعمق أغوار طبيعة الأغنام » . وقد عرفت رساما يشتغل بمساحة الأرض يقول إنه لم يستطع تخطيط الصخور إلا بعد أن

مُشرح له أولاً تكوينها الجيولوجى . وفى حالة واحدة من حالات التفكير يكون الأصل المشترك لأعمال غاية فى التنوع . فالروح هى التى تتكرر على صورة واحدة وليست الوقائع . ويستطيع الفنان أن يبلغ القدرة على إيقاظ الأرواح الأخرى كى تقوم بعمل معين بسعة إدراكه ، لا بمعرفته المضنية بكثير من المهارات اليدوية .

ولقد قيل « إن أرواح العامة تستوفى حقها وفقاً لما تعمل . أما الأرواح الأنبى فتستوفى حقها وفقاً لما تكون عليه » . لماذا ؟ لأن الطبيعة العميقة توقظ فينا بفعالها وكلماتها وبظراتها وسلوكها النفوذ والجمال عنيهما اللذين يوجههما إلينا متحف للنحت أو للتصوير .

ينبغى أن نفسر التاريخ المدنى والتاريخ الطبيعى ، وتاريخ الفن ، وتاريخ الأدب ، بتاريخ الفرد ، أو تبقى هذه التواريخ كلمات مجردة . ليس هناك شىء لا يتصل بنا ، أو لا يهمننا — من الملكية إلى الكلية ، والشجرة ، والجواد ، والحدوة الحديدية ، فإن جذور كل شىء فى الإنسان . وليس سائناً كروتشى وقبة القديس بطرس سوى نسخ عرجاء من نماذج مقدسة . وكترائية ستراسبورج صورة مادية لروح أروين الاستنباخى . والقصيدة الصادقة هى عقل الشاعر ، والسفينة الصادقة هى بناء السفينة . ولو استطعنا أن نكشف عن الإنسان ، رأينا علة آخر زهرة أو ثمرة من عمله ، كما أن كل شوكة أو لون فى القوقعة المائية قد سبق وجوده فى أعضاء السمكة المفترزة . وفى آداب المجاملة تجدد كل فنون الدروع والفروسية . والرجل

ذو الآداب الرفيعة ينطق باسمك بكل الزخرفة التي تستطيع أن تضيفها إليه ألقاب الشرف .

إن التجربة النافذة التي تمر بنا كل يوم تحقق دائماً لنا قولاً سابقاً ،
وتحوّل إلى الأشياء الكلمات والإشارات التي سمعناها أو رأيناها دون
أن نلتقي إليها بالا . قالت لى سيدة كنت أركب معها في الغابة إن
الغابات تبدو لها دائماً كأنها « على انتظار » كأن الجن الذي يقطنها
قد أوقف أعماله حتى يمر بها عابر السبيل ويمضى . وهى فكرة حفل
بها الشعر في رقص الجنيات اللأئي يتوقفن عن الرقص عند اقتراب
أقدام بشرية . والرجل الذي يرى القمر المشرق يشق السحاب في
منتصف الليل يشبه في هذا رئيس الملائكة الذى شهد خلق الضياء
وخلق الدنيا . أذكر ذات يوم صائف في الحقول أن رفيق قد وجه
التفاتى إلى سحابة ربما امتدت ربع ميل بحذاء الأفق ، وهى على
هيئة الملاك الصغير تماماً كما يصوّر في الكنائس — كتلة مستديرة
في الوسط ، من السهل أن تبعث فيها الحياة بشعر وعينين ، وأن
نسندها من الجانبين بجناحين متماثلين منتشرين . وما يظهر مرة في
الجو قد يظهر مراراً . ولقد كان ذلك المنظر بغير شك النموذج المثالى
لذلك الزخرف المألوف . وشهدت في السماء سلسلة من برق الصيف
فتذكرت في الحال أن الإغريق رسموا من الطبيعة عندما صوروا
الصاعقة في يد چوف . ورأيت كومة ثلجية على جوانب الحاجز
الحجرى هى التي قطعاً أوحى بفكرة بناء البروج .

إذا أحطنا أنفسنا بالظروف الأصلية اخترعنا من جديد قواعد فن البناء وزخرفته ، كما كان كل قوم يزنون مساكنهم الأولية وحدهم . إن المعبد الدورى يحتفظ بالشبه بينه وبين الكوخ الخشبى الذى كان يقطنه الرجل الدورى . وليس المعبد الصينى إلا مجرد سراقق تترى . والمعابد الهندية والمصرية ما زالت ثم عن الأكمات والبيوت المنحوتة تحت الأرض التى كان يقيم فيها آباؤهم . ويقول هيرن فى بحوثه عن الأثيوبيين « إن عادة إنشاء البيوت والمقابر فى الصخر الحى عينت بطريقة طبيعية جداً الصفة الأساسية فى فن البناء النوبى المصرى فاتصف بضخامة الشكل التى عرفت عنه . فى هذه الكهوف التى أعدتها الطبيعة تعودت العين أن تحديق فى أشكال وكتل ضخمة حتى إذا ما جاء الفن لمعونة الطبيعة لم يستطع أن يسير فى نطاق صغير دون أن يخط من شأن نفسه . وماذا تكون التماثيل ذات الحجم العادى ، وماذا تكون السقوف والأجنحة البسيطة إذا قيست بتلك الأبهاء الهائلة التى لا تستطيع أن تحرسها — أو أن تستند إلى عمدانها الداخلية — سوى التماثيل التى تفوق الحجم الطبيعى ؟ » ومن الجلى أن الكنيسة القوطية نشأت من اقتباس أشجار الغابة بكل أغصانها اقتباساً ساذجاً ، ورسم الممرات ذات الأعمدة التى تستخدم فى الاحتفالات والمناسبات الدينية على صورتها . ولا زالت الأطواق حول الأعمدة المشقوقة تدل على فروع الصفصاف الخضراء التى كانت تطوق الأشجار . ولا يستطيع أحد أن يسير

فى طريق شُق فى غابات الصنوبر دون أن يذهله مظهر الغابة الذى
يوحى بفن البناء ، وبخاصة فى الشتاء ، حينما تدل تعرية جميع الأشجار
الأخرى على الأقواس السكسونية المنخفضة . وإذا سرت فى الغابات
فى أصيل يوم من أيام الشتاء رأيت كذلك لتوك منشأ النافذة
الزجاجية الملونة التى تتحلّى بها الكاتدرائيات الغوطية فى ألوان السماء
الغرية التى نشاهدها خلال أغصان الغابة المتشابكة الجرداء . ولا
يستطيع إنسان يحب الطبيعة أن يدخل خلال الأعمدة الخشبية
القديمة فى كاتدرائية أكسفورد والكاتدرائيات الانجليزية دون أن
يخس أن الغابة قد تسلطت على عقل البناء ، وأن أزميله ومنشأه
ومسحجه ما برحت تحاكي نباتها ، وأشواك زهورها ، وخرنوبها ،
وأشجار الدردار والبوط والصنوبر والشوح والتوب الفضى فيها .
الكاتدرائية الغوطية حجر مزهر خاضع إلى الرغبة الملحة فى
الانسجام عند الانسان ، تلك الرغبة التى لا تقنع . إن جبل الجرانيت
يتفتح عن زهر خالده ، فيه من جمال الحضرة الحقة ودقة الإبداع ،
كما فيه النسب السماوية والمنظر السماوى .

وكذلك يمكن أفراد جميع الحقائق العامة ، وتعميم جميع الحقائق
الخاصة . عندئذ يصبح التاريخ فى الحال مستساغاً وصادقاً ، وعلم
الحياة عميقاً وسامياً . وكما أن الفرس حاكوا فى فروع بناءهم وأصوله
ساق اللوتس والنخلة وثمارها ، فكذلك البلاط الفارسى فى أعظم
عهوده لم يتخلّ البتة عن بداوة القبائل البربرية ، بل تنقل من

اكباتانا حيث كان يُقضى الربيع إلى سوزا في الصيف وبابل في الشتاء .

وفي تاريخ آسيا وأفريقيا القديم كانت البداوة والزراعة حقيقتين متعارضتين . كانت طبيعة البلاد في آسيا وفي أفريقيا تتطلب حياة بدوية . غير أن البدو كانوا سبباً لفزع أولئك الذين دعهم إلى بناء المدن طبيعة التربة أو مزايا السوق . ومن ثم كانت الزراعة مما يوصى به الدين بسبب المخاطر التي تتعرض لها الدولة من البداوة . وفي إنجلترا وأمريكا ، هذين القطرين المتمدينين اللذين جاء مؤخرآ في التاريخ ، ما زالت هذه الاتجاهات تقاتل المعركة القديمة في الأمة وفي الفرد . كان هجوم ذباب المواشى الذي تجن له الماشية يرغم البدو في أفريقيا على التجول ، فتضطر القبيلة إلى الهجرة في موسم الأمطار وإلى سَوَاقِ الماشية إلى المناطق الرملية العليا . وكان البدو في آسيا يتابعون المراعى من شهر إلى شهر . وفي أمريكا وأوروبا تتخذ البداوة صورة التجارة وحب الاستطلاع ؛ وهو تقدم بالتأكيد من ذباب سطا بوراس إلى الجنون الانجليزي والإيطالى بنخليج بوسطن . والمدن المقدسة التي كان يتحتم الحج إليها في فترات معينة ، والقوانين والعادات الصارمة التي كانت تميل إلى تقوية الرابطة القومية ، كانت توقف المتجولين القدماء عند حد ؛ والقيم التي تجمعها الإقامة الطويلة هي الأغلال التي تقيد حب التجول في العصر الحاضر . وليس العداء بين الاتجاهين بأقل نشاطا في الأفراد ، فقد يسود

حب المغامرة أو حب الحياة الوادعة . والرجل ذو الصحة القوية والروح الفياضة يميل إلى سرعة التنقل في إقامته ، فهو يعيش في غربته ، ويطوف خلال الأرض من شمالها إلى جنوبها في سهولة ، وفي البحر أو في الغابة أو فوق الثلوج ينام في دفء وياكل في شهية طيبة ويعاشر في سعادة ، كأنه إلى جوار مدخلته . وربما كانت حياته أشد يسراً كلما اتسع الأفق أمام قدرته على الملاحظة ، تلك القدرة التي تعطيه موضوعات يهتم بها كلما وقعت عيناه على شيء جديد . كانت الأمم الرعوية محتاجة جائعة إلى حد اليأس ، وهذه البداوة العقلية — إذا بولغ فيها — تفلس العقل بتبديدها القوي على موضوعات متنوعة . في حين أن العقل الذي يلزم موطنه يتصف بالزهد أو بالقناعة التي تجرد كل عناصر الحياة فوق تربته ، ويجرد مخاطره في الملل والانهيار إذا لم يحفز به باعث من الخارج .

كل ما يراه الفرد خارج نفسه يقابل حالته العقلية ، وكل شيء بدوره يكون مفهوماً له بمقدار ما يسوقه تفكيره الجريء إلى الحقيقة التي تنتمي إليها تلك الواقعة أو تلك المجموعة من الوقائع .

إنني أستطيع أن أغوص إلى العالم الأولي — أو العالم السابق كما يقول الألمان — في نفسي ، كما أستطيع أن أتحسس بأصابع باحثة في سراديب الموتى ، وفي المكتبات ، وفي الجدران والأجزاء البارزة المنهارة من خرائب البيوت التي كانت تقوم وسط الحداثي . ترى ما أساس ذلك الاهتمام الذي يحسه الناس جميعاً بتاريخ اليونان

وآدابهم وفنونهم وشعرهم في جميع عصورهم من عصر البطولة
أو عصر هومر حتى الحياة العائلية ، حياة الآثينيين والاسبرطيين
بعد ذلك بأربعة أو خمسة قرون ؟ ما هو الأساس ؟ أليس هو ذلك :
إن كل إنسان يمر شخصياً بعصر يوناني . الحالة اليونانية هي عصر
الطبيعة الجسدية ، عصر كمال الحواس — أو عصر الطبيعة الروحانية
مبسوطة في اتحاد دقيق مع الجسد . في تلك الحالة كانت توجد تلك
الصور البشرية التي أمدت النحات بنماذجه لهرقل وفيبس وچوف ،
لا كتلك الصور التي تموج بها شوارع المدن الحديثة ، حيث يكون
الوجه لطخة مضطربة من الملامح ، وإنما كان وجهاً يتألف من
ملامح لم تفسد ، واضحة التحديد متماثلة ، تجويف العينين فيه مكون
بحيث يستحيل أن يكون بالعينين حول ، أو أن تختلس العينان
النظرات يميناً أو يساراً ، ولكنهما عينان يلتفت معهما الرأس كله .
وكانت آداب السلوك في ذلك العصر واضحة قاسية . يُقدّم الاحترام
للصفات الشخصية ، الشجاعة ، والحدق ، وضبط النفس ، والعدالة ،
والقوة ، والسرعة ، والصوت المرتفع ، والصدر العريض . ولم
يُعرف الترف أو الرقة . وتباعد السكان والحاجة تجعل كل إنسان
خادم نفسه ، طباحاً ، وقصاباً ، وجندياً . وكانت عادة إمداد حاجته
لنفسه بنفسه تعلم الجسم آداء أعمال عجيبة . هكذا كان أجا ممنون
وديومد عند هومر ، ولم تختلف عن ذلك كثيراً الصورة التي يعطيها
زنفون عن نفسه وعن مواطنيه في « تهقر العشرة آلاف » .

« بعد ما عبر الجيش نهر تلبوس في أرمينيا ، سقطت ثلوج كثيرة هناك ، واستلقى الجنود فوق الأرض بائسين تغطيهم الثلوج . غير أن زنفون نهض عاريا وأمسك بفأس وشرع يشق الحشب ، وعندئذ نهض الآخرون وحدوا حذوه » . وكانت حرية الكلام التي لا تحد موجودة بين جنود جيشه جميعاً . يتشاجرون من أجل الغنائم ، ويختصمون مع القواد عند كل أمر جديد ، وزنفون حاد اللسان كغيره ، وأحذ لسانا من أكثرهم . ولذا فقد كان يعطى بمقدار ما يأخذ . من ذا الذي لا يرى أن هذه كانت عصابة من صبية كبار ، لها ما للصبية الصغار من قانون للشرف وتربية حرة ؟

وأعني ما يفتن المرء في المأساة القديمة ، بل وفي الأدب القديم كله ، هو أن الأشخاص يتكلمون ببساطة — يتكلمون كأشخاص لديهم قدر كبير من حسن الإدراك دون علمهم بذلك ، وقبل أن تصير عادة التفكير هي العادة العقلية السائدة . إن إعجابنا بالعتيق ليس إعجاباً بالقديم ولكنه إعجاب بالطبيعي .

لم يكن الإغريق مفكرين ، بل كانوا كاملين في حواسهم وصحتهم ، لهم أجمال تكوين جثاني في العالم . والكبار يتصرفون ببساطة الأطفال ورشاقتهم . كانوا يصنعون الأواني والمآسي والتماثيل ، كما تصنعها الحواس الصحيحة — أي بذوق سليم . وقد لبنت هذه الأشياء تصنع في كل العصور ، ولا تزال تصنع اليوم ، حيثما وجد جسم سليم . ولكنهم تفوقوا على الجميع كطبقة بسبب تفوقهم في التكوين .

كانوا يجمعون بين نشاط الرجولة واللاشعور الذى يسيطر على الأطفال . إن ما يفتننا فى هذه الآداب هو أنها تخص الرجل ، ويعرفها كل رجل بحكم أنه قد مر بدور الطفولة . وفوق ذلك ، فهناك دائماً أفراد يحتفظون بهذه الصفات . والشخص الذى لديه عبقرية الطفولة ونشاط موروث لا يزال يونانيا ، ويعيد إحياء عشقنا لآلهة الشعر فى هلاس . وإنى لأعجب بحب الطبيعة عند فلكيتس . وعند قراءة تلك الابتهالات الجميلة إلى النوم وإلى النجوم وإلى الصخور والجبال والأمواج أحس كأن الوقت يمر كالبحر وهو فى الجزر . أحس خلود الإنسان ، وذاتية فكره . ويبدو لى أن الإغريق كان له زملاء فى الوجود مثلما لى . كانت الشمس والقمر ، والماء والنار ، تقابل قلبه كما تقابل قلبى تماماً . ثم إن ذلك التميز الذى نتباهى به بين اليونانى والانجليزى ، وبين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرومانتيكية يظهر أنه سطحي متكلف . عندما تصبح فكرة أفلاطون فكرتى — عندما تشعل الحقيقة قلبى كما اشعلت قلب پندار — عندئذ يتلاشى الزمن . وعندما أحس أن كليتنا نلتقى فى نظرة ، وإن روحينا يصطبغان بلون واحد ، وكأنهما يمتزجان فى روح واحدة ، أسأل نفسى : لماذا أقيس درجات العرض الأرضية ، ولماذا أعد السنوات المصرية .

إن الطالب يفسر عصر الفروسية بعصره الخاص للفروسية ، كما يفسر أيام المغامرات البحرية وظواف البحار بتجاربه المصغرة

التي تماثلها تماما . وله كذلك المفتاح عينه لتاريخ العالم المقدس .
وحينا لا يردد صوتُ نبي من الأنبياء منبعث من أعماق التاريخ
القديم سوى صدى عاطفة من عواطف طفولته ، أو دعاء من أدعية
الشباب ، فإنه ينفذ حينئذ إلى الحقيقة خلال جميع اضطرابات
التقاليد وخلال الصور الهزلية التي تتمثل في النظم القائمة .

ويندر أن تهبط علينا في فترات منقطعة أرواح متطرفة تبسط
لنا حقائق جديدة في الطبيعة . ولقد لاحظت أن رجال الله من
حين إلى حين يسرون بين الناس ويجعلون السامع العادي جداً
يحبس رسالتهم بروحه وقلبه . ومن ثم جاءت من غير شك منصة
الخطابة ، وظهر القسيس والكاهن موحى إليهما بالإلهام الآلهي .
المسيح يُذهل القوم الحسيين ويغلبهم على أمرهم ، فلا يستطيعون
أن يوحدوا بينه وبين التاريخ أو أن يوفقوا بينه وبين أنفسهم . فإذا
ما قدسوا بصائرهم وتطلعوا إلى حياة مقدسة فإن تقواهم تفسر لهم
كل حقيقة وكل كلمة .

ما أيسر أن تستأنس العبادات القديمة لموسى وزرادشت ومنو
وسقراط نفسها في العقل ، فإني لا أرى فيها البتة قدما ، فهي لي
بمقدار ما كانت لهم .

ولقد شهدت الرهبان والنسك الأوائل دون أن أعبر البحار
أو القرون . وظهر لي أكثر من مرة رجل عادي مهمل في عمله
شديد التأمل ، منتفع متعالٍ متعاضم ، يتسول باسم الله ؛ كما كان

ميمون ستيليت وبئس والكابوشان الأوائل الذين قدرهم القرن التاسع عشر .

إن حيل الكهنة في الشرق والغرب ، وحيل المايجان وبراهمان ودرويد وانكا تفسرها الحياة الخاصة للفرد . إن التأثير الشديد الذي يقع من رجل رسمي مترمتم على طفل صغير فيكبت روحه وشجاعته ، ويشل تفكيره ، ويكون ذلك دون أن يحدث لديه سخطا ، دائما يثير الخوف والطاعة فحسب ، بل ويشير عطفيا شديداً على الظلم — هذا التأثير حقيقة مألوفة تتضح للطفل عندما يصبح رجلا — وذلك عندما يدرك أن من ظلمه في صباه هو نفسه طفل ظلمته تلك الأسماء والكلمات والصور التي كان لتأثيرها مجرد آلة توصل ذلك التأثير للطفل الجديد . وتعلمه الحقيقة كيف كان بلوس يُعبد ، وكيف بنيت الأهرام ، أحسن مما تعلمه كشوف شميليون لأسماء جميع العمال وتكاليف البناء . كما يجد آشور وتلال شلولا عند بابه ، وهو الذي يُلقى على نفسه الدروس .

ثم انه — في ذلك الاحتجاج الذي يصرخ به كل رجل منصف ضد خرافة عصره — يستعيد خطوة خطوة دور المصلحين القدامى ، ويجد مثلهم أثناء بحثه وراء الحقيقة مخاطر جديدة تهدد الفضيلة . ويتعلم كذلك أن تطويق الخرافة يتطلب شجاعة أدبية . وأن الأباحية الشديدة تأتي في إثر الإصلاح . وكم مرة حدث في تاريخ العالم ان لوثر العصر قد بكى انهيار التقوى بين آل بيته ! قالت زوجة مارتن

لوثر له ذات يوم « كيف كنا يا دكتور نصلى كثيراً وبحرارة شديدة عندما كنا خاضعين للبابوية ، في حين أننا اليوم قلما نصلى ، فإن فعلنا ففي برودة شديدة ؟ » .

ويكتشف الرجل الراقى عمق ما يملك في الأدب — في القصص الخرافية كلها وفي التاريخ . ويجد أن الشاعر لم يكن رجلاً شاذاً عندما وصف مواقف عجيبة ومستحيلة ، وأن ذلك الرجل العالمى قد كتب بقلمه اعترافاً يصدق على الفرد كما يصدق على الجميع . يجد هذا الرجل الراقى تاريخ حياته الخفى مدوناً في سطور مفهومة له بشكل عجيب ، وقد كتبت قبل أن يولد ، وأنه ليشارك في مغامراته الخاصة حكايات ايسوب الخرافية ، وقصص هومر وحافظ وأريستو وشوسر وسكوت واحدة بعد الأخرى ، ويحققها برأسه ويديه .

إن أقاصيص الإغريق الجميلة حقائق عالمية لأنها من الخلق الصحيح للخيال لا من خلق الوهم . ما أكثر المعانى المتنوعة وما أدوم المغزى الذى تنطوى عليه قصة « پروميثيس » ! فإنها إلى جانب قيمتها الأولية باعتبارها الفصل الأول من تاريخ أوربا (فالأسطورة تستر الحقائق الثابتة سترأ رقيقاً ، كاختراع الفنون الآلية ، والهجرة إلى المستعمرات) تقدم لنا تاريخ الدين مع شيء من الصلة بإيمان العصور المتأخرة . فپروميثيس هو يسوع الأساطير القديمة . هو صديق الإنسان ، يقف بين « العدالة » المتعسفة « للأب الأبدى » وجنس الإنسان الفانى ، ويتحمل بثبات كل شيء في سبيلهم . ولكن

القصة حينما تبعد عن المسيحية الكلفنية وتصور بروميثيس متحديا لجوف ، تمثل حالة عقلية تظهر كلما بشرنا بمبدأ الإيمان بالله — مع إنكار الوحي — في صيغة ساذجة موضوعية ، حالة عقلية يبدو أنها دفاع الإنسان عن نفسه ضد هذه الأكدوبة : وهى عدم الرضا بما يعتقد فيه الناس من أن الله موجود ، والشعور بأن الخضوع لفكرة التقديس أمر شاق . وأنها لتسرق لو استطاعت نار الخالق وتسكن بعيدة منه ومستقلة عنه . ان بروميثيس فنكتس هى القصة الخيالية للشك . وتفصيلات هذه القصة العظيمة تصدق على جميع الأزمنة ، كما تصدق على زمانها . ولقد قال الشعراء إن أبولو احتفظ بقطعان آدميتس . إن الآلهة لا تُعرف عندما تأتى إلى الناس ، ولم يكن كذلك يسوع ، ولم يكن كذلك سقراط أو شيكسبير . وقد اختنق أنتيوس من قبضة هرقل ، ولكنه كلما مس أمه الأرض تجددت قواه . الإنسان هو العملاق المتحطم ، وبرغم ضعفه كله ، ينتعش جسمه وعقله بتعوده مناجاة الطبيعة . وقوة الموسيقى ، وقوة الشعر في نزع الأجنحة من الطبيعة الجامدة أو إلصاقها بها ، تفسر لغز أورفيس . والإدراك الفلسفى المتشابه بين الأشياء مهما تعددت أشكالها تجعله يعرف تقلبات پروتيس . ماذا عسى أن أكون غير ذلك ، وقد ضحك أو بكيت بالأمس ، ونمت ليلة الأمس كالجنة الهامدة ، ثم نهضت هذا الصباح وعدوت . وماذا أرى فى أى جانب سوى تناسخ الأرواح لپروتيس ؟ إني أستطيع أن أرعز لفكرى باستخدام اسم

أى مخلوق أو أية حقيقة ، لأن كل مخلوق إنسانٌ عاملٌ أو عليل .
وليس تانتلاس سوى اسم لك ولى . تانتلاس معناها استحالة شرب
مياه الفكر التى تضىء دائماً وتماوج على مرأى من الروح . إن
تناسخ الأرواح ليس خرافة . وددت لو كان كذلك ، ولكن
الرجال والنساء ليسوا إلا أنصاف بشر . كل حيوان فى مخزن الغلال ،
وفى الحقل ، والغابة ، وفى الأرض والماء تحت الأرض ، حاول أن
تكون له قدم وأن يترك آثارها وصورتها فى أحد هؤلاء المتكلمين
المغتصبين الذين يواجهون السماء . أى ، أخى ! كف عن انكماش
روحك — انكماشها إلى الأشكال التى انزلت فى عاداتها عدة سنوات .
وكذلك تلك الخرافة القديمة خرافة ذلك المخلوق العجيب الذى يتكون
من رأس إنسان وجسم أسد ، ويقال إنه كان يجلس فى الطريق
ويضع الألغاز لكل من يمر به ، فإذا عجز الرجل عن الإجابة ابتلعه
حياً . وإن استطاع حل اللغز قُتل ذلك المخلوق . وليست حياتنا
سوى سرب طويل من الحقائق أو الحوادث ! هذه الحوادث تعرض
لنا متنوعة تنوعاً كبيراً ، كل منها يقدم الأسئلة للروح البشرية .
وأولئك الرجال الذين لا يستطيعون الإجابة عن حقائق الزمن
أو مشكلاته هذه بحكمة عليا يخدمونها . فالحقائق تعرقل سيرهم ،
وتتعسف معهم ، وتجعل من رجال العمل اليومي رجالاً ذوى حس ،
الطاعة العمياء للحقائق تطفىء فيهم كل شرارة من ذلك الضوء الذى
يجعل الإنسان إنساناً حقاً . أما إن كان الإنسان صادقاً نحو غرائزه

أو عواطفه الأولى ، ويرفض تسلط الحقائق عليه ، كأنه آت من جنس أعلى ، ويتمسك بالروح ويراعى المبادئ ، فإن الحقائق تركد مكانها في مرونة وخضوع ، ذلك لأنها تعرف سيدها ، وأقلها شأنًا بمجده .

وفي « هلنا » لجيته نلمس الرغبة عينها في أن تصبح كل كلمة شيئاً . إنه يقول إن هذه الشخصيات ، شيرون وجريفن وفوركياس وهلن وليدا إن هي إلا أشياء ، ولها تأثير معين على العقل . ولذلك فهي إلى الآن موجودات أبدية ، واقعية اليوم كما كانت في أول أولياد . فكّر فيها كثيراً ، ثم كتب ما رأى بطلاقة ، وجسّدها في خياله . وإن كانت هذه القصيدة غامضة وهمية كالحلم ، إلا أنها أشد جاذبية من القطع التمثيلية ، التي تفوقها نظاما لنفس المؤلف . وذلك لأنها تخلص العقل بطريقة عجيبة من مألوف الصور المعتادة ، وهي توقظ ما عند القارئ من اختراع ووهم بما تتضمنه من حرية طليقة في التصوير ، وما فيها من تتابع متصل من صدمات المفاجأة العنيفة .

إن الطبيعة المطلقة أقوى من طبيعة الشاعر الهينة ، فهي تمتلك رقبته وتكتب عن طريق يده : وقد يبدو كأنه ينفّس عن مجرد خاطرة طارئة وخيال جامع وهو في الواقع يخرج قصة رمزية دقيقة . ولذا قال أفلاطون إن « الشعراء ينطقون عن أشياء عظيمة وحكيمة لا يفقهونها هم أنفسهم » . وكل قصص العصور الوسطى

الخيالية يمكن تفسيرها على أنها تعبير مستتر أو فكاهي عما كان العقل في تلك العصور يعمل جاهداً لتحقيقه في جد رزين . والسحر وكل ما ينسب إليه إحساس داخلي عميق بقوى العلم . وحذاء السرعة ، والسيف الحاد ، والقدرة على إخضاع عناصر الطبيعة ، واستخدام المزايا الخفية للمعادن ، وفهم أصوات الطيور ، كل أولئك جهود عقلية غامضة في اتجاه سليم . وبسالة البطل الحارقة للطبيعة ، وهبة الشباب الدائم ، وما إلى ذلك ، هي كذلك محاولة الروح البشرية « أن تخضع مظاهر الأشياء لرغبات العقل » .

وفي پرسفرست وإمادس دى جول يزدهر الإكليل والزهر على رأس من يؤمن ، ويدوى على جبين من يتردد . وفي قصة الولد والعبادة ، قد يدهش حق القارىء الناضج ويخالجه وميض من السرور البريء لاتنصار جناس المذهب ، وفي الحق إن كل ما تفترضه أقاصيص الجن — من أنها لا تحب أن يُذكر لها اسم ، وأن مواهبها متقلبة لا يوثق فيها ، وأن من يبحث عن كنز ينبغي له ألا يتكلم ، وما إلى ذلك — كل ذلك أجده صادقاً في كنهكورد ، مهما يكن أمره في كورنول أو بريتانيا .

فهل الأمر على خلاف ذلك في أحدث القصص الخيالية ؟ لقد قرأت « غروس لامرمور » . ووجدت أن السير وليم آشتن قناع للأغراء الشعبي ، و« رافنزود كاسل » اسم جميل للفقير المتكبر ، وأن أرسالية الدولة الأجنبية هي كزى بنیان الذى تنكر فيه كي يعمل

عملا خالصا . كلنا نستطيع أن نستفز العجل المتوحش الذى يُلقى بالحير والجمال أرضاً ، وذلك بأن نصرع الظالمين والشهوانيين . ولوس آشتن اسم آخر للإخلاص ، الذى يتصف بالجمال دائماً ويتعرض في هذه الدنيا للمصائب دائماً .

وإلى جانب تاريخ الإنسان المدنى والميتافيزيقى يسير كل يوم تاريخ آخر إلى الأمام . هو تاريخ العالم الخارجى — ليس الإنسان فيه بأقل اشتباكا وتلاصقا . فالإنسان هو خلاصة الزمن ، وهو متصل العلاقة بالطبيعة ، وتنحصر قدرته في كثرة علاقاته ، أو في أن حياته مشتبكة بسلسلة السكون العضوى وغير العضوى كلها . كانت الطرق العامة في روما القديمة تبدأ عند فورم وتسير شمالا وجنوبا وشرقا وغربا إلى مركز كل إقليم من أقاليم الامبراطورية ، فتجعل كل مدينة تجارية في بلاد الفرس واسپانيا وبريطانيا سهلة الاقتحام لجند العاصمة : وكذلك فإن الوشائج تخرج من القلب البشرى إلى قلب كل شئ في الطبيعة ، كي تخضعه لسلطان الإنسان . الإنسان مجموعة من العلاقات ، أو عقدة من الجذور ، العالم زهرتها . ومواهبه تشير إلى طبائع خارجة عنه ، وتنبيء بالعالم الذى يسكنه ، كما تتوقع زعانف السمكة وجود الماء ، أو تفترض أجنحة النسر في البيضة وجود الهواء . إنه لا يستطيع أن يعيش بغير عالم . ضع نابليون في سجن جزيرة ، ولا تدع مواهبه تلتقى بإنسان يؤثر فيه ، أو بجبال بكبال الألب يتسلقها ، أو خطر يستهدف له ؛ إذا فعلت به

ذلك ضرب الهواء وبدا عليه الغباء . أما أن نقلته إلى أقطار فسيحة
وشعب كثيف ، وأمور معقدة يهتم بها ، وقوى معادية ، وجدت
أن نابليون الرجل الذى يحده شكل الوجه وهيئة الجسم ليس
نابليون الحقيقى . إنما ذلك شبيح تالبوت الذى قيل عنه فى مسرحية
هنرى السادس :

« إن مادته ليست هنا

لأن ما ترون ليس سوى أدنى الأجزاء

وأصغر نصيب من الإنسانية .

ولو كان الهيكل كله هنا

لوجدتم إن ارتفاعه ضخم جسيم

لا يكفى سقفكم أن يحتويه » .

إن كولبس يحتاج إلى كوكب يرسم طريقه فيه . ويحتاج نيوتن
ولابلاس إلى آلاف العصور ومساحات سماوية منشورة . وتستطيع
أن تقول إن النظام الشمسى ذا الجاذبية تنبأت به من قبل طبيعة
عقل نيوتن . وليس بأقل من ذلك ذهن ديقى أوجاى لوساك ،
الذى أخذ منذ الطفولة يكشف أسباب التقارب والتباعد بين
الجزئيات ، فتنبأ بقوانين النظام . ألا تنبأ بالضوء عين الجنين
البشرى ؟ ألم تنبأ أذن هاندل بسحر الصوت المنسجم ؟ ألم تنبأ
الأصابع المنشئة لوت وفولتن وهوتور وآركرايت بطبائع المعادن
الصلبة والى تنصهر والى تلين ، وخواص الحجر والماء والخشب ؟

والآ تنبيء الصفات الطيبة للفتاة الصغيرة العذراء بما يصل إليه المجتمع المدني من تهذيب وبهاء . وهنا كذلك يجب أن نذكر فعل الإنسان بالإنسان . فالعقل قد يتدبر بفكره عصوراً ولا يظفر بمعرفة نفسه بمقدار ما تعلمه عاطفة الحب في يوم واحد . من ذا الذى يعرف نفسه قبل أن يثور سخطه على انتهاك الحرمات ، أو يستمع إلى لسان فصيح ، أو ينبض قلبه مع ألوف الناس في فرح أو ذعر قوى ؟ . لا يستطيع إنسان أن يتنبأ بخبرته ، أو أن يتكهن بالقدرة العقلية أو الشعور الذى يتفتح لشيء جديد ، لا يستطيع ذلك أكثر مما يستطيع أن يرسم اليوم وجه إنسان سوف يراه في الغد لأول مرة . ولن أذهب الآن وراء الرأى العام كي أكشف عن علة هذه المناظرة . ويكفى أن يُقرأ التاريخ ويُكتب في ضوء هاتين الحقيقتين ، وهما أن العقل واحد والطبيعة تناظره .

ومن ثم فإن الروح تتركز وتخرج كنوزها لكل طالب بكل الطرق ، ويمر الطالب كذلك بدورة التجارب كلها ، ويجمع في بؤرة واحدة أشعة الطبيعة . فلا يصبح التاريخ بعد ذلك كتاباً مملاً . بل يسير مجسداً في كل رجل عادل حكيم . ولا تجربوني باللغات والعناوين عن بيان المجلدات التى قرأتموها ، بل اجعلوني أحس أى العصور عشت . سوف يكون الإنسان معبداً لآلهة الشهرة ، يسير — كما وصف الشعراء تلك الآلهة — في رداء صورت في جميع أنحائه الحوادث والتجارب العجيبة . سوف تصبح هيئته وملاحمه

بذكائها البالغ ذلك الرداء المزركش . سوف أجد فيه ما قبل الدنيا ،
وفي طفولته العصر الذهبي ، وتفتح المعرفة ، ورحلات أرجونوت ،
ونداء إبراهيم ، وبناء المعبد ، وظهور المسيح ، والعصور المظلمة ،
وإحياء الآداب ، والإصلاح الديني ، واكتشاف البلاد الجديدة ،
وفتح علوم جديدة ومناطق جديدة في الإنسان . سوف يكون
الإنسان قسيس بان ، ويجلب معه إلى الأكواخ المتواضعة بركة
نجوم الصباح وكل ما عرف من منافع الأرض والسماء .

هل في هذا المطلب شيء من الغرور ؟ إذن لنبتدئ كل ما كتب
لأنه لافائدة في ادعاء المعرفة لما لا نعرف . ولكنه الضعف في قدرتنا
على التعبير الذي لا يمكننا من تأكيد حقيقة دون أن يبدو علينا كأننا
نكذب غيرها . إنني لا أقدر علمنا الفعلي إلا قدرًا رخيصاً . استمع
إلى الفيران في الحائط ، وانظر إلى الضب فوق السور ، وإلى
الطحلب تحت قدمك ، وإلى حشائش البحر فوق الكتل الخشبية .
ماذا أعرف عن هذه العوالم الحيوية معرفة فيها عطف ولها مغزى ؟
منذ الإنسان القوقازي — وربما أقدم من ذلك — كانت هذه
المخلوقات تمد هذا الإنسان بالمعرفة ، ولكن ليس هناك سجل لأية
كلمة أو إشارة مما انتقل منها إليه . أية علاقة تفصح عنها الكتب بين
الخمسين أو الستين عنصر كيمائي ، وبين حقبة التاريخ ؟ بل ماذا
يسجل التاريخ حق الآن عن التاريخ الميتافيزيقي للإنسان ؟ وأي
ضوء يلقيه على تلك الألغاز التي نخفيها تحت اسم الموت والخلود ؟

ومع ذلك فإن كل تاريخ ينبغي أن يكتب بحكمة تقدر علاقة الإنسان بغيره من الأشياء حق قدرها وتنتظر إلى الحقائق كرموز . وإني ليخجلنى أن أرى أن مانسميه التاريخ ليس سوى قصة قروية تافهة . كم مرة ينبغي لنا أن نذكر روما وباريس والقسطنطينية ! ماذا تعرف روما عن الفأر والضب ؟ وماذا تكون الأولمبياد والقنصليات إذا قيست إلى نظم الكائنات التى تجاورنا ؟ بل وأى طعام أو خبرة أو معونة تقدمها هذه الأشياء لصائد العجل البحرى من الاسكيمو ، أو لكتاك فى الزورق ، أو لصائد السمك ، أو لعمال الشحن والتفريغ فى السفن ، أو للحمالين ؟

إنما ينبغي أن نكتب تاريخنا فى صورة أشمل وأعمق — فيصدر عن رغبة فى الإصلاح الخلقى ، وعن تدفق الضمير الأزلئ والأبدئ — إن أردنا أن نعبر فى صورة أصدق عن طبيعتنا الأساسية ذات العلاقات المتشعبة ، بدلا من هذه الصورة العتيقة لسرد وقائع الأنانية والكبرياء التى أعربناها أنظارنا مدى طويلا . هذا اليوم مائل أمامنا فعلا ، ويشرق علينا على غير انتظار ، ولكن طريق العلم والأدب لا يؤدى إلى الطبيعة . إن الأبله ، والهندي ، والطفل ، وابن الفلاح الذى لم يتعلم فى مدرسة ، أقرب فى موقفهم إلى الضياء الذى تطالع فيه الطبيعة من ذلك الذى يحلل الآثار القديمة .

الاعتماد على النفس

« لا تجشم نفسك مشقة البحث فيما وراءها »

الإنسان نجم نفسه ؛

والروح التي تستطيع أن تخلق إنساناً أميناً كاملاً

تسيطر على كل ضوء ، وكل أثر ، وكل مصير ؛

ليس هناك لهذا الإنسان ما يقع مبكراً أو متأخراً .

إنما فعالنا ملائكتنا ، طيبة أو خبيثة ،

وهي ظلالنا المحتومة التي تسير إلى جوارنا أبداً .

(مقدمة « نصيب الإنسان الأمن » لبومنت وفلتشر)

* * *

ألقى الطفل الرضيع فوق الصخور ،

وأرضعه من ثدي أنثى الذئب ؛

ودعه يقضى الشتاء مع الصقر والثعلب ،

تدب القوة في يديه والسرعة في قدميه

قرأت ذات يوم قريب بعض أبيات من الشعر كتبها مصور مشهور فوجدتها أصيلة لا أثر للتقليد فيها . والروح دائماً تستمع إلى العبرة والموعظة في مثل هذه الأبيات مهما يكن موضوعها . والعاطفة التي تملأها أعظم قيمة من أية فكرة قد تحتويها . إن العبقريّة هي

أن تعتقد في رأيك ، وأن تعتقد أن ما هو صادق في قلبك الخاص صادق لجميع الناس . انطق بعقيدتك الخفية تكن هذه العقيدة قولاً معقولاً للعالم أجمع ، لأن الباطن يصبح ظاهراً حينما يحين الحين ، يوم ينفخ في الصور يذكر كل امرئ ما قدمت يده . ان أكبر فضل نعزوه إلى موسى وأفلاطون وملتن ، هو أنهم أهملوا الكبت والتقاليد كل الإهمال ، ونطقوا بما دار في خلد هم لا بما دار في خلد الناس كل وفق ما أملاه عليه عقله . يجب على المرء أن يتعلم أن يلاحظ ويرقب ذلك الشعاع من الضوء الذي يومض في ذهنه من الداخل ، أكثر مما يرقب بريق السماء التي يخلق فيها الشعراء والحكماء . ولكن المرء مع ذلك ينبذ رأيه عن غير علم ، لأنه رأيه الخاص . وإنا لنتبين في كل عمل من أعمال العبقريّة آراءنا المنبؤة وتعود إلينا هذه الآراء في نوع من الجلال غريب عنا . إن الأعمال الفنية العظمى تلقى علينا درساً له أثره في نفوسنا ، وذلك الدرس هو أننا نتعلم كيف تتمسك بانطباعنا التلقائي في صلابة مشوبة بروح طيبة ، وبخاصة عندما تكون جميع الأصوات في غير جانبنا ، وإلا فسوف نجد أن شخصاً غريباً ميقول في الغد في حكمة نافذة نفس مافكرنا فيه وأحسنناه دائماً ؛ وزرغم على أن نتقبل في خجل رأينا الخاص صادراً إلينا من غيرنا .

وتمر فترة في تعليم كل فرد يصل فيها إلى الاعتقاد بأن الحسد جهل ، والتقليد انتحار ، وأنه يجب عليه أن يأخذ نفسه على أنها

نصيه ، خيراً كان أو شراً ، وأن الدنيا الواسعة قد تكون مليئة بالخير ، إلا أن الحبة الواحدة من الحنطة المغذية لا تأتيه إلا عن طريق عمله الذى يهبه قطعة الأرض التى أعطيت له ليفلحها . إن القوة التى تسكن بين جنبيه جديدة فى الطبيعة ، ولا يعرف أحد سواء ماذا بوسعه أن يعمل ، ولا يعرف هو نفسه إلا بعد التجربة . وليس عبثاً أن يكون لوجه من الوجوه أو لشخصية أو لحقيقة ما ، أثر كبير فى نفسه ، فى حين أن غيرها لا يكون له مثل هذا الأثر . وليس هذا النحت فى الذاكرة بغير استعداد ثابت سابق . فلقد وضعت العين بحيث يقع عليها الشعاع من الضوء فتستطيع أن تختبر هذا الشعاع المعين . إننا لانعبر عن أنفسنا إلا نصف تعبير ، ونخجل من تلك الفكرة المقدسة التى يمثلها كل منا . ويجب علينا أن نثق آمين أن هذه الفكرة منسقة تبشر بأطيب النتائج ، ولكن الله لا يُظهر عمله عن طريق الجبناء . يشعر المرء بالفرج والسرور عندما يضع قلبه فى عمله ويبدل قصارى جهده . وما يقوله أو يفعله بغير ذلك لا يريح نفسه . فهذا عمل لا ينقذ صاحبه . وهو فى محاولته إياه يفقد قوى عقله ، لا يصادقه الفكر ، ولا يحالفه ابتكار أو أمل .

ثق بنفسك : كل قلب ينبض بهذا الرباط الحديدى . وارض بالمكانة التى أوجدتها لك العناية الإلهية ، وبمجتمع معاصريك ، وبارتباط الحوادث . هذا ما فعله عظماء الرجال دائماً ، فقد أسلموا

أنفسهم كالأطفال إلى عبقرية عصرهم ، فأوهموا مداركهم بأن الشيء الذى يوثق فيه كل الثقة مستقر فى قلوبهم ، يعمل عن طريق أيديهم ويسود كيانهم كله . ونحن اليوم رجال ، ويجب أن نقبل لعقولنا الكبيرة هذا الحكم الإلهى نفسه الذى يفوق الإدراك . لسنا صغاراً مرضى فى زاوية محمية ، ولسنا جبناء نفر من الثورة . وإنما نحن مرشدون ومخلصون ونافعون ، نخضع لما يبذله العلى العظيم ، وتتقدم فوق الفوضى وفوق الظلام .

أى دليل قوى ذلك الذى تقدمه لنا الطبيعة تعزيزاً لهذا الرأى ، فى وجه الأطفال والرضع — بل والوحوش — وسلوكهم ! هؤلاء لا يملكون ذلك العقل المنقسم العصى ، ذلك الإنكار للعاطفة ، لأن حسابنا قد قدر القوة والوسائل التى تعترض أغراضنا . ولما كان عقلهم كلا ، فإن عينهم لم تُقهَر بعد ، وعندما نتطلع إلى وجوههم تتبلبل خواطرنا . الطفولة لا تخضع لأحد ، بل الكل يخضع لها ، ولذا فالرضيع الواحد يساوى أربعة أو خمسة من الراشدين الذين يرغبون ويلعبون معه ، وبدرجة لا تقل عن ذلك سلاح الله الشباب والمراهقة والرجولة بحدتها وفتنتها ، وجعلها محسودة جلييلة ، لا تمهل مطالبها إذا وقفت وحدها . لا تحسب أن الشباب لا قوة له ، لأنه لا يستطيع أن يتحدث إليك أو يتحدث إلى . أنصتوا ! إن صوته فى الغرفة المجاورة واضح مؤكد بدرجة كافية . يبدو أنه يعرف

كيف يتحدث إلى معاصريه ، فإن كان خجولا أو مقداما إذن
فلسوف يعرف كيف يستغنى عنا نحن الذين نكبره .

إن استهتار الصبية الوائقين من غداهم ، والذين يزدرون
— كما يزدري السادة — أن يعملوا أو يقولوا شيئا يسترضون به
أحداً ، هو الموقف الصحيح للطبيعة البشرية . الصبي في غرفة
الاستقبال كالمتفرج في ساحة المسرح : مستقل غير مسئول ، ينظر
من زاويته إلى الأشخاص والوقائع الذين يمرون به ، فيفحصهم ويحكم
عليهم بما يستحقون بطريقة الأطفال السريعة الموجزة ، فهم طيبون
أو خبيثون ، أو شائقون أو مملون ، أو فصحاء ، أو متعبون . ولا
يعرقل نفسه البتة بالنتائج أو المنافع ، وإنما يصدر حكما مستقلا صادقا .
ويجب عليك أن تتملقه ، فهو لا يتملقك . ولكن كأن وعى الإنسان
قد أودع هذا الإنسان سجنًا . فبمجرد ما يعمل أو يتكلم بشكل
يهر الأبصار ، يسمى شخصاً مسئولاً ، ترقبه المئات بعطفها أو مقتها ،
المئات التي يقيم الآن لمحبتهم وزناً . وليس له عن ذلك معدى . آه
لو استطاع أن يرتد ثانية إلى حيدته ! ومن ثم فإن من يستطيع أن
يتحاشى كل ارتباط ، ويلاحظ مرة أخرى — بعد ملاحظ أولاً —
بنفس السداجة التي لم تتأثر ولم تنحز ولم ترش ولم تخش شيئاً ، مثل
ذلك الرجل لا بد أن يكون جليلاً دائماً . إنه ينطق بآرائه في كل
ما يمر به من أمور . ولما كانت هذه الآراء لا تُرى كأنها خاصة ،

وإنما ضرورة ، فإنها تهبط كالسهم في آذان الناس ، وتشيع الدعر في نفوسهم .

تلك هي الأصوات التي نصغى إليها في عزلتنا ، ولكنها تنخفض ولا تسمع عندما ندخل العالم . فالمجتمع في كل مكان يتآمر ضد رجولة كل فرد من أعضائه . المجتمع شركة مساهمة يتفق أعضاؤها — لحسن ضمان الحيز لحامل السهم — على أن يتنازل الآكل عن حريته وثقافته . والفضيلة في أكثر الأمور هي الانسجام مع الآخرين ولكن الاعتماد على النفس على نقيض ذلك ، وهي لا تحب الحقائق والرجال المبدعين ، ولكنها تحب الأسماء والعادات .

ومن أراد أن يكون رجلاً ينبغي أن ينشق على السائد المألوف . ومن يجب أن يجمع ثمر النخيل الحلال ينبغي ألا يعوقه ما يسميه الناس خيراً ، بل يجب عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيراً حقاً . لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك ، حرر نفسك لنفسك يؤيدك العالم . اذكر إجابة دُفعت وأنا صغير جداً إلى أن أجيب بها على ناصح له قيمته اعتاد أن يلحف على بمبادئ الكنيسة القديمة العزيزة . عندما كنت أقول : مالي ولقداسة التقليد إذا كنت أعيش كل حياتي من الداخل ؟ اقترح صاحبي قائلاً « ولكن هذه الدوافع قد تكون سفلية لا علوية » فأجبت بقولي « إنها لا تبدو لي كذلك ، ولكني إن كنت ابن الشيطان ، فسوف أعيش إذن عيشة الشيطان » . ليس عندي قانون مقدس سوى قانون طبيعتي . الخير

والشر إسمان يمكن في سهولة شديدة أن ينتقلا إلى هذا أو ذاك .
والشيء الوحيد الصحيح هو ما يتبع تكويني ، والشيء الوحيد
الخطأ هو ما يقاومه . وعلى المرء أن يثبت أمام كل معارضة ، كأن
كل شيء إسمى زائل ما عداه . وإني ليخجلني أن أرى كيف يسهل
علينا أن نستسلم للشارات والأسماء وللمجتمعات الكبيرة والنظم
البائدة . كل فرد دمث الأخلاق ، حلو الحديث ، يؤثر في نفسى
ويستميلنى أكثر مما ينبغي . يجب أن أسير معتدلاً حياً ، وأن أنطق
بالحق الصراح بكل وسيلة . وإذا ارتدى الحقد والغرور ثياب حب
البشر ، فهل يجوز علينا ذلك ؟ وإذا تحمس متعصب غاضب لأية
قضية ، فلماذا لا أقول له « اذهب ، كن ذا طبيعة طيبة ومتواضعاً .
كن فاضلاً ، ولا تلون مطامعك الجامدة الجافية بهذا العطف
الكاذب » . هذه التحية خشنة لا رقة فيها ، ولكن الحق أجمل
من التظاهر بالحب . يجب أن يكون للخير عندك حافظ — وإلا
فهو لاشيء — يجب أن نبشر بمبدأ كراهية الفاسد الزائف ، تقابل
به مبدأ الحب إذا غضب معينه وفترت حرارته . وإني لأتحاشى أبى
وأخى وزوجى وأخى إذا دعانى عقلى إلى ذلك . وإني لأكتب على
عتبة الدار « هذا هواى » . وآمل أن يكون شيئاً أحسن من
الهوى في النهاية ، ولكننا لا نستطيع أن نقضى اليوم في الشرح .
ولا تنتظروا منى أن أبين السبب لماذا أبحث عن الرفاق أو لماذا
أستبعدهم . وكذلك لاتذكروا لى — كما ذكر اليوم لى رجل طيب

واجبى فى رفع مستوى الفقراء . هل هم فقراى ؟ وإنى لأقول ذلك
يا أيها الرجل الغافل الذى يحب البشر ، إنى أحقد على الريال وعشر
الريال ، والسنت الذى أعطيه إلى قوم لا يتعلقون بى ولا أتعلق بهم .
هناك طائفة من الناس أباع لهم وأشترى لما بينى وبينهم من قرابة
روحية ؛ من أجلهم أذهب إلى السجن إن دعا الداعى . ولكن
صدقاتكم المتنوعة العامة ، وتعليم الأغبياء فى الكليات ، وبناء
النوادر لغرض التظاهر الذى يتمسك به الآن الكثير ، والإحسان
للسكارى ، وجميعيات الإعانة التى تعد بالألوف — هذه الجمعيات
أعترف فى خجل أنى أحيانا أضعف وأهبطها الدولار ، إلا أنه دولار
أثيم سوف تكون عندى الرجولة قريبا فأمنعه .

الفضائل فى تقدير الشعب هى الاستثناء وليست القاعدة . هناك
الرجل وهناك فضائله . يعمل الناس ما يسمى بالفعل الطيب ، كعمل
فيه شجاعة أو إحسان ، كما يدفعون الغرامة يكفرون بها عن عدم
ظهورهم يوميا فى الصفوف . يقومون بأعمالهم للاعتذار أو للتخفيف
عن حياتهم فى الدنيا — كما يدفع العجزة والمجانين أجرا عاليا
لإبرائهم . ففضائلهم كفارة . ولست أريد أن أكفر ، ولكنى
أريد أن أعيش . حياتى لذاتها وليست للتظاهر . وإنى لأؤثر جدا
أن تكون من مستوى منخفض ، لى تكون صادقة ثابتة ، على
أن تكون مضيئة ولكنها غير ثابتة . أريدها أن تكون صحيحة حلوة ،
ليست بحاجة إلى غذاء وإراقة دماء . إنى أطلب دليلا مبدئيا على

أنك رجل ، وأرفض أن يجيئني هذا الرجل إلى مطالبي بفعاله .
وأعرف عن نفسي أنه لا فارق عندي إن كنت أؤدى أو أمتنع عن
تلك الأفعال التى تعد ممتازة . لا أستطيع أن أوافق على أن أدفع ثمناً
لامتياز ما حيث يكون لى حق ذاتى . وقد تكون مواهب قليلة
ووضيعة ، ولكنى أنا نفسى فعلاً ، ولست بحاجة إلى شهادة ثانوية
لأن أثبت ذلك لنفسى أو أن أثبته لرفاقى .

كل ما يهمنى : هو ما ينبغى لى أن أعمله ، لا ما يفكر فيه
الناس . وهذه القاعدة صارمة سواء فى الحياة الواقعة أو الحياة
العقلية ، ولذا فهى تصلح لأن تكون تمييزاً كاملاً بين العظمة
والوضاعة . ويزيد هذه القاعدة عسراً أنك تلقى دائماً أولئك الذين
يظنون أنهم يعرفون واجبك خيراً مما تعرفه أنت . ومن الميسور
أن تعيش فى الدنيا وفقاً لآرائها . ومن الميسور فى العزلة أن نحيا
وفقاً لآرائنا . بيد أن الرجل العظيم هو ذلك الذى يحتفظ وسط
الجمهير باستقلال العزلة فى سهولة تامة .

والاعتراض على اتباع العادات التى أصبحت ميتة بالنسبة إليك
هو أن ذلك يشئت قواك ، ويفقرك وقتك ، ويمحو أثر شخصيتك .
إذا أنت حافظت على كنيسة ميتة ، وأسهمت فى جمعية إنجيلية ميتة ،
وأعطيت صوتك مع حزب كبير إما مع الحكومة أو ضدها ،
وأعددت مائدتك كما يفعل أصحاب البيوت السفلة — فإنى تحت كل
هذه الستائر أجد مشقة فى أن أكشف عن حقيقتك تماماً كأنسان .

وَتَحْرَمُ حَيَاتِكَ الصَّحِيحَةَ — بِطَبِيعَةِ الْحَالِ — مِنْ قُوَّةِ كِبَرِي .
 وَلَكِنَّكَ إِنْ أُدِيتْ عَمَلُكَ عَرَفْتُكَ وَعَزَزْتُ نَفْسَكَ . يَنْبَغِي لَكَ أَنْ
 تَدْرِكَ أَنَّكَ كَالْأَعْمَى حِينَمَا تَلْعَبُ دَوْرَ التَّبِيعَةِ لغيرِكَ . إِذَا عَرَفْتُ
 طَائِفَتَكَ تَوَقَّعْتُ جَدْلَكَ . وَإِنِّي لَأَسْتَمِعُ إِلَى الْوَاعِظِ يَعلَنُ أَنَّ مَادَتَهُ
 وَمَوْضُوعَهُ هُمَا مِنْ مُسْتَلْزَمَاتِ نِظَامٍ مِنَ النِّظَمِ الْخَاصَةِ بِكُنْيَتِهِ .
 أَفَلَا أَعْرِفُ مَقْدَمًا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً جَدِيدَةً مِنْ تَلْقَاءِ
 نَفْسِهِ ؟ أَفَلَا أَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ ، بَرغمَ كُلِّ ذَلِكَ التَّظَاهِرِ بِفَحْصِ
 أَسْئَلِ هَذَا النِّظَامِ ؟ وَأَلَا أَعْرِفُ أَنَّهُ عَاهَدَ نَفْسَهُ أَلَّا يَنْظُرَ إِلَّا إِلَى
 جَانِبٍ وَاحِدٍ — وَهُوَ الْجَانِبُ الْمُسَمُوحُ بِهِ ، لَا كَرَجُلٍ وَلَكِنْ
 كَقَسِيسِ الدَّائِرَةِ الدِّينِيَّةِ ؟ إِنَّمَا هُوَ عِمَامٌ مُحَافِظٌ ، وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ الَّتِي
 يَتَّخِذُهَا وَهُوَ يَعْتَلِي الْمَنَصَّةَ تَظَاهِرُ أَجُوفٌ . ثُمَّ إِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ قَدْ
 عَصَبُوا أَعْيُنَهُمْ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَادِيلِ ، وَرَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى إِحْدَى
 هَذِهِ الشَّيْعِ الْفِكْرِيَّةِ . هَذِهِ التَّبِيعَةُ لَا تَجْعَلُهُمْ مَخْطِئِينَ فِي قَلِيلٍ مِنَ
 التَّفْصِيلَاتِ ، أَوْ مُبْدِعِينَ لِقَلِيلٍ مِنَ الْأَكَاذِيبِ ، وَلَكِنْ مَخْطِئِينَ
 فِي التَّفْصِيلَاتِ كُلِّهَا . كُلُّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ صَدَقٍ لَيْسَ صَادِقًا تَمَامًا .
 وَالْإِثْنَانُ عِنْدَهُمْ لَيْسَا الْإِثْنَيْنِ الْحَقِيقِيَّيْنِ ، وَأَرْبَعُهُمْ لَيْسَتْ الْأَرْبَعَةُ
 الْحَقِيقِيَّةُ ، وَلَئِنْ فَانَ كُلُّ كَلِمَةٍ يَنْطَقُونَ بِهَا تَضَاقُفًا ، وَلَا نَعْرِفُ مِنْ
 أَيْنَ نَبْدَأُ كَيْ نَقْوَمَهُمْ ، وَفِي الْوَقْتِ عَيْنُهُ لَا تَتَوَانَى الطَّبِيعَةُ فِي إِمْدَادِنَا
 بِزَيِّ السَّجْنِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ الْحِزْبُ الَّذِي نَنْتَمِي إِلَيْهِ . إِنَّمَا نَبْدُو فِي
 مَلَامَحٍ وَأَشْكَالٍ مُتَشَابِهَةٍ ، وَنَحْصُلُ تَدْرِيجًا عَلَى أَصْدَقِ مَلَامَحِ الْغَبَاءِ .

وهناك بنوع خاص تجربة قاتلة لها أثرها الملحوظ في التاريخ العام ، وأعنى بها « ناحية الإطراء السخيفة » ، تلك الابتسامة المفتعلة التي تبدو علينا في صحبة الجماعة حيناً لا نشعر بالراحة عند ما نجيب على حديث لا يشوقنا . إن العضلات حينئذ لا تتحرك حركة تلقائية ، وإنما يحركها تعمد غاصب ، فتتصلب في خطوط الوجه وتحدث إحساساً لا يُرغب البتة فيه .

إن الدنيا تضربك بسياط الغم إذا أنت لم تسر في الركب . ولذا فمن واجب المرء أن يتعلم كيف يجابه الوجوه المريرة . فملتفرون ينظرون إليه شزراً في الطريق العام أو في حجرة استقبال الصديق . وإن كان هذا النفور منشؤه ازدراء أو مقاومة مثلاً لديه فإنه يعود إلى بيته بوجه مكتئب . غير أن وجوه الجماهير المريرة ، كوجوهها السمحة ، ليس لها سبب عميق ، ولكنها تتلبس بها أو تنزعها وفقاً لطبوع الرياح أو توجيه الصحف . ومع ذلك فإن سخط الجمهور أشد رعباً من سخط الشيوخ أو الكلية الجامعية . ومن اليسير على رجل حازم يعرف العالم أن يصبر على سخط الطبقات المثقفة ، فسخطها محتشم حكيم ، فهم جبناء لأنهم هم أنفسهم عرضة للتجريح . ولكن إذا أضيف إلى غضبهم النسوى سخط العامة ، إذا أثرت الجاهل والفقير ، وإذا أنت وضجت القوى الوحشية غير العاقلة التي تكمن خلف المجتمع ، كنت بحاجة إلى اعتياد النخوة وعقيدة الدين ، كي تواجهها متألهاً على أنها من توافه الأمور التي ليس من ورائها خطر .

والفزع الآخر الذى يبعدنا عن ثقتنا بأنفسنا هو ثباتنا على حال واحدة ، أو تقديسنا لأعمالنا وأقوالنا الماضية ، لأن أعين الآخرين ليست أمامها حقائق أخرى تقدر بها مدارنا سوى ماضى فعالنا ، ونحن نكره أن نخيب رجاءهم .

ولكن لماذا تبتقى على رأسك فوق كتفك ؟ ولماذا تحمل عبء ذاكرتك — وكأنك تحمل جثة هامة — خشية أن تناقض شيئاً مُبَحَث به فى مكان عام ؟ هب أنك ناقضت نفسك ، ماذا وراء ذلك ؟ يبدو أن من قواعد الحكمة ألا تعتمد على ذاكرتك وحدها ، حتى فى أفعال الذاكرة البحتة ، ولكن يجب أن تزج بالماضى فى أحكامك وسط الحاضر الذى يملك ألف عين ، وتعيش دائماً فى يوم جديد . إنك فى عقائدك الميتافيزيقية قد أنكرت الشخصية للإله ، ومع ذلك فعندما تأتى الحركة المقدسة للروح ، استسلم لها بقلبك وحياتك ، حتى إن أكسبت الإله شكلاً ولونا ، وتخلّ عن نظرتك كما تخلص يوسف عن قميصه فى يد العاهرة ، ثم اهرب .

إن الثبات السخيف على رأى واحد هو غول العقول الصغيرة ، الذى يقدمه صغار السياسيين والفلاسفة ورجال الدين . أما الروح العظيمة فليس لها البتة شأن بهذا الثبات . وإلا فكأنها تأبه لظلمها فوق الحائط . انطق بما تفكر فيه الآن فى ألفاظ قوية ، وانطق غداً بما تفكر فيه غداً فى ألفاظ قوية كذلك ، حتى إن ناقض كل ما قلته اليوم — « وإذن فتق إنك سوف يُساء فهمك » — وهل

من شر الأمور أن يُساء فهمك ؟ لقد أسىء فهم فيثاغورس ، وكذلك سقراط ويسوع ولوثر وكوبرنكس وغاليليو ونيوتن وكل روح طاهرة عاقلة ، تجسدت . لكي تكون عظيماً لا بد أن يُساء فهمك .

لست أحسب أن أحداً من الناس يستطيع أن يناقض طبيعته . وكل نزوات الإرادة عند الإنسان محاطة بقانون وجوده ، كما أن التواءات الأنديز والمملايا تافهة في استدارة الكرة الأرضية . ولا يهم كيف تقيس المرء أو تختبره . الشخصية تشبه الموشح العبرى المعكوس أو الموشح الأسكندري . إن قرأته إلى الأمام أو إلى الوراء أو عرضاً فإن هجاءه لا يتغير . وفي هذه الحياة السارة المحدودة الجامدة التي وهبني الله إياها ، دعني أسجل كل يوم آرائي المخلصة دون نظر إلى المستقبل أو إلى الماضي ، ولست أشك في أنها سوف تكون متناسبة حتى إن لم أقصد إلى ذلك وإن لم أدركه . يجب أن ينم كتابي عن رائحة الصنوبر وأن يرن بصدى طنين الحشرات . والسنوسوة التي فوق نافذتي يجب أن تسهم بالخيوط أو بالقش الذي تحمله في منقارها في نسيجى كذلك . يجب أن يرانا الناس على حقيقتنا . فإن ما تعلمه الشخصية فوق ما تعلمه الإرادة . ويتصور الناس أنهم يُظهرون فضائلهم ووزائلهم بالعمل العلني فقط ، ولا يدركون أن الفضيلة والرذيلة ترسل الأنفاس في كل لحظة . ولا بد أن يكون هناك اتفاق في الأعمال مهما تنوعت ، حتى

يكون كل منها صادقاً وطبيعياً في ساعته . لأن الأفعال التي تصدر عن إرادة واحدة تتسق مهما بدت متباينة . وهذا التنوع لا يرى عن كسب أو على ارتفاع قليل من الفكر . فهناك اتجاه واحد يوحد بينها جميعاً . إن رحلة أحسن السفن خط متعرج في مائة اتجاه . انظر إلى الخط من بعد كاف يستقيم في متوسط اتجاهه . إن عملك الصادق يفسر نفسه ، كما يفسر أعمالك الصادقة الأخرى ، ولكن تبعيتك لا تفسر شيئاً . اعمل بمفردك ، وما عملته حتى الآن بمفردك يبررك الآن . إن العظمة تنظر إلى المستقبل . ولو استطعت أن أثبت اليوم ثبوتاً كافياً على فعل الصواب ، وازدريت الأعين ، فلا بد أن أكون قد فعلت صواباً كثيراً فيما مضى أدفع به عن نفسي اليوم . ومهما يكن من شيء فعليك أن تفعل الصواب الآن . احتقر المظاهر دائماً ، وإنك لتستطيع ذلك دائماً . إن قوة الشخصية قوة متجمعة . كل ما انقضى من أيام الفضيلة يفعل فعله الصحيح في ذلك . ما الذي يكسب أبطال مجلس الشيوخ وأبطال الميدان جلالهم الذي يملأ الخيال ؟ هو الإحساس بسلسلة من الأيام العظيمة والانتصارات القديمة . إنها تلقى ضوءاً متحدداً على الرجل العامل الذي يتقدم الناس . وكأن حرساً ظاهراً من الملائكة يحدوه . وذلك هو ما يلقى الرعد في صوت تشاتهم ، والكرامة في مسلك واشنجتن ، وما يلقى بأمريكا في عين آدمز . الشرف مقدس لدينا لأنه لا يتغير بتغير الأيام ولكنه فضيلة أزلية . نعبده اليوم لأنه ليس ابن اليوم . نحبه ونقدم

له الولاء لأنه لا يكيد لحبنا وولائنا ، ولكنه مستقل استقلالاً ذاتياً ، مشتق من نفسه ، ولذا فهو من سلالة طاهرة قديمة ، حتى إن اتصف به شخص صغير السن .

وإني لآمل أن تكون هذه الأيام آخر عهدنا بالتبعية والثبات . ولنسجل هاتين الكلمتين في الجريدة الرسمية ونهزأ بهما بعد الآن . دعنا نستمع إلى صفير الزمار الأسبرطى بدلا من الطبل الذي يُدق إيداناً بيدء الغداء . دعنا لا ننحنى ولا نعتذر بعد اليوم . إن رجلا عظيماً قادم ليأكل في بيتي ، فلست أود أن أسره ، وإنما أود لو أراد سرورى . سوف أقف هنا أمثل الانسانية ، وسوف أجعلها صديقة وإن جعلتها رفيقة . دعنا نعتب على ضعف عصرنا الشديد وقناعاته الدلية ، ولنُلْقِ في وجه التقاليد والمهنة والعمل الذى تؤديه تلك الحقيقة التى هى مغزى التاريخ ، وهى أن هناك مفكراً وعاملاً عظيماً مسئولاً يعمل حيثما يعمل الإنسان ، وأن الرجل الصادق لا ينتمى إلى زمان أو مكان آخر ، وإنما هو مركز الأشياء . حينما يكون تكون الطبيعة : وهو الذى يقيسك وقيس الناس والحوادث جميعاً . إن كل فرد فى المجتمع — عادة — يذكركنا بشيء آخر أو بشخص آخر ، ولكن الشخصية ، والواقع ، لا تذكرك بشيء آخر . إنها محل الخليفة كلها . ويجب أن يبلغ المرء هذا الحد كي يجعل الظروف كلها تافهة .

كل رجل حقيقى سبب ، وقُطِرْ ، وعصر ، يحتاج إلى

مساحات وإعداد ووقت لا ينتهى كى ينجز خطته كاملة — ويبدو أن الأجيال القادمة تتبع خطاه كرتل من الأتباع . يولد الرجل القيصر ، وبعد ذلك بعدة عصور تكون لدينا الإمبراطورية الرومانية . ويولد مسيح ، ثم تنمو ملايين العقول وتلتصق بعبقريته حتى تذهله الفضيلة وما يستطيعه الإنسان . المذهب هو الظل الممتد لرجل واحد ، كالرهبانية فهى ظل الناسك أتنونى ، والاصلاح الدينى ظل لوثر ، وطائفة الأسحباب ظل فوكس ، والنظامية ظل وزلى ، وإنعاء الرق ظل كلاركسون . ولقد سمى ملتن سكيو « أوج روما » . والتاريخ كله يترد بأسره بسهولة جداً إلى سيرة أشخاص قلائل عظام جادين .

فليعرف الإنسان إذن قيمته ، ويجعل الأشياء تحت قدميه . دعه لا يتطلع إلى غيره ولا يسرق ولا يتوارى هنا أو هناك وعليه مسحة الصبي يطلب الإحسان ، أو ابن الزنا ، أو المتطفل ، فى العالم الذى يوجد من أجله . ولكن رجل الشارع الذى لا يجد قيمة فى نفسه توازن القوة التى شيدت برجاً أو نحتت إلهاً من المرمر ، يشعر بالفقر عندما ينظر إلى هذه الأشياء . والقصر أو التمثال أو الكتاب الثمين يبدو له غريباً ممتعاً ، كالبضاعة الزاهية ، وكأنها تقول له : « من أنت يا سيدى ؟ » ومع ذلك فكل أولئك له ، يتطلب التفاته ، ويلتمس من مواهبه أن تبرز لى تملك . تأتمر الصورة بأمرى ولا تأتمر بأمرها ، وإنما على أن أحكم على قيمتها . إن تلك القصة

الشائقة التي تقول ان مدمناً من مدمنى الخمر وجد مخوراً إلى حد الموت في الطريق ، فحمل إلى بيت الدوق ، ثم اغتسل وارتدى الملابس واستلقى في سرير الدوق ، ولما استيقظ عومل بالاحتفال والخضوع كما يعامل الدوق ، وألقى في روعه أنه كان في غير وعيه — هذه القصة تدين بشيوعها إلى أنها ترمز رمزاً حسناً إلى حالة الإنسان الذي يكون في الدنيا كأنه مدمن خمر ، ولكنه يصحو بين الفينة والفينة ، ويمارس عقله ، ويمجد نفسه أميراً حقاً .

إن قراءتنا ضعيفة مناققة . وفي التاريخ نخدعنا خيالنا ، فالملك والسيادة ، والنفوذ والضيعة ، كلمات لها بريق ليس للفرد العادى جون أو إدوارد في البيت الصغير وعمل اليوم المألوف . ولكن حاجات الحياة هي بعينها لكليهما ، والمجموع الكلى لكليهما هو عينه ، فلماذا إذن كل هذه الرعاية لألفرد وسكندر بيج وجستاقس ؟ هب أنهم كانوا فضلاء ، فهل تحلوا بفضيلتنا ؟ إن خطراً عظيماً يتوقف على عملك الخاص اليوم ، كما كانت لخطواتهم العامة المشهورة خطورتها . عندما يعمل الأفراد بأفكار مبتكرة ينتقل البريق من أعمال الملوك إلى هؤلاء السادة من الأفراد .

لقد تعلمت الدنيا من ملوكها الذين جذبوا أعين الأمم . تعلمت الدنيا من هذا الرمز الضخم الاحترام المتبادل الذي يستحقه الإنسان من أخيه الإنسان . فكما أن الإخلاص الأعمى الذي حمله الناس في كل مكان للملك أو النبيل أو المالك العظيم ، فسمحوا له أن يسير

بينهم بقانون من وضعه ، وأن يعمل للناس والأشياء مقياساً من عنده ، وَيَقْلِبَ مقاييس غيره ، ولا يدفع ثمناً للنافع مالا وإنما يدفع شرفاً ، ويمثل القانون في شخصه — ذلك الإخلاص كان الرمز الهيروغليفي الذي تبين به الناس في شيء من الغموض ما لهم من حق وقيمة ، فتيبنوا حق كل إنسان .

إن الجاذبية التي يتصف بها كل عمل مبتكر يمكن تفسيرها عندما نبحث في علة الثقة بالنفس . من هو صاحب هذه الثقة ؟ وما هي هذه النفس الأصلية التي نعتمد عليها في كل شيء ؟ وما طبيعة وما نفوذ ذلك النجم الذي حير العلم ، والذي لا يتغير ، والذي ينحو من العناصر التي يمكن حسابها ، ذلك النجم الذي يرسل شعاعاً من الجمال حتى إلى الأعمال التافهة الفاسدة ، إن بدت عليها أقل علامة من علامات الاستقلال ؟ إن البحث يهديننا إلى ذلك المنبع ، الذي هو لب العقل ، وجوهر الفضيلة والحياة في وقت واحد ، الذي نسميه التلقائية أو الغريزة . إننا ندعو هذه الحكمة الأولى « بالبداهة » في حين أننا نسمى كل ما عرفنا بعد ذلك « بالتعاليم » . في تلك القوة العميقة — وهي القوة الحقيقية النهائية التي لا تخضع للتحليل — تجدد كل الأشياء أصلها المشترك . لأن الإحساس بالوجود الذي يظهر في ساعات الهدوء في الروح بطريقة لا نعرفها ، ذلك الإحساس لا يختلف عن الأشياء ، أو المكان أو الضياء ، أو الزمان ، أو الإنسان ولكنه يتحد مع هذه الأشياء ، ومن الواضح أنه يخرج من المصدر

عينه الذى خرجت منه الحياة والوجود . إننا فى أول الأمر نشارك الأشياء حياتها التى توجد بها ، ثم نراها بعد ذلك مظاهر فى الطبيعة ونفسى أننا قاسمناها علمها . هنا مصدر العمل والفكر . هنا الرئتان لذلك الإلهام الذى يهب الإنسان الحكمة ، والذى لا يمكن إنكاره إلا مع الإلحاد والكفر أننا ننطوى تحت ذكاء عام نتقبل حقيقته ، ولسنا سوى أعضاء لنشاطه . وحينما نتبين العدالة أو نتبين الصدق لا نعمل شيئاً بأنفسنا ، ولكننا نفصح السبيل لأشعته . فإن سألنا من أين يأتى هذا ، وإن أردنا أن نحصى الروح التى كانت السبب ، شطحت بنا الفلسفة عن الصواب . إن وجوده أو غيابه هو كل ما نستطيع أن نؤكد . وكل إنسان يميز بين أعمال عقله الإرادية ومدركاته اللا إرادية ، ويعرف أن أعماله اللا إرادية جديرة بالإيمان الكامل . انه قد يخطئ فى التعبير عنها ولكنه يعرف أن هذه الأشياء هى كذلك ، كالليل والنهار ، لا جدال فيها . إن تحصيلي وأعمالي المقصودة ليست إلا عابرة — إن أسخف الأحلام ، وأضعف العواطف الطبيعية تستحق منى البحث والتقدير . ولكن الذين لا يفكرون يناقضون ما تقرره الحواس كما يناقضون ما تقرره الآراء ، بل هم أقرب إلى مناقضة ما تقرره الحواس ، ذلك لأنهم لا يفرقون بين الحس والرأى . إنهم يتوهمون أننى أختار رؤية هذا الشيء أو ذاك . بيد أن الحس لا يخضع للأهواء ، وإنما هو حتمى . إن أنا رأيت خاصة من الخواص ، رآها أطفالى من بعدى ، ثم رآها الناس جميعاً بمرور الزمن — حق إن حدث أن أحداً لم يرك تلك

الخاصة من قبلى ، ذلك لأن إحساسى بها حقيقة واقعة كالشمس .
إن العلاقات بين روح الإنسان والروح المقدس مباشرة ، وحرام
علينا أن نقيم بينهما الوسائط . إن الله عندما يتكلم لا يتصل بشئ
واحد إنما يتصل بجميع الأشياء . إنه يملأ الدنيا بصوته ، وينشر
النور فى الطبيعة والزمان والأرواح من مركز الفكرة الراهنة ،
ويعيد تاريخ كل شئ ويعيد خلق كل شئ . وعندما يكون العقل
ساذجا ، ويتقبل الحكمة الإلهية ، تزول الأشياء القديمة — فتسقط
الوسائل والمعلمون والنصوص والمعابد . فهو يعيش الآن ويتشبع
بالماضى والمستقبل فى الساعة الراهنة ، ويصبح كل شئ مقدساً
باتصاله به — لا فرق بين شئ وشئ . كل الأشياء تعود إلى
مركزها بعلمتها ، كما تختفى المعجزات الصغيرة الخاصة فى زحمة المعجزة
المطلقة . ولذا فإذا زعم إنسان أنه يعرف الله ويتكلم عنه ، ويعود
بك إلى مصطلحات أمة قديمة بالية فى بلد آخر ، أو فى عالم آخر ،
فلا تصدقه . هل بذرة البلوط خير من شجرة البلوط ، والشجرة هى
كمال البذرة وتماها ؟ وهل الوالد خير من الطفل الذى أودعه كيانه
الناضج . من أين إذن جاءت هذه العبادة للماضى ؟ إن القرون
تتآمر ضد صحة الروح وسلطانها . وليس المكان والزمان سوى ألوان
فيزيقية تخلقها العين ، ولكن الروح ضياء ؛ حيث تكون يكون
النهار ، وحيث كانت يكون الليل . وليس التاريخ إلا سفاهة وأذى
إذا زاد على أن يكون قصة وجودى ومصيرى أو مغزاهما .

الإنسان جبان يلتمس العاذير . إنه لم يعد مستقيماً ، ولا يجرؤ أن يقول « إني أفكر » أو « أنا أكون » وإنما يعيد ما قاله قدّيس أو حكيم معين ، إنه يخجل أمام ورقة العشب أو الزهرة الياقة . وهذه الورود تحت نافذتي لا تشير إلى ورود سابقة أو إلى ورود أحسن منها ، إنما هي كما هي ليس لها زمان . هناك الوردة فقط ، وهي كاملة في كل لحظة من لحظات وجودها . وقبل أن تتفتح الأكام تكون حياتها كلها دائبة في حركة ، لا تزيد شيئاً عندما تصبح زهرة يانعة ، ولا ينقص عنها في شيء الجذر الذي لا ورق له . طبيعتها مكتفية بذاتها ، وهي تكفي الطبيعة ، في كل لحظة على السواء . ولكن الإنسان ينظر إلى المستقبل أو يتذكر الماضي ، لا يعيش في الحاضر ، ولكنه بعين مرتدة يبكي الماضي ؛ أو لا يلتفت إلى الكنوز التي تحوطه ، فيقف على أطراف أصابعه كي يتنبأ بالمستقبل . إنه لا يستطيع أن يكون سعيداً قويا حتى يعيش هو كذلك مع الطبيعة في الحاضر ، فوق الزمان .

يجب أن يكون ذلك واضحاً وضوحاً كافياً . ولكن انظر إلى العقول القوية تجد أنّها لم تجرؤ بعد على الإصغاء إلى الله نفسه ، إلا إذا تكلم بالفاظ داود وأرميا وبولس وغيرهم . يجب ألا نقيم دائماً وزناً كبيراً لنصوص قليلة أو حيوات قليلة . نحن كالأطفال الذين يرددون من الذاكرة عبارات العجايز والمربين ، كما يرددون كذلك عندما يكبرون عبارات ذوى المواهب والشخصيات الذين يقابلونهم

مصادفة — ويجهدون أنفسهم لكي يذكروا الكلمات بعينها التي تفوهوا بها ؛ وبعد ذلك ، عندما يصلون إلى وجهة النظر التي كانت لدى أولئك الذين صدرت عنهم هذه الأقوال يفهمونهم ، ويرغبون في اختفاء الكلمات ، لأنهم يستطيعون في أى وقت أن يستخدموا ألفاظاً مثلها عندما تحين المناسبة . إذا عشنا عيشة صادقة ، شهدنا مشاهدة صادقة . ومن اليسير على الرجل القوى أن يكون قويا ، كما أنه من اليسير على الضعيف أن يكون ضعيفاً . وعندما ندرك شيئاً جديراً يسرنا أن نخفف عن الذاكرة عبء الكنوز المكدسة كأنها نفايات عتيقة . وعندما يعيش الإنسان مع الله يصبح صوته عذباً كخبر الغدير وحفيف نبات القمح .

وأخيراً بقيت الحقيقة العليا في هذا الموضوع دون ذكر ، وربما لا نستطيع ذكرها ، لأن كل ما نقوله إن هو إلا تذكر من بعيد للفطرة الأولى . تلك الحقيقة — في أيسر أسلوب لدى الآن للتعبير عنها — هي هذه : حينما يكون الخير قريباً منك ، وحينما تدب فيك الحياة ، فإن ذلك لا يكون بطريقة معروفة أو مألوفة ، فإنك لن تتبين مواقع خطى شخص آخر ، ولن ترى وجه إنسان ، ولن تسمع أى اسم — وإنما طريقك وفكرتك وما لديك من خير كله جديد مستحدث . إنك في ذلك تستبعد ما سبق من مثال وخبرة ، وتسير بعيداً عن الإنسان ، ولا تقترب منه . كل إنسان عاش فيها مضى قسيس بشر بفكرتك وغاب عن ذكرك . وهي فكرة

لا تعباً بخوف أو أمل . لأن هناك شيئاً من الوضاعة حتى في الأمل .
وفي ساعة الرؤيا ، ليس هناك ما يمكن أن نسميه الاعتراف بالجميل ،
أو أن نسميه بالسرور ونحن صادقون . إن الروح عندما تعلو
العاطفة ترى تماثل الأشياء ، وترى العلة الخالدة ، وتدرك البقاء
الدائى للحقيقة والصواب ، وتهدىء نفسها بمعرفتها إن الأشياء جميعاً
تسير سيراً حسناً . فالمساحات الشاسعة من الطبيعة ، والمحيط
الأطلنطى ، والبحر الجنوبي — والفترات الطويلة من الوقت ، والسنين
والقرون — ليست بذات بال . وهذا الذى أفكر فيه وأحسه
كان يمكن تحت كل حالة سابقة من حالات الحياة والحوادث ، كما هو
كامن تحت حاضرى ، وما نسميه الحياة وما نسميه الموت .

الحياة وحدها تجدى ، ولا يجدى ما عشناه فيما سبق . والقوة
تزول ساعة السكون ، وتوجد في لحظة الانتقال من ماض إلى حالة
جديدة ، وفي انطلاق الماء من الخليج ، وفي تصويب السهام نحو
الهدف . وهذه الحقيقة الواحدة تمتقها الدنيا : وهى أن الروح
« تصير » . لأن ذلك يحط من شأن الماضى دائماً ، ويحيل كل
الكنوز إلى فقر ، وكل سمعة طيبة إلى عار ، ويخلط بين القديس
والوغد ، ويلقى يسوع ويهوذا جانباً على السواء . فلماذا إذن نلغظ
بالاعتماد على النفس ؟ بمقدار ما تكون الروح حاضرة ، تكون هناك
قوة عاملة وإن تكن خفية . إن الكلام عن الاعتماد ليس سوى
طريقة ضعيفة سطحية للكلام . وإنما يجب أن نتكلم عن ذلك الذى

يعتمد لأنه يعمل ولأنه كائن . من يركن إلى نفسه أكثر مما يفعل
يسيطر على حق إذا لم يرفع إصبعه . ولا بد لي أن أدور حولة بجاذبية
الأرواح . إننا عندما نتكلم عن علو الفضيلة نتوهم أن ذلك من
فصاحة اللسان . فنحن لم ندرك بعد أن الفضيلة « علو » ، وأن
الرجل — أو مجموعة الرجال — إذا استكان ورضخ للمبادئ
العليا ، وجب — وفقاً لقوانين الطبيعة — أن يتسلط وأن يسيطر
على جميع المدائن والأمم والملوك والأغنياء والشعراء ، الذين لم
يستكينوا كما استكان .

هذه هي الحقيقة القصوى التي سرعان ما ندركها في هذا
الموضوع ، كما ندركها في غيره من الموضوعات ، وهي : ذوبان كل
شئ في « الواحد » المبارك دائماً . فالوجود الذاتي هو صفة « العلة
العليا » ، ومن هذا الوجود الذاتي يتألف مقياس الخير بمقدار
تغلغله في جميع الصور الدنيا . والأشياء حقيقية بمقدار ما فيها من
هذه الصفة . والتجارة والزراعة والقتل وصيد الحوت ، والحرب
والفصاحة ، وقيمة الفرد ، هي شئ ما ، وتظفر بتقديرى كأمثلة
لوجود هذه الصفة وأثرها غير المباشر . وإني لأرى القانون عينه يعمل
في الطبيعة للبقاء والنمو . القوة في الطبيعة مقياس للحق لا مفر منه .
والطبيعة لا تسمح لشئ أن يبقى في ممالكها إذا كان لا يعتمد على
نفسه . ونوع الكوكب وقوته ، وموضعه ومداره ، والشجرة
المنحنية التي تسترد استقامتها بعد هبوب الريح العاتية ، والموارد

الحوية لكل حيوان وكل خضرة ، كل أولئك دليل على الروح
التي تكفي ذاتها فتعتمد على نفسها .

وهكذا يتركز كل شيء . دعنا لانتجول ، ولنتبع في دورنا مع
العلة الأولى . دعنا نذهل ونُدْهِش أولئك الغوغاء من الناس
والكتب والنظم بإعلان بسيط للحقيقة المقدسة . مُرّ الغزاة أن
يخلعوا نعالهم لأن الله هنا في دخيلة أنفسنا . ولتحكم عليهم بساطتنا ،
وليمن انصياعنا لقانون أنفسنا فقر الطبيعة وكل ما يصيب الإنسان
إذا قيس إلى ثروتنا الأصيلة فينا .

ولكننا اليوم رعا . لا يقيم الإنسان لإنسانية وزنا ، ولم يتعلم
أن يلزم داره كي يتصل بمحيطه الداخلي ، ولكنه يرحل إلى
الخارج ، يطلب كأساً من الماء من أوعية الآخرين . يجب أن نسير
وحدنا . وإنى لأحب الكنيسة صامته قبل أن تبدأ الصلاة أكثر مما
أحب الوعظ أيا كان . كيف يبدو الأشخاص بعيدين باردين
طاهرين ، كل منهم تحوطه رجة أو معبد . ولذا فلنقعد دائماً . لماذا
نحمل وزر الصديق والزوجة والوالد والولد ؟ ألا نهمهم يجلسون
حول موقدنا ، أو لأنه يقال إن في عروقهم نفس دمائنا ؟ الناس
جميعاً في عروقهم دماى ، ودماؤهم جميعاً في عروقي . ولن أحمل
نزع حماقتهم من أجل ذلك ، حتى أبلغ حد الخجل . بيد أن عزلتك
ينبغي ألا تكون آلية ، بل روحية ، أى ينبغي أن تكون سمواً .
إن الدنيا بأسرها أحياناً تتآمر على أن تشغلك بتوافه ليس لك

عنها من محيص . يطرق باب غرفتك الصديق والعميل والطفل والمرض والخوف والحاجة والإحسان في وقت واحد تقول « اخرج إلينا » . عندئذ إلزم حالتك ولا تخرج إلى ما يضطربون فيه . إن القوة التي يملكها الناس لمضايقتي إنما أعطيهم إياها بضعف في نفسى ، هو حب التطلع . لا يستطيع أحد أن يقترب منى إلا عن طريق ما أعمل . « إننا نملك ما نحب ، ولكننا بالاشتياء نحرم أنفسنا من الحب » .

إذا لم نستطع فى الحال أن نرتفع إلى قدس الخضوع والإيمان فلا أقل من أن تقاوم ما يغرينا ، ولنعلن الجهاد ، ونوقظ الشجاعة والثبات فى صدورنا السكسونية . نؤدى ذلك فى أوقاتنا الرخية بقولنا الصديق . ولنكف عن الجود الزائف والحب الكاذب . دعنا لا نعيش بعد اليوم كما يتوقع هؤلاء القوم الخادعون المخدوعون الذين تتحدث إليهم . قل لهم : أبى ، وأمى ، وزوجى ، وأخى ، وصاحبى ، لقد عشت معهم وراء الظواهر حتى اليوم ، ولكنى منذ الآن ملك للحقيقة . ولتعلموا أنى منذ اليوم لن أطيع قانوناً سوى القانون الأبدى . لن أخضع لما تقولون ، ولكن لما تمليه على نفسى . سوف أحاول أن أطعم والدى ، وأن أعول أسرتى ، وأن أكون الزوج الطاهر لزوجة واحدة — ولكن هذه العلاقات لابد أن أؤديها بطريقة جديدة لم يسبقنى إليها أحد . إنى أبتعد عن عاداتكم ، ولابد أن أكون نفسى . لن أستطيع بعد اليوم أن أحطم نفسى

من أجلكم ، ولن تستطيعوا ذلك . إذا أمكنكم أن تحبوني على حالي
كنا أسعد حالا ، وإذا لم يمكنكم ذلك فسوف أعمل على أن أستحق
منكم ذلك . إن أخفى ما أميل إليه وما أعزف عنه ، وسوف أتق
بأن كل ما يختفى في أعماق الفؤاد مقدس . وسأؤدى بقوة أمام
الشمس والقمر أى شئ يسرنى في دخيلة نفسى أو يمليه قلبى . إن
كنتم نبلاء أحببتكم ، وإن لم تكونوا لن أؤذيكم وأؤذى نفسى
برعايتى إياكم نفاقا . وإن كنتم صادقين ، ولكنكم لستم معى فيما
أصدق ، فتمسكوا برفاقكم ، وسوف أبحث عن رفاقى ، وإنى لا أفعل
ذلك عن أنانية ، ولكنى أفعله متواضعا صادقا . وإنه ليهمكم كما يهمنى
ويهم الناس جميعا — مهما طال انغماسنا فى الأكاذيب — أن نعيش
فى الصدق . هل يبدو هذا اليوم صارما ؟ سرعان ما تحبون مثلى
ما تمليه عليكم طبائعكم . وإذا نحن تابعنا الصدق فسوف ينقذنا فى
النهاية — ولكنكم ربما صيبتم بذلك للأصدقاء الآما . أجل ،
ولكنى لا أستطيع أن أبيع حريتى ونفوذى لى أنقذ إحساسهم .
ثم إن الناس جميعا لهم لحظات يتعقلون فيها ، وذلك عندما يتطلعون
إلى دولة الحق المطلق . إنهم حينئذ يبررونى ويفعلون مثما أفعل .
تظن العامة أنك حين تنبذ المعايير العامة تنبذ كل المعايير ،
وتعصى القواعد الخلقية لمجرد العصيان . ويستخدم الشهوانى الجرىء
اسم الفلسفة ليكسو جرائمه بالذهب . ولكن قانون الوعى قائم .
وهناك كرسىان للاعتراف ، يجب أن تقبل الاعتراف فى أحدهما .

فإما أن تؤدي ما عليك من واجبات بتخليص نفسك بطريقة مباشرة أو بطريقة الانعكاس ، فقد يهمك أن يرضى عنك أبوك وأمك وابن عمك وجارك وبلدك وقطتك وكلبك ، وألا يوجه إليك أحد من هؤلاء لوما . ولكنني أستطيع كذلك أن أهمل هذا المعيار المعكوس وأرضى ضميري أمام نفسي ، وأجعل مطالبي مستقلة ودأثرتي كاملة . هذه النفس المستقلة تنكر اسم الواجب لكثير من الأعمال التي تسمى واجبات ؛ وإن استطعت أن أدفع ديونها مكنتني من الاستغناء عن القانون العام . وعلى من يتصور أن في هذا القانون تراخياً أن يخضع له يوماً واحداً .

إن من ينبذ الدوافع العامة للإنسانية ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لا بد له أن يتميز ببعض صفات الآلهة . ولكي يكون المرء لنفسه حقاً مذهباً ومجتمعاً وقانوناً ، ولكي يكون الغرض اليسير له قويا قوة الحاجة الماسة عند غيره ، لا بد أن يكون قلبه كبيراً ، وإرادته صادقة وبصره صافياً .

لو أن أي إنسان فكر في الصفات الحالية لما نسميه على وجه الدقة « بالمجتمع » لأدرك الحاجة إلى هذه القوانين الخلقية . ويبدو أن أعصاب الإنسان وقلبه قد تراخت وأصبحنا بكائين هيايين يائسين . إننا نخشى الحق ، ونخشى القدر ونخشى الموت ، ونخشى بعضنا بعضاً . وعصرنا لم يتمخض عن شخصيات عظيمة كاملة . نريد رجالاً ونساء يحددون الحياة ويجددون حالتنا الاجتماعية ، ولكننا نجد أن أكثر

الطبائع مفلسة ، لا تستطيع أن تسد حاجة نفسها ، لها مطاعم لا تتناسب البتة وقوتها العملية ، وتلين وتتسول ليلا ونهاراً بغير انقطاع . إن تديرنا المنزلى ضعيف ، وفنوننا ، وأعمالنا ، وزواجنا وديننا ، لم نختره لأنفسنا ، وإنما اختاره لنا المجتمع . إنما نحن جنود فى غرفة الاستقبال ، تتحاشى معركة القدر الحامية التى تتولد فيها القوة .

إذا فشل شبابنا فى مشروعاته الأولى فقد كل شجاعته . وإذا خاب التاجر الناشئ قال الناس عنه إنه « أفلس » . وإذا درس أربع النابغين فى إحدى جامعاتنا ، ولم يعين فى وظيفة بعد عام واحد فى مدينتى بوسطن ونيويورك أو ضواحيهما بدا لأصحابه وبدا له أنه على حق فى يأسه وفى شكواه بقية حياته . إن الصبي القوى من نيوهامشير أو ثرمنت الذى يحاول جميع المهن بالدور ، يعرى ، ويفلح ، ويطوف بالبيع ، ويدير مدرسة ، ويعظ ، ويحرق فى صحيفة ، ويذهب إلى الكنجرس ويشتري أرضا فى المدينة ، وما إلى ذلك ، فى سنوات متتالية ، ويقع دائماً كالقطة على قدميه ، يساوى مائة من دُمى المدن هؤلاء . إنه يسير قدُماً مع أيامه ولا يشعر بالحُجل لأنه لم « يدرس مهنة ما » لأنه لا يرجىء حياته ، وإنما يحياها فعلا . ليست لديه فرصة واحدة ، بل أمامه مائة فرصة . ينبغى على الرواقى أن يدرك مواهب الإنسان ، وأن يبلغ الناس أنهم ليسوا كشجر الصفصاف الذى يميل مع الريح ، ولكنهم يستطيعون — بل

وينبغي لهم — أن يستقلوا بأنفسهم ، وليعلمهم أنهم إن وثقوا بأنفسهم ظهرت لهم قوى جديدة ، وأن الإنسان هو الكلمة قد تجسدت ، ولد لينشر الشفاء بين الأمم ، ويجب أن ينجل من رحمتنا به ، وليعلم أنه في اللحظة التي يعمل فيها بوازع من نفسه ، ويلقى بالقوانين والكتب والأوثان والعادات من النافذة ، لا نشفق عليه ، بل نقدره ونحترمه — من يعلمنا ذلك يضيف على حياة الإنسان سناء وبهاء ، ويرفع ذكره في جميع صفحات التاريخ .

ومن اليسير أن نرى أن مزيدا من الثقة بالنفس لا بد أن يحدث انقلابا في جميع وظائف الناس وعلاقاتهم ، في ديانتهم ، وفي تربيتهم ، وفي أهدافهم ، وأساليب عيشهم ، واجتماعهم ، وفي امتلاكهم ، وفي آرائهم التي يتدبرون .

١ — أى الصلوات يسمح الناس لأنفسهم بها ! إن ما يسميه الناس وظيفة مقدسة ليس فيه من الشجاعة والرجولة بمقدار ما فيه من القداسة . إن دعاءنا عجيب ، نلتمس فيه الزيادة فيما نملك عن طريق فضيلة غريبة عنا ، وهو يضل في متاهات لانهاية لها مما هو طبعى وما هو غير طبعى ، وما هو وسيط وما هو معجز . إن الدعاء الذى نطلب فيه سلعة خاصة — ولا نطلب الخير خالصا — دعاء مرذول . إنما الصلاة هي تأمل حقائق الحياة من أعلى وجهة من وجهات النظر . هي مناجاة النفس المبصرة المشرحة . هي روح الله تعلن أن أعماله طيبة . ولكن الصلاة كوسيلة لتحقيق غرض خاص ، صناعة وسرقة . إنها تفرض في الطبيعة والوعى الثنائية بدلا من الوحدة . إن الإنسان

إذا اتحد مع الله لا يتسول . إنه عندئذ يرى الصلاة في كل عمل . إن صلاة الفلاح راكعاً في حقله يشدبه ، وصلاة صاحب الزورق جاثياً يضرب بمجدافه ، صلوات صادقة تصنى إليها الطبيعة بأسرها ، وإن تكن لأغراض رخيصة . في « بندوكا » لفلتشر يجيب « كاراناش » عندما ننصح بالبحث في عقل الإله « أوديت » :
إن معانيه الخفية تكمن في محاولتنا ؛
وأعمالنا الباسلة خير آلهتنا .

والندم نوع آخر من الصلاة الزائفة . فالضجر نقص في الاعتماد على النفس ، وعجز في الإرادة .. اندم على الكوارث إن كنت بهذا الندم تعين من يكابدها . وإلا فباشر عملك وسوف يشرع الشر في إصلاح ذاته . وعطفنا لا يقل عن الندم وضاعة . إننا نتوجه إلى أولئك الذين يكون غافلين ، ونجلس إلى جوارهم ، وننادى بصحبهم ، وذلك بدلا من أن نعرفهم بالحق والصواب ونصدمهم صدمات كهربية عنيفة ، كي نردم ثانية إلى الاتصال بعقولهم . إن سر ما يصيب الإنسان من خير هو الابتهاج بما بين يديه . والرجل الذي يعين نفسه ترحب به الآلهة والناس في كل حين . تتفتح له الأبواب ، وتحية الألسنة جميعاً ، ويتوجه الشرف ، وتتبعه الأعين كلها في شغف . نهيه حبنا ونطوقه به ، لأنه لم يحتج إليه . ونلاطفه ونخفل به في اهتمام واعتذار ، لأنه ثبت على طريقته واستهان باستنكارنا لها . تحبه الآلهة لأن الناس قد كرهوه . قال زرادشت :

« إن الآلهة المباركة تخف إلى الإنسان المشابر » .

وكما أن صلوات الناس مرض في الإرادة فكذلك عقائدهم مرض في العقل . إنهم يقولون مع أولئك الأسرائيليين الحقى « لا تدع الله يتحدث الينا خشية أن نموت ، بل تكلم أنت أو ليكلمنا أى إنسان ، نطعه » . في كل مكان أجد عقبة في سبيل لقاء الله في نفس أخى ، لأنه أغلق أبواب معبده ، واكتفى بتلاوة حكايات إله أخيه ، أو إله أخى أخيه . كل عقل جديد نوع جديد . إن ثبت أنه عقل له نشاط وقوة غير عادية ، كعقل لوك أو لا ثوازيه أو هتن أو بنتام أو فورييه فإنه يفرض نوعه على غيره من الناس ، ثم انظر فإذا نظام جديد ! وإن اطمئنان الطالب يتناسب وعمق تفكيره ، وبالتالي يتناسب وعدد الأشياء التى يمسه هذا التفكير ويجعلها فى متناوله . ويظهر هذا خاصة فى المذاهب والكنائس المتنوعة ، وهى كذلك ضروب من عقل قوى يعمل وقفا لفكرة الواجب الأولية ، وعلاقة الإنسان بربه . هكذا كانت الكاثنية والكويكرية ومذهب سودنبرج . أن التلميذ يُسَرُّ لإخضاع كل شئ للمصطلحات الجديدة ، كالفتاة التى تعلمت علم النبات حديثا عندما رى تربة جديدة وفصولا زراعية جديدة تتفق وما تعلمت . وقد يحدث لفترة ما أن يجد الطالب أن قواه العقلية قد نمت بدراسة عقل أستاذه . ولكن العقول غير المتزنة تعبد الفرع عبادة الأوثان ، وتجعله هدفا فى ذاته ، ولا تجعله وسيلة سريعة الزوال ،

بحيث تندمج في أعينهم — في الأفق البعيد — حدود النظام الجديد في حدود العالم بأسره ؛ بل تبدو لهم الأجسام المضيئة في السماء معلقة على البناء الذي شيده أستاذهم . أصحاب هذه العقول الناقصة لا يستطيعون أن يتصوروا كيف يكون لكم أنتم أيها الأغراب أى حق في المشاهدة — أو كيف تستطيعون الرؤيا « لا بد أن تكونوا قد اختلستم النور منا بطريقة ما » . إنهم لم يدركوا بعد أن النور لا يسير على نسق واحد ولا يمكن إخضاعه فهو يسطو على أى كوخ حتى على كوخهم . هلا ابتهجت نفوس هؤلاء القوم مرة ورأت أن النور نورها ! إنهم إن أخلصوا وحسنت أعمالهم ضاقت حظيرتهم المحدودة الجديدة في الحال ، وانخفضت ، وتشققت ، ومالت ، وانهارت ثم اختفت ، وأشرق على الدنيا ضياء خالد كذلك الذى يشرق في أول الصباح ، قوى بهيج ، متعدد الأفلاك ، مختلف الألوان .

٢ — إن خرافة السفر الى قدس الرحلة إلى إيطاليا وانجلترا ومصر تستمد جاذبيتها لجميع الأمريكيين المذهبيين من نقص ثقافتهم الذاتية . إن أولئك الذين جعلوا بلادهم — انجلترا وإيطاليا واليونان — مقدسة في الخيال ، إنما فعلوا ذلك بثباتهم فى أمكتهم كمحور الأرض . وإننا فى ساعات الرجولة نحس أن واجبنا أن نثبت فى مكاننا . الروح لا تسافر ، والرجل العاقل يبقى فى بيته ، وعندما تستدعيه ضروراته وواجباته فى أية مناسبة إلى مغادرة بيته أو إلى ارتياد بلاد أجنبية ،

فإنه برغم ذلك يكون في بيته ، ويجعل الناس يحسون بما يبدو على ملامحه من تعبير أنه إنما جاء ليبشر بالحكمة والفضيلة ، وأنه يزور للدائن والرجال كما يزورها السيد لا كما يزورها المتطفل أو التابع .
ليس عندي اعتراض سخيف على الطواف بالكرة الأرضية ، في سبيل الفن والدراسة وفعل الخير ، إن كان المرء يتوطن أولاً ، ولا يرحل إلى الخارج آملاً أن يجد شيئاً أعظم مما يعرف . من يرحل للتسلية ، أو لكي يظفر بشيء لا يحمله بين جنبيه إنما يرحل بعيداً عن نفسه ، ويشيخ حتى في شبابه بين الأشياء العتيقة . إن إرادته وعقله ، تشيخ وتتحطم في طيبة وطميرا ، مثلهما . إنه يضم أطلالا إلى أطلال .

الأسفار جنة « العبيط » . ورحلاتنا الأولى تبين لنا ما بين الأماكن من تشابه . إننى في وطنى أتخيل ان جمال نابلى وروما يمكن أن يحدرنى وينسينى أحزاني . فأحزم متاعى ، وأعانق أصدقائى ، وأقلع في البحر ، وأستيقظ أخيراً في نابلى ، وهناك إلى جوارى أجد الحقيقة الصارمة ، أجد نفسى الحزينة ، التى فررت منها ، هى لم تدعن ولم ترضخ . إننى أقصد الفاتيكان والقصور . وأتظاهرها بأنى أمل بالمناظر وما تثيره ، ولكنى لست كذلك ، فإن ماردى يرافقنى أنى ذهبت .

٣ — بيد أن سؤرة السفر ليست إلا عرضاً لاختلال أبعد مدى يؤثر في الأعمال العقلية جميعاً . فالذهن متشرد ، ونظامنا في

التعليم يربى القلق . ترحل عقولنا حينما تضطر أجسامنا إلى البقاء في الدار . إننا نقلد ، وليس التقليد سوى رحلة من رحلات العقل . ونبنى بيوتنا بذوق أجنبي ، وزين رفوفنا بأدوات الزينة الغريبة عنا . وآراؤنا ، وأذواقنا ، وكفayaاتنا ، تخضع ، وتتبع الماضي والبعيد . لقد أبدعت الروح الفنون حينما ترعرعت هذه الفنون . ولم يبحث الفنان عن نموذج إلا في عقله . كان يطبق فكره على الشيء الذي يصنعه والشروط التي يراعيها . وما حاجتنا إلى تقليد النموذج الدوري أو الغوطي ؟ إن الجمال وراحة الفكر وعظمته وغرابة التعبير قريبة منا قربها من أي إنسان آخر . وإذا درس الفنان الأمريكي — يحدوه الأمل والحب — الشيء الذي يريد صنعه تماما ، وأخذ في اعتباره المناخ والتربة وطول النهار وحاجات الناس وتقاليده الحكومة وشكلها ، لأنشأ بيتاً تجد فيه هذه الأشياء كلها لنفسها مكاناً ملائماً لها ويرضى به كذلك الذوق والعاطفة .

اعتمد على نفسك ، ولا تقلد مطلقاً . إنك تستطيع في كل لحظة أن تمد موهبتك بالقوى المتجمعة من ثقافة حياة بأسرها ، ولكن ذكاء غيرك الذي تستعيره لا تملك إلا نصفه امتلاكاً مزعزع الأصول . إن ذلك الذي يستطيع الفرد أن يتقنه أكثر من إتقانه أي شيء سواء لا يستطيع أن يعلمه إياه إلا باريه . لا يعرف أحد ما هو ، ولا يستطيع أن يعرف ، حتى يعرضه صاحبه . أين ذلك الأستاذ الذي كان يستطيع أن يعلم شيكسبير ، وأين الأستاذ الذي كان يمكنه أن يعلم فرانكلن

أو واشنطن أو يكون أو نيوتن ؟ كل رجل عظيم فريد في نوعه .
 إن آراء سكيبو الخاصة هي ذلك الجانب بعينه الذي لم يكن يستطيع
 استعارته . وإنك لن تخلق شيكسبير بدراسة شيكسبير . إن أنت
 فعلت ما عُيِّن لك لم تكن مغالياً في أملك أو في إقدامك . لك في
 هذه اللحظة رسالة جريئة عظيمة كرسالة أزميل فدياس الضخم ،
 أو مسطار المصريين ، أو قلم موسى أو دانتى ، ولكنها تختلف عن
 كل هؤلاء . إن الروح الفنية الفصيحة ذات اللسان الذي له ألف
 شق ، لا يمكن أن ترضى بتكرار نفسها . ولكنك لو استطعت أن
 تصغى إلى ما يقوله هؤلاء الشيوخ أمكنك بالتأكيد أن تجيب عليهم
 بصوت مرتفع كصوتهم ، لأن الأذن واللسان عضوان من طبيعة
 واحدة . إلزم دائرة حياتك الساذجة النبيلة ، وأطع قلبك ، تستعد
 الدنيا القديمة مرة أخرى .

٤ — وكما أن ديانتنا وتربيتنا وفنوننا تبدو غريبة عنا ،
 فكذلك روح الجماعة عندنا . كل الناس يفخرون بارتقاء المجتمع ،
 ولا يرتقى منهم أحد .

إن الجماعة لا تتقدم مطلقاً . إنما هي تتراجع في جانب بمقدار
 ما تكتسب في جانب آخر . إنها تتعرض لتغير مستمر . فهي وحشية ،
 ومتحضرة ، ومسيحية ، وغنية ، وعلمية . ولكن هذا التغير ليس
 تقدماً ، إنما يؤخذ منها بمقدار ما تُعطى . تكتسب الجماعة فنوناً
 جديدة ، وتفقد غرائز قديمة . ما أشد التباين بين الأمريكي المهنم

اللباس ، القارىء ، الكاتب ، المفكر ، ومعه ساعته وقلمه وقائمة الحساب في جيبه ، وبين الرجل العارى من نيوزيلاند ، الذى لا يملك سوى العصا والرمح والحصير ، وجزءا من عشرين لا يقبل التجزئة في حظيرة ينام تحتها ! ولكن وازن بين صحة الرجلين ، تجد أن الرجل الأبيض قد فقد قوته الأصلية . وأن صدق ما يروى الرحالة فإنك إن ضربت المتوحش بفأس عريضة التأم لحمه بعد يوم أو يومين وتم شفاؤه كأنك ضربت ضربتك في قارٍ لين . في حين أن الضربة عنها تقذف بالرجل الأبيض إلى قبره .

أنشأ الرجل الأبيض العربية ، ولكنه فقد استخدام قدميه . تسنده عكازته ، ولكنه يفتقر إلى مثل هذا السند من عضلاته . لديه ساعة جميلة من جنيف ، ولكن تنقصه مهارة معرفة الوقت بالشمس . ولديه تقويم بحرى من جرينتش ، ولذا فإن رجل الشارع لا يعرف نجما في السماء لأنه قين ببلوغ المعرفة كلما أراد . إنه لا يرصد الانقلاب الشمسى ، ولا يعرف عن الاعتدالين إلا قليلا . وليس للتقويم المشرق السنوى في ذهنه مزاولة . مذكراته تضعف ذاكرته ، ومكتباته تهبط ذكاه . ومكتب التأمين يزيد من عدد الحوادث ، وأشك في أن الآلة معطلة ، وأنا فقدنا بالتهذيب شيئا من النشاط ، وبالمسيحية المستغرقة في المؤسسات والصيغ شيئا من قوة الفضيلة الطبيعية . لأن كل رواقى كان رواقياً ، ولكن أين المسيحي في العالم المسيحي ؟

لم يحدث تغير في مستوى الأخلاق أكثر مما حدث في مستوى
الطول أو حجم الجسم . ولا يوجد اليوم رجال أعظم ممن وجدوا
في أى عهد سبق . ويمكن أن تلاحظ المساواة التامة بين عظماء
العصور الأولى وعظماء العصور المتأخرة . ولا تستطيع جميع العلوم
والفنون والديانات وفلسفة القرن التاسع عشر أن تجدى في تربية
رجال أعظم من أبطال فلوطارخس الذين عاشوا منذ ثلاثة
أو أربعة وعشرين قرناً . ولم يتقدم الجنس البشرى مع تقدم الزمان .
وفوكيون وسقراط وانكساجوراس وديجيونيس رجال عظماء ،
ولكنهم لم يخلّفوا طبقة معينة . من يكن حقاً من طبقته لا يسمى
باسمهم ، وإنما يكون رجلاً معيناً ، ومؤسساً بدوره لطائفة من
الطوائف . إن فنون كل عصر ومخترعاته هى رداء العصر فقط ،
لا تمد الناس بالقوة . والضرر من تحسين الآلة قد يعادل الفائدة
منها . إن هذين وبهرنج قد أنجزا عملاً ضخماً في زوارق الصيد
أذهل به يارى وفرانكلن اللذين استنفد إعدادهما موارد العلم
والفن . كما أن غاليليو بمنظاره المسرحى قد كشف عن مجموعة من
الظواهر السماوية أفر ما كشف أى إنسان حتى اليوم . وكشف
كولبس العالم الجديد في سفينة مسطحة . وإنك لتعجب لو عرفت
أن الوسائل والآلات التى تُقابل عند اختراعها بالهليل والتجديد يظل
استعمالها وتموت بعد فترة لا تتجاوز بضع سنوات أو بضعة قرون .
وإنما العبقرية العظمى مردها إلى الإنسان الذى لا مناص منه . كنا

نعد تقدم فنون الحرب من انتصارات العلم ، ومع ذلك فإن نابليون قد هزم أوربا بإقامة جيشه في العراء من غير خيام ، وهى طريقة تتوقف على الشجاعة المجردة التى تخلو من كل مُعين . يقول لاس كاساس إن الإمبراطور كان يعتقد أنه من المستحيل أن يكون جيشاً كاملاً «دون إلغاء أسلحتنا ومستودعات الذخيرة ورؤساء المؤن والعربات ، فيتسلم الجندى نصيبه من القمح — جريا على عادة الرومان — ويطحنه بطاحوته اليدوية ، ويخبز خبزه بنفسه » .

المجتمع موجة ، والموجة تسير إلى الأمام ، ولكن الماء الذى تتكون منه لا يتحرك . وذرة الماء عينها لا ترتفع من الأخدود إلى القمة ؛ إنما وحدتها ظاهرية فقط . والأشخاص الذين تتألف منهم اليوم أمة من الأمم ، يموتون فى عام مقبل ، وتموت معهم تجاربهم . ومن ثم فإن الاعتماد على الملك ، الذى يتضمن الاعتماد على الحكومات التى تحميه ، نقص فى الاعتماد على النفس . إن الناس قد صرفوا أبصارهم عن أنفسهم لينظروا إلى الأشياء ، ولبثوا على ذلك طويلا حتى باتوا ينظرون إلى النظم الدينية والعلمية والمدنية كأنها حماة الملكية ، وهم يستعيدون من التهجم على هذه النظم لأنهم يحسون أنه تهجم على الملكية . وهم يقيسون تقدير أحدهم للآخر بما لدى الفرد لا بما هو عليه . ولكن الرجل المثقف ينجل من ملكه لأنه يحترم طبيعته احتراماً لا يحسه سواه ، وهو يمتق ما يملك بوجه خاص ، إذا رأى أنه عرضى ، أتاه عن طريق الميراث ،

أو الهبة ، أو الجريمة . انه حينئذ لا يشعر شعور الملكية ، ويحس أن ما لديه لا يخصه ، ولا تمتد جذوره في نفسه ، وهو ملك لا يثبت في مكانه إلا لأن الثورة أو الغاصب لا تنزع منه ، ولكن ما يكون عليه الإنسان هو دائماً بالضرورة مما يكتسبه ، وما يكتسبه المرء هو الملكية الحية التي لا تنتظر إشارة الحكام ، أو الرعاع ، أو الثورات ، أو النيران ، أو الزوابع ، أو الإفلاس ، ولكنها تجدد نفسها دائماً حينما تنفس الإنسان . قال الخليفة على ما معناه : « إن نصيبك أو حصتك من الحياة يبحث عنك ، ولذا فأرح نفسك من البحث عنه » . إن اعتمادنا على هذه السلع الأجنبية يؤدي بنا إلى احترامنا لكثرة العدد احتراماً مذللاً . إن الأحزاب السياسية تلتقي في مؤتمرات عديدة ، وكلما تضخم الحشد ، وعند كل ضجة جديدة تعلن « وفد اسكس » أو « الديمقراطيين من نيو هامبشير » ، أو « الأحرار من مين » يشعر الشاب المحب لوطنه أنه أقوى من ذي قبل بألف عين وألف ذراع جديدة . وكذلك المصلحون يجمعون المؤتمرات ، ويبدون رأيهم ويرمون أمرهم وسط الجماهير . ولكن الله أيها الرققاء لا يسلك هذا السبيل كي يدخل في نفوسكم ويسكن فيها ، ولكنه يفعل ذلك بطريقة تناقض هذه الطريقة تماماً . إنني أعتقد أن المرء لا يقوى ولا يسود إلا إذا تخلى عن كل معونة أجنبية ، ووقف وحيداً . إن كل جندي ينضم إلى لوائه يضعفه . أليس الإنسان أفضل من المدينة ؟

لا تسأل الناس شيئاً ، وفي التقلبات التي تفوق الحصر قف وحدك كالطود الشامخ واطهر في الحال عماداً لكل ما يحيط بك . من يعرف ان القوة فطرية ، وأنه ضعيف لأنه بحث عن الخير خارجاً عنه وفي مكان آخر ، يدرك ذلك فيعمد بغير تردد إلى أفكاره . مثل هذا الرجل يستقيم في الحال عوده ، وتعتدل قامته ، ويسيطر على أعضائه ، ويأتي بالمعجزات . كالرجل الذي يقف على قدميه يكون أقوى من الرجل الذي يقف على رأسه .

على هذه الصورة ينبغي أن تستغل كل ما يسمونه « نصيب الإنسان » . إن أكثر الناس يقامرون بهذا النصيب فيكسبون كل شيء ، أو يخسرون كل شيء ، حسبما تدور عجلته . ولكن عليك أن تتخلى عن هذه المكاسب وأن تعدّها غير شرعية ، وأن توجه اهتمامك نحو العلل والنتائج ففيها سر القوة الإلهية ، واعمل واكتسب بإرادتك ، فإنك بذلك تضع عجلة « الحظ » في الأغلال ، وتكون حينئذ في مأمن من دوراتها . ان نصراً سياسياً ، أو ارتفاعاً في الأجور ، أو شفاء مريض لك ، أو عودة صديق غائب عنك ، أو أي حدث غير ذلك مما تحب ، ينهض بروحك فتحسب أن الأيام الطيبة تتأهب لك . لاتعتقد ذلك ، فلا يجلب لك السعادة غير نفسك ، ولا يجلب لقلبك الطمأنينة غير انتصار المبادئ .

التعويض

إن أجنحة الزمان سود وبيض ،
منهما يتكون الليل والنهار .
والجبل الشاهق والمحيط العميق
يحفظان دائماً باتزان دقيق .
وفي تقلبات القمر ومد الأمواج
تتجلى الخصومة بين النقص والكمال .
والنجم الكهربى وحزمة الضوء
تشتد حيناً وتضعف حيناً فى الفضاء .
إن الأرض المنعزلة بين الكواكب
التي تسير بسرعة خلال الفضاء الأبدى
وتجرب لتسد بثقلها فراغا
كأنها أنجم يكمل بعضها بعضاً ،
أو شرر يتطاير للتكافؤ
تنطلق خلال الظلام الدامس .

* * *

الإنسان شجرة الدرداء . وثروته كروم العنب ،
خيوطها تلتوى قوية متينة ،

وقد تخدمك هذه الخيوط الواهنة ،
ولكن الكرم لا يستطيع أن يأخذ عن الشجرة ثباتها .
فلا تخش شيئاً إذن أيها الطفل العاجز ،
فليس في الآلهة من يجرؤ على إساءة دودة .
إن أكاليل الغار تُهدى لمستحقها ،
ويظفر بالنفوذ من يبسط النفوذ .
ألم تأخذ نصيبك ؟ أنظر ! إنه على أقدام طائفة .
يجرى لكي يلقاك ،
وكل ما خستك به الطبيعة
طائراً في الهواء أو محبوساً في الحجر
سوف يشق التلال ويعبر البحار
ويقفو أثرك كظلك .

كنت دائماً منذ صباى أتوق إلى أن أكتب حديثاً في التعويض .
فقد بدالى وأنا في سن الحداثة أن الحياة في هذا الموضوع قد سبقت
الدين ، والناس يعرفون أكثر مما يعلم الوعاظ . وكذلك الأسانيد
التي يستند إليها هذا المذهب فتنت خيالى بتنوعها الذي لا ينتهى ،
ومثلت دائماً أمامى حق أثناء النوم . فهناك الآلات في أيدينا ،
والخبز في سلالنا ، ومعاملات الطريق ، والمزرعة ، والمسكن ،
والتحيات ، والعلاقات ، والديون والأرصدة ، وتأثير الشخصية ،

وطبيعة جميع الناس ومواهبهم . وبدأ لى كذلك أن الناس يمكنهم
 — على هدى هذا المذهب — أن يشاهدوا قبساً من نور الله ،
 وأن يدركوا الأثر الراهن لروح هذه الدنيا ، مطهراً من كل أثر
 من آثار التقاليد ، ومن ثم فإن قلب الإنسان يمكن أن يغوص فى
 فيض من الحب الأبدي ، متحدثاً مع ذلك الذى يعرف أنه كان دائماً ،
 ويجب دائماً أن يكون ، لأنه كائن الآن فعلاً . وبدأ لى — فوق
 ذلك — أنه إذا أمكن أن يصاغ هذا المذهب فى عبارات تشبه بعض
 الشئ تلك البدايات المشرقة التى تتكشف لنا فيها هذه الحقيقة أحياناً
 لكان لنا كالنجم فى كثير من الساعات المظلمة والطرق الملتوية فى
 فى رحلتنا ، يهديننا فلا نضل الطريق .

وأكدت هذه الاتجاهات عندي أخيراً الموعظة التى استمعت
 إليها فى الكنيسة ، فإن الواعظ — وهو رجل مبجل من أجل
 مذهبه الأرثوذكسى — بسط مبدأ الحساب فى الآخرة بالطريقة
 المألوفة . فزعم أن المرء لا يلقى جزاءه فى هذه الدنيا ، فالأشرا
 مفلحون ، والأخيار بأئسوف . ثم ادعى بحجة من العقل ومن
 الكتاب المقدس أن هناك تعويضاً للفريقين فى الحياة الأخرى . ولم
 يسئ هذا المبدأ إلى الجماعة التى استمعت إليه . وبمقدار ما استطعت
 أن ألاحظ ، تفرق الناس فى نهاية الحفل دون أن يعلق واحد منهم
 على الموعظة .

ولكنى أتساءل عن مغزى هذا رأى . ماذا كان يعنى الواعظ

عندما قال ان الأخيار بائسون فى الحياة الدنيا . هل قصد ان البيوت والأراضى والمراكز والنبىذ والحيل واللباس والترف إنما يظفر بها من لا خلاق لهم ، فى حين أن القديسين فقراء محقررون ، وأن هؤلاء سوف يلقون عوضاً فى الحياة الآخرة ، بإعطائهم ما يشبه ذلك من أسباب الرضا فى يوم آخر — أوراق مالية وعملة إسبانية ولحم الصيد والشمبانيا ؟ لابد أن يكون ذلك هو التعويض الذى يعنيه . أو ماذا عسى أن يكون غير ذلك ؟ هل قصد أن تُتاح لهم الصلاة والحمد ؟ والحب وخدمة الناس ؟ انهم يستطيعون أداء ذلك اليوم . إن النتيجة الحتمية التى يخرج بها التلميذ هى هذه : « سوف تنعم بوقت طيب مثل ما ينعم به الآثمون اليوم » — أو إذا نحن سرنا بما يترتب على ذلك إلى نهاية الشوط — « أنت تأثم اليوم ، وسوف نأثم نحن فيما بعد . وإنا لنأثم اليوم إذا نحن استطعنا ذلك ، ولكننا لم نفلح ، ولذا فإننا نتوقع الإنتقام لأنفسنا غداً » .

وموضع المغالطة هنا هو الإذعان المطلق للرأى القائل بأن الأشرار مفلحون ، وأن الإنسان لا يلقى جزاءه اليوم . ويرجع عمى الواعظ إلى ركونه إلى تقدير السوقه الوضع لعناصر نجاح الرجولة ، بدلا من مواجهة الدنيا والحكم عليها من زاوية الحقيقة ، وإعلان وجود الروح ، وقدرة الإرادة المطلقة ، وبهذا يقيم معيار الخير والشر والنجاح والفشل .

وإنى لأجد نعمة وضیعة كهذه فى المؤلفات الدينية الشائعة فى

هذه الأيام ، وفي نفس المذاهب التي يعتقدونها رجال الأدب عندما يعالجون ما يتعلق بهذا الموضوع بين الحين والحين . وأظن أن العقائد الدينية الشائعة قد تفوقت على الحرافات التي حلت محلها في الظاهر فقط لا في المبدأ . ولكن الناس خير من هذه العقائد الدينية . وحياتهم اليومية تفنّدها . كل نفس نابغة طموحة تولى المبدأ ظهرها في أثناء تجاربها ، ويشعر جميع الناس أحياناً بالخطأ ولكنهم لا يستطيعون إظهاره ، لأن الناس أحكم مما يعرفون . وذلك الذي يسمعون في المدارس ومن النابر دون أن يفكروا فيه بعد ذلك — إذا قيل في حديث — ربما كان موضع تساؤل في صحت . وإذا ما أعلن إنسان ما في جمهور مختلط عقائده الجامدة في الله والقوانين السماوية ، أجيب بسكون يدل الرأى دلالة قاطعة على سخط السامعين مع عجزهم عن التعبير عن آرائهم .

وسوف أحاول في هذا الفصل أن أسجل بضع وقائع تشير إلى سير قانون التعويض . وسوف أجد من السعادة فوق ما أتوقع لو رسمت ربما صادقا أدنى قوس من هذه الدائرة .

التجاذب ، أو الفعل ورد الفعل ، شيء تقابله في كل جزء من أجزاء الطبيعة ، في الظلام والنور ، في الحرارة والبرودة ، في جزر المياه ومدّها ، في الذكر والأنثى ، في شهييق النباتات والحيوانات وزفيرها ، في تعادل الكم والنوع في سوائل الجسم الحيواني ، في انقباض القلب وانبساطه ، في تموجات السوائل والأصوات ، في القوة الطاردة والقوة الجاذبة ، في الكهرباء والكهرية السائلة ،

وفي الصلات الكهائية . إذا أنت أحدثت مغناطيسية في أحد طرفي
إبرة ، حدثت المغناطيسية المضادة في الطرف الآخر . وإذا كان
الجنوب يجذب فإن الشمال يطرد . وإذا أنت أفرغت هنا ملأت
هناك . إن الطبيعة تخرقها ثنائية لا مفر منها ، فكل شيء نصف يشير
إلى شيء آخر يكمله ؛ كالمادة والروح ، والرجل والمرأة ، والمفرد
والمزدوج ، والذاتي والموضوعي ، والداخل والخارج ، والعالى
والسافل ، والحركة والسكون ، والإيجاب والنفي .

وكما أن العالم ثنائى هكذا ، فكذلك كل جزء من أجزائه . فإن
النظام الشامل للأشياء يتمثل في كل جزء . فهناك ما يشبه مد البحر
وجزره ، والليل والنهار ، والرجل والمرأة ، في كل إبرة من إبر
الصنوبر ، وكل حبة من حبات القمح ، وكل فرد من أفراد أية
قبيلة حيوانية . إن رد الفعل ، الذى تراه عظيما في العناصر ، يتكرر
داخل هذه الحدود الضيقة . ففي المملكة الحيوانية مثلاً يلاحظ
الفسولوجى أنه ليس هناك مخلوقات مفضلة ، ولكن هناك تعويضاً
خاصاً يوازن كل ميزة وكل عيب . فالزيادة التى تُعطى لجزء ما تكون
على حساب نقص في جزء آخر من نفس المخلوق . فإذا كان الرأس
والرقبة على ضخامة ، فالجذع والأطراف على ضآلة .

ونظرية القوى الآلية مثال آخر . فما نكتسبه في القوة نفقده
في الوقت ، وعكس ذلك صحيح . والعيوب المعوّضة أو الفترية في
الكواكب مثال آخر . وأثر المناخ والتربة في التاريخ السياسى مثال

رابع . الجو البارد يبعث النشاط ، والتربة القاحلة لا تولد الحيات
أو التماسيح والنمور والعقارب .

والثنائية عينها تكمن وراء طبيعة الإنسان وحالته . كل زيادة
ينجم عنها نقصان ، وكل نقصان تترتب عليه زيادة . لكل حلو
مرارة ، وفي كل شر خير . وكل قدرة على قبول المتعة لها ما يوازئها
من عقوبة إذا أسئء استخدامها . وعليها أن تضحي بحياتها في سبيل
الاعتدال . كل ذرة من الذكاء تقابلها ذرة من الحماسة . ولقاء كل
شيء يفوتك تكتسب شيئاً آخر ، ونظير كل شيء تكسبه شيء
تخسره . إذا زادت الثروة زاد من يستخدمها . وإذا بالغ الجامع في
الجمع ، استلبت الطبيعة من الرجل بمقدار ما أودعت صندوقه . إنها
تضخم ضيعته ولكنها تقتل صاحب الضيعة . الطبيعة تكره الاحتكار
والاستثناء . وأمواج البحر تسارع إلى الهبوط من أعلى قممها كما
تسارع تقلبات الأحوال إلى تسوية نفسها . هناك دائماً ظرف من
الظروف يميل إلى التسوية ويحط مادياً من المتعالي والقوى والغنى
والسعيد ، حتى يجعله في مستوى واحد مع الآخرين . فإذا كان
الرجل قويا على المجتمع متوحشاً ، مواطناً سيئاً بمزاجه ومركزه ،
خبثاً حاد الطباع ، فيه دفعة القرصان ، فإن الطبيعة ترسل إليه جماعة
طيبة من البنين والبنات ، ناجحة في الفصول الأولية التي تديرها
السيدات بمدرسة القرية ، وحب الرجل وخوفه عليهم يخفف من
تسكروه للأخلاق السكريمة . وهكذا فإن الطبيعة تحاول أن تُثَلِّين

الجرانيت والفلسبار ، وأن تتزعزع الخزير وتودع مكانه الجمل ،
وتحتفظ باتزانها دائماً .

يتخيل المزارع أن القوة والسكينة من الأشياء الحسنة ، ولكن
رئيس الجمهورية قد دفع ثمناً غالياً للبيت الأبيض . إنه عادة يكلفه
طماًئنته وخير صفات الرجولة لديه . ولكي يحتفظ لفترة قصيرة من
الزمن بمظهر بارز كهذا أمام العالم تراه يقنع بأن يأكل التراب أمام
السادة الحقيقيين الذين يقفون منتصبين خلف العرش . أم هل
يرغب الناس في عظمة النبوغ لأنها أثقل وزناً وأشد ثباتاً ؟ إن
هذه كذلك ليست لها حصانة . من يكون عظيماً بقوة الإرادة أو قوة
الفكر ويعلو على الألوف يتحمل تكاليف العظمة . كل فيض من
النور يصحبه خطر جديد . هل لديه ضياء ؟ لا بد له من صيافته ،
ولا بد له دائماً من عدم الاكتفاء بشعور القناعة والرضى ، وذلك
لإخلاصه لكل وحى جديد تلهمه به روحه التي لا تفتر . لا بد له من
أن يكره أمه وأباه ، والزوج والولده . أم هل لديه كل ما تحب
الدنيا وتعجب به وتشتهي ؟ لا بد له من أن ينبذ وراءه إعجاب الناس
به . وأن يفجعهم بإخلاصه لحقيقته ، فيصبح لهم كلمة عابرة ،
أو همساً خافتاً .

هذا القانون يدوّن قوانين المدائن والأمم . ومن العبث أن
تقيم ما يفنده أو تتأمر عليه أو تتحد ضده . « إن الأشياء ترفض
أن تساء إدارتها طويلاً » . إن الشر المستحذ قد لا تظهر فيه

العقبات ، ولكن العقبات قائمة وسوف تظهر . إذا كانت الحكومة قاسية فإن حياة الحاكم لا تكون آمنة . وإذا فرضت ضريبة عالية فإن الدخل لا يأتيك بشيء . وإذا جعلنا قانون الجنايات دمويًا ، فإن المحكمين لن يدينوا أحداً . وإذا كان القانون ليناً تدخل الانتقام الشخصي . وإن كانت الحكومة ديمقراطية مزعجة فإن فيض النشاط عند المواطن يقاوم ضغطها ، فتوهج الحياة بشعلة أقوى وميضاً . يظهر أن حياة الإنسان الحققة وما يرضيه فعلاً لا يخضع لأشد الظروف قسوة أو مواةة ، بل تثبت دون مبالاة بتقلبات الظروف جميعاً . ان تأثير الشخصية يبقى كما هو تحت كل حكومة — يكاد يتشابه في تركيا وفي نيو انجلند . وفي ظل الحكام المستبدين الأوائل في مصر يعترف التاريخ صراحة أن الإنسان كان يستمتع بالحرية بمقدار ما كانت تمكنه ثقافته .

هذه المظاهر تشير إلى أن الكون ممثل في كل جزء من أجزائه . كل شيء في الطبيعة يحتوى على قوى الطبيعة جميعاً . وكل شيء مصنوع من مادة خفية واحدة ، كما يرى عالم الطبيعة نوعاً واحداً في التطورات المختلفة للشيء الواحد ، ويرى الحصان كالرجل العداء ، والسمكة كالرجل السابح ، والعصفور كالرجل الطائر ، والشجرة كالرجل ثابت الجذور . كل شكل جديد لا يكرر الصفة الأساسية للنوع فحسب ، وإنما يكرر جزءاً جزءاً كل التفاصيل ، وكل الأغراض ، وأسباب التقدم ، وأسباب التأخر ، والقوى ، والنظام

بأسره ، الذى يتميز به كل جزء آخر ، وكل عمل وكل مهنة وفن
وتعامل خلاصة للعالم ويتم كل واحد منها الآخر . كل فرد رمز
كامل للحياة الإنسانية ، رمز لخيرها وشرها ، ومحاولاتها ، وخصومها
ومسيرها وغايتها . وكل فرد ينبغي له أن يستوعب الإنسانية كلها
بصورة ما ، وأن يكرر مصيرها كله .

إن الدنيا تكون نفسها فى قطرة الندى . ولا يستطيع النظار
المكبر أن يجد الحيوان المتناهى فى الصغر الذى يقل كمالاً لأنه يقل
حجماً . إن العيون ، والآذان ، والدوق ، والشم ، والحركة ،
والمقاومة ، والشهوة ، وأعضاء التناسل التى تسيطر على الخلود —
كل ذلك يجد مجالاً يحتويه فى المخلوق الصغير . وهكذا نضع حياتنا
فى كل عمل . والعقيدة الحقيقية فى وجود الله فى كل مكان معناها
أن الله يعيد ظهوره بكل أجزائه فى كل ذرة من طحلب أو خيط
من نسيج العنكبوت . وقيمة الكون تجاهد أن تلقى بنفسها فى كل
قطرة . إن وجد الخير وجد كذلك الشر ، وإن وجد التقارب وجد
التباعد ، وإن وجدت القوة وجد العجز .

هكذا يحيا الكون . كل شئ خلاصة . فالروح — التى نحسها
عاطفة فى نفوسنا — هى قانون خارج أنفسنا . نشعر بوحيتها ،
ونشهد فى التاريخ قوتها القاضية « فهى فى الدنيا ، وبها وجدت
الدنيا » . والإنصاف لا يؤجل ، والعدالة الكاملة تقيم ميزانها فى
جميع أجزاء الحياة ، والله مستعد دائماً بأحكامه . إن الدنيا تشبه

جدول الضرب في الحساب ، أو معادلة رياضية ، إذا قلبتها كيفما شئت توازن نفسها . خذ أى رقم تشاء تجد أن قيمته المضبوطة هي هي بالنسبة إليك لا تزيد ولا تنقص . كل سر يفشو ، وكل جريمة تجد جزاءها ، وكل فضيلة تكافأ ، وكل خطأ يجازى ، في صمت وبالتأكيد . وما نسميه الجزاء هو الحقيقة العالمية التي تدل على أن الكل يبدو حينما ظهر الجزء . فإن شهدت دخانا فلا بد أن تكون هناك نار . وإن رأيت يداً ، أو طرفاً ، عرفت أن الجذع خلفهما . كل عمل يكافئ نفسه ، أو بعبارة أخرى يكمل نفسه ، بطريقتين ، أولاً في الشيء ، أو في الطبيعة الواقعة ، وثانياً في الظروف أو في الطبيعة الظاهرة . ويسمى الناس الظروف الجزاء . والجزاء السببي في الشيء ، تراه الروح . والجزاء في الظروف يدركه العقل ، ولا ينفصل عن الشيء ، ولكنه غالباً ما ينتشر على فترة طويلة من الزمن ، ولذا لا يتضح إلا بعد سنوات عدة ، فإن آثاراً معينة قد تتبع الإساءة في وقت متأخر ، ولكنها تتبعها لأنها ترافقها . فالجريمة والعقاب يصدران عن أصل واحد . العقوبة ثمرة تنضج في الحفاء داخل زهرة المتعة التي تخفيها الجريمة ، ولا يمكن أن انفصل السبب عن النتيجة ، أو الوسيلة عن الغاية ، أو البذرة عن الثمرة ، لأن النتيجة تتفتح فعلاً في السبب ، والغاية يسبق وجودها في الوسيلة ، والثمار في البذور .

وبينا الدنيا هكذا تريد أن تكون واحداً وترفض أن تنقسم ،

نسعى نحن إلى العمل الجزئى ، وإلى الانفصال ، وإلى التخصص .
فمثلاً لكى نرضى الحواس نفصل متعة الحواس عن حاجات الشخصية
— ومن هنا فإن عبقرية الإنسان كانت تتوجه دائماً نحو حل مشكلة
واحدة — وهى كيف نفصل اللذة الحسية ، أو القوة الحسية ،
أو الإشراق الحسى ، إلى آخر ذلك ، عن اللذة الروحية ، والعمق
الروحى ، والجمال الروحى ، ومعنى ذلك أننا نحاول أن نعزل عزلاً
تاماً السطح العلوى ونزقه حتى يصبح من غير قاع ، أو أن نحصل
على طرف دون الطرف الآخر . تقول النفس كُله ، ويريد الجسم
أن يولم ، وتقول النفس ان الرجل والمرأة سيكونان جسداً واحداً
وروحاً واحدة ، ولكن الجسم يريد أن يتصل بالجسد وحده .
وتقول النفس : تسلط على كل شيء من أجل الفضيلة ، ولكن
الجسم يريد النفوذ على الأشياء لأغراضه الخاصة .

إن الروح تجاهد بكل قوة لكى تعيش وتعمل خلال الأشياء
جميعاً . وتريد أن تكون الحقيقة الوحيدة . وكل شيء ينضم إليها
— القوة والمتعة والمعرفة والجمال . إن الرجل الواحد يهدف إلى
أن يكون شخصاً ما ، وأن يقوم لداته ، وأن يبادل السلع ويساوم
لصالحه الخاص . . . وهو فى تفصيلات حياته يريد أن يركب لكى
يكون راكباً ، وأن يلبس لكى يكون لابساً ، وأن يأكل ليكون
أكلًا ، وأن يحكم لكى يُرى . إن الناس يرمون إلى بلوغ العظمة ،
فهم يريدون المناصب والثراء والقوة والشهرة . ويحسبون أن بلوغ

العظمة هو امتلاك ناحية من نواحي الطبيعة — الناحية الحلوة دون الناحية الأخرى — المرة .

هذا التقسيم وهذا الانفصال يُقابل دائماً بما يناقضه . ويجب أن نعترف أن كل من حاول أن يبرز وحده لم يلاق حتى اليوم أدنى نجاح . إن المياه المنشفة تتحد ثانية خلف أيدينا . والمتعة تزول عن الأشياء الممتعة ، والكسب عن الأشياء المكسبة ، والقوة عن الأشياء القوية إذا أردنا أن نفصلها عن الكل . إننا لانستطيع أن نجزئ الأشياء وأن نحصل على الفائدة الحسية وحدها أكثر مما نستطيع أن نحصل على داخل ليس له خارج ، أو ضوء بغير ظل « إذا دفعت الطبيعة بشوكة ، ارتدت إليك مسرعة »

إن الحياة تخلع على نفسها شروطاً لا مفر منها ، يحاول الحمقى أن يتصلوا منها ، ويحاول هذا الفرد أو ذاك أن يفخر بتجاهلها أو بأنها لا تمسه ؛ ولكنه فخر زائف يجرى على شفتيه فقط ، أما الشروط ففي روحه . إذا فر منها في ناحية ، هاجمته في ناحية أخرى أشد حيوية ، وإن تحاشاها شكلاً ومظهراً فذلك لأنه قاوم حياته وفر من نفسه ، وليس جزاؤه أقل من الموت . إن فشل كل محاولة في فصل الخير عن ضريبته أمر واضح لا يشجع على إجراء التجربة — مادام إجراؤها ضرب من الجنون — لولا ما تقتضيه الظروف ، وإذا ما ظهرت في إرادة المرء علة العصيان والانفصال ، أصيب بها الذهن

كذلك ، فيتوقف الإنسان عن رؤية الله كاملاً في كل شيء ، ولكنه يستطيع أن يرى الغواية الحسية للأشياء دون أن يرى الأذى الحسى . إنه يرى رأس عروس البحر ولا يرى ذيل الأفعوان ، ويظن أنه يستطيع أن يفصل ما يريد أن يحصل عليه عما لا يريد الحصول عليه . يقول القديس أوغسطين في الكتاب الأول من اعترافاته « ما أشد اختفاءك يا من تسكن السموات العلا في صمت وسكون ، أنت أيها الإله العظيم الأوحده ، يا من تنشر بقدرة لا تكل أنواعاً من العمى عقوبة لمن يطلقون لشهواتهم العنان » .

إن الروح البشرية تخلص لهذه الحقائق في تصوير الحكايات الخرافية ، والتاريخ ، والقانون ، والأمثال ، والأحاديث . وتجد لها لساناً في الأدب بغير قصد . ولذا فقد أطلق الأغريق على « چوپتر » اسم « العقل الأسمى » . ولما كانوا في تقاليدهم قد نسبوا إليه كثيراً من الأعمال الوضيعة ، فقد استرضوا العقل عفواً . وذلك بتقييد يدي إله مميء كهذا . فأصبح عاجزاً كملك انجلترا . ويعرف « پروميثيس » سرّاً واحداً لا بد « لجوف » أن يساوم فيه ، وتعرف « منيرفا » سرّاً آخر . ولا يستطيع چوف أن يظفر بصواعقه لأن « منيرفا » تحتفظ بمفاتيح هذه الصواعق .

من بين الآلهة جميعاً أنا وحدي أعرف المفاتيح
التي تفتح الأبواب الجامدة التي تخفي صواعقه
داخل قبابها .

وهذا اعتراف صريح عن العمل الباطنى « للكل » وعن عرضه الخلقى . وتنتهى الميثولوجيا الهندية بنفس هذه القواعد الخلقية . ويظهر أنه من المستحيل أن تخرع حكاية خرافية وتشيع بين الناس إلا إذا كانت تقوم على أساس خلقى . لقد نسيت « اورورا » أن تطلب الشباب لعشيقها : ومع أن « تيثونس » خالده إلا أنه عجوز ، ولم يكن « أخيل » محصناً ضد الطعنات تماماً ، لأن المياه المقدسة لم تغسل العقب الذى أمسكته منه « ثتس » . وكذلك « سيجفريد » فى نيلنجن ليس خالداً كل الخلود ، لأن ورقة من أوراق الشجر سقطت على ظهره بينما كان يستحم فى دماء الأفعوان ، وتلك البقعة التى غطتها الورقة فانية . وينبغى أن تكون كذلك . إن فى كل شيء خلقه الله نقطة ضعف . ويظهر أن الظرف الانتقامى يوجد دائماً ، ويدب فى الشيء دون أن يحس به ، حتى فى الشعر الممجى الذى حاول فيه خيال الإنسان أن يأخذ حرية جريئة ، وأن يتخلص من القوانين العتيقة — هذه الضربة الخلفية ، أو هذه القذيفة المدفعية ، تشهد بأن القانون لا مفر منه ، وأن الأشياء لا توهب فى الطبيعة ، لكنها جميعاً تباع .

ذلك هو المبدأ القديم لنموس ، الذى يسهر على الكون ، ولا يدع إساءة تمر بغير عقوبة . ويقال إن آلهة الانتقام فى خدمة العدالة ، وإذا ما تخطت الشمس فى السماء مسيرها عاقبتها هذه الآلهة . وروى الشعراء أن الأسوار الحجرية والسيوف الحديدية ، والسيور الجلدية

تشارك في الخفاء ما يقترب أصحابها من آثام ، وأن الحزام الذي أعطاه « أيجكس » « لهكنور » جر بطل طروادة في الميدان إلى عجلات عربية « أخيل » ، وأن السيف الذي أعطاه « هكتور » « لأيجكس » هو الذي سقط « أيجكس » على حده . ورووا أنه لما أقام « الثاسيان » تمثالا « لثيجنيز » ، الذي ظفر في المباريات ، تسلل إليه أحد منافسيه في المساء ، وحاول أن يحطمه بالضربات المتتالية ، حتى استطاع في النهاية أن يزغزعه عن قاعدته ، فسقط التمثال وسحقه تحت سقطته حتى مات .

وفي رواية هذه الحكاية الخرافية شيء من القداسة ، فقد نبئت من تفكير فوق إرادة الكاتب . وذلك أحسن ما عند أى كاتب ، إذ ليس فيه شيء خاص ، إنما هو شيء لا يعرفه يصدر عن كيانه ، ولا يصدر عن فرط خياله . إنها صفة لا تستطيع أن تلمسها بسهولة عندما تدرس فناً بمفرده ، ولكنك تلمسها حين تدرس الكثيرين فتستخلصها وتذكر أنها روحهم أجمعين . إننى لا أريد أن أعرف « فدياس » ، ولكنى أريد أن أعرف عمل الإنسان في ذلك العالم الهليني القديم ، فإن اسم « فدياس » وظروفه ، مهما كانت ملائمة للتاريخ ، تحيرنا عندما نتعرض للنقد الدقيق . علينا أن نرى ذلك الذى كان يميل الإنسان إلى فعله في فترة معينة ، ولكن تدخل إرادات « فدياس » و « دانق » و « شيكسبير » — أى ذلك العضو الذى استخدمه الإنسان في تلك اللحظة — قد حال دون

أدائه ، أو إن شئت فقل قد وجهه وجهة أخرى .

ويسترعى أنظارنا أكثر من ذلك التعبير عن هذه الحقيقة في أمثال جميع الأمم ، وهي دائماً أدب العقل ، أو صوت الحق المطلق دون تعديل . الأمثال — كالكتب المقدسة في كل أمة — هي محراب البديهيّات . فإن ذلك الذي لا يسمح العالم المتراخي ، المقيد بالمظاهر ، للرجل الواقعي أن يقوله في كلمات من عنده ، يسمح له بقوله في أمثال من غير تناقض . وقانون القوانين هذا الذي تنكره المنابر ومجالس الشيوخ والكتليات تبشر به في كل ساعة وفي كل سوق وكل مصنع أسراب من الأمثال معناها صادق وموجود في كل مكان كأنها الطيور أو الدباب .

كل شيء مزدوج . هذا يقابل ذاك ، دقة بدقة ، والعين بالعين والسن بالسن ، والدماء بالدماء ، وخطوة بخطوة ، وحب بحب — أعط تُعط ، من يَرَوْ يرتو — يقول الإله : ادفع ثمن ما تريد يكن لك . إذا لم تغامر لا تنظر بشيء . ولسوف تؤجر تماماً بمقدار ما عملت ، لا أكثر ولا أقل . من لا يعمل لا يأكل . من يرقب الأذى يُصب به ، واللجنة تنصب دائماً على رأس من يستنزلها . إذا طوقت جيد عبد بسلسلة ، فإن الطرف الآخر يطوق جيدك . والنصيحة السيئة تزعج الناصح بها — إنما الشيطان حمار .

هكذا كُتب علينا لأن الحياة كذلك ، فإن قانون الطبيعة يسيطر على أعمالنا ويدفعها فوق إرادتنا . إننا نرمي إلى غاية تافهة تبعد

كل البعد عن الصالح العام ، ولكن أعمالنا تنخرط بمجازية لا تقاوم
في سلك واحد مع قطبي الدنيا .

إن الإنسان قد لا يتكلم ولكنه يحكم على نفسه . وإرادته
أو رغماً عن إرادته ، يرسم صورته لأعين رفاقه في كل كلمة . كل
رأى يرتد على من ينطق به . فهو كالكرة ترتبط بخيط ويُلقي بها
إلى هدف ، ولكن الطرف الآخر يبقى في جعبة الراى . أو قل
إن الراى كصنارة الصيد يُقذف بها الحوت ، تحلّ وهي طائفة في
الهواء لفافة جبال في قارب الصيد . وإذا لم تكن الصنارة صالحة ،
أو إذا لم تسدد رمايها ، أو شككت أن تشق ربان السفينة نصفين ،
أو أن تغرق القارب .

إنك لا تستطيع أن تفعل الخطأ دون أن تتحمل وزره . يقول
برك « لا يمكن أن تكون للإنسان نقطة افتخار لا يصيبه منها أذى »
إن من يتنحى عن الحياة المألوفة لا يدرك أنه يتنحى عن المتعة لكي
يظفر بها . ومن يعتزل في الدين لا يدرك أنه يغلق أبواب السماء على
نفسه محاولاً أن يغلق الباب في وجه الآخرين . إذا عاملت الناس
كبيادق الشطرنج أو دبائيس اللعب كابدت ما يكابدون . وإذا أهملت
قلوبهم فقدت قلبك . إن الحواس تجعل من الناس أشياء ، من
النساء ومن الأطفال والفقراء . والمثل الشعبي القائل : « سوف
أحصل على ما أريد من كيس نقوده أو من جلده » فلسفة صحيحة .
كل نقص في الحب والإنصاف في علاقاتنا الاجتماعية يلقي جزاءه

فوراً . يلتقي الجزاء في الخوف . إذا وقفت من زميلي في علاقي به موقفاً بسيطاً فإنني لا أجد غضاظة عندما ألقاه . إننا نلتقي كما يلتقي الماء بالماء ، أو كما يختلط تيارات من الهواء ، في امتزاج كامل وتداخل في الطبائع . غير أننا لو انحرفنا عن البساطة ، وحاولنا المناصفة ، أو كان هناك خير لي ليس فيه خير لجاري ، فإنه يشعر بالإساءة ، ويتعد عن بمقدار ما ابتعدت عنه . لا تبحث عيناه عن عيني بعد ذلك ، وينشب بيننا الخصام وتقوم في نفسه الكراهية وفي نفسى الخوف .

كل مساوئ المجتمع القديمة ، العامة والخاصة ، وكل ملك أو نفوذ جاء ظلماً إنما يلتقي الانتقام على صورة واحدة . الخوف يعلمنا الحكمة الكبرى ، وهو رائد كل انقلاب . وهو يعلمنا شيئاً واحداً ، وذلك أن هناك فساداً حيثما ظهر . إنه أشبه بالحدأة أو الغراب ، قد لا ترى جيداً ما يحومان حوله ، إلا أنك تثق من وجود الموت والجيف الممزقة في مكان ما . إن أملاكنا هيابة ، وقوانيننا هيابة ، وطبقاتنا المثقفة هيابة . وقد أُنذِر طائر الخوف بالشر منذ آماذ طويلة وقطب جبينه وتدمر من الحكومة ومن الملك ، ولم يوجد ذلك الطائر الدنس هناك من غير داع . وإنما كان يشير إلى أخطاء كبرى لا بد أن يُعاد فيها النظر .

ومن هذا القبيل ما نتوقعه من التغير الذي يعقب مباشرة توقف حركتنا الإرادية . كما أن الفرع من الظهيرة الحالية من السحب ،

وزمرده « بوليكراتس » ، والرغبة التي نحسها إزاء كل فلاح ،
والغريزة التي تقود كل روح كريمة إلى أن تفرض على نفسها واجبات
من الزهد النبيل والفضيلة التي تؤذيها لغيرنا ، ذلك كله ذنبه ميزان
العدالة في قلب الإنسان وعقله .

يعلم المجربون من الرجال في هذه الدنيا جيداً أنه من الخير لهم
أن يحزلوا العطاء أنى ساروا ، وأن الإنسان كثيراً ما يدفع الثمن
غالياً نظير اقتصاد ضئيل . والمدين يعاني من دينه . هل يكسب شيئاً
ذلك الإنسان الذي يتلقى مائة معروف ولا يصنع واحداً . وهل
يكسب إن هو استعار — لتراخيه أو لمكره — أدوات جاره
أو خيله أو ماله ؟ في هذه الفعلة ينشأ الاعتراف المباشر بالمنفعة من
ناحية ، والدين من ناحية أخرى ، أى ينشأ السمو والنقص في آن .
وتبقى العملية في ذاكرته وذاكرة جاره . وكل عملية جديدة تغير
— وفقاً لطبيعتها — علاقة أحدهما بالآخر ، وربما يدرك حالا أنه
كان خيراً له أن يحطم عظامه من أن يركب عربة جاره ، وأن « أعلى
ثمن يمكن أن يدفعه للشئ هو طلبه إياه » .

والرجل العاقل يطبق هذا الدرس على جميع نواحي الحياة ،
ويعرف أنه من الحكمة أن يواجه كل طالب ، وأن يدفع ثمناً لكل
مطلب عادل من وقته ومواهبه وقلبه . ادفع دائماً ، لأنك لابد أن
تدفع الدين كله أولاً أو آخرأ . والأشخاص والحوادث قد يقفون
لفترة ما بينك وبين العدالة ، ولكن ذلك لا يكون إلا إلى حين .

لابد أن تدفع دينك أخيراً . ولو كنت عاقلاً لحشيت النجاح الذي يحملك من هذا الدين المزيد . المنفعة غاية الطبيعة ، ولكن لقاء كل منفعة تتلقاها تجي منك ضريبة . والعظيم من يهب أكثر المنافع . ومن الوضاعة — بل ذلك هو الشيء الوحيد الوحيد في الكون — أن تتلقى الأفضال ولا تقدم فضلاً واحداً . وفي نظام الطبيعة لانستطيع أن نقدم المنافع لأولئك الذين تتلقاها منهم ، أو قلما يكون ذلك . ولكن المنفعة التي تتلقاها لابد أن تبذل لآخر مرة أخرى ، خطأ بخط ، وعملاً بعمل ، وسنتاً بسنت . واحذر من أن تبقى الفائدة طويلاً بين يديك . فسرعان ما تفسد وتولد الديدان . اسرع بدفعها على صورة ما .

وهذه القوانين الصارمة عينها تسيطر على العمل . يقول الحكيم « أغلى الأعمال ثمناً أرخصها » . وما نشتره في مكنسة أو حصير أو عربة أو سكين هو ما يفيد منها العقل الحكيم باستخدامها في مصلحة عامة . خير لك أن تدفع في أرضك أجراً لبستاني ما هو ، أو أن تشتري عقلاً حكماً يستخدم الحكمة في فلاحه البستان . أقصد في ملاحك أن يطبق العقل الحكيم على الملاحه ؛ وفي بيتك تطبيق العقل الحكيم على الطبخ والحياكة والخدمة . وفي وكيلك أن يطبق العقل الحكيم على حساباتك وشئونك . هكذا تضاعف وجودك ، أو تنشر نفسك خلال مزرعتك . ويترتب على الطبيعة الثنائية لكل شيء أنه لا يمكن أن يكون هناك خداع في العمل أو في

الحياة . فالسارق يسرق من نفسه . لأن الثمر الحقيقي للعمل هو المعرفة والفضيلة ، وليس الثراء والامتياز إلا شارة له . وهذه الشارة — كعملة الورق — يمكن تزييفها أو سرقتها ، ولكن ما تمثله ، أعنى المعرفة والفضيلة : لا يمكن أن يزيّف أو يسرقا . وأغراض العمل هذه لا يمكن تحقيقها إلا بالإجهاد الحقيقي للعقل وبالخضوع للدوافع الخالصة . أما الغشاش والمختلس والمقامر فلا يستطيعون أن يسلبوا المعرفة مادية أو معنوية ، تلك المعرفة التي يكسبها العامل بجهده المضى وعنايته الصادقة . قانون الطبيعة هو هذا : افعَل الشيء تكن لك القوة ، أما الذين لا يفعلون ذلك الشيء فلا تكون لهم قوة .

إن العمل الإنساني بكل صورهِ ، من تشذيب الورد إلى إنشاء المدينة أو الملحمة ، مثل واحد كبير للتعويض الكامل في الكون . إن التوازن المطلق بين الإعطاء والأخذ ، والمذهب الذي يقول بأن لكل شيء ثمنه — وإذا لم يُدفع هذا الثمن ، لا تظفر بهذا الشيء ، وإنما تظفر بشيء آخر ، وأنه يستحيل أن تحصل على شيء دون ثمنه — هذا المذهب لا يقل سموّاً في أعمدة دفاتر الحساب الخاصة ، عنه في ميزانيات الدول ، وفي قوانين الضوء والظلام ، وفي كل فعل في الطبيعة وما يقابله . ولست أشك في أن القوانين العليا التي يراها كل إنسان في ثنايا كل عمل يؤديه ، وأن القواعد الخلقية الصارمة التي تتلأأ على حد أزميله ، والتي يقيسها بمسبارهِ ومسطرته ، والتي تبدو واضحة في ختام فاتورة العمل التجاري كما تبدو في تاريخ الدولة

— لست أشك في أن هذه القوانين ترفع له من شأن صناعته ،
وتمجد له عمله في خياله ، وإن قل ذكر هذا العمل .

إن الائتلاف بين الفضيلة والطبيعة يدعو كل شيء إلى أن يقف
من الرذيلة موقفاً عدائياً . والقوانين والمواد الجميلة في هذه الدنيا
تضطهد الخائن وتضربه بالسياط . إنه يجد أن الأشياء معدة للحق
والمنفعة ، ولكن ليس في الدنيا الواسعة عرين يختبئ فيه إنسان
سافل . إن ارتكبت جريمة وجدت الأرض كأنها مصنوعة من
زجاج . إن ارتكبت جريمة بدا لك كأن طبقة من الثلج قد سقطت
على الأرض ، كتلك التي تفضح في الغابات مسير كل حَجَلٍ وتعلب
وسنجاب وُخلد . إنك لا تستطيع أن تسترد الكلمة بعد النطق بها ،
ولا تستطيع أن تمحو أثر القدم ؛ إن شارة سيئة دائماً تنضح بما
حدث . إن قوانين الطبيعة وموادها — من ماء وثلج وريح
وجاذبية — تصبح للسارق — عقوبات .

والقانون — من ناحية أخرى — قائم بدرجة مساوية من
الثبات بالنسبة لكل عمل صحيح ، أحبَّ تحب . الحب كله متساو
مساواة أعداد الحساب ، مثله مثل طرفي معادلة جبرية . والرجل
الصالح لديه خير مطلق — خير أشبه بالنار التي ترد كل شيء إلى
طبيعته — فلا يستطيع أن تصيبه بأذى ، ولكن كما أن الجيوش
للملكة التي أرسلت لمحاربة نابليون ألفت أعلامها عند اقترابه
وصاروا أصدقاء بعد أن كانوا خصوماً ، فكذلك الكوارث من

كل نوع ، كالمرض والإساءة والفقر تُثبت نفعها .

« ان الرياح تهب والمياه تموج

قوةً للجريء ، ونفوذاً وقداسته

وهي — مع ذلك — في ذاتها لا شيء .

إن الأخيار يصادقهم حتى الضعف والنقصان . وكما أن المرء كلما تفاخر بشيء أصابه منه أذى فكذلك كل نقص عنده لا بد أن يعود عليه بالنفع في ناحية من النواحي ، وقد جاء في حكاية خرافية أن الغزال أعجب بقرنيه وألقى اللوم على قدميه ، ولكن عندما أتى الصيد ، أنقذته قدماءه ، ثم اشتبك بعدئذ في الغابة فقضى عليه قرناه . كل إنسان في حياته يفيد من نقائصه . وكما أن الإنسان لا يفهم الحقيقة فهماً كاملاً حتى يناضل في وجهها ، فكذلك لا يعرف المرء معرفة كاملة مثالب الناس ومزاياهم حتى يقاسى وطأة هذه المثالب ويشهد انتصار تلك المزايا على نفسه لافتقاره إليها . هل عنده نقص في المزاج يجعله غير ملائم للعيش في المجتمع ؟ إن هذا النقص عينه يدفعه إلى أن يسلى نفسه وهو وحيد ، ويكتسب عادة الاكتفاء بنفسه . وهكذا تراه كالحمار الجريح يُصلح صدفه بالؤلؤ .

إن قوتنا تصدر عن ضعفنا ، والسخط الذي يسلح نفسه بالقوى الخفية لا يتيقظ إلا حينما تتعرض للأشواك واللدغات والهجمات العنيفة . إن الرجل العظيم يحب دائماً أن يكون صغيراً . وبينما يجلس على حشية المزايا تأخذه سنة من النوم . أما إذا دُفع ، وعُدّب ، وهُزم ،

فإن الفرصة تتاح له لكي يتعلم شيئاً . لأن ذكائه ورجولته يوضعان موضع الاختبار . إنه يكتسب الحقائق ، ويعرف جهله ، ويُشفي من جنون الغرور ، كما يكتسب الاعتدال والمهارة الحقة . الرجل الحكيم يلقي بنفسه في جانب مهاجميه ، لأن اكتشاف موطن الضعف فيه يهيمه أكثر مما يهيمهم ، ولأن الجرح بذلك يندمل ويسقط عنه كالجلد الميت ، وإذا ما انتصر الخصوم خرج من المعركة محصناً من كل إيذاء . إن اللوم أكثر أماناً من الشناء . وإنني لأُمتق أن يدفع عني أحد في صحيفة . وما دام كل ما يقال يقال ضدي فإنني أحس الثقة في النجاح . وبمجرد ما توجه إلى عبارات الشناء المعسولة فإنني أحس كأنني رجل ملقى بغير حماية أمام خصومي . كل شيء لا نخضع له ينفعنا بوجه عام . وكما أن ساكن جزيرة « ساندوتش » يعتقد أن قوة عدوه الذي يقتله وبسالته تنتقل إليه ، فكذلك نحن نكتسب قوة الإغراء الذي نقاومه .

إن الضمانات عينها التي تحمينا من الكوارث والعيوب والعداوة تحمينا كذلك — إن أردنا — من الأنانية والخذاع . والمزاييج والقضبان ليست خير ما لدينا من نظم ، وكذلك المكر في التجارة ليس دليلاً على الحكمة . والناس يكابدون طوال حياتهم من وهم باطل يخيل إليهم أنهم يمكن أن يُخدعوا . ولكن يستحيل على المرء أن يخدع إلا من نفسه ، كما يستحيل على الشيء أن يكون وألا يكون في آن واحد . هناك طرف ثالث صامت في كل مساوماتنا . فطبيعة

الأشياء وروحها تتعهد بضمان وفاء كل تعاقده ، بحيث لا يمكن أن تخسر الخدمة الأمانة . إذا أنت خدمت سيداً ناكراً للجميل ، بالغ في خدمته ؛ وانتظر من الله حسن الثواب . فكل ضربة تلقى جزاءها . وكلما تأخر عليك الأجر كان ذلك في مصلحتك ، لأنه يضاعف لك الربح ويزيد من فائدتك .

إن تاريخ الاضطهاد تاريخ محاولات الخداع الطبيعة ، « كي نجعل الماء يجري إلى أعلى الجبل ، وأن نضفر جبلاً من رمال » . ولا فرق بين أن يكون الفاعل واحداً أو كثيرين ، حاكماً مستبدّاً أو رعاياً . فالرعاع مجتمع من الأفراد يحرم نفسه طواعية من العقل وينقض عمله . الرعاع هم الناس يهبطون طواعية إلى طبيعة الحيوان . وقتهم الذي يلازم نشاطهم هو الليل ، وأعمالهم جنونية كتكوينهم كله . إنهم يضطهدون المبدأ السليم ويضربون بالحق عرض الحائط ، ويسميئون إلى العدالة ، فيشعلون النار والثورة في بيوت أولئك الذين يملكون هذه الأشياء وفي أشخاصهم . الرعاع يشبهون عبث الأطفال ، الذين يهرعون بآلات المطافيء لكي يطفئوا الشفق الأحمر الذي يمتد إلى النجوم . إن الروح الطاهرة تصوّب حقدهم نحو المسيئين . إن الشهيد لا يمكن أن يهان . كل ضربة تُوقّع لسان من الشهرة ، وكل سجن مسكن مضىء ، وكل كتاب وكل بيت محترق يضيء العالم . وكل كلمة مكبوتة أو محظورة يرن صداها في الأرض من جانب إلى آخر . إن ساعات الحكمة والتأمل تأتي إلى الجماعات دائماً —

كما تأتى إلى الأفراد — عندما يظهر لنا الحق ، ونجد للاستشهاد ما يبرره .

وهكذا يبشر كل شيء بتفاهة الظروف ، فالإنسان كل شيء .
ولكل شيء وجهان ، الخير والشر . ولكل ميزة ضريبتها . وقد
تعلمت القناعة . ولكن مبدأ التعويض لا يدعو إلى عدم الاكتراث .
يقول الذين لا يتفكرون عندما يسمعون هذه الأمثال ، ما جدوانا
من فعل الخير ؟ هناك غاية واحدة للخير والشر ، فإن أنا اكتسبت
خيراً دفعت ثمنه ، وإن فقدت خيراً ، اكتسبت آخر . كل عمل
لا قيمة له .

وتنطوى الروح على حقيقة أبعد غوراً من التعويض ، وتلك هي
طبيعتها . ليست الروح تعويضاً ، ولكنها حياة . الروح كائنة .
وتحت كل هذا النهر الجارى من الحوادث ، الذى تعلو مياهه وتهبط
باتزان كامل ، تكمن تلك الهوة الأصلية وهى الوجود الحقيقى . إن
الخلاصة ، أو الله ، ليست علاقة أو جزءاً ، ولكنها كل . الوجود
هو الإيجاب العريض الذى يستبعد النقي ، يترن بنفسه ، ويبتلع كل
العلاقات وكل الأجزاء وكل الأوقات فى دخيلته ، والطبيعة والحق
والفضيلة فيض من هذا . والرديلة هى اختفاء ذلك أو البعد عنه .
والعدم والزور والبهتان قد توجد حقاً كأنها الليل الحالك أو الظل
الذى يُظهر صورة العالم الحى ، ولكنها لا تتمخض عن حق ، ولا
تستطيع أن تؤدى عملاً ، لأنها ليست كائنة ، ولا تستطيع أن تؤتى

خيراً أو أن تؤتى شراً . إنها أذى لأن العدم أسوأ من الوجود .
 إننا نحس بالخدعة فيما ينال الشر من عقوبة ، لأن المجرم يلزم
 إثمه وتمرده ، ولا يبلغ حرجاً ولا ينخضع لحكم في أى مكان في
 الطبيعة المرئية . ليس هناك استنكار قوى لعبته أمام الناس والملائكة .
 فهل تغلب على القانون بذكائه ؟ إنه يذوى من الطبيعة بمقدار
 ما يحمل بين جنبه من خبث وكذب . وسوف يظهر الخطأ بصورة
 من الصور لمن يتفقهون . وبهذا الاستبعاد القاتل يلقى المسيء جزاءه
 الحق ، حتى إذا غاب الأمر عن أنظارنا .

ومن ناحية أخرى لا يمكننا أن نقول إن مانكسبه من الاستقامة
 يجب أن تسكبد في سبيله شيئاً من الخسارة . ليست للفضيلة عقوبة ،
 وليست للحكمة عقوبة ، إنما هما من مستلزمات الوجود المتعلقة به .
 في العمل الفاضل أكون أنا نفسى تماماً ، وفي العمل الفاضل أضيف
 إلى الدنيا . اننى أزرع الصحارى التى هزمتها الفوضى والعدم ،
 وأرى الظلام يتراجع عند حافة الأفق . لا يمكن أن يكون في الحب
 مبالغة ، أو في المعرفة ، أو الجمال ، إذا اعتبرنا هذه الصفات بأصنى
 معانيها . إن الروح ترفض القيود ، وتؤكد التفاؤل دائماً ، ولا ترضى
 بالتشاؤم أبداً .

حياة الروح في تقدم وليست في سكون . وطبيعتها الثقة . إننا
 بغريزتنا نستعمل « الأكثر » و « الأقل » في الحديث عن الإنسان
 وفي « وجود الروح » ، ولا نقول ذلك عن عدمها . فالرجل

الجرىء أعظم من الجبان . والصادق وفاعل الخير والحكيم أكثر إنسانية — وليس أقل — من الأحمق والدنيء . ليست هناك ضريبة على خير الفضيلة ، لأن ذلك هو قدوم الله نفسه ، أو الوجود المطلق ، الذى لا يقارن . أما الخير المادى فعليه ضريبة ، وإن أتى دون استحقاق أو جهد ، كان من غير جذور فى نفسى ، تذروه أول ربح . ولكن خير الطبيعة كله هو خير الروح ، ويمكن الحصول عليه ، إذا دفع ثمنه بعملة الطبيعة المشروعة ، أى بالعمل الذى يسمح به القلب والرأس . إننى لا أحب بعد اليوم أن ألقى خيراً لم أكسبه ، كأن أجد مثلاً وعاء من ذهب دفين ، لأننى أعلم أنه يأتى معه بأعباء جديدة . لست أحب مزيداً من المنافع الخارجية — كالأملاك أو ألقاب الشرف أو النفوذ أو الأشخاص . فالكسب هنا ظاهرى والضرية مؤكدة . ولكن علمى بوجود التعويض ، وبأنه ليس من المستحب أن نستخرج الكنوز من باطن الأرض ، ليست عليه ضريبة . فإننى فى ذلك أستمع بطمأنينة هادئة دائمة . إننى أضيق حدود الأذى الممكن . وأتعلم حكمة القديس برنارد « لا شئ يعود على بالضرر غير نفسى . إن الأذى الذى أكابده أحمله بين جنبي ، ولن أعانى ألماً حقاً إلا من جراء آثامى » .

تعويض النقص فى الظروف من طبيعة الروح . ويظهر أن مأساة الطبيعة الأساسية هى التمييز بين الأكثر والأقل . كيف لا يحس « الأقل » الألم ، وكيف لا يحس السخط وسوء الطوية نحو

« الأكثر » ؟ إذا نظرت إلى ذوى المواهب القليلة شعرت بالأسى ولم تدر تماماً ماذا تصنع . إنك تتحاشى عيونهم ، وتخشى أن تسمعهم يعتبون على خالقهم ، ماذا عساهم فاعلون ؟ يظهر أن الظلم شديد . ولكنك إن شهدت الحقائق عن كذب تبذرت هذه المفارقات الهائلة . إن الحب يزيلها كما تذيب الشمس جبال الثلج فى البحار . ولما كانت الروح والقلب عند الناس جميعاً شيئاً واحداً ، فإن المرارة الكامنة فى « ممالك » و « مالى » تتلاشى . فماله لى . أنا أخى ، وأخى أنا . وإن أنا أحسست بأن جيرانى الكبار يحجبوننى ويتفوقون علىّ ، فإنى لازلت أملك أن أحب ، ولا زلت أملك أن أستقبل . ومن يحب يجعل العظمة التى يحبها ملكاً له . بذلك اكتشف أن أخى ولىّ أمرى ، يعمل من أجلى بأطيب النوايا ، وأن الضيقة التى أعجبت بها وحسدته عليها هى ملكى . إن من طبيعة الروح أن تمتلك كل شىء . وليس يسوع وشيكسبير سوى أجزاء من الروح ، وبالحب أغزوهم وأضمهم إلى ميدان وعي . أليس فضل أى امرئ فضلى ؟ وإذا لم يكن ذكاؤه ذكائى فليس بدكاء .

وعلى هذه الصورة كذلك يكون التاريخ الطبيعى للكوارث . فالتغيرات التى تعترض على فترات قصيرة سعادة الناس دلائل على طبيعة قانونها النمو . كل نفس بناء على هذه الضرورة الذاتية تتخلى عن تكوينها كله ، وعن أصدقائها وبيئتها وقوانينها وإيمانها ، كما يزحف الحمار من قوقعته الجميلة برغم صلابتها ، لأن القوقعة لم تعد

تسمح بنموه ، ويكون بيتاً جديداً في أناة . وبنسبة قوة الفرد تكثر هذه التطورات حتى تكون متصلة في العقل السعيد ، وتعلق جميع الصلات الدنيوية حوله في تفكك شديد حتى تصبح كأنها غشاء سائل شفاف ترى من خلاله الصورة الحية ، ولا تكون — كما هي عند أكثر الناس — هيكلًا من عديد الحوادث ، صلباً ، غير متجانس ، مقلقلًا ، يحتبس فيه صاحبه . حينئذ يمكن النمو ولا يكاد إنسان اليوم أن يعرف إنسان الأمس . وهكذا ينبغي أن تكون سيرة الإنسان الخارجية في الزمان . نبذ للظروف البائدة يوماً بعد يوم ، كلما جدد إهابه يوماً بعد آخر . بيد أن هذا النمو يصدمننا لأننا متخلفون ، ساكنون ، لا نتقدم ، نقاوم العظمة الربانية المقدسة ولا نعاونها .

إننا لانستطيع أن نستغنى عن أصدقائنا ، ولا نستطيع أن نسبح للملائكتنا بالانصراف ، ولا ندرك أنها إنما تتصرف لكي يحل محلها زعماء الملائكة . نحن عبدة أوثان القديم . لانعتقد في ثروة الروح ، وفي خلودها التام ووجودها في كل مكان . نحن لا نعتقد ان في الحاضر قوة تنافس أو تجدد ذلك الماضي الجميل . اننا نتسكأ في خرائب السرادق القديم ، حيث كان لنا فيه فيما مضى خبز ومأوى وأدوات ، ولا نثق في أن الروح تستطيع أن تطعمنا وتكسوننا وتمنحنا القوة . إننا لانستطيع أن نجد مرة أخرى شيئاً عزيزاً حلواً ممتعاً كالذي انقضى . إنما نحن نجلس ونبكي من غير طائل . إن

صوت الله القادر على كل شيء يقول : « إلى أعلى وإلى الأمام دائماً ! »
لا يمكن أن تبقى وسط الأطلال . إننا لا نعتمد على الجديد ، ولذا
فنحن نسير دائماً وأعيننا إلى الوراء ، كتلك المخلوقات الخرافية
الخيفة التي تنظر خلفها .

ومع ذلك فإن ما يعوض الكوارث لا يدركه العقل إلا بعد
فترات طويلة من الزمان . فإن الحمى ، وبتر الأعضاء ، وضعية الأمل
الشديدة ، وضياح الثروة ، وفقدان الصديق ، قد تبدو أول الأمر
خسارة بغير ثمن ولا يمكن أن ترد . ولكن السنين الثابتة تكشف
عن القوة العلاجية العميقة التي تنطوي على جميع الوقائع ، فإن موت
صديق عزيز ، أو زوجة ، أو أخ ، أو حبيب ، قد لا يبدو لنا إلا
حرماناً ، ولكنه يصبح فيما بعد هدياً لنا وحكمة ، لأنه يسبب لنا
عادة انقلاباً في طريقة حياتنا ، ويختم عصراً من الطفولة أو الشباب
كان وشيك الانتهاء ، ويهدم عملاً ألقاه ، أو حياة منزلية ، أو أسلوباً
خاصاً من العيش ، ويهيئ ألوفاً منها جديدة أقرب لملاءمة لنمو
الشخصية . إنه يسمع لنا أو يرغمنا على تكوين معارف جدد ، وعلى
تقبل مؤثرات جديدة تبرهن السنوات المقبلة على أهميتها القصوى .
والرجل أو المرأة كالزهرة المشمسة في البستان ، لا تمتد جذوها في
أغوار الأرض وإن استمتعت أطرافها بفيض من ضياء الشمس . فإن
انهارت من حولها جدران الحديقة وأهملها البستاني أمست كالشجرة
السامة تنمو في الغابة وتمد بظلمتها وثمرها عدداً كبيراً من الناس .

الحب

« كنت كنزاً مخفياً ، فأردت أن أعرف ،

نخلقت الخلق ، فبي عرفوني »

(حديث قدسى) (١)

كل وعد من وعود الروح يمكن أن يُوفى على صور لا تعد . وكل شوق من أشواقها يتطور إلى حاجة جديدة . والطبيعة التي لا تحتويها شيء ، المتدققة ، المتطلعة ، تودع فعلاً في عاطفة الشفقة الأولى حباً شاملاً للخير يهمل كل الاعتبارات التفصيلية في ضوئه العام . والمدخل إلى هذا الإحساس السعيد إنما يكون بالعلاقة الخاصة الرقيقة بين فرد وفرد . هذه العلاقة هي سحر الحياة البشرية ؛ وهي — كالقوة أو الحماسة الإلهية — تستولى على المرء في فترة ما ، وتؤجج ثورة في عقله وجسمه ، وتوحد بينه وبين جنسه ، وتربطه بصلاته البيتية والمدنية ، وتحمله بعطف جديد إلى الطبيعة ، وتعزز قوى الحواس وتفتح الخيال ، وتضيف إلى شخصيته صفات البطولة والتقديس ، وتؤسس الزواج ، وتعطى الجماعة الإنسانية صفة الدوام .

(١) يذكر أمرسن في الأصل عبارة يحسب أنها ترجمة لآية من القرآن الكريم ، ولم نعثر على آية بهذا المعنى ، ولعل الحديث القدسي الذي ذكرناه هو أقرب المعاني لعبارة المؤلف .

يظهر أن العلاقة الطبيعية بين عاطفة الحب وفورة الشباب تستلزم ألا يهرم المرء حتى يمكنه أن يصور هذه العاطفة بألوان حية يعترف كل فتى وفتاة أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن تجارب قلوبهم النابضة . إن خيالات الشباب العذبة تنبذ أدنى شيء يفوح برائحة الفلسفة الناضجة ، لأنه يصيب ازدهارهم البهيج بيرودة الشيخوخة والخذلقة . ولذا فأنا أعلم أنني أجلب لنفسى تهمة الجمود والتزمت الذين لا ضرورة لهما من جانب أولئك الذين يؤلفون برلمان الحب وبلاطه . ولكني أشكو إلى من يكبرونني هؤلاء الرقباء الأشداء . لأننا يجب أن نذكر أن هذه العاطفة التي نتحدث عنها لاتهجر الشيوخ وإن بدأت مع الشباب ، أو على الأصح أنها لا ترضى لمن يخلص في خدمتها أن يشيخ ، وإنما تجعل المسنين الذين يحسون هذه العاطفة كالعذارى الرقيقات ، لا يقولون عنهن ، وإن اتخذت العاطفة عندهم لونا آخر أشد نبلا . لأنها نار تشتعل جذوتها الأولى في ركن ضيق من صدر إنسان ما ، وقد شبت فيه من شرارة تطايرت من قلب آخر ؛ وهذه النار تتأجج وتنتشر حتى تدفى وتضى عدداً كبيراً من الرجال والنساء ، أو ذلك القلب العام الذي يشمل الجميع ، ولذا فإنها تضى الدنيا كلها والطبيعة كلها بلهبها السخى . ومن أجل ذلك لا يهمننا أن نحاول وصف هذه العاطفة في سن العشرين ، أو الثلاثين ، أو الثمانين . ومن يصورها في العهد الأول يفقد شيئاً من صفاتها في عهدها الأخير . ومن يصورها في آخر عهدها يفقد شيئاً من

صفاتنا الأولى . ويكفينا أن نأمل أننا ربما نبلغ — بالصبر
وبمعونة آلهة الشعر — سر ذلك القانون الذى يصف حقيقة من
الحقائق الفنية دائماً والجميلة أبداً ، حقيقة مركزية تجذب العين من
أية زاوية تشاهد .

وأول شرط هو أنه ينبغي لنا أن نتخلى عن التمسك بالوقائع
تمسكاً شديداً معطلاً ، وأن ندرس العاطفة كما ظهرت فى الأمل
لا كما ظهرت فى التاريخ ، لأن كل امرئ يتصور حياته الخاصة
ممسوخة مشوهة على خلاف حياة الناس . كل إنسان يرى تجربته
الخاصة لوثنة من الخطأ ، فى حين أن تجربة الآخرين تبدو له جميلة
مثالية . ولو عاد المرء إلى تلك الصلات الممتعة التى يتكون منها جمال
حياته ، والتى أمدته بأخلص المعارف والغذاء ، لأسف أشد الأسف .
واأسفاه ! لست أدري لماذا يعكر وخز الضمير الشديد — فى سن
النضوج — صفو ذكريات السرور لعهد الحداثة ، ويتغلغل فى كل
اسم عزيز . كل شئ جميل إذا نظرت إليه من ناحية العقل ،
أو نظرت إليه كحقيقة من الحقائق . ولكن كل شئ مر إذا نظرت
إليه كتجربة . التفصيلات الكثيرة ، ولكن الخطة العامة نبيلة لائقة
المظهر . فى الحياة الواقعة — دولة الزمان والمكان الأليمة — تسكن
الهموم والآفات والخاوف . ومع الفكر ، والثلل الأعلى ، يوجد
البشر الخالد ، أو زهرة السرور . وحوله تغنى جميع آلهة الشعر .

ولكن الحزن يلتصق بالأسماء والأشخاص والاهتمامات الجزئية واليوم والأمس .

نستطيع أن ندرك ميل الطبيعة الشديد من المكانة التي يحتلها موضوع هذه العلاقات الشخصية في أحوال المجتمع . ماذا نريد أن نعرف عن أى شخص له قيمته بقدر ما نريد أن نعرف عن مقدار ما لديه من هذه العاطفة ؟ وما هي الكتب التي تروج في المكتبات المتنقلة ؟ ما أشد سرورنا بالروايات العاطفية ، حينما تروى فيها القصة بشيء من وميض الحق والطبيعة ! وماذا يجذب الالتفات في صلات الحياة ، مثل ما يدور بين فردين مما ينم عن المحبة ؟ ربما لم نرها من قبل ، وربما لا نراها مرة أخرى . ولكننا نراها يتبادلان النظر ، أو يُظهريان عاطفة عميقة ، فلا نحس أننا غرباء . إننا نفهمهم ونهتم أشد اهتمام بتطور قصتهما الخيالية . إن الناس جميعاً يعشقون العاشق . والمظاهر الأولى للعطف والشفقة أغلى صور الطبيعة ثمناً . إنها بداية الأدب والرقعة عند كل جلف ساذج . إن الفتي القروي الفظ يضايق الفتيات عند باب المدرسة ، ولكنه اليوم يهرع إلى المدخل ، ويقابل فتاة حسناء ترتب حقيبتها ، فيحمل كتبها لكي يعينها ، ويبدو له فجأة كأنها ابتعدت عنه نهائياً ، وأصبحت له حرماً مقدساً . فيجرب بفضاظة بين جموع الفتيات ، ولكن واحدة منهن فقط تبتعد عنه . وهذان الجاران الصغيران ، اللذان كانا متقاربين جداً منذ برهة ، قد تعلمنا أن يحترم كل منهما

شخصية الآخر . ومن ذا الذى يستطيع أن يغض الطرف عن أماليب فتيات المدارس التى تسترعى الالتفات ، تلك الأساليب التى فيها شئ من المهارة وشئ من السذاجة ، والتى يتبعها الفتيات عندما يذهبن إلى محلات البيع فى الريف لشراء لفافة من الحرير أو صحيفة من الورق ، ويتحدثن نصف ساعة عن لاشئ مع الفقى البائع صاحب الوجه العريض والطبيعة السمحة ؟ إنهن فى القرية على قدم المساواة الكاملة ، التى يتصف بها الحب ، فترى طبيعة الحب السعيدة عند المرأة تنطلق — دون أى تدلل — فى هذا الحديث العذب . قد يكون نصيب الفتيات من الجمال ضئيلا ، غير أنهن ينشئن فى وضوح وجلاء بينهن وبين الفقى أحب العلاقات وأوثقها صلة بما لديهن من هزل وجد عن « ادجر » و « جوتاس » و « الميرا » وعمن دُعى للحفل ، ومن رقص فى مدرسة الرقص ، وعن موعد افتتاح مدرسة الغناء ، وغير ذلك من التفاهات التى يهدر بها الفريقان . ثم تمر الأيام ، ويحتاج هذا الفقى إلى زوجة ، وأنه ليعرف صادقا من كل قلبه أين يجد الرفيقة الحلوة المخلصة ، دون أية مخاطرة ، كذلك المخاطرة التى يرثى ملتن تعرض العلماء وعظماء الرجال لها . قيل لى إن تقديرى للعقل فى بعض محاضراتى العامة قد جعلنى فاتراً نحو العلاقات الشخصية بغير مبرر ، ولكننى الآن أكاد أرتعد من ذكرى هذه الكلمات التى تستخف بى . لأن الأشخاص هم دنيا الحب ، وأشد الفلاسفة برودة لا يستطيع أن يتحدث عما تدين به

الروح الشابة — التي تجوس خلال الطبيعة — لقوة الحب ، دون أن يُغرى بنفى كل ما سبق له ذكره مما يحط من قدر الغرائز الاجتماعية ، لأن الخط من شأن هذه الغرائز خيانة للطبيعة . ومع أن السرور الإلهي الذي يهبط من السماء لا يستولى إلا على قلوب الشباب ، ومع أننا قل أن نرى بعد سن الثلاثين جمالا يقهر كل تحليل وكل مقارنة ويقذف بنا بعيداً عن أنفسنا ، إلا أن ذكرى هذه الرؤى يدوم أكثر من كل الذكريات الأخرى ، وهى كأكليل الزهر على أعتق الجباه . وهنا حقيقة عجيبة ، فقد يبدو لكثير من الناس — عندما يسترجعون تجاربهم — أن كتاب حياتهم ليست فيه صفحة أجمل من الذكرى العذبة لبعض الصلات التي حاول فيها الحب أن يضفي فيها فتنة على بعض الظروف الطارئة التافهة ، فتنة تفوق الجاذبية الكبرى لصدق الحب ذاته . وعندما يتطلعون إلى الوراء قد يجدون أن أشياء عديدة لم تكن تسحرهم فيها من الواقع — لهذه الذاكرة المتخبطة — أكثر مما فى السحر نفسه الذي كانت تتصف به هذه الأشياء . ولكن مهما تكن خبرتنا بالتفاصيل ، فإننا لا يمكن أن ننسى تلك الزيارات التي كانت تؤذيها لقلوبنا وأذهاننا تلك القوة التي خلقت كل شيء من جديد ، والتي كانت لها مبعث الموسيقى والشعر والفن ، والتي جعلت وجه الطبيعة يشرق بالضوء البنفسجي ، والتي جعلت للصبح والليل ألوانا من السحر ، حينما كانت نغمة مفردة من صوت واحد تستطيع أن تجعل القلب ينبض ،

وأن نودع سويداء الذاكرة أتفه الحوادث ما دام يرتبط بإنسان معين ، حينما كان كله عيناً في حضرة فرد معين ، وكله ذاكرة في غيبة ذلك الفرد ، عندما كان الشباب رقيباً للنوافذ ، مهتماً بالقفاز والقناع والشريط وعجلات العرب ، وعندما لم يكن أى مكان تام العزلة ، تام السكون بالنسبة إليه ، لأنه يجد في أفكاره رفاقاً أعز وحديثاً أعذب مما يستطيع أن يقدمه إليه أى صديق قديم مهما كان من الأخيار الأصفاء . لأن صور الشيء المحبب وحركاته وكلماته ليست كغيرها من الصور مكتوبة بالماء ، ولكنها كما قال فلو طارخس « مطلية بالنار » ، وتصلح للدراسة في منتصف الليل .

إنك عند اختفائك ، لا تختفين . حينما أنت
تخلفين له عينيك الساهرتين ، وقلبك العاشق .

وفي ظهيرة الحياة وأصيلها لا تزال قلوبنا تنبض بذكرى أيام لم تكن فيها السعادة خالصة ، وإنما كانت مخدرة بلذة الألم والخوف .
ومن قال عن الحب :

« إن كل متعة أخرى لا تساوى أمله » .

قد مس سر الموضوع . تلك كانت أيام لم يكن يكفيننا منها أن نستغرق النهار كله في عذب الذكريات ، وإنما كان لابد من الليل كذلك . وكان الرأس يغلى طوال الليل فوق الوسادة بالعمل الكريم الذى يعتزم أدائه ، وكان ضوء القمر حرارة تمتع النفوس ، وكانت النجوم أحرفاً ، والزهور ألغازاً ، والهواء يصفر غناء ؛ وكان كل

عمل سفاهة ، وكل الرجال والنساء الذين يَعدُّون في الطرقات
حيثة وزهاها صوراً مجردة .

العاطفة تعيد بناء الدنيا للشباب ، وتجعل كل شيء حياً له معنى
فتصبح الطبيعة واعية ، ويغنى كل طائر على أغصان الشجر لقلبه
وروحه . ويكاد النغم أن ينطق . وتكتسب السحب أوجها حينما
ينظر إليها . وأشجار الغابة ، والحشائش المتموجة ، والأزهار
المتفتحة ، تكتسب عقلاً وحكمة ، ويكاد يخشى أن يعهد إليها بالسير
الذي يبدو أنها تدركه . ومع ذلك فالطبيعة تريحه وتعطف عليه .
ويجد في عزلة الحقول مأوى أعز مما يجد عند الناس .

« الينابيع والأحراش التي تخلو من الممرات
والأماكن التي تعشقها العاطفة الملتبسة ،

والطرقات التي يضيئها القمر ، عندما تأوى كل الطيور
آمنة إلى أوكارها ، خلا الوطاويط والبوم
والناقوس في وسط الليل ، والأنة العابرة —

تلك هي الأصوات التي بها نحيا » .

انظر هناك في الغابة إلى الرجل المجنون الفريد ! إنه صرح من
الأصوات والمناظر العذبة . إنه ينبسط ، إنه رجلان في آن واحد ،
انه يسير وذراعه إلى وسطه ، انه يناجي نفسه ، وينادي العشب
والشجر ، ويحس بدماء البنفسج والبرسيم والسوسن في عروقه ،
وهو يتحدث مع النهر الذي يبلل قدميه .

إن الحرارة التي نهته إلى الجمال الطبيعي جعلته يحب الشعر والموسيقى . وكثيراً ما نلاحظ أن المرء يكتب أجود الشعر بوحى الحب . وما كان ليحيد الكتابة تحت أى ظرف آخر غير ذلك .

ولعاطفة الحب أثر مائل على طبيعته كلها . إنها توسع إحساسه وتجعل من المهرج رجلاً مهذباً ، وتعطى الجبان قلباً . إنها تثبت في أشد الناس حقارة ، وأقلهم شأنًا قلباً وشجاعة يتحدى بها العالم ، إذا ما ظفر بطلعة الحبيب . إن عاطفة الحب تملك المرء لغيره ، ولكنها بذلك تجعله أشد امتلاكا لنفسه فيمسى رجلاً جديداً ، ذا إدراك جديد ، وأغراض جديدة أكثر تحديداً ، وشخصية موقرة وأهداف كريمة ، إنه لم يعد ينتسب إلى أسرة أو جماعة ، إنما هو شيء ما ، هو شخص ، هو روح .

وهنا دعنا نفحص عن كسب طبيعة ذلك التأثير الذي له كل هذا النفوذ على شباب الإنسان . إن الجمال الذي نشيد الآن بظهوره للإنسان ، والذي نرحب به كما نرحب بالشمس أنى أشرق ، والذي يدخل السرور على قلب كل إنسان ، هذا الجمال يبدو مكتفياً بذاته . والعاشق لا يستطيع أن يتصور عشيقته فقيرة وحيدة . إن الجمال يأنس بنفسه ، وهو كالشجرة المنفتحة ، رطب ، متفتح ، عليم ، وإن العاشقة لتعلم عين عشيقها لماذا صُور « الجمال » محفوقاً « بالحب » و « الجلال » . إن وجود المعشوقة يُفنى العالم . وقد تبعد كل شخص آخر عن التفاته وتجعله يبدو له رخيصاً لا قيمة له ، إلا أنها

تعوضه ذلك بأن تجعل وجودها شيئاً غير شخصى ، كبيراً ، يملأ الدنيا ، فيتمثل له فيها كل شيء مختار ، وكل فضيلة ممتازة . من أجل ذلك لا يرى العاشق قط وجهاً للشبه بين شخص معشوقته وبين ذويها أو غيرها . يجد أصدقاؤه فيها شهباً بأمها أو أخواتها أو بأشخاص من غير ذوى قرباها . ولكن العاشق لا يرى لها شهباً إلا فى ليالى الصيف ، وفى الصبح المتلألئ ، وأقواس قزح ، وأنشيد الطير .

كان القدماء يسمون الجمال ازدهار الفضيلة . ومن ذا الذى يستطيع أن يحلل الفتنة الرائعة التى تشع من هذا الوجه أو ذاك وفق هذه الصورة أو تلك . إننا تتأثر بأحاسيس الحنو والرضا ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف إلى أين تشير هذه العاطفة الرقيقة ، أو ذلك الشعاع الضال . وأية محاولة لإخضاعها إلى شيء من النظام تقضى عليها فى خيالنا . وهى كذلك لا تشير لأى لون من ألوان صلات الود والمحبة التى يعرفها ويصفها المجتمع ، ولكنها — كما يبدو لى — تشير إلى عالم آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف ولا يمكن بلوغه ، تشير إلى علاقات رقيقة لا يتصور رقتها العقل ، عذبة لا يتصور عذوبتها الخيال ، تشير إلى ما يشير إليه وينبئ به الورد والبنفسج . إننا لا نستطيع أن ندرك الجمال ، فإن طبيعته كالبريق المتنوع الألوان فى رقبة الحمامة وهى تحلق فوق الرؤوس فترة ثم تختفى . وهو فى هذا يشبه أروع الأشياء ، التى لها جميعاً هذه الصفة ، صفة الألوان

المتعددة كقوس قزح ، متحدية كل محاولة للظفر به والانتفاع منه .
وماذا كان يعنى (چين پول رشت) حينما خاطب الموسيقى قائلاً :
« ابتعدى عني ! فإنك تحذثنى عن أشياء لم أجدها فى حياتى الطويلة
كلها ، ولن أجدها » ؟ . ويمكننا أن نرى هذه الطلاقة عنها فى كل
عمل من أعمال الفنون التطبيقية ، فالتماثل يكون جميلاً عندما يبدأ
فى غموض لا يدرك ، حينما يخرج عن النقد ، ولا يمكن تحديده
بالوصلة وعصا القياس ، ولكنه يتطلب خيالاً نشطاً يسيره ، ويعبر
عما هو قائم به . إن إله النحات أو بطله يتمثل دائماً فى الانتقال
من ذلك الذى يمكن تمثيله للحواس إلى ذلك الذى لا يمكن تمثيله .
فهو يكف أولاً عن أن يكون حجراً . وهذه الملحوظة تنطبق
كذلك على التصوير . وكذلك فى الشعر لا يُفلح الشاعر إذا بث
فينا السكينة وأرضانا ، ولكن حينما يذهلنا ويشعل نفوسنا
بمحاولات جديدة لإدراك ما لا يمكن بلوغه . ويتساءل لاندُر فى
هذا الشأن قائلاً : « أليس مرد الشعر إلى حالة من حالات الإحساس
والوجود أنقى وأصفى » .

وكذلك الجمال الشخصى لا يفتن أولاً ولا يمثل نفسه إلا إذا نزه
نفوسنا عن الأغراض ، عندما يصبح قصة بغير نهاية ، وحينما يوحى
بالإشعاعات والرؤى ، ولا يقنعنا بأغراض دنيوية ؛ حينما يجعل الرأى
يحس تفاهة قدره ، ولا يستطيع أن يحس حقه فيه أكثر مما يحس
حقه فى القبة الزرقاء وروعة الشمس الغاربة .

ومن ثم نشأ هذا القول : « إن أحبتك ، فما قيمة ذلك لك ؟ »
إننا نقول ذلك لأننا نحس أن ما نحب ليس في إرادتك ، ولكن
فوق إرادتك . إنه ليس أنت ، ولكنه إشعاعك . إنه ذلك الذى
لا تعرفه فى نفسك ، ولا تستطيع أن تعرفه .

ويتفق ذلك تماما وفلسفة الجمال العليا التى أحباها الكتاب
الأقدمون ، لأنهم قالوا إن روح الإنسان ، التى تتجسد فوق هذه
الأرض ، هامت على وجهها هنا وهناك فى طلب العالم الآخر الذى
يخصها ، والذى خرجت منه إلى هذا العالم ، ولكنها سرعان ما عشى
عينها ضوء الشمس الطبيعية ، وعجزت عن رؤية أى شئ غير ما فى
هذه الدنيا ، وإن هذا إلا ظل للأشياء الحقيقية . ولذا فإن الله
يرسل جلال الشباب أمام الروح ، كى تستفيد الروح من الأجسام
الجميلة التى تعينها على ذكر الخير والجمال السماويين . والرجل الذى
يشاهد مثل هذا الشخص فى الجنس اللطيف من البشر ، يهرع إليه ،
ويجد السرور فى تأمل صورة هذا الشخص وحركته وذكائه ،
لأنه يوحى إليه بوجود ذلك الذى هو فى داخل الجمال حقاً ،
وعلة الجمال .

ومهما يكن من شئ ، فإن الروح إذا أكرت من الحديث
إلى الأشياء المادية ثقلت ، وأخطأت الأوضاع ورضيت بالجسد .
وهى بذلك لا تجنى غير الأسى ، لأن الجسم يعجز عن الوفاء بما يعد
به الجمال . أما إذا تقبل الإنسان ما تشير إليه الإيحاءات والرؤى

التي يثيرها الجمال في نفسه ، فتخطى بروحه الجسم ، وأعجب بمزايا الشخصية ، وتأمل العاشق معشوقته في الأحاديث والحركات ، ثم يتجه صوب معرض الجمال الحقيقي ، فيزيد اشتعال حبه له ، وبهذا الحب يطفىء الرغبات الدنيئة ، كما تطفىء الشمس النار بشروقها على الأرض . حينئذ يصبح العاشق نقي النفس مقدساً . إن العاشق بحديثه إلى ما هو رائع في ذاته ، عزيز النفس ، متواضع ، عادل ، ينتقل إلى حب لهذه الصفات النبيلة أشد حرارة ، وإلى إدراك لها أسرع . ثم ينتقل من حبها فرادى إلى حبها جماعة . وهكذا ترى أن الروح الجميلة الواحدة ليست سوى المنفذ الذي يدخل خلاله إلى جملة الأرواح الصادقة الطاهرة . إن العاشق في صحبته الخاصة لرفيقته يشتد وضوح رؤيته لأية بقعة أو أية لوثة من هذه الدنيا لطخت جمالها ، ويستطيع أن يشير إليها ، ويكون ذلك بسرور مشترك ، حتى إن العاشقين يستطيعان — دون أن يسيء أحدهما إلى الآخر — أن يشيرا إلى عيوبهما وعوائقهما ، وأن يقدم كل منهما للآخر كل معونة وعزاء لعلاج هذه العيوب وتلك العوائق .

وإذ يرى العاشق في أرواح عديدة صفات الجمال الإلهي ، ويفصل في كل روح ما هو مقدس عن الدنس الذي اقتبسته في هذه الدنيا ، يرقى إلى قنن الجمال ، إلى حب الله ومعرفته ، على درجات من سلم الأرواح المخلوقة .

بمثل هذا حدثنا الحكماء الصادقون عن الحب في جميع العصور .

وليس هذا المذهب بالقديم أو الجديد . وإذا كان أفلاطون وفلوپاترخس وأبوليس قد بشروا به ، فكذلك بشر به بترارك وأنجلو وملتن . ونود لو اتصف به الزواج في صدق وإخلاص ، فنقضى — ونلوم أنفسنا — على تلك الحكيم المستورة التي تسود عقود الزواج التي نصوغها في كلمات نستمددها من العالم العلوى ، في حين أننا نتطلع بإحدى عينينا إلى مخزن الطعام ، فيم أخطر حديث نتحدث به عن رائحة لحم الخنزير وأوانى المساحيق . وأسوأ ما يكون الأمر عندما تدخل هذه الحسية في تعليم الفتيات ، وتزدوى أمل الطبيعة الإنسانية ومحبتها ، بتعليمهن أن الزواج معناه اقتصاد منزلى ، وأن حياة المرأة لا تهدف إلى شئ آخر .

غير أن حلم الحب هذا ، وإن يكن جميلا ، إلا أنه منظر واحد من مسرحيتنا . فالروح في سيرها من الداخل إلى الخارج تتسع دائرتها دائماً ، كالحصاة يُلقى بها في بركة الماء ، أو كالضوء يصدر عن النجم . إن أشعة الروح تقع أولاً على أقرب الأشياء ، على كل أداة نافعة وكل ألحوبة ، على المربيات والخدم ، على البيت ، والفناء ، والمسافرين ، وعلى دائرة المعارف المنزلية ، وعلى السياسة والجغرافيا والتاريخ . ولكن الأشياء تتجمع دائماً وفقاً للقوانين العليا أو السفلى . والبيئة ، والحجم ، والعدد ، والعادات ، والأشخاص ، تفقد تدريجاً نفوذها على أنفسنا . وتسود فيما بعد العلة ومعلولها ، والعلاقات الحقيقية ، والتشوق إلى الانسجام بين الروح وما

يتحوطها من ظروف ، والميل الطبيعي إلى التقدم وإلى تصوير الأشياء في صورة مثالية . والخطو إلى الوراء من العلاقات العليا إلى العلاقات السفلى يصبح ضرباً من المحال . وهكذا ترى أنه حق الحب ، وهو تأليه الأشخاص ، لابد أن يتحول إلى شيء غير شخصى يوماً بعد يوم . ولكنه لا يشير إلى ذلك البتة أول الأمر . وقلما يفكر الشاب والفتاة — عندما يتطلع كل منهما إلى الآخر خلال الحجرات المزدحمة بعيون ملؤها الإدراك المتبادل — في الثمرة الغالية التي سوف يؤتيها بعد وقت طويل هذا الباعث الجديد الخارج عن أنفسنا خروجا تاما . إن عملية الإخضرار تبدأ أولاً في أطراف القشور وأوراق البراعم . ومن تبادل النظرات يتقدم الشاب والفتاة إلى الملاطفة وإلى الشهامة ، ثم إلى العاطفة الملتبها ، ثم إلى العهد القاطع ، فالزواج . إن الرغبة الحارة تنظر إلى هدفها كوحدة كاملة . والروح تتجسد تجسداً تاما ، والجسد يتحول تحولا تاما إلى روح .

إن دماءها الصافية الفصيحة

تنطق في وجنتها ، بكلمات مفصلة واضحة

حق أن المرء ليوشك أن يقول إن جسمها يفكر

إن روميو — برغم موته — يجب أن يُقطع أنجما صغيرة لكي يجمّل السماء . والحياة مع هذين العاشقين ليس لها هدف آخر ، غير چوليت — أو روميو . والليل والنهار والدراسات والمواهب والمالك والدين كلها كائنة في هذه الصورة المشبعة بالروح ، وفي هذه

الروح التي كلها صورة — إن العاشقين يسعدان بإعزاز أحدهما الآخر . وعندما يتعهدان بالحب ، وفي الموازنة بين تحية كل منهما للآخر . وعندما يختلى أحدهما يسلى نفسه بصورة حبيته التي يذكرها . هل يرى حبيبه الآخر نفس النجم ، ونفس السحابة الذائبة ، ويقرأ نفس الكتاب ، ويحس نفس العاطفة ، التي يسعد بها الآن ؟ يبذل العاشق حبه ويزنه ، ويجمع المزايا الثمينة ، والأصدقاء ، والفرص ، والأملاك . ويتنهج عندما يكتشف أنه يود راضياً مسروراً أن يسلم كل هذا فدية للرأس الجميل الحبيب ، دون أن يمس شعرة واحدة منه أذى . ولكن مصير البشرية يتوقف على هؤلاء الأطفال . يتعرضون للخطر والأسى والألم كما يتعرض غيرهم . فيتوسل الحب ويعقد العهود مع « القوة الخالدة » نيابة عن هذا الرفيق العزيز . والاتحاد الذي يتم على هذه الصورة ، والذي يضيف قيمة جديدة إلى كل ذرة في الطبيعة ، لأنه يحول كل خيط في نسيج العلاقات كله إلى أشعة ذهبية ، ويُغرق الروح في عنصر جديد أحلى من كل عنصر آخر ، هذا الاتحاد مع ذلك حالة مؤقتة لأن الزهور والآلى والشعر ، والنزاع ، بل والسكنى في قلب آخر ، كل ذلك لا يستطيع دائماً أن يشبع الروح التي تسكن الطين . إنها توقظ نفسها في نهاية الأمر من بين هذه الأشياء العزيزة ، التي تشبه اللعب ، وتعد العدة متجهة صوب أغراض بعيدة عالمية . إن الروح الكامنة في نفس كل فرد ، والتي تشتت في السعادة الكاملة ، تكتشف المتناقضات والعيوب ،

واختلال النسب في الفرد الآخر . ومن ثم كانت الدهشة والعتاب والألم . ومع ذلك فإن ما جذب أحدهما إلى الآخر هو دلائل الجمال ، ودلائل الفضيلة ، وهذه الفضائل موجودة مهما تسترت . إنها تظهر ، ثم يعود ظهورها ، وتستمر في جاذبيتها ، ولكن التقدير يتغير ، ويتعد عن هذه الدلائل ويلتصق بالمادة . فتسترد بذلك المحبة الجريخة كرامتها . وفي نفس الوقت ، كلما بليت الحياة أثبتت أنها لعبة فيها تبادل واتحاد لجميع الأوضاع الممكنة للفريقين ، يستخدم فيها كل منهما كل موارده ، ويعلم فيها بمواطن الضعف والقوة عند الآخر . كل ما في الدنيا ، بما هو معروف أو ينبغي أن يُعرف ، يندمج بمهارة في تكوين الرجل أو المرأة .

حب الفرد للفرد يلازم النفس ،

وهو ، كالمَن ، فيه مذاق كل شيء .

ويسير العالم ، وتتغير الظروف في كل ساعة . وتطل من النوافذ الملائكة التي تسكن معبد الجسم هذا ، وكذلك الشياطين والرزائل . وتوحدّها جميع الفضائل . فإن كانت هناك فضيلة ، اتصفت بها جميع الرزائل ، وأقرت بذلك وانصرفت . وبمرور الزمن تفتقر في صدر كل عشيق تلك النظرة الملتبهة ، وتفقد من حديثها ما تكسبه في عمقها ، وتصبح تفاهاً طيباً كاملاً . ويسلم كل منهما للآخر — دون شكاة — بالوظائف الطيبة التي يُكلف بأدائها مع مرور الزمن كل من الرجل والمرأة على حدة ، ويستبدلان بالعاطفة التي

كانت من قبل لا تستطيع أن تحول النظر عن هدفها اهتمام كل طرف بأمل الآخر ، اهتماما يشوبه السرور والتحرر من الغرض ، سواء في حضرته أو غيبته . وأخيراً يكتشفان أن كل ماجذب أحدهما نحو الآخر أولاً — تلك الملامح التي كانت مقدسة ، وأثر تلك الفتنة الساحرة — كان مؤقتاً إلى حين ، وكان له غرض يرمى إليه ، كاهنيا كل الحشبية التي تشيد عليها المنازل . وتطهير العقل والقلب عاما بعد عام ، هو الزواج الحق ، الذي يتوقعه الطرفان ويتأهبان له من أول الأمر ، وهو فوق إدراكهما تماماً . وعندما أفكر في هذه الأغراض التي من أجلها ترى شخصين — رجلا وامرأة — على ما بينهما من اختلاف واتفاق في المواهب — يغلقان عليهما بيتاً واحداً ينفقان بداخله اختلاطاً زوجياً أربعين أو خمسين عاما . عندما أفكر في ذلك فد أعجب من الاهتمام الذي يترقب به القلب هذا الموقف الحرج منذ الحداثة . ولا أعجب من روعة الجمال ، التي تزين بها الغرائز سرير الزوجية ، ولا أعجب كذلك من أن تتبارى الطبيعة والعقل والفن ، في المزايا والألحان التي تضيفها على أناشيد العرس .

وهكذا تتدرب على حب لا يعرف الجنس ، ولا الشخص ، ولا الهوى ، ولكنه يبحث عن الفضيلة والحكمة . نحن بالطبيعة نلاحظ ، ومن ثم نتعلم . وهذه حالنا الدائمة . ولكننا كثيراً ما نُدفع إلى الإحساس بأن أهواءنا ليست سوى خيام في الليل . وأهداف أهوائنا

تتغير ، كما تتغير أهداف الفكر ، وإن يكن ذلك في ببطء وفي ألم .
وهناك لحظات تسيطر فيها الأهواء على المرء وتستوعبه ، وتجعل
سعادته متوقفة على شخص واحد أو أشخاص . ولكن العقل — في
حالة الصحة — سرعان ما يعود إلى الظهور — فترى أبهاء ذات
الأقواس العالية ، تلمع بالأضواء الثابتة التي كأنها تشع من الكواكب .
ويفقد الحب الحار والمخاوف التي مرت بنا كالسحب صفحتها الزائلة ،
وتتحد مع الله ، كي تبلغ كمالها . ولكننا يجب ألا نخشى فقدان أى
شئ بتقدم الروح . بل يمكننا أن نثق في الروح حتى النهاية .
وأمثال هذه العلاقات الجميلة الجذابة يجب ألا يقلقها ويحتل مكانها
إلا ما هو أجمل منها ، وهكذا إلى الأبد .

الصدّاقة

إن قطرة حمراء من دم الرجولة
ترجح البحر الزاخر .

والدنيا تُقبل وتدبر مزعزعة
ويبقى العاشق ثابت الجذور .
لقد توهمت فراره

وبعد عدة سنين

أشرق منه عطف لا ينفد

كإشراق الشمس كل صباح .

فتحرر مرة أخرى قلبي المهموم —

وقال الفؤاد : أيها الصديق ،

خلالك وحدك تتقوس السماء ،

وخلالك تحمر الورود ،

كل الأشياء خلالك تتخذ صورة أنبل

وتبدو كأنها من وراء هذه الدنيا ؛

والقضاء المحتوم الذي يلحق بنا كالطاحونة الدائرة

بفضلك يصبح طريقاً مشمساً .

وعلمني نبلك كذلك

أن أسيطر على يأسى .

إن ينايع حياتي الخفية

تصفو خلال صداقتك .

في قلوبنا شفقة تفوق كثيراً ما يتردد على ألسن الناس .
وبالرغم من كل الأنانية التي تقشعر الدنيا من برودتها كأنها الرياح
الشرقية ، فإن أسرة الإنسان كلها تدثر بعنصر الحب كأنه الأثير
الرقيق . كم من الناس تقابل في البيوت ، لا نكاد نتحدث إليهم ،
ولكننا مع ذلك نقدرهم ويقدرونا ! كم من الناس تقابل في
الطرق ، أو نجالس في الكنائس ، بمن تسرنا رفقهم سروراً
حاراً ، وإن يكن في صمت ! اقرأ لغة الإشعاع الحار الذي يصدر
عن هذه العيون . إن القلب ليعرف .

إن أثر الانغماس في هذه العاطفة البشرية ابتهاج قلبي أكيد .
في الشعر وفي الحديث العادي تشبه المودة والخير الذي يحسه المرء
نحو الآخرين بما للنار من أثر مادي . وهذا الإشراق الباطني الرقيق
يسرى في سرعة النار ، بل أسرع منها ، وأفعل ، وأبهج . وهو
الذي يجعل الحياة حلوة ، من أعلى درجاته وهو الحب العنيف ، إلى
أحط درجاته وهو النية الطيبة .

إن قوانا العقلية وقدرتنا على العمل تزيد بازدياد ما في قلوبنا
من محبة . فترى العالم يجلس لكتب ، ولكن سنواته كلها التي ينفقها
في التأمل لا تدمه بفكرة واحدة طيبة أو تعبير حسن ، فإن اقتضته
الضرورة أن يحرر خطاباً إلى صديق ، توارد عليه في الحال حشد
من الأفكار الرقيقة في ألفاظ مختارة من كل صوب . في كل بيت
تسكنه الفضيلة واحترام النفس تلمس النبض الذي يثيره قدوم الغريب .

وإذا كان قدوم الغريب المحبب إلى النفس متوقعا ثم يُعلن عنه غزت قلوب كل من في البيت حالة من القلق هي بين المتعة والألم . إن قدومه يكاد يبعث الخوف في القلوب الطيبة التي تود أن ترحب به . يُنفذ عن البيت التراب ، ويتحرك كل شيء من مكانه ، وتستبدل بالسترة القديمة سترة جديدة ، ويعد أصحاب البيت غداء إن أمكنهم ذلك . الغريب المحبب إلى النفس لا يحدثك عنه غيره إلا بأطيب الأنباء ، ولا تسمع عنه إلا كل خير وكل جديد . إنه يمثل لنا الإنسانية ، وهو ما ترغب فيه نفوسنا . وبعد ما نتخيله ونستعدله نتساءل على أية صورة ينبغي أن تكون علاقتنا في الحديث والتصرف مع مثل هذا الرجل ، وتقلق خواطرنا المخاوف . وهذه الفكرة عنها ترفع من شأن حديثنا معه . فتكلم أحسن مما ألفنا . يرق خيالنا إلى أقصى الحدود . وتعز الزاكرة ، ويغادرنا الشيطان الأبكم لفترة ما . ولعدة ساعات نستطيع أن نواصل سلسلة من الصلات المخلصة اللطيفة الفنية التي نستمدّها من أقدم التجارب وأخفائها ، حتى إن من يجلس إلى جوارنا من ذوى قربانا ومعارفنا لتعروه دهشة قوية مما نبدي من قدرة غير مألوفة . ولكن عندما يشرع الغريب في إقحام أهوائه وتعاريفه وعيوبه في الحديث ينتهي كل شيء . فقد سمع أول وآخر وأحسن ما يمكن أن يسمعه منا . إنه لم يعد غريبا . إن الانحطاط والجهل وسوء التفاهم قد عرفناها من زمان بعيد . والآن عندما يُقبل علينا قد نقابله بالنظام والرداء والغداء — ولكنه لن يظفر منا بعد ذلك بنبضات القلب وصلات الروح .

أى شىء أمتع من هذا التفجر للمودة التى تعيد لى الدنيا إلى شبابها ؟ وأى شىء ألد من لقاء عادل ثابت بين اثنين فى فكرة أو إحساس ؟ وما أجمل خطا الموهوبين والصادقين عندما تقترب من هذا القلب النابض ! إن اللحظة التى نستمتع فيها بالمودة تتحول فيها الدنيا ، فلاشتاء ، ولا مساء ، وكل المآسى وكل الهموم تختفى — بل وكل الواجبات . ولا يملأ الأبدية التى تسير إلى الأمام سوى أشباح الأشخاص المحبين إلى قلوبنا التى يشع منها كلها النور . ولتلق كل نفس أنها سوف تلاقى صديقتها فى مكان ما فى هذه الدنيا ، وسوف ترضى وتبتهج وحدها ألف عام .

استيقظت هذا الصباح أشكر الله فى خشوع على أصدقائى ، قديعهم وجديدهم . كيف لا أسمى الله الجميل ، وهو يتبدى لى كل يوم فى هباته ؟ إننى ألوم المجتمع ، وأرحب بالعزلة ، ومع ذلك فإنى لم أبلغ من الجحود أن أغمض عيني عن العقلاء ، والظرفاء ، ونبلاء الفكر ، الذين يملكون بدارى بين الحين والحين . من يسمعى ، ومن يفهمنى يمسى لى ، أملكه فى كل حين . وليست الطبيعة فقيرة ولكنها تمدنى بهذا السرور مراراً ، ولذا فإننا ننسج الحياوط الاجتماعية لأنفسنا ، نسيجاً جديداً من العلاقات . وبما أن الأفكار العديدة تتخذ على التتابع شكلاً مادياً فإننا نقف بعد حين فى عالم جديد من خلقنا ، ولا نكون بعد ذلك غرباء راحلين فى عالم من التقاليد . لقد أتانى أصحابى ولم أبحث عنهم . وهبنى إياهم الإله العظيم .

وبما لدى من أقدم الحقوق ، وبالتقارب المقدس بين ما عند الصديق من فضيلة وما عندى ، أجد أصحابى . ثم أهمل — بل وألغى — أو على الأصح يهمل الجانب المقدس فى نفسى وفى نفوسهم الجدران السميكة من استقلال الشخصية ، والقراة ، والسن ، والجنس ، والظروف ، التى يغض الطرف عنها عادة ، ويجعل من المتعدد واحداً . أيها الأحباب الأعزاء ، إننى مدين لكم بالشكر العظيم ، لأنكم تحملون لى الدنيا إلى أعماق نبيلة جديدة ، وتوسعون معانى أفكارى كلها . وذلك شعر الشاعر الأول يُبعث من جديد — شعر فياض — من نشيد وأغان وملاحم ، شعر متدفق دائماً ، لا يكف فيه أبولو وآلهة الشعر عن الغناء . وهل هذه الأشياء كذلك ستفصل نفسها عنى مرة أخرى ، كلها أو بعضها ؟ لست أدرى ، ولكنى لا أخشى ذلك ، لأن علاقتى بها طاهرة ، تمسكنى بها رابطة ساذجة . ولما كان سر حياتى اجتماعياً هكذا ، فإن نفس هذه الرابطة سوف تفرض قوتها على من يبلغ من النبل ما بلغ هؤلاء الرجال والنساء ، حيناً أكون .

أعترف فى هذا الصدد برقة الطبيعة الزائدة . ويكاد يحرق بى الخطر « إذا أنا عصرت من المودة السم الحلو الذى يمازج خمرها حينما يساء استعماله » . الشخص الجديد عندى حادث عظيم ، يحرقنى من النوم . كثيراً ما ارتسمت فى ذهنى عن بعض الأفراد خيالات جميلة أسعدتنى ساعات ، غير أن السرور ينتهى بانتهاء النهار دون

ثمرة . وهو لا يولد فكراً ، وأعمالى لم تُعدّل إلا قليلا . لابد أن أن أشعر بالفخر بمزايا صديقى كأنها مزايى — ولابد أن أشعر بامتلاك فضائله . وأشعر عند الإطراء عليه بالحرارة التى يشعر بها العاشق حينما يسمع الثناء على مخطوبته العذراء . إننا نبأخ فى تقدير ضمير الصديق . فيبدو ما لديه من خير أكثر مما لدينا ، وطبيعته أرق ، ومغرياته أقل . كل ماله — اسمه وشكله ولباسه وكتبه وأدواته — تشغل الخيال . وأفكارنا تصدر عن شفّيته جديدة أعظم مما تصدر هى عنها منا .

ومع ذلك فإن انقباض القلب وانبساطه لهما ما يشبههما فى مد الحب وجزره . الصداقة تكلود الروح ، أكثر خيراً من أن تُصدق . إن العاشق حينما ينظر إلى فتاته يكاد لا يعرف أنها ليست بعينها معبودته . وفى ساعة الصداقة الذهبية تفاجئنا ظلال من الشك وعدم التصديق . نشك فى أننا نهب بطلنا الفضائل التى يتألق بها ، وبعد ذلك نعبد الصورة التى نسبنا إليها هذه الصفات المقدسة . والروح — على وجه الدقة — لا تحترم الأشخاص كما تحترم نفسها . وفى العلم الدقيق يتصف جميع الناس بصفة واحدة : هى التباعد الذى ليس له مدى . فهل نخشى أن يفتر حبنا بتنقيبنا عن الأساس للميتافيزيقى لهذا المعبود الفردوسى ؟ وهلا أكون حقيقياً كالأشياء التى أراها ؟ إذا كنت كذلك ، فلن أخشى أن أعرفها كما هى . فإن جوهر الأشياء ليس أقل جمالا من مظهرها ، وإن كان بحاجة فى

إدراكه إلى أعضاء أدق . إن جذور النبات لا تنحفي على العلم ، وإن
كنا نقطع الساق من أجل الأزهار والأغصان . ولابد أن أخطر
باستخراج الحقيقة الجرداء من بين هذه الأحلام السارة ، حتى إن
أثبتت أنها جمجمة مصرية في وليمتنا . إن الرجل الذي يثبت على
الاتحاد مع فكرته يحسن التفكير في نفسه . إنه يحقق نجاحا شاملا
حتى إن اشترى هذا النجاح بألوان معينة من الفشل المطرد . فليست
هناك أية مزايا ، أو قوى أو ذهب أو قدرة ، تستطيع أن تلائمه .
ولست أملك إلا أن أعتمد على فقري أكثر مما أعتمد على ثروتك
ولا أستطيع أن أجعل وعيك معادلا لوعي . النجم وحده يخطف
البصر ، أما الكوكب فأشعته فاترة تشبه ضوء القمر . إنني أسمع
ما تقول عن النواحي التي تدعو إلى الإعجاب وعن المزاج الذي
مارسته في رفيقك الذي تثني عليه ، ولكني أعرف جيدا أني لن
أجبه برغم كل أرديته القرمزية ، اللهم إلا إذا كان في نهاية الأمر
إغريقيا مسكينا مثلي . لا أنكر يا صديقي ان الظل العريض للظواهر
يمتد إليك كذلك فيصغك بظلامه الدامس ولونه الداكن — أنت
كذلك ، الذي يبدو كل شيء ظلا إذا قورن بك . أنك لست
الوجود — كالصدق أو العدل — ولست روعي ، ولكنك صورة
ورسما منها . أتيتني مؤخرا ، ولكنك تقبض برغم ذلك على قبعتك
وعباءتك . ألا تنبت الروح أصدقاء كما تنبت الشجرة الأوراق ،
وبعد توليد البراعم الجديدة تنفض الأوراق القديمة ؟ إن قانون

الطبيعة هو التبادل دائماً . كل حالة كهربية تسبب تقيضها . إن الروح تحيط نفسها بالأصدقاء ، كي تدخل في حالة أعظم من معرفة الذات أو العزلة ، وتسير وحدها زمناً كي تعلى من قدر حديثها أو من صحبتها . وهذه الطريقة تتضح خلال تاريخ علاقاتنا الشخصية كلها . إن غريزة الحب تحيى الأمل في الاتحاد مع رفاقنا ، وعندما يعود إلينا الإحساس بالدلة يستدعيننا من هذا السباق . وهكذا ترى أن كل إنسان يقضى حياته في البحث عن الصداقة ، وإذا هو سجل عاطفته الصادقة ، فقد يكتب خطاباً كهذا لكل طالب جديد لحيه :

صديقي العزيز

لو كنت واثقاً منك ، واثقاً من قدرتك ، واثقاً من التوافق بين مزاجك ومزاجي ، لما فكرت مرة أخرى في أمور تافهة تتعلق بإقبالك وإدبارك . لست عاقلاً جداً ، وحالاتي العقلية يمكن بلوغها تماماً ، وأنا أحترم نبوغك ، وإن لم أسبر غوره بعد ، ومع ذلك فإنني لا أجرو أن أزعج أنك فهمتني فهماً تاماً ، ولذا فأنت لى عذاب مستطاب . وإنى لك دائماً ، أو لست لك مطلقاً .

ومع ذلك فإن هذه الملذات القلقة والآلام الخفيفة يدفعنا إليها التطلع ولا تدوم مدى الحياة . ولا ينبغي أن نستمرسل فيها . فهي كنسيج العنكبوت وليست كالقماش . إن صداقاتنا تسارع إلى خواتيم باترة فاترة ، لأننا جعلناها نسيجاً من الخمر والأحلام ، بدلا من

الحيوط الصلبة في القلب البشرى . قوانين الصداقة صارمة خالدة ،
من نسيج واحد هى وقوانين الطبيعة وقوانين الأخلاق . ولكنا
هدفنا إلى منفعة عاجلة تافهة لى نمتص حلاوة مباغتة . إننا نجنى
أبطاً الثمار فى فردوس الله كله ، الثمرة التى لا بد لها من عدة فصول
من الصيف والشتاء لى تنضج . إننا لا نبحث عن الصديق بحثاً
منزهاً ، ولكنه ممزوج بعاطفة مختلطة ترمى إلى امتلاكنا له وعيشاً
ما نحاول . فإننا مسلحون إلى الأذقان بعداوت خفية تبدأ فعلها
بمجرد ما نلتقى ، وترجم الشعر كله إلى نثر مبتذل . ويكاد الناس
جميعاً أن ينزلوا للقاء . وكل لقاء ينبغى أن يكون فيه تنازل من
الطرفين ، بل وما هو أسوأ من ذلك ، فإن لكل منهما طبيعة جميلة
تختفى زهرتها نفسها وعبير زهرتها عندما يقترب كل منهما من
الآخر . ما أشد خيبة الأمل الدائمة فى الاجتماع الحقيقى ، حتى بين
الفضلاء وذوى المواهب ! بعدما تتم المقابلات بعد توقعها زمناً طويلاً
لا بد أن تنعرض للعذاب فوراً بضربات مخيبة وبيلادة الحس المفاجئة
التي تأتى فى غير إبانها ، وبنوبات تصيب العقل وروح المرح ، فى
ريعان الصداقة والفكر . إن مواهبنا العقلية لا تخلص لنا ، وكلا
الطرفين يخفف عن نفسه بالعزلة .

لا بد أن أكون كفوّاً لكل علاقة . لا يهمنى كم صديق عندى ،
وأى رضى أستطيع أن أجد فى حديثى مع كل منهم ، إذا كان هناك
واحد لست له كفوّاً . وإذا تضاءلت لأنى غير كفء فى إحدى

المباريات ، فإن السرور الذى أجده فى كل ما عداها يصح وضيعاً متخاذلاً . وإنى لأمقت نفسى إذا جعلت من أصدقائى الآخرين مأوى لنفسى الضعيفة .

إن المحارب الباسل وقد ذاع صيته فى القتال
إذا انتصر مائة مرة ، ثم هزم مرة
يمحى بقاتاً من كتاب الشرف
وكل ما جاهد من أجله يُنسى .

ولذا فإننا نلأم أشد اللوم على ما يصينا من قلق . وليس
الحجل وقعدان الحس سوى قشرة سمكة يحتمى وراءها من النضج
المبتسر هيكلاً رقيقاً . وإن هذا الهيكل لَيُفقد لو عرف نفسه قبل
أن تنضج روح من خير الأرواح نضجاً يكفى لمعرفته وامتلاكه .
إننى أحترم العوامل الطبيعية الثابتة التى تجتهد الياقوت فى مليون
عام ، والتى تفعل فعلها فى مدى من الزمان تظهر فيه جبال الألب
والأنديز وتختفى كأنها أقواس قزح . إن الروح الطيبة فى حياتنا
ليست لها سماء تساوى اندفاعها . والحب ، وهو جوهر الإله ، ليس
للطيش ، ولكنه لقيمة الإنسان كلها . دعنا لانا به فى اعتبارنا بهذا
الترف الصياني ، بل بأثبت القيم . دعنا نقرب من صديقنا بثقة
جريئة فى صدق قلبه ، وفى اتساع أسسه ، التى لا يمكن أن تتقلب .
إن ما يجذبنا فى هذا الموضوع لا يمكن مقاومته ، وإنى أتخلى
موقتاً عن كل ما يتعلق بالمنفعة الاجتماعية الثانوية لى أتحدث عن

تلك العلاقة المختارة المقدسة ، وهى نوع من المطلق ، بل إنها لتجعل لغة الحب مربية مبتذلة . فنلك أظهر ، وليس هناك ما يبلغ هذه المكانة من التقديس .

ولست أحب أن أعالج الصداقات معالجة رقيقة ، وإنما أحب أن أعالجها بشجاعة وخشونة . فالصداقة الحقيقية ليست كألواح الزجاج المصنفر ، أو كالصقيع . ولكنها أصلب شىء عرفناه . والآن بعد أجيال عديدة من التجارب ، ماذا نعرف عن الطبيعة ، أو عن أنفسنا ؟ . إن الإنسان لم يخط خطوة واحدة نحو حل مشكلة مصيره . إن الناس فى العالم أجمع يوصمون بالغفلة ، ولكن السرور وطمانينة النفس الحالصة العذبة ، التى أستمدها من الإئتلاف مع روح أخى ، هى النواة بعينها ، التى ليست الطبيعة كلها والفكر كله سوى القشرة والغلاف لها . ما أسعد البيت الذى يأوى صديقاً ! إنه يستحق أن يقام كما تقام المقاعد فى الولائم ، أو كما يقام القوس — لاستضافته يوماً واحداً . وأسعد من ذلك أن يعرف جلال تلك العلاقة ، وأن يكرّم قانونها ! من يقدم نفسه طالباً هذا الميثاق ، يتقدم — كاللاعب فى الأولمپ — إلى المباريات العظمى ، التى يكون أعز أبناء العالم فيها هم المتنافسون . إنه يقدم نفسه لمباريات تتطلب الوقت والحاجة والخطر . والظافر فيها هو وحده ذلك الذى تكفى صحة تكوينه للمحافظة على دقة جماله مما يسببه كل أولئك من بلى . إن هبات الحظ قد تظهر وقد تختفى ، ولكن السرعة كلها فى هذه

المباراة تتوقف على النبل الذاتى وعلى ازدياد توافه الأمور . هناك عاملان يؤثران فى تكوين الصداقة . كل منهما له سيادة عليا ، حقى إني لا أرى تفوقا فى أحدهما ، ولا سبباً فى تقديم ذكر أحدهما على الآخر . أحدهما الصدق . فالصديق شخص أستطيع أن أخلص له ، وأستطيع أن أفكر أمامه بصوت مرتفع . إني مع هذا الصديق أصل أخيراً إلى أعماق رجل حقيقى يضارعنى ، أستطيع معه أن أنزع حتى تلك الثياب الداخلية ، ثياب الرياء والرأفة ، والتفكير الباطنى الذى لا ينزع الناس أبداً ، وأستطيع أن أعامله بالبساطة والتكامل الذى تلتقى به ذرة كيميائية بذرة أخرى . الإخلاص ميزة لا يظفر بها إلا ذوو المراتب العليا — كأنه ذروة السلطان ، فأصحاب السلطان وحدهم هم الذين يستطيعون قول الصدق ، لأنهم لا يخضعون لأحد يداهنونه أو يصوغون أنفسهم على غرارهم . كل رجل مخلص وهو منفرد . فإذا ما اتصل بشخص آخر بدأ النفاق . إننا ندرأ وتتقى اقتراب زميل لنا بالثناء وبالغيبة وضروب التسلية وغير ذلك من الحاجات . إننا نخفى عنه تفكيرنا تحت مائة غطاء . عرفت رجلا انتابته نوبة جنون دينى ، فخلع هذه الثياب ، واستغنى عن الثناء وما ألفت الناس ، فتحدث إلى ضمير كل شخص التقى به ، وكان حديثه على بصيرة كبرى وجمال عظيم . فقاومه الناس أول الأمر ، وانفقوا على أنه معتوه . ولكنه أصر على مسلكه لفترة ما ، ولم يكن بوسعه حقاً غير ذلك ، فحقق ميزة كبرى ، وهى أنه أرغم كل

رجل من معارفه على علاقة صادقة به . فلم يفكر أحد في أن يحدثه بالباطل ، أو أن يصرفه بمحدث عن الأسواق أو قاعات المطالعة . وإنما اضطر كل إنسان بهذا الإخلاص إلى مثل هذه المعاملة الصريحة ، وإلى إظهار كل ما لديه من حب للطبيعة ، أو الشعر ، أو علامة من علامات الصدق ، في وضوح وجلاء . ولكن المجتمع لا يسفر لأكثرنا عن وجهه وعينه ، وإنما يبدى جانبه وظهره . أليس من خبل العقل أن تصدق في علاقتك بالناس في عصر باطل ؟ إننا قلما نستقيم في السير ، ويكاد كل رجل نلتقى به أن يكون بحاجة إلى شيء من اللطافة ، وإلى شيء من المداراة . إن لديه بعض الشهرة وبعض الموهبة ، وشيئاً من النزعة الدينية أو حب الإنسانية في رأسه . لا جدال فيه ، وإن ذلك ليتلف كل حديث معه . إنما الصديق رجل عاقل لا يتوجه إلى كفايق العقلية ، وإنما يتوجه إلى صديق يقدم على التسلية دون أن يتطلب شرطاً من جانبي . فالصديق إذن ضرب من ضروب التناقض في الطبيعة . فأنا الذي لا يكون لي وجود إلا وأنا وحيد ، والذي لا أرى شيئاً في الطبيعة أستطيع أن أؤكد وجوده مثلما أؤكد وجودي بأدلة مماثلة ، أنا ذلك الشخص ، أرى الآن ما يشبه وجودي ، بكل ما سما إليه ، وكل ما فيه من تنوع وتطلع ، مكرراً في صورة أخرى ، ولذا فإننا نستطيع أن نعد الصديق أجمل ما أبدعته الطبيعة .

والعامل الآخر من عاملي الصداقة هو رقة العاطفة . إننا نرتبط

بغيرنا من الناس بكل لون من ألوان الارتباط ، بالدم ، والتكبر ،
والخوف ، والأمل ، وبالريح ، والشهرة ، والكراهية والإعجاب ،
وبكل ظرف وكل إشارة وكل أمر تافه ، ولكننا لا نكاد نصدق
أن شخصاً آخر قد يكون لديه من الصفات ما يجذبنا بالحب . هل
يمكن أن يكون لشخص آخر من البركة ، ولنا من الطهارة ما يجعلنا
نمنحه العطف ؟ إذا أصبح الرجل عزيزاً على فقد بلغت هدف الحظ
السعيد . قل ما أجده مكتوباً عن هذا الموضوع في الكتب بطريقة
تمس القلب مباشرة . وبرغم ذلك فإن لدى نصاً لا أملك إلا أن
أذكره . يقول مؤلفه « إننى أعرض نفسى عرضاً خفيفاً صريحاً على
أولئك الذين يملكوننى حقاً ، وأقل ما أكون عرضاً لنفسى لأولئك
الذين كرسست لهم نفسى أكثر من سواهم » . وددت لو كان للصدقة
قدمان وعينان ولسان فصيح . إذن لثبتت جذورها في الأرض
قبل أن تحلق فوق القمر . أحب أن يكون لها شيء من صفات
المواطن قبل أن تكون ملاكاً كاملاً . إننا نزجر المواطن لأنه يجعل
من الحب سلعة ، فالصدقة عنده تبادل الهدايا والسلف النافعة ،
وهى الجوار الطيب ، وهى تسهر على المريض ، وترفع بساط الرحمة
في الجنازة ، وتتجاهل تماماً ما تنطوى عليه العلاقة من نبل ورقة ،
ومع أننا لانستطيع أن نرى الإله المتخفى فى زى هذا التاجر الذى
يبيع الطعام والشراب ، إلا أننا ، من ناحية أخرى ، لانستطيع
أن نغفو عن الشاعر إذا غزل خيوطه رقيقة جداً ، ولم يعزز قصته

بالفضائل المدنية ، فضائل العدل والمواظبة والإخلاص والشفقة . إننى أمقت أن أُلطخ اسم الصداقة حتى نجعلها تدل على تحالف دنيوى من الطراز الجديد . وإنى لأؤثر جداً صحبة الصبية الحرائن وتجار الصفيح المتجولين على المحبة الحريرية المعطرة التى تحتفل بأيام لقيائها باستعراض مسرح ، وبالركوب فى العربات الصغيرة تجرها الخيل ، وبالعشاء فى أحسن الحانات . غاية الصداقة تجارة بأدق معانيها وأشدّها ارتباطاً بحياتنا المنزلية . إنها أدق من أية تجارة لنا بها خبرة ، إنها للعون والراحة فى جميع العلاقات والتنقلات فى الحياة والموت . إنها تتفق وأيام الجد ، والهدايا الأنيقة ، وجولات الريف ، ولكنها تتفق كذلك والطرق الخشنة والرحلة الشاقة ، والسفينة المحطمة ، والفقر ، والاضطهاد . إنها تصاحب لمحات الفطنة وغيوبة الدين . على كل منا أن يكرّم للآخر الحاجات والأعمال اليومية فى حياة الإنسان ، وأن يحمل هذه الحياة بالشجاعة والحكمة والاتحاد . ولا ينبغى أن تهوى هذه الحياة إلى المألوف والمستقر ، بل يجب أن تكون متنبهة مبتكرة ، وأن تجعل للسكد والعناء نغماً وحكمة .

يمكن أن يقال إن الصداقة تتطلب طبائع نادرة ثمينة ، لكل منها مزاج سليم وكيف صحيح ، وخصائص خاصة تجعل من العسير إشباعها (وفى هذه الصفة يقول الشاعر إن الحب يتطلب من الطرفين أن يزدوجا تماماً) . ولا يمكن للصداقة أن توجد فى كمالها عند أكثر من اثنين كما يقول بعض أولئك الذين يعرفون ما للقلب

من صفات حارة . ولست دقيقاً جداً في عباراتى ، وربما كان ذلك لأننى لم أعرف قط كغيرى زمالة سامية كهذه . إن خيالى ليكون أشد سروراً بجماعة من الرجال والنساء يشبهون الآلهة ، وعلى صلات مختلفة بعضهم ببعض . ولكنهم جميعاً على درجة عالية من الذكاء . غير أنى أجد قانون « الفرد للفرد » لازماً فى الحديث ، وهو وسيلة الصداقة وغايتها . لا تبالغ فى خلط المياه . فإن خيرها يختلط اختلاطاً سيئاً كاختلاط الطيب بالحديث . تستطيع أن تجد حديثاً نافعاً ساراً جداً فى أوقات متفرقة مع رجلين مختلفين . ولكن إن اجتمع ثلاثكم جميعاً فلن تظفر بكلمة واحدة جديدة قلبية . يستطيع الاثنان أن يتكلما والواحد أن يسمع ، ولكن الثلاثة لا يمكنهم أن يسهموا فى حديث من أخلص الأحاديث وأعماها غورا . فى الصحبة الطيبة لن تجد حديثاً بين اثنين ، عبر المائدة ، كذلك الذى يدور إذا تركتهما وحدهما . فى الصحبة الطيبة يُغرق كل فرد ذاتيته فى روح اجتماعية تشمل تمام الشمول وعى كل فرد من الحاضرين . فلا تجد ميل الصديق إلى الصديق ، أو غرام الأخ بأخته ، أو الزوجة بزوجها ، ملائماً ، بل تجد ما هو عكس ذلك . ولا يستطيع حينئذ أن يتكلم إلا من يسبح على الفكرة العامة فى الجماعة ، ولا يحد نفسه بحدود ضيقة من فكره . بيد أن هذا التقليد ، الذى يتطلبه الإدراك العام ، يهدم الحرية الكبرى فى الحديث العظيم ، التى تتطلب الإمتزاج المطلق بين روحين حتى يصبحا روحاً واحدة .

لن تجد رجلين ، يُتركان وحدهما ، لا يدخلان في صلات مبسطة .
ومع ذلك فإن التقارب التام هو الذى يحدد أى اثنين يتبادلان
الحديث . الرجال الذين لا علاقة بينهم لا يتمتع أحدهم الآخر إلا قليلا ،
ولن يلمس أحدهم القوى الكامنة عند الآخر . إننا نتحدث أحيانا
عن الموهبة العظمى في الحديث ، كأنها صفة دأمة لبعض الأفراد .
ولكن الحديث علاقة زائلة — لا يزيد عن ذلك . وقد يشتهر
الرجل بالفكر والفصاحة ، ولكنه لا يستطيع برغم ذلك أن يقول
كلمة لابن عمه أو عمه . ويتهم الناس صمته ، وهم في ذلك ليسوا
أشد صوابا منهم حينما يلومون المزولة لأنها لا تنبئ بشئ في الظل .
إنها تعين الساعة في الشمس ، وانه ليسترد لسانه بين أولئك الذين
يستمتعون بفكره .

تطلب الصداقة ذلك التوسط النادر بين التشابه والاختلاف ،
الذى ينبه الصديقين إلى ما يبعثه الآخر من طمأنينة ونفوذ . خير لى
أن أبقى وحيدا إلى نهاية الدنيا من أن يتخطى صديق عطفه الحقيقى
بكلمة أو نظرة . الخصومة والإذعان كلاهما يقف في سبيلى . لا أحب
للصديق أن يكف لحظة واحدة عن أن يكون نفسه . إن السرور
الوحيد الذى أستمده من أنه لى ، هو أن ما ليس لى قد أمسى لى .
إننى أكره أن أجد ضعف الامتثال حينما بحثت عن جرأة الرجولة ،
أو على الأقل عن مقاومة الرجولة . خير لك أن تكون شوكة في
جنب صديقك من أن تكون صدى له . إن الشرط الذى تتطلبه

الصداقة المتينة هو القدرة على الاستغناء عنها . وإن تلك المكانة العليا
لتحتاج إلى صفات عظيمة سامية . يجب أن يكون هناك اثنان
أكيدان ، قبل أن يكون هناك واحد أكيد . لتكن الصداقة تحالفاً
بين طبيعتين كبيرتين صريعتين ، تتبادلان النظر ، كما تتبادلان
الخوف ، قبل أن تكشفوا عن التطابق التام الذى يوجد بينهما تحت
هذه المفارقات .

لا يصلح لهذا المجتمع إلا عزيز النفس ، الذى يؤمن بأن العظمة
والخير هما دائماً فى الاقتصاد ، والذى لا يسارع إلى التدخل فيما يصيبه
من حظ . دعه لا يتدخل فى ذلك ، وأترك للدرة بما تحتاج إليه من
دهور لكي تنمو . ولا تتوقع أن يسارع القدر ما سوف يتمخض
عنه . إن الصداقة تتطلب معالجة دينية . إننا نتحدث عن اختيار
الأصدقاء ، ولكن الأصدقاء يختارون أنفسهم . والتقدير جانب
هام فى هذا الاختيار . عامل صديقك كما تعامل مشهداً . للصديق
بالطبع مزايا ليست لك ، ولا تستطيع أن تقدرها قدرأ كبيراً ،
وإذا كنت تريد أن تبقى قريباً من شخصك ، فقف جانباً وأفصح
فى المجال لهذه المزايا ، ودعها تعلق وتمتد . فهل أنت صديق لثياب
صديقك أم لأفكاره ؟ يبقى الصديق لصاحب القلب الكبير غريباً
فى ألف نقطة ، كى يقترب من أقدم نواحيه . إنما الفتيات والفتيان
هم الذين يعتبرون الصديق ملكاً ، ويستمدون من الصداقة متعة
قصيرة المدى ، تدعو إلى الدهول بدلاً من أن يستمدوا منها
أنبل منافعها .

ولنشر دخولنا في هذا الاتحاد بعد فترة اختبار طويلة . لماذا ندس الأرواح النبيلة الجميلة بتطفلنا عليها ؟ لماذا تصر على علاقات شخصية اندفاعية مع صديقك ؟ لماذا تذهب إلى بيته ، أو تعرف أمه وأخاه وأخواته ؟ ولماذا يزورك في بيتك ؟ هل لهذه الأشياء أهمية فيما بيننا من ميثاق ؟ ارجع عن هذا الاتصال المباشر وعن هذا العض بالنواجذ . ودعه يكون لى روحا . إننى بحاجة إلى رسالة منه أو فكرة أو إخلاص أو نظرة ، ولست بحاجة إلى أنبائه أو طعامه . أستطيع أن أحصل على الآراء السياسية وعلى ثروة الحديث وأسباب الراحة القريبة من رفاق أرخص من ذلك . فهلا تكون لى صفة صديقى شعرية ، صافية ، عامة ، عظيمة كالطبيعة نفسها ؟ هل لابد لى من الإحساس بأن الرابطة بيننا دنسة إذا قيست إلى ذلك الحاجز من السحاب الذى يبدو فى الأفق ، أو تلك الكتلة من الحشائش المتموجة التى تعترض النهر ؟ دعنا لانعيب الصداقة ، بل نرفعها إلى هذا المستوى . إن تلك النظرة العظيمة النافذة ، وذلك الجمال الذى يحتقر غيره بسماه ورشاقته ، يجب ألا يحفزك إلى الخط منه ، بل إلى إعزازه والإستفادة منه . قدس مزايا الصديق ، ولا تمنى لها النقصان ، بل اجمع شملها وتحدث عنها ، دعه يكون لك دائما نوعا من الخصم الجميل ، لا يدعن ، احترامه مقدس ، ولا تهمل مزية من مزاياه ولا تنبذها مهما قل شأنها . إن ألوان عين القط ، وأضواء الدرر ، لا ترى إذا اقتربت منها العين جداً . إننى أكتب

خطابا إلى صديقي ، وأتلقى منه خطابا ، وقد يبدو لك ذلك شيئا هينا ، ولكنه يكفيني . إنها هبة روحية جديرة به أن يعطيها ، وجديرة بي أن ألتقاها . فهي لا تدنس أحدا . في هذه الأسطر الحارة يشق القلب في نفسه بما لا يشق في اللسان ، ويتدفق بالنبوءات التي تفوق في صبغتها الإلهية كل ما مجده تاريخ البطولة .

احترم قوانين هذه الزمالة المقدسة بحيث لا تلحق بزهرتها الكاملة أذى بتعجلك ازدهارها . إذ يجب أن نكون لأنفسنا قبل أن نكون لغيرنا . إن الجريمة فيها على الأقل شيء من الطمأنينة كما جاء في المثل اللاتيني : « إنك تستطيع أن تتحدث إلى شريكك في الذنب وأنتما على قدم المساواة » . ولكننا لانستطيع أن نتحدث في أول الأمر إلى أولئك الذين نعجب بهم ونحبهم . ومع ذلك فإن أقل نقص في السيطرة على النفس يفسد في رأي العلاقة كلها . ولا يمكن أن تنشأ الطمأنينة الشديدة بين روحين ، أو الاحترام المتبادل ، حتى يمثل كل منهما في حديثه الدنيا بأسرها .

دعنا نحمل بأقصى ما نستطيع من عظمة الروح كل أمر جليل كالصدقة . لنقف صامتين حتى نستطيع أن نصغي إلى همس الآلهة . دعنا لا نتدخل فيما لا يعنيننا . من ذا الذي كلفك أن تتوجه بالقول إلى الأرواح المختارة ، أو علمك كيف تقول كلمة واحدة لهذه الأرواح ؟ مهما يكن نبوغك ، ومهما تكن رشاقتك ورقتك . للحماقة والحكمة درجات لا تعد ، وإن تفوهت بلفظة كنت طائشا .

تريث يتحدث قلبك . انتظر حتى يغلبك على أمرك الضرورى
الأبدى ، حتى يفيد الليل والنهار من شفقتك . الجزء الأوحد للفضيلة
هو الفضيلة ، والسبيل الوحيد لأن يكون لك صديق هو أن
تكون صديقاً . أنك لا تقترب من الشخص إذا ولجت داره . إن
كان لا يشبهك ، فإن روحه بذلك تسرع فى الفرار منك ، ولن
تظفر بنظرة صادقة من عينه . إننا نشهد النبلاء عن بعد ، فيصدوننا ،
فلماذا نتطفل ؟ إننا لا ندرك إلا فى وقت متأخر جداً ان التدبير
السابق ، وتقديم الأصدقاء لنا ، والتقاليد والعادات الاجتماعية ،
لا تجدى فى تأسيس علاقة بيننا وبين من نريد . لا يجدى سوى
نهوض الطبيعة فينا إلى الدرجة التى هم فيها . حينئذ نلتقى كما يلتقى الماء
بالماء ، وإذا لم نلتق عندئذ ، فإننا لن نحتاج إليهم ، لأننا بالفعل هم
أنفسهم . إن التحليل الدقيق يدل على أن الحب ليس إلا انعكاس قيمة
المرء من غيره من الناس . وقد يتبادل الرجال الأسماء مع أصدقائهم ،
كأنهم يريدون أن يبرهنوا على أن كل فرد منهم يحب ذاته فى صديقه .
كلما ارتفع الأسلوب الذى تتطلبه من الصداقة شق بالطبع إقامتها
باللحم والدم . إننا نسير وحدنا فى الدنيا ، لأن الأصدقاء الذين نريدهم
أحلام وخرافات . ولكن أملا سامياً يهتف دائماً فى القلب المخلص
بأن هناك فى مكان آخر ، فى مناطق أخرى من مناطق النفوذ فى
العالم أرواحا تعمل وتقاسى وتتجاسر ، أرواحا تستطيع أن تحبنا ،
ونستطيع أن نحبها . نستطيع أن نهى أنفسنا لأن سن القصور ،

وعهد الحماقة والأخطاء الجسيمة والحجل ينقضى في العزلة ، ولما
تكمل رجولتنا نمسك بأيدينا بأسلة في أخرى مثلها . ولتتعظ بما تشهد
فقط . ولا تعقد أواصر الصداقة مع أشخاص رخيصين ، لا يمكن
أن تنشأ معهم صداقة . فإن قلق نفوسنا يزج بنا في محالفات اندفاعية
حمقاء لاترعاها الآلهة . وإذا أنت لزمت طريقك فإن ما تظفر به
يكون جليلا مهما قل ، حتى إن خسرت في سبيل ذلك . انك تظهر
نفسك على حقيقتها كي تبعد بها عن العلاقات الباطلة ، وتجذب إليها
أبكار الدنيا — أولئك الرُّحل القلائل الذين لا يجوب الطبيعة منهم
سوى واحد أو اثنين في وقت واحد ، والذين يبدو كبار العوام
أمامهم مجرد أشباح وظلال .

ومن الحماقة أن تخشى أن تكون صلاتك مبالغة في روحانيتها ،
كأنك بذلك يمكن أن تفقد أى حب صادق . ومهما يكن التصحيح
الذى ندخله بالفطرة على آرائنا العامة ، فإن الطبيعة تؤيد ما فيه .
وإن بدت كأنها تحرمنا بعض المتاع ، فإنها تعوضنا بما هو أكبر منه .
ولنشعر — إن شئنا — بعزلة الإنسان ، فنحن على يقين بأن في
أنفسنا كل شيء . قد نسافر إلى أوربا ، أو نتابع الأشخاص ،
أو نقرأ الكتب ، في إيمان ساذج بأن ذلك يظهر ما خفي ويكشفنا
لأنفسنا . كل ذلك يأخذ ولا يعطى . انما الأشخاص كما نكون ،
وأوربا رداء بال باهت اللون لبعض الموتى ، والكتب أشباحهم .
دعنا نتخلى عن عبادة هذه الأوثان . بل ولنودع أعز أصدقائنا

وتتجدهم قائلين « من أنتم ؟ فكوا يديّ ، فلن أعتد عليكم بعد اليوم » . أأست ترى يا أخى ، أننا إنما نفرق على هذه الصورة لنلتقى مرة أخرى على منصة أعلى ، ويكون كل منا أكثر امتلاكا للآخر لأنه أشد امتلاكا لنفسه ؟ الصديق له وجه كوجه جينس ، ينظر إلى الماضى وإلى المستقبل وهو وليد كل ساعاتى الماضية ، ونبي كل ساعاتى المقبلة ، ومبشر بصديق أعظم .

إننى حينئذ أفعل بأصدقائى ما أفعل بكتبى . أحب أن يكونوا لى حيث أستطيع أن أجدهم ، ولكنى قلما أفيد منهم . لا بد لنا من صحة تخضع لشروطنا ، نقبلها أو نستبعدا لأتفه الأسباب . ليس بوسعى أن أكثر من الحديث مع صاحبى . إذا كان عظيما جعلنى من العظمة بحيث لا أستطيع أن أتزل إلى الحديث . وفى الأيام العظيمة تحلق الخواطر أمامى فى الأفق . وينبغى لى إذن أن أهديها نفسى . إننى أقبل أو أدبر لى أظفر بها . ولا أخشى إلا أن أفقدها فتراجع فى السماء التى تبدو فيها الآن كرقعة من الضوء اللامع . إننى عندئذ ، حق إن ظفرت بأصدقائى ، لا أستطيع أن أتحدث إليهم وأدرس رؤياهم خشية أن أفقد رؤياى . وإنه حقا لما يعطينى شيئا من المتعة الصائبة ، أن أتخلى عن هذا البحث العميق ، وعن هذه الأفلاك الروحية ، أو البحث عن النجوم ، وأهبط إلى مبادلتك العطف الحار ، ولكنى حينئذ أعرف جيدا أننى سوف أبكى دائما اختفاء آلهتى العظام . حقا سوف تتنابنى فى الأسبوع المقبل حالات عقلية واهنة ،

أستطيع فيها كل الاستطاعة أن أشغل نفسى بأشياء غريبة عني ،
ولكننى حينئذ سوف أندم على أدب عقلك الذى أضعت ، وأتمنى
أن تكون إلى جانبي مرة أخرى . وإسكنك إن عدت فلربما تملأ
عقلي بالرؤى الجديدة فقط ، لا بنفسك ولكن بمظاهرك البراقة ،
ولا أستطيع أن أتحدث إليك بأكثر مما أتحدث به إليك الآن .
ولذا فإنى سوف أكون مديناً لأصدقائى بهذا الاتصال الزائل . إنما
أريد أن آخذ عنهم لا ما يملكون ولكن ما هم عليه . إنهم بذلك
يعطوننى مالا يستطيعون إعطاءه حقاً ، ولكن ما يصدر عنهم .
يبدأن صلتى بهم لن تكون أقل نفاذاً أو أقل صفاء . فسوف تتقابل
كأننا لم نفعل ، ونفترق كأننا لم نفترق .

ظهر لى أخيراً أن الصداقة يمكنها — أكثر مما عرفت — أن
تسير شوطاً بعيداً فى جانب ، دون أن تقابلها صداقة مماثلة فى الجانب
الآخر . لماذا أقيم العراقيل أمامى بالندم على أن من يتقبل منى ليس
كفىً لما أعطيه ؟ إن الشمس لا يؤذيها قط أن بعضاً من أشعتها يسقط
عبثاً وعلى غير هدى على فضاء جاحد ، ولا يسقط منها إلا اليسير على
الكوكب الذى يعكس الضوء . دع عظمتك تعلم الزميل الجلف
البارد . فإن كان لا يوازيك فسوف يختفى لتوه ، ولكنك تكبر
بإشراقك ، ولن يخلق بعد ذلك رفيق الضفادع والديدان مع آلهة
السموات العلاء أو يشتعل معهم . يحسب الناس أن من العار أن تحب
بغير جزاء . ولكن العطاء يرون أن الحب الحقيقي لا يمكن أن

يكون بغير جزاء . الحب الصادق يتخطى الأشياء التي لا قيمة لها ،
ويحرق ويتأمل في الأشياء الخالدة ، وعندما يتحطم القناع الواهن
الحائل ، لا يحزن الحب ، ولكنه يشعر بالخلاص من التراب الكثيف ،
ويحس بزيادة القوة في استقلاله ، ومع ذلك فإننا نكاد لا نستطيع أن
نقول ذلك دون أن نخون صلة الصداقة بعض الحيانة . إنما لب الصداقة
الكامل ، والعزة وتتمام الثقة . ولا ينبغي لها أن تتوهم الضعف أو أن
تترود به . إنها تعامل الطرف الآخر كالإله ، كي تؤله الطرفين .

البطولة

« الجنة تحت ظلال السيوف »

(محمد)

إنما يشرب الخمر القاني الأوغاد ،
وَيُنْفَقُ السكر ليسمن العبيد ،
ويتحلى الماجنون بالورد وأوراق الكروم ؛
والسحب ذات الرعد أغصان يتحلى بها جوف ،
وتتدلى دائماً كأنها أكاليل من الرعب ،
وتلتف حول رأسه مشوبة بالبرق اللامع .
إن البطل لا يعيش على الحلوى ،
إنه يأكل قلبه كل يوم ؛
وغرف العظماء سجون ،
والرياح العاصفة تصلح لسفن الملوك .

تجد عند كتاب المسرحية القدامى من الإنجليز ، وبخاصة في
مسرحيات بومنت وفلتشر ، اعترافاً دائماً بصفات الرجل المهذب .
فعندما يدخل رجل مثل ردريجو أو پدرو أو فاليرو - وإن كان غريباً -
يصيح الدوق أو الحاكم قائلاً : هذا رجل مهذب ، ويقدم له آيات
الاحترام التي لا تنتهى ، وكل من عدا ذلك نفاية أو من سقط المتاع .

ويتفق وهذا التهليل للمميزات الشخصية ما تجده في مسرحياتهم من سمة البطولة في الشخصية والحديث — كما تجد في بندكا وسوفوكليس والعاشق المجنون ، والقران المزدوج — حيث يكون المتكلم جاداً مخلصاً ، ذا مميزات قوية في شخصيته ، بحيث يرتفع الحوار بطبيعته إلى الشعر عند أتفه حادث عرضي في القصة . خذ هذا المثال من بين كثير من النصوص : غزا مارتيس الروماني أثينا — كل شيء فيها سوى سوفوكليس دوق أثينا ، وزوجته دورجن وهما روحان لا يقهران . وقد ألهم جمال الزوجة مارتيس . فأراد أن ينقذ زوجها ، ولكن سوفوكليس لا يطلب نجاة حياته ، وإن كان على يقين من أن كلمة واحدة منه تنجيه ، ثم يبدأ تنفيذ الإعدام في الزوجين :

فاليريس : ودّع زوجتك

سوفوكليس : كلا ، لن أستئذن . أي زوجتي دورجن ، إن روي سوف تخلق من أجلك هناك في العلا حول تاج

اريادن . أتوسل إليكم أن تسرعوا

دورجن : انتظري يا سوفوكليس واعصب عيني بهذا . كي لا أتحول

عن طبعي اللينة ، وافقد أثوثي الرقيقة ، عندما أرى

سيدي يدمي . حسناً . إني لن أشهد أمام سوفوكليس

شيئاً واحداً تحت الشمس . وداعاً . وعلم الرومان

كيف يكون الموت .

مارتيس : هل تعرف ما هو الموت ؟

سوفوكليس : أنت لا تعرفه يا مارتيس . ولذا فأنت لا تعرف ما الحياة . الموت بداية الحياة . الموت نهاية كل عمل عتيق مبتذل شاق ، وبداية عمل أحدث وأحسن . الموت هو أن تتخلى عن الأوغاد المخادعين لتنتقل إلى صحبة الآلهة والآلهات . ولا بد لك أنت نفسك أن تتخلى عن أكاليلك ومسرارك وانتصاراتك ، وتبرهن على ما تستطيع حينئذ أن تفعله بثباتك .

قاليريس : ولكن أأستحزينا أو محنقا لأنك تترك زوجتك هكذا سوفوكليس : لماذا أحزن أو أحنق إذا كنت سوف أذهب إلى أولئك الذين أحببتهم دائماً أشد الحب ؟ . والآن سوف أجثو على ركبتي ، ولكنى سوف أوليك ظهري . وهذا آخر الواجبات التى يؤديها الجسد للآلهة .

مارتيس : اضرب ، اضرب يا قاليريس ، وإلا فإن قلب مارتيس سوف يقفز من فمه . هذا رجل ، وهذه امرأة ! قبل ربك ، وعش بكل ما ألفت من حرية . أيها الحب ! لقد أسأت إلى مرتين : بالفضيلة وبالجمال . أيها القلب الخائن ، إن يدي سوف ترمى بك سريعاً فى جدثي ، قبل أن تعتدى على هذا الإيمان المتين .

قاليريس : ماذا يؤلم أخى ؟

سوفوكليس : مارتيس ، مارتيس ، لقد وجدت الآن سبيلك
إلى هزيمتي .

دورجن : يا نجم روما ! أى اعتراف بالجميل يستطيع أن يعبر
بكلمات ملائمة فى إثر عمل كهذا ؟

مارتيس : هذا الدوق الذى يدعو إلى الإعجاب ، يا قاليريس ،
عندما ازدرى كل ما يصيبه وازدرى الموت أسر نفسه
وأسرنى . ومع أن ذراعى قد ألفت بجسمه هنا ، إلا أن
روحه قد أخضعت روح مارتيس . وحق روميولس
إنى لأحسبه كله روحا . ليس لديه لحم ، والروح
لا تكبّل . وإذن فإننا لم نقهر شيئا . إنه حر ، ويسير
مارتيس الآن أسيرا .

ولا أذكر الآن أية قصيدة أو مسرحية أو موعظة أو رواية
أو خطبة تنفست عنها صحافتنا فى السنوات القلائل الماضية ، مما يضرب
على هذا الوتر . لدينا كثير من المزامير والصفارات ، ولكننا قلما
نستمع إلى صوت الناي . ومع ذلك فإن فى لاوداميا وأغنية «ديون»
وبعض أناشيد وردزورث موسيقى نبيلة . وأحيانا يرسم «سكوت»
صورة كصورة لورد اثانديل التى صورها بلفور بيرلى . كما أن
توماس كارليل ، بما عنده من تذوق طبيعى لصفات الرجولة والبسالة
فى الشخصية لم يرض لنفسه أن يدع أية صفة من صفات البطولة فى
الرجال الذين اختارهم دون أن يذكرها فى صورته التاريخية ومسيره .

وقبل ذلك قدم لنا روبرت بيرنز أغنية أو اثنتين . وفي متنوعات هارلى تجد تصويراً لموقعة لوتزن يستحق المطالعة . وسيمون اوكل في كتابه تاريخ العرب يسرد معجزات الشجاعة الفردية بإعجاب ، مما يدل على أن المؤرخ من ناحيته كان يحسب أن مركزه في أكسفورد المسيحية يتطلب منه بعض الاحتجاج الصريح الذي ينم عن الكراهية . ولكننا إذا نبشنا أدب البطولة فسرعان ما نصل إلى فلوطارخس ، طبيها ومؤرخها . فنحن مدينون له بالبراسيداس ، وديون ، وأبا مينوداس ، وسپيو القديم ، وأظن أننا أكثر ديناً له من كل الكتاب القدماء . كل « حياة » في سيره تفنيد للقنوط والجبن الذي تلمسه عند رجالنا من أصحاب النظريات الدينية والسياسية . في كل أقصوصة يرويها تبهرك شجاعة همجية ، ورواقية لا تتقيد بمذهب ، ولكنها رواقية الدماء ، مما أعطى هذا الكتاب شهرته الواسعة .

نحن بحاجة إلى كتب من هذا الطراز المطهر الحريف أكثر مما نحن بحاجة إلى كتب في العلوم السياسية ، أو الاقتصاد الخاص . الحياة عيد للحكماء وحدهم . وإن نظرت إليها من زاوية العمل بدت لك خطرة معفرة الوجه . ونحن كذلك نلقى جزاء مخالفات قوانين الطبيعة التي ارتكبتها أسلافنا ومعاصرونا . والعلل وضروب التسوية التي تتحوطنا دليل على مخالفة القوانين الطبيعية والعقلية والخلقية . والمخالفة في أثر المخالفة تولد مثل هذا البؤس المركب . إن مرض

التنوس الذى يحنى رأس المرء إلى الوراء حتى عقبيه ، وداء الكلب الذى يجعله ينبج أمام زوجته وأطفاله ، والجنون الذى يدفعه إلى أكل الحشائش ، والحرب والطاعون والسكوليرا والمجاعة ، كلها تشير إلى نوع من الوحشية فى الطبيعة ، وكما أن الوحشية دخلت عن طريق جريمة الإنسان فلا بد أن تخرج عن طريق آلامه . ولسوء الحظ لن تجد رجلا لم يصبح فى شخصه — إلى حد ما — مساهما فى الإثم ، وبذا جعل نفسه عرضة للمساهمة فى التفكير .

ولذا فإن ثقافتنا ينبغى ألا تهمل تسليح الإنسان . وليسمع فى الوقت الملائم أنه ولد فى حالة حرب ، وإن الصالح العام وسعادته الخاصة يتطلبان منه ألا ينصرف إلى الرقص فى حشائش السلام ، بل يجب أن يحذر ، وأن يجمع نفسه ، لا يتحدى الرعد ولا يخشاه . وعلى هذه الصورة دعه يستولى فى قبضته على سمعته وحياته . وفى دمائه كاملة يجابه المشتقة والجماهير بالصدق المطلق فى حديثه ، واستقامة مسلكه .

إزاء كل هذا الشر الخارجى يقف الإنسان الكامن فى صدره موقف المحارب ، ويؤكد له قدرته وحده على مجابهة هذا الجيش الذى لا نهاية له من الأعداء . هذا الموقف الحربى من الروح هو الذى نسميه البطولة . وأبسط صورها احتقار السلامة والراحة ، ذلك الاحتقار الذى يعطى الحرب جاذبيتها . البطولة ثقة فى النفس تستخف بقيود الحكمة ، وتستكمل جهدها وقوتها لكي تصلح

الأضرار التي قد تتعرض لها . البطل له عقل متزن بحيث لا تهز الاضطرابات إرادته . ولكنه في سرور ، بل وفي طرب ، يتقدم وفق موسيقاه الخاصة به ، سواء وسط أسباب الرعب الخفيف أو المرح النشوان في هذا العالم المنحل . في البطولة شيء ليس بالفلسفة ، وشيء ليس بالمقدس . ويبدو أنها لا تعرف أن الأرواح الأخرى من نسيجها . فيها كبر ، وهي الغاية القصوى للطبيعة الفردية . ولكننا ، برغم ذلك ، يجب أن نحترمها احتراماً شديداً . في الأعمال العظيمة شيء لا يسمح لنا بمتابعتها . البطولة تحس ولا تفكر مطلقاً ، وهي لذلك دائماً على صواب . وربما كانت ثقافة أخرى ، أو عقيدة ثانية ، أو نشاط عقلي أعظم ، يؤدي إلى تعديل عمل من الأعمال ، بل يؤدي إلى قلبه ، ولكن العمل الذي يقوم به البطل هو أرق الأعمال عنده ، لا يتعرض لنقد الفلاسفة أو رجال الدين . البطولة اعتراف من الرجل الذي لم يتعلم في مدرسة بأنه يجد صفة تستحق التنويه فيمن يُهمَل في بذله ، وصحته ، وحياته . وفي الحظ ، والكراهة ، واللوم ، ويعرف أن إرادته أقوى وأكثر امتياريّاً من كل ما يعاديها فعلاً أو يمكن أن يعاديها .

البطولة تعمل على نقيض صوت البشرية ، وعلى نقيض صوت العظمة والخير ، ولو إلى حين . البطولة طاعة لدافع خفي في شخصية الفرد ولا تظهر حكمة البطولة لإنسان كما تظهر للبطل ، لأننا يجب أن نفرض أن كل امرئ — في طريقه الخاص المستقيم — يمتد

بصره إلى مسافة أبعد قليلا مما تمتد إليه أبصار الآخرين . ولذا فإن
العادلين والحكماء من الرجال يرتابون في عمله ، حتى إذا ما انقضى
بعض الوقت أدركوا أن عمله يتفق وما يعملون . كل رجل عاقل
يرى أن عمل البطل يتناقض تماما ومتعته الحسية ، لأن كل عمل من
أعمال البطولة يقيس نفسه باحتقاره لونا من ألوان الخير الخارجي .
ولكنه يظفر بنجاحه في نهاية الأمر ، وبعدئذ يمجده كذلك العقلاء .
الثقة في النفس جوهر البطولة . وهي حالة الروح وهي تقاتل ،
وغاياتها القصوى تحدى الباطل والخطأ في نهاية الأمر ، والقدرة على
تحمل كل ما يمكن أن توقعه عوامل الشر . إنها تنطق بالحق ، وهي
عادلة ، كريمة ، سخية ، معتدلة ، تزدرى الحرص في التوافه ،
وتزدرى أن تزدرى . إنها تصر على موقفها ، جسورة غير هيابة ،
لديها جلد لا ينفد . وهي تتندر بصغر الحياة العادية . إن تلك الحكمة
الباطلة التي تغرم بالصحة والثراء هي سخرية البطولة وفكاهتها .
البطولة مثل أفلوطين تكاد تنجس من جسمها . ماذا عساها إذن
قائلة لأقراص السكر ، وألعاب الخيط التي يلعبها الأطفال ، وأدوات
الزينة ، وكلمات الإطراء ، وأسباب النزاع ، وورق اللعب ،
والكسبرد ، التي تشغل بال المجتمع كله ؟ أي متع أمدتنا بها نحن
المخلوقات الأعزاء الطبيعية الرحيمة ! يظهر أنه ليس هناك وسط بين
العظمة والوضاعة . إذا لم تكن الروح سيدة العالم ، فلا بد أن تكون
سخريته . ومع ذلك فإن الرجل الصغير يأخذ اللعبة الكبرى مأخذاً

ساذجا ، يعمل فيها بحماسة وعقيدة ، يولد أحمر اللون ، ويموت
أبيض الشعر ، يهتم بزينتته ، ويعنى بصحته ، يتصيد الطعام الحلو
والخمر المعتق ، يشغل فؤاده بحصان أو بندقية ، ويسعد بالحديث
التافه أو الشناء القليل ؛ ولا تملك الروح الكبيرة إلا أن تضحك
من مثل هذا الهراء الذى يؤخذ مأخذ الجد . « حقا إن هذه
الاعتبارات المتواضعة لتنفرنى من العظمة . ياله من عار على نفسى
أن أكرث بعدد الجوارب الحربية التى تملكها أنت ، وأن أعرف
منها هذه وتلك ذات اللون الخوخى ، أو أن أحمل قائمة بممصانك ،
وأعرف أن أحدها للترف والآخر للمنفعة ! » .

إن المواطنين الذين يفكرون بقوانين الحساب ، يقيمون وزنا
للمتاعب التى يلاقونها ساعة استقبال غريب عند موقد نارهم ،
ويحسبون حسابا دقيقاً لضياح الوقت والظهور بمظهر غير عادى .
أما الروح التى من معدن أطيب فإنها تضرب بهذا الاقتصاد الذى
ليس فى موضعه عرض الحائط فى هذه الحياة ، وتقول : سوف أطيع
ربى ، وسوف يمدنى بالضحية وبالنار . يصف ابن حوقل الجغرافى
العربى تطرف البطولة فى سخاء سُجْد فى بخارى فيقول « عندما
كنت فى سجد رأيت بناء شاهقا ، كأنه القصر ، أبوابه مفتحة ومثبتة
فى الحائط بمسامير ضخمة . ولما سألت عن السبب قيل لى إن البيت
لم يغلق ، ليلا أو نهارا ، مدة مائة عام . ويستطيع الغرباء أن يقدموا
فى أية ساعة مهما كان عددهم . ولقد أعد صاحب البيت ما يكفى
لاستقبال الرجال وحيواناتهم ، وهو أسعد ما يكون عندما يتلأأون

بعض الوقت . ولم أر قط في حياتي شيئاً من هذا في أى بلد آخر .
يعلم كل رجل كريم النفس تمام العلم أن أولئك الذين يقدمون
للغريب الوقت أو المال أو المأوى — عن حب لا عن تظاهر —
إنما يتفضلون على الله ، وما أكمل ما تعوضهم به الدنيا . إنهم
يعوضون الوقت الذى يبدو مضاعاً بصورة ما ، والآلام التى يبدو
أنهم يتحملونها تلقى ثوابها . إن هؤلاء الناس يشعلون نار المحبة
الإنسانية ، ويرفعون مستوى الفضيلة المدنية بين البشر . ولكن
الجود يجب أن يكون للخدمة ، لا للتظاهر ، وإلا فإنه يحط من قدر
المضيف . إن الروح الجريئة تحسب نفسها أرقى من أن تقدر نفسها
بفخامة مائدتها وردائها . إنها تعطى ما تملك ، وكل ما تملك ،
ولكن جلالها يضيف النعمة على ما تقدم من خبز وماء قراح ، نعمة
لا تجدها فى ولائم المدن .

ويصدر البطل فى اعتداله عن نفس الرغبة التى تملى عليه
ألا يشين قدر نفسه . ولكنه يحب الاعتدال لما يدل عليه من رقة
لما فيه من تقشف . فهو لا يأبه أن يكون رزينا ، وأن ينبذ فى
مرارة أكل اللحم وشرب الخمر ، وتدخين التبغ أو الأفيون وشرب
الشاي واستخدام الحرير والذهب . قل أن يعرف الرجل العظيم
كيف يطعم وكيف يلبس . ولكن حياته طبيعية وشعرية دون أن
يضع لها القيود والحدود . شرب « چون اليوت » الرسول الهندى
الماء وقال عن الخمر « إنه شراب نبيل كريم ، ويجب أن نشكر الله
عليه ، ولكنى أذكر أن الماء خلق من قبله » . وأحسن من هذا

اعتدال الملك داود الذي صب فوق الأرض — في سبيل الله —
الماء الذي أتاه به ليشر به ثلاثة من مقاتليه ، مخاطر من أجل
ذلك بحياتهم .

يقال عن بروتس إنه عندما سقط فوق سيفه بعد معركة فليبي
روى هذا السطر عن يورپديس : « أيتها الفضيلة ، لقد سرت
وراءك خلال حياتي ، ووجدتك آخر الأمر ظلا » . ولست أشك
في أن هذه الرواية قد قصد بها الوشاية بالبطل . فإن روح البطولة
لا تبغ عدلها ونبليها . إنها لا تطلب الغداء الفاخر والسرير الوثير .
جوهر البطولة هو أن يدرك المرء أن الفضيلة وحدها تكفي .
فالققر يزينا . إنها لا تحتاج إلى الوفرة ، وتستطيع أن تحتمل
خسارتها كل الاحتمال .

يبد أن ما يجذب خيالي أكثر من أي شيء في طبقة الأبطال
هو ما يبدو منه من انشراح وبشر . إن القدرة على الاحتمال والإقدام
في هدوء من الصفات العالية التي يستطيع أن يبلغ غايتها كل رجل
يدرك الواجب العام . ولكن هذه الأرواح النادرة لا تقيم وزنا
للرأي والنجاح والحياة ، فلا يدخلون السرور إلى قلوب خصومهم
بما يطلبون ، أو بما يبدو عليهم من أسي ، ولكنهم يُظهرون
عظمتهم الخاصة التي اعتادوها . لما اتهم سبيو باختلاس أموال الناس ،
رفض أن يوصم بعار الانتظار حتى يبرر موقفه ، برغم أن قائمة
حسابه كانت بين يديه ، ولكنه مزقها إربا إربا أمام القضاة . ومن

هذا القبيل ما حكم به سقراط على نفسه من بقاءه مكرّماً غاية التكريم في البريتانيم طوال حياته ، وعبث سر توماس مور وهو تحت المقصلة . وفي مسرحية « الرحلة البحرية » لبومنت وفتشر تقول جوليتا للقائد القوى ورفاقه :

جوليتا : أيها العبيد ، إنه بوسعنا أن نشنقكم .
السيد : هذا محتمل جداً ، وبوسعنا إذن أن نُشنق وأن
نزدريك ...

هذه إجابات سديدة سليمة . فاللهو ثمرة من ثمار الصحة الكاملة وشعاع من ضيائها . لأن العظماء لا يرضون أن يتزلوا حتى يأخذوا أى شيء مأخذ الجد . ينبغي أن يكون كل شيء مرحاً كشدو الكنارى ، حتى إن كان تشييد المدن ، أو إزالة الكنائس والأمم العتيقة ، التي وقفت عقبة في سبيل الدنيا آلاف السنين . إن أصحاب القلوب الساذجة يلقون تاريخ هذه الدنيا وعاداتها كلها خلف ظهورهم ، ويلعبون دورهم في تحد برى لقوانين العالم المرعية . وأمثال هؤلاء يبدون لنا — إذا استطعنا أن نرى الجنس البشرى مجتمعاً في مشهد واحد — كصغار الأطفال يلهون معا . وإن كانوا في أعين الناس عامة يظهرون كأنهم يرتدون ثياباً من الجلال والوقار من نسيج أعمالهم ونفوذهم .

إن اللذة التي نجدها في هذه الحكايات الرائعة ، وسلطان القصص الخيالية على الصبي الذي يمسك بالكتاب المحرم تحت مقعده بالمدرسة ،

وابتهاجنا بالبطل ، هو الحقيقة الأساسية التي نهدف إليها . كل هذه الخواص العظيمة التي تفوق العقل ملك لنا . إذا نحن أمعنا النظر في نشاط الأغريق ، وزهو الرومان ، فما ذلك إلا لأننا قد طوعنا بالفعل هذه المشاعر عنها لأنفسنا . ولنفسح المجال لها في بيوتنا الصغيرة فهي كالضيف العظيم . وأول خطوة ترفع من قدرنا هي أن نحرر أنفسنا من الملابس الخرافية التي نلحقها بالأماكن والأزمنة ، وبالعدد والحجم . لماذا ترن في الأذن هذه الكلمات : الأثيني والروماني وآسيا وانجلترا ؟ حيثما يكون القلب ، تكون آلهة الشعر ، وقيم الآلهة ، ولا تكون في مكان من الأرض مشهور . إنكم تحسبون مساوشوسس وكنكتكت والنهر وخليج بوسطن أما كن تافهة ، وتحب آذانكم أسماء البلدان الأجنبية والكلاسيكية . ولكن ها نحن هؤلاء ، وإذا تريثنا قليلا ، فقد نتعلم أن هذا المكان خير مكان . ولا عليك إلا أن تضمن شيئا واحداً ، وهو أنك هنا — ولن يختفي من الغرفة التي تجلس فيها الفن والطبيعة ، والأمل والقدر ، والأصدقاء ، والملائكة ، والكائن الأعلى . أن إيامينوداس ، الشجاع المحب ، لا يبدو لنا أنه بحاجة إلى أولمبس لكي يموت فوقه ، وليس بحاجة إلى شمس سوريا المشرقة . إنه يرقد رقدة طيبة جداً حيث هو . كما أن جرميز كانت أرضاً طيبة تصلح لوطاً واشنجطن ، وشوارع لندن لقدمي ملتن . الرجل العظيم يجعل جوه في خيال الناس ملائماً ، وهواءه العنصر المحب من بين الأهواء الرقيقة جميعا .

أجل البلاد ما يقطنه أنبل العقول . إن الصور التي تملأ الخيال
عندما نطالع أعمال بركليز وزنفون وكولبس وبايار وسدنى
وهامپدن تعلمنا إن حياتنا وضیعة من غير داع ، وأننا بعمق العیش
يجب أن نزين حياتنا بما يفوق الأبهة الملكية والقومية ، وأن نعمل
وفقاً لمبادئ يهتم بها الإنسان والطبيعة على مدى أيامنا .

لقد رأينا أو سمعنا بكثير من الشباب الشاذ ، الذى لم ينضج قط ،
أو الذى لم تكن أعماله فى الحياة الواقعة شيئاً غير عادى . ولكننا
حينما نرى صورهم وسيماهم ، وحينما نصغى إليهم وهم يتحدثون عن
المجتمع ، والكتب ، والدين ، لنعجب بتفوقهم . وكأنهم يلقون
الإزدراء على نظامنا الحكومى بأسره وعلى حالنا الاجتماعية . إنهم
يتحدثون بنغمة العمالقة الشباب الذين بُعثوا لإحداث الانقلاب .
ولكنهم يمارسون مهنة عملية فترى أجسامهم الضخمة قد تضاءلت
إلى حجم الإنسان المألوف . إن السحر الذى استخدموه هو الاتجاه
نحو المُثُل ، الذى يجعل الأمر الواقع دائماً مضحكاً . ولكن الأرض
الصلبة تعرف كيف تنتقم فى اللحظة التى يكلفون فيها خيولهم التى
صوروها من ضياء الشمس بحرث الأخاديد . إنهم لم يجدوا مثلاً
أو رفيقاً لهم فخارت عزائمهم . ثم ماذا ؟ إن الدرس الذى أَلْقَوْه
فى طموحهم الأول لا زال صادقاً . وسوف تهذب عقيدتهم ذات يوم
شجاعة أقوى وصدق أنقى . ولماذا تشبه المرأة نفسها بأية امرأة
أخرى فى التاريخ ، وتظن أنه إذا كانت سافو أو سفينيه ،

أو دى ستيل ، أو جيسات الدير ممن كان لهن ثقافة ونبوغ ، إذا كان هؤلاء النسوة لم يشبعن الخيال أو يرضين ثمس الهادئة الرزينة ، فإن واحدة غيرهن لن تستطيع ذلك ، بله أن تكون هي ؟ ولم لا ؟ إن لديها مشكلة بكرة مستحدثة عليها حلها ، وربما كانت من أسعد المشكلات التي ظهرت في الوجود . فعلى كل عذراء ، معتدلة النفس ، أن تسير في طريقها في رزاة ووقار ، وأن تنعم النظر بدورها في كل ما يجتذب عينها ، كي تدرك قوتها وفتنتها الفريدة في بابها ، وقدرتها على بثق فجر جديد في ظلمات الكون . إن الفتاة الحسنة التي تأبى أن تخضع لمجموعة من المؤثرات المعينة المتجبرة ، المؤثرات التي لا تغنى بإمتاع الآخرين ، والتي تتصف بالعناد والتعالى ، هذه الفتاة توحى إلى كل من يراها بشيء من نبليها . إن القلب الصامت يشجعها . أيها الصديق ، لا تجعل للخوف إلى قلبك سبيلا ! فإما أن تأوى إلى المرفأ عظيما أو أن تجوب البحار مع الله . إنك لا تعيش عبثاً ، لأن كل عين عابرة تبتهج وتهذب بما تشاهد .

سمة البطولة الثابرة . لسكل إنسان دوافعه الهائلة ، وله نوبات من الكرم . فإذا اخترت نصيبك ، اثبت عليه ، ولا تحاول أن توفق بين نفسك وبين الدنيا في ضعف وخور . فأعمال البطولة ليست أعمالا عادية ، وليست الأعمال العادية من أعمال البطولة . ومع ذلك فإن في نفوسنا من الضعف ما يجعلنا ننتظر عطف الناس على أعمال امتيازها إنها فوق مجال العطف ، وإنها تنتظر الحكم عليها

فما بعد . إن أردت أن تخدم أخاك ، لأنه قمين بك أن تخدمه ، فلا تسحب وعدك إن وجدت العقلاء من الناس لا يحمدون صنعك . اثبت على عملك ، وهنى نفسك إذا أديت عملاً غريباً فيه إسراف ، وخالفت ما ألفه الناس في عصر يرعى التقاليد . سمعت مرة نصيحة غالية تهدي إلى شخص ما ، وهى « اعمل دائماً ما تحشى عمله » . إن الشخصية البسيطة المسترجلة لا تحتاج البتة إلى تقديم الاعتذار ، وإنما ينبغي لها أن تنظر إلى عملها الماضى بهدوء فوكون ، حينما اعترف بأن نهاية المعركة كانت سعيدة ، ومع ذلك فإنه لم يندم على انصرافه عنها .

ليس هناك ضعف أو أمر فاضح لانستطيع أن نلتمس له المعاذير فى الأذهان - فتقول هذه طبيعى ، أو جزء من صلتى وواجبى نحو زملائى . فهل عاهدتنى الطبيعة على ألا أظهر قط مثلبة أو أبدو مرة فى صورة مضحكة ؟ دعنا نسخو فى كرامتنا كما نسخو فى أموالنا . إن العظمة قد اكتفت برأيها فى نفسها من زمان بعيد ، وسوف تبقى كذلك إلى الأبد . ابذل صدقاتك ، لا لأنك تحب أن تظهر بالثناء عليها ، ولا لأنك تحسب أن لها قيمة كبرى ، ولكن لى ترضى نفسك . وسوف تعرف فيما بعد أن من الأخطاء الجسيمة أن يتحدث امرؤ عن صدقاته .

يبدو أنه من الزهو الذى تخص به الطبيعة الطيبة العامة أولئك الذين يعيشون فى طمأنينة ووفرة أن يقولوا الحق ، ولو فى شئ من

الحشونة ، وأن يعيشوا في شيء من الاعتدال الصارم ، أو في مبالغة من الكرم ، وذلك دليل على إحساسهم بالأخوة للعدد العديد من الناس الذين يقاسون الألم . ولسنا فقط في حاجة إلى إحياء الروح وتدريبها باحتمالنا عبء التقشف ، والاستدانة ، والعزلة ، وعدم القبول عند الجمهور ، ولكنه يليق بالرجل الحكيم كذلك أن ينظر بعين جريئة إلى تلك المخاطر النادرة التي تلحق بالناس أحيانا ، وأن يعود نفسه أن تألف صور الأمراض المقذعة ، وأصوات السباب ، ومرأى الموت العنيف .

ان أوقات البطولة هي بوجه عام أوقات الفزع ، واليوم الذي لا يلعب هذا العنصر فيه دوراً لا يشرق قط بالضياء . وأحب أن أقول إن ظروف الإنسان من الناحية التاريخية أحسن ، إلى حد ما ، في هذا البلد ، وفي هذه الساعة ، مما كانت عليه في أى وقت سبق . فأمام الثقافة حرية أوسع . وهي اليوم لا تلاقي ضربة الفأس عند أول خطوة تخطوها بعيداً عن طريق الفكر المطروق ، ولكن البطل يلاقى دائماً الأزمات التي تختبر حدته . إن الفصيلة الإنسانية تتطلب أبطالها وشهداءها ، ويتبع ذلك دائماً اختبار القدرة على احتمال الاضطهاد . حدث من عهد قريب جداً أن لثجوى الجرى عرّض صدره لطلقات الجماهير النارية من أجل حرية الكلام والرأى ، ومات عندما بات من الخير له ألا يعيش .

لست أرى طريقاً للطائفة الكاملة يستطيع المرء أن يسلكه

سوى ما يشير عليه به قلبه . فليمتنع المرء عن كثرة الاختلاط ،
وليكثر من الإيواء إلى بيته ، ويلتزم تلك المسالك التي يحب السير
فيها . ان الاحتفاظ الدائم بالمشاعر البسيطة السامية في الواجبات
الخفية تدريب للشخصية على تلك الصفة التي تدفع المرء إلى أن يعمل
بالشرف — إن اقتضت الضرورة — وسط الضجيج أو فوق القفلة .
أى اعتداء على الحقوق لحق بالناس فيما مضى قد يلحق بالفرد مرة
أخرى ، ويحدث ذلك بسهولة في الجمهورية ، إن بدت أية علامة من
علامات انحلال الدين . إن الشاب قد يصور لنفسه كيفما شاء ، وعلى
قدر ما يستطيع من هدوء الأعصاب ، إنه عرضة للقذف الشديد ،
وللنار ، ولعقوبة القار والريش ، والمشنقة ، ثم يسأل نفسه إلى أى
حد يستطيع أن يُثَبَّتَ إحساسه بالواجب ، مواجهاً هذه
العقوبات ، كلما عنّ لعدد من الصحف ولجمع كاف من جيرانه أن
يحكم على آرائه بأنها تثير الفتن والقلق .

قد يخفف من خشية المصائب في أشد القلوب حساسية أن يرى
المرء السرعة الفائقة التي ترد بها الطبيعة أقصى ما يصيب الإنسان
من شر . إننا سرعان ما نبلغ حافة لا يستطيع عندها عدوان
يلحق بنا .

» دعهم يهدون

فأنت هادئ في قبرك »

في ظلمة جهلنا بما سوف يحدث ، وفي الساعة التي تُصم فيها

آذاننا عن الأصوات العالية ، من منا لا يحسد أولئك الذين ماروا
بمحاولاتهم الجريئة حتى نهايتها الآمنة ؟ من منا يرى وضاعة سياستنا
ولا يهين من داخل نفسه واشنطن لأنه قد لُفَّ من زمن بعيد في
كفنه وأمسى إلى الأبد آمناً ، ولأنه أودع قبره في دعة ، ولم يمت في
قلبه بعد أمل البشرية ؟ ومن منا لا يحسد أحياناً الأخيار والشجعان ،
الذين لم يعودوا يقاسون ضجيج العالم الطبيعي ، ثم لا ينتظر بشيء
من الرضى والشغف النهاية الحاطفة لحديثه مع الطبيعة المحدودة ؟
ومع ذلك فإن الحب الذى يريد الإنسان القضاء عليه — بسرعة
تفوق خطف الغادرين — قد جعل الموت مستحيلاً ، وأثبت أنه
ليس فانياً ، ولكنه يستوطن أعماق الكائن المطلق ، الذى
لا ينطفىء نوره .

العقل

اذهب وعجّل سير نجوم الفكر

نحو أهدافها المضيئة —

إن الزارع يبذر بذوره في مكان فسيح ،

والقمح الذى تنثره يستحيل أرواحا .

كل مادة من المواد الكيميائية تكهرب ما فوقها سلباً ، وما دونها إيجاباً . فالماء يحلل الحشْب والحديد والملح ؛ والهواء يحلل الماء ، والنار الكهربائية تحلل الهواء ، ولكن العقل يحلل النار والجاذبية والقوانين والمنهج ، وأدق علاقات الطبيعة التى لا اسم لها ، وذلك بمادته المذنية التى لا تُقاوَم . والعقل يكمن وراء النبوغ ، لأن النبوغ هو الجانب المنشئ من العقل . العقل هو القوة البسيطة التى تسبق كل عمل أو إنشاء . وكَم وددت لو استطعت أن أبسط التاريخ الطبيعى للعقل على مراحل واضحة ، ولكن أين الإنسان الذى استطاع قبل الآن أن يحدد خطوات هذا الجوهر الشفاف وحدوده ؟ إن الأسئلة الأولى تُلقى دائماً ، وأحكم الأطباء تحيره أسئلة الطفل الكثيرة . كيف نستطيع أن نتحدث عن عمل العقل وأن نقسمه ، كما نتحدث عن معارفه ، وقواعده الخلقية ، وإنتاجه ، وما إلى ذلك ، مادام يحوّل الإرادة إلى إدراك حى ، والمعرفة إلى عمل .

فيصبح كل منهما الآخر . أما العقل فهو وحده كأئن لا يتغير . وهو لا يبصر كما تبصر العين ، ولكنه يتحد والأشياء المعروفة .

العقل والتعقل كلاهما يعنى — للأذن العارية — تأمل الحق المطلق . إن اعتبارات الزمان والمكان ، وأنت وأنا ، والمنفعة والضرر ، تسيطر على عقول أكثر الناس . ولكن العقل يفصل الحقيقة التى تتأملها عن « شخصك » ، وعن كل إشارة إلى ما هو موضوعى أو شخصى ، وينغم فيها النظر كأنها وُجدت لذاتها . كان هرقليطس ينظر إلى الأهواء كأنها غيوم كثيفة ملونة . وفى غيوم الأهواء ، خيرها وشرها ، يشق على المرء أن يتقدم فى خط مستقيم . أما العقل فإنه خلو من الأهواء ، ويرى الشئ كما يظهر فى ضوء العلم ، بارداً ، لا يرتبط بشئ . العقل يخرج عن الفرد ، ويطفو على شخصية العقل نفسه ، وينظر إليها كأنها حقيقة ، وليس باعتبارها « أنا » أو « لى » . ومن يكون مغموراً فيما يتعلق بالشخص أو المكان لا يمكنه أن يرى مشكلة الوجود . ولكن العقل يتدبر الوجود دائماً . إن الطبيعة تظهر كل شئ مصوراً ومحدداً . أما العقل فيخترق الصورة ، ويثب فوق الجدار الحاجز ، ويكشف التشابه الذاتى بين الأشياء المتباعدة ، ويرد الأشياء جميعاً إلى عدد من المبادئ محدود .

إذا جعلت حقيقة من الحقائق موضوعاً لتفكيرك رفعت من شأنها . وكل تلك الكتلة من المظاهر العقلية والخلقية التى لانخضعها للتفكير

المقصود ، تقع في دائرة ما يمكن تغييره . إنها تكون ظروف الحياة اليومية ، وتعرض للتغير وللخوف والآمال . إن كل فرد ينظر إلى بشريته بشيء من الحزن . وكما أن السفينة تحطمها الأمواج إذا التصقت بالأرض فكذلك الإنسان — الذي يحتبس في الحياة الفانية — يتعرض لرحمة الحوادث المقبلة . ولكن الحقيقة الواحدة ، التي يعزلها العقل وحدها ، لا تخضع لتبديل أو تغيير . إننا ننظر إليها كأنها إله يترفع عن الهم والخوف . ولذا فإن أية حقيقة في حياتنا ، أو أية صورة من صور خيالنا وتأملنا ، متحولة من نسيج عقلنا الباطن ، تصبح موضوعاً خالداً غير شخصي . إنها الماضي عائداً إلينا في صورة محنطة . وقد خلصتها من المخاوف والفساد فنون تفوق فنون المصريين في التحنيط ، كما نُزعت منها الهموم ، وهبت للعلم . إن ما يُوجّه إلينا للتأمل لا يهددنا ، ولكنه يجعلنا كائنات عاقلة .

العقل ينمو تلقائياً في كل اتجاه . والعقل الذي ينمو لا يستطيع أن يتنبأ بوقت هذه التلقائية أو وسيلتها أو طرائقها . إن الله يدخل من باب خاص إلى كل فرد . ويسبق تفكير العقل عهد التأمل بوقت طويل . لقد خرج من الظلام لا يحس به أحد إلى ضوء النهار الذي يدعو إلى العجب . وفي زمن الطفولة تراه يتقبل بطريقته الخاصة جميع المؤثرات من الخلق الذي يحوطه ويتصرف فيها . إن كل ما يعمل به العقل أو يتفوه به يخضع لقانون . وهذا القانون الطبيعي يبقى مسيطراً عليه بعد أن يصل إلى مرحلة التأمل أو التفكير الواعي .

إن الرجل المتكلف المنهوك الذى ينطوى على نفسه ويعذبها ، لا يمكنه أن يتوقع الجانب الأكبر من حياته ، فهو مجهول ، لا يمكن تصوره . ويجب أن يبقى كذلك ، حتى يستطيع أن ينتشل نفسه من أذنيه . من أنا ؟ ماذا صنعت إرادتى لتجعلنى كما أنا ؟ لاشئ . لقد طفوت فوق هذا الرأى ، وفى هذه الساعة ، وهذه الحوادث المتشابكة ، بفعل تيارات خفية من القوة والعقل ، ولم يعترض هذا الاتجاه أو يعززه — بدرجة محسوسة — ما عندى من عبقرية أو عناد . إن ما نعمل تلقائياً هو دائماً خير أعمالنا . إنك لا تستطيع ، بكل ما لديك من قصد وحرص ، أن تقترب من موضوع ما بقدر ما تقرّ بك لحظة تلقائية ، عندما تنهض من فراشك ، أو تسير فى الخارج صباحاً بعد أن تتدبر الأمر قبل النوم فى الليلة السابقة . التفكير كالوحي يهبط على الرجل التقي . ولذا فإن صدق الفكرة تفسده المبالغة فى التوجيه العنيف الذى تقوم به الإرادة ، كما تفسده زيادة الإهمال . إننا لا نحدد ما نفكر فيه . ولكننا نكتفى بأن نفتح حواسنا ، وأن نزيل ما استطعنا كل ما يقف فى سبيل الحقيقة ، ونترك للعقل أن يرى . ما أقل سلطاننا على أفكارنا . إنما نحن سجناء الأفكار . إنها تقبض علينا لحظات فى سمائها ، وتشغلنا انشغالا كاملاً بحيث لا نفكر فى الغد ، وإنما نحملق كالأطفال ، دون أن نحاول أن نجعل هذه الأفكار ملكاً لنا . وبعد وقت ما نبتعد عن هذا الابتهاج ، ونذكر أين كنا ، وما شهدنا ، ونستعيد ما رأينا استعادة

صادقة بقدر ما نستطيع . وبمقدار ما نستطيع استعادة هذه الحالات النفسية البهيجة ، نحمل النتائج في ذاكرة لا تمحى ، ويؤيدنا جميع الناس وجميع العصور . وذلك هو ما نسميه « الحقيقة » . وفي اللحظة التي نكف فيها عن الاسترجاع ، ونحاول فيها التصحيح والتدبير ، تتلاشى الحقيقة .

وإذا فكرنا في الأشخاص الذين حفزونا ونفعونا ، أدركنا تفوق مبدأ التلقائية أو البداهة على مبدأ الحساب والمنطق . الأول يتضمن الثانى ، ولكن في صورة جوهرية كامنة . إننا نتطلب من كل إنسان منطقاً طويلاً ، ولا نتسامح في انعدامه ، ولكن هذا المنطق ينبغي ألا يُنطق به . المنطق هو سير البديهة أو تفتحها تفتحاً متلاًماً ، وفضله في كونه طريقة صامتة . وفي اللحظة التي يظهر فيها في صورة فروض ، وتكون له قيمة منفصلة ، يصبح عديم القيمة .

في عقل كل إنسان تبقى بعض الصور ، والكلمات ، والحقائق ، دون أن يبدل المرء جهداً في انطبائها ، وهى صور وكلمات وحقائق ينساها غيره ، وتوضح له هذه الأشياء فيما بعد بعضاً من القوانين الهامة . كل تقدمنا تفتح كتفتح زهرة الخُضَر . لديك أولاً الغريزة ، ثم الفكرة ، ثم المعرفة ، كما للنبات الجذر ، فالبرعم ، فالثمرة . ضع ثقتك في الغريزة حتى النهاية ، حتى إن لم تستطع أن تقدم الأسباب . ومن العبث أن تتعجلها . وإن أنت وثقت فيها حتى النهاية نضجت وأثمرت الحقيقة ، وعرفت لماذا آمنت بعقيدة ما .

ولكل عقل طريقته . والرجل الحق لا يجعل معارفه قط طبقاتاً لقواعد الكليات الجامعة . إن ما تجمعه بطريقة طبيعية يذهل الرأى ويسره عندما تخرجه . لأننا لانستطيع أن نكشف عن أسرار غيرنا . ومن ثم فإن الفروق بين الناس فى المواهب الطبيعية تافهة إذا قيست إلى ثروتهم المشتركة . وهل تحسب أن حارس الباب والطاحى ليست عندهم لك قصص أو تجارب أو عجائب ؟ كل فرد يعرف بقدر ما يعرف العالم . إن جدران العقول الساذجة مخططة كلها بالحقائق والأفكار . وسوف تحصل ذات يوم على مصباح وتقرأ المخطوط . وكل امرئ — بمقدار ما لديه من فطنة وثقافة — يشتغل حباً لمعرفة كل ما يتعلق بطرق العيش والتفكير عند غيره من الناس ، وبخاصة عند تلك الطبقات التى لم تخضع عقولها لتدريب التعليم المدرسى .

وهذه الحركة الغريزية لا تتوقف البتة فى العقل الصحيح ، ولكنها تصبح أقوى وأكثر حصولاً على المعرفة خلال جميع درجات الثقافة . وأخيراً يأتى عهد التأمل ، حينما لانكتفى بالملاحظة ، ولكننا نبذل الجهد الشاق لكى نلاحظ ، حينما نجلس عامدين لكى نفكر فى حقيقة مطلقة ، وحينما نفتح عين العقل أثناء الحديث والمطالعة والعمل ، ونقصد إلى معرفة القانون الذى يستتر خلف مجموعة من الحقائق .

ما أشق عمل فى الدنيا ؟ أن تفكر !! وددت لو استطعت أن أقف الموقف الذى يمكننى من رؤية الحقيقة المطلقة رؤياً العين ،

ولكنى لا أستطيع . فأرخى جفنى وأركن إلى هذا الجانب أو ذاك .
ويبدو لى أننى عندئذ أدرك ما قصده من قال : لا يستطيع أحد أن
يرى الله وجهاً لوجه ثم يعيش بعد ذلك . ومثال ذلك أن يحاول المرء
أن يكشف أساس الحكومة الأهلية . دعه يسلط عقله فى اتجاه
معين ، بغير توقف أو راحة . إن خير ما عنده من التفات مهما طال
أمدّه لا يجديه شيئاً . ومع ذلك فإن الأفكار تفلت أمام عينيه . وقد
يحدث له أى شىء إلا أن يفهم ، ولا يتنبأ بالحقيقة إلا فى صورة
غامضة . تقول : سوف أمشى خارج يديق فتتخذ الحقيقة صورتها وتتضح
لى . ثم ننطلق ولكننا لا نعتز عليها . ويبدو لنا اننا نحتاج فقط إلى
السكون ، والجلاسة الهادئة فى المكتبة كي نظفر بالفكرة . ولكننا
نلجها ، فإذا بنا على بعد منها كما كنا أولاً . ثم تظهر لنا الحقيقة فى
لحظة وعلى غير انتظار . يظهر لنا ضوء شارد معين ، وفى وضحه
يظهر لنا المبدأ الذى ننشده . يبدو لى ان قانون العقل يشبه قانون
الطبيعة الذى نشهق بموجبه الأنفاس ثم نزفرها ، ويسحب بمقتضاه
القلب الدم ثم يلفظه — أعنى قانون التراوح . ولذا فعليك فى فترة
أن تعمل بذهنك ، وعليك فى لحظة أخرى أن تكف عن العمل ،
لترى ما تكشف عنه « الروح » العليا .

إن خلود الإنسان يبشر به التفكير العقلى كما تبشر به إرادة
الإنسان المعنوية . كل تفكير فى أماسه تطلع إلى المستقبل ، وأقل
قيمه قيمته الراهنة . أنعم النظر فيما يستهويك فى فلوطارخس وشيكسبير

وسرفانتيس . إن كل حقيقة يحصل عليها كاتب من الكتاب هي مصباح يسلط كل ضوءه على الوقائع والأفكار التي كانت من قبل في عقله ؛ ثم انظر إلى ما يحدث بعد ذلك ، تجد ان الحصر والمهمات التي كانت تنتثر في برجه قد أصبحت أشياء ثمينة . كل واقعة تافهة في تاريخ حياته الخاصة تسمى وسيلة لإيضاح هذا المبدأ الجديد ، وتعود إلى وضع النهار ، وتستهوئ الناس جميعاً بقوتها وسحرها الجديد . ويتساءل الناس : أنى له هذا ؟ ويظنون أن في حياته شيئاً مقدساً . كلا . إن لديهم ألوف الوقائع التي لا تقل عن ذلك قيمة ، وما عليهم إلا أن يحصلوا على مصباح ينبشون في ضوءه هم كذلك الطبقات العليا من ديارهم .

كلنا عقلاء . والفرق بين فرد وآخر ليس في الحكمة ، ولكنه في المهارة . عرفت في ناد علمي شخصاً يذعن لى دائماً ، رأى ميلي إلى الكتابة فتوهم أن تجاربي بها شيء أسمى مما لديه . في حين أنى وجدت تجاربه لا تقل شأنًا عن تجاربي . أعطى هذه التجارب ، ولسوف أفيد منها نفس الفائدة . كان يتمسك بالقديم ، ثم يتمسك بالجديد . أما أنا فقد تعودت أن أضم الجديد إلى القديم ، وهو ما لم يتعود ممارسته . تجد ذلك في الأمثلة الكبرى . وربما لو أتيح لنا أن نلقى شيكسبير لم نشعر بنقص شديد . كلا ، بل نحس مساواة كبرى . مع فارق واحد فقط ، وهو انه كانت لديه مهارة غريبة في الإفادة من الحقائق وترتيبها ، وهى المهارة التي تنقصنا . لأنا برغم عجزنا

المطلق عن أن نخرج شيئاً مثل هاملت أو عطيل ، إلا أن لدينا جميعاً استعداداً كاملاً نتقبل به هذا الذكاء المفرط ، وهذه المعرفة العميقة بشئون الحياة ، وهذه الفصاحة الدافقة .

إذا جمعت تفاحاً في ضوء الشمس ، أو جففت الحشائش ، أو قلمت الأرض لزراعة القمح ، ثم أويت إلى بيتك ، وأغمضت عينيك ، وضغطت عليهما بيدك ، فإنك لا تفتأ ترى التفاح معلقاً في الضوء اللامع بين الأغصان والأوراق ، كما ترى الحشائش المعشبة ، أو سنابل القمح ، لمدة خمس أو ست ساعات بعد ذلك . فإن آثار ما رأيت تنطبع في الإرادة الحافظة ، حتى إن جهلت ذلك . وهكذا تستقر سلسلة الصور الطبيعية كلها التي عرفتك بها حياتك في ذاكرتك ، حتى إن جهلت ذلك ، ثم تلقى هزة من هزات العاطفة ضوءاً خاطفاً على مكانها المظلم ، فتستولي القوة العاملة في الحال على الصورة الملائمة ، وتجعلها الكلمة التي تفكر فيها في لحظة من اللحظات .

ينقضى زمن طويل قبل أن نكشف عما لدينا من ثراء . إننا على ثقة من أن تاريخنا مألوف جداً ، فليس لدينا ما نكتبه أو نستخلصه . غير أن أحكم سنواتنا ما برحت تعود القهقري نحو ذكريات الطفولة المحترقة ، فتصيد دائماً شيئاً عجيباً من ذلك المستنقع ، حتى نبدأ — بمرور الزمن — في الشك بأن سيرة الرجل الأحق الواحد

الذى نعرفه لا تقل في حقيقتها عن تفسير مختصر « لتاريخ العالم »
الذى يقع في مائة مجلد .

وفي العقل المنشئ ، الذى نطلق عليه عادة اسم النبوغ ، نلاحظ
نفس الاتزان بين العنصرين الذى نلاحظه في العقل القابل . العقل المنشئ
ينتج الأفكار والعبارات والقصائد والخطط والرسوم والنظم . فهى
من توليد العقل ، ومن تزاوج الفكر بالطبيعة . ولا بد للنبوغ من
هبتين ، الفكرة ونشرها . والأولى هى الكشف ، وهى معجزة دائماً ،
معجزة لا يجعلها أبداً تكرار الحدوث أو مواصلة الدرس أمراً
مألوفاً ، ولكنها تترك المتسائل دائماً فى غباوة التعجب . هى إقحام
الحقيقة فى الدنيا ، هى صورة من صور الفكر تنطلق الآن لأول
مرة فى العالم ، هى وليدة الروح الأبدية القديمة ، وجانب من العظمة
الصادقة التى لا تحاط ، وإنها تبدو لأول مرة كأنها ترث كل ما سبق
وجوده ، وكأنها تملئ على من لم يولد بعد . إنها تؤثر فى كل فكرة
من أفكار الناس ، وتشكل كل نظام . ولكنها — لكى يسهل
الحصول عليها — بحاجة إلى وسيلة أو إلى فن تنتقل عن طريقه إلى
الناس . ولكى يمكن انتقالها يجب أن تتحول إلى صورة أو شيء
محسوس ، يجب أن تتكلم لغة الوقائع . إن أشد ضروب الإلهام عجباً
ليموت مع الرجل الملهم إذا لم تكن له يد يصور بها إلهامه للحواس .
إن شعاع الضوء يمر خلال الفضاء لا يراه أحد ، ولا يُرى إلا إذا
سقط على شيء ما . والطاقة الروحية عندما تتجه إلى شيء خارجها ،

تصبح عند ذاك فكرة . والعلاقة بينها وبينك تجعلك أولاً
— أو تجعل قيمتك — تظهر لى . إن القدرة العقلية الفنية المبدعة
عند المصور تخمد وتتلاشى إذا افتقد القدرة على التصوير . وفي
ساعاتنا السعيدة يجب أن نكون شعراء لا ينضب لنا معين ، إذا
استطعنا مرة أن نشق الصمت بالنظم الملائم . وكما أن الناس جميعاً
يستطيعون الوصول بطريقة ما إلى الحقيقة الأولى ، فكذلك لهم
جميعاً نوع من الفن أو القدرة على الإتصال في رؤوسهم ، ولكن
هذه القدرة لا تهبط إلى اليدين إلا عند الفنان وحده . هناك مفارقة
لم نعرف قوائنها بعد ، بين رجلين وبين الرجل الواحد في لحظتين ،
بالنسبة لهذه المقدرة . في الساعات العادية تمر بنا الوقائع عينا التي
تمر بنا في الساعات غير العادية أو في ساعات الوحي ، ولكن هذه
الوقائع لا تتأهب لتصويرها ، ولا تنعزل ، وإنما تشتبك في نسيج
كنسيج العنكبوت . إن الفكرة النابغة تلقائية ، ولكن القدرة
على التصوير أو التعبير ، في أغنى صوره وأكثرها فيضاً ، تتطلب
مزيجاً من الإرادة ، وشيئاً من السيطرة على الحالات التلقائية ،
وبدون ذلك لا يمكن الإنتاج . هذه القدرة هي تحوُّل الطبيعة كلها
إلى التعمق المفصح عن الفكرة ، بالتوجيه الحكيم وبالتدريب العنيف
على الإختيار . ومع ذلك فإن الألفاظ الخيالية تبدو كأنها تلقائية
كذلك . إنها لا تندفق من الخبرة وحدها أو أساساً ، ولكنها
تندفق من ينبوع أغنى . إن الخطوط العظيمة للمصور لا تُرسم

بالتقليد المقصود لأشكال معينة ، ولكنها تُرسم بالرجوع إلى المصدر الرئيسى لجميع الأشكال فى عقله . ومن ذا يكون أول أستاذ للرسم ؟ إننا بغير تعليم نعرف فكرة الصور البشرية معرفة جيدة . يعرف الطفل إذا كانت الذراع أو الساق شائئة فى الصورة ، وإذا كان الموقف طبيعياً أو عظيماً ، أو وضعياً ، مع أنه لم يتلق أى درس فى الرسم ، أو استمع إلى أى حديث فى الموضوع ، ولا يستطيع هو نفسه أن يرسم بدقة لمحة واحدة . إن الصورة الحسنة تسر جميع العيون ، قبل أن يبلغها أى علم بالموضوع بزمان طويل ، والوجه الجميل يبعث النبض إلى عشرات القلوب ، قبل أية معرفة بالنسب الآلية للرأس والملامح . وقد نكون مدينين للأحلام ببعض الضوء على مصدر هذه المهارة . لأننا بمجرد ما نبعد الإرادة ، ونحل محلها حالة من حالات عدم الوعى ، نرى كيف نمسى مصورين ماهرين ! إننا نخيل لأنفسنا صوراً عجيبة من الرجال والنساء والحيوان والبساتين والغابات والوحوش ، والقلم الساحر الذى نرسم به بعد ذلك لا تلمس فيه انحرافاً أو جهلاً ، أو ضعفاً أو فقرّاً . إنه يحسن التصميم كما يحسن التنفيذ ، وتأليفه ملىء بالفن ، وألوانه منسجمة متسقة ، وقطعة الخيش كلها التى يصور عليها تكاد تنبض بالحياة ، وهى قيمة بأن تبعث فىنا الرعب أو الرقة أو الشوق أو الأسى . وليس ما ينقله الفنان من خبرته مجرد صور منقولة ، ولكنها صور تتأثر وتترنن بألوان يستمدّها من هذا المجال المثالى .

إن الشروط الضرورية للعقل المنشئ لا تظهر غالباً متحدة ،

ولكن العبارة الحسنة أو البيت الشعري الجميل يبقى جديداً ومذكوراً
مدة طويلة من الزمان . ومع ذلك فإننا عندما نكتب بسهولة ،
ونخرج إلى هواء الفكر الطلق ، نبدو كأننا على ثقة من أنه ليس
هناك ما هو أيسر من الاستمرار في هذا الاتصال حسبما شئنا . إن
دولة الفكر ليست لها حدود في أعلاها أو أسفلها أو حولها ،
ولكن آلهة الفن تطلق لنا الحرية في ميدانها . ففي العالم ألف ألف
كاتب . وإذن فقد يحسب المرء أن الفكرة الحسنة مألوفة كالماء
والهواء ، وأن هبات كل ساعة جديدة تستبعد الهبات الماضية .
ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعد كل مالدينا من كتب جيدة . كلا ،
بل إنى لأتذكر كل بيت جميل من الشعر مدى عشرين عاماً . ومن
الحق أن تقول إن العقل المدرك في الدنيا يتقدم دائماً العقل المبدع
بكثير . ولذا فهناك كثير من نقاد خير الكتب الأكفاء ، وقليل
من كتاب الكتب القيمة . غير أن بعض شروط الإنشاء العقلي
نادر الحدوث . والعقل كل ، يتطلب الكمال في كل عمل . ويقابل
ذلك ويقف في سبيله تعلق المرء بفكرة واحدة ، وطموحه إلى
توحيد أفكار عديدة لا تحتمل التوحيد .

الحق عنصرنا في الحياة . وعلى ذلك فإن المرء إذا وجه انتباهه
إلى وجه واحد من أوجه الحق ، وحصر نفسه في هذا الجانب
وحده مدة طويلة ، فإن الحق يتشوه ولا يصبح حقاً ، بل باطلاً .
وهو في هذا يشبه الهواء ، وهو عنصرنا الطبيعي ، والأتقاس التي

نستنشقها ، ولكن إذا اتجه منه تيار على الجسم مدة طويلة ، فإنه يسبب البرد ، والحمى ، بل والموت . ما أشقى النحوى ، والعالم بفراسة الرأس ، والمتعصب السياسى أو الدينى ، أو — فى الواقع — أى مخلوق تتملكه فكرة واحدة ، يفقد اتزانه بالمبالغة فى موضوع واحد . إن ذلك إلا جنون فى بدايته . وكل فكرة سجن كذلك . لا أستطيع أن أرى ما ترى ، لأن ريحاً شديدة قد أدركتني وقذفت بي فى اتجاه واحد حق أصبحت خارج نطاق أفقك .

وهل خير من هذا أن يحاول الطالب — كى يتحاشى هذا الخطأ وكى يحرر نفسه — أن يهدف إلى إيجاد كل آلى فى التاريخ ، أو العلم ، أو الفلسفة ، بإضافة عددية لجميع الوقائع التى تقع تحت بصره ؟ إن العالم يرفض أن يُحلل بالجمع أو بالطرح . كم من الوقت تنفق وكم من الآلام ما نعانى فى شبابنا فى ملء كراساتنا بجميع تعاريف الدين ، والحب ، والشعر ، والسياسة ، والفن ، آملين فى خلال سنوات قلائل أن نلخص فى موسوعتنا ما يصفو من قيمة جميع النظريات التى بلغها العالم . ولكن قوائمنا لا تصل إلى الكمال برغم مرور الأعوام ، ونكتشف أخيراً ، أن منحنانا قطع مخروطى ، لا يلتقى قوساه .

إن كمال العقل لا ينتقل إلى عمله بالفصل أو بالوصل ، ولكنه ينتقل بالملاحظة التى تحرك العقل وهو فى عظمتة وخير حالاته إلى العمل فى كل لحظة . ولا بد أن تكون له الكلية ذاتها التى للطبيعة .

ومع أن الاجتهاد لا يمكنه أن يعيد إنشاء الدنيا في نموذج ، بجمع التفصيلات أو التصرف فيها على خير وجه ، إلا أن الدنيا تظهر في صورة مصغرة في كل حادث بحيث تمكن مطالعة جميع قوانين الطبيعة في أصغر واقعة . ويجب أن يكون للعقل نفس هذا الكمال في إدراكه وفي أعماله . من أجل هذا كان أساس الكفاية العقلية أو مركز قوتها هو إدراك هذا التطابق . إننا نتحدث إلى أشخاص مهذبين يظهرن غرباء في الطبيعة . فالسحابة ، والشجرة ، والعشب ، والطيور ، ليست لهم ، وليس بها شيء منهم . وليست الدنيا لهم سوى مسكن ومائدة . ولكن الشاعر الذي تكون أياته شاملة كاملة رجل لا تستطيع الطبيعة أن تخدعه ، أيا كان وجه الغرابة الذي تتخذه . انه يحس قرابتها الشديدة ، ويكتشف في تقلباتها تشابهاً أكثر مما يكتشف فيها تنوعاً . إن شهوة الفكرة الجديدة توخزنا ، غير اننا بعدما نستقبل الفكرة الجديدة نجد أنها ليست سوى الفكرة القديمة اتخذت وجهاً جديداً ، وبالرغم من امتلاكنا لها ، إلا أننا نشتهي غيرها في الحال ، فنحن في الواقع لا نزداد ثروتنا ، لأن الحق كان كامناً فينا قبل أن تنعكس هذه الفكرة من الأشياء الطبيعية . وصاحب النبوغ النافذ يصب تشابه المخلوقات جميعاً في كل عمل ينتجه عقله .

ولكن إذا كانت القوى المنشئة نادرة ، ولم يكتب إلا لأفراد قلائل أن يكونوا شعراء ، إلا أن كل رجل يتلقى هذا الروح القدس

المهبط ، ويستطيع أن يدرس قوانين سريانه . إن قاعدة الواجب العقلي قلما تحازى تمام المحازاة قاعدة الواجب الخلقى . فالعالم يُطلب إليه إنكار الذات إنكاراً تاماً ، شأنه في ذلك شأن القديس ، لا بد له من عبادة الحق ، ولا بد له من التخلي عن كل شيء من أجل ذلك ، وأن يؤثر الهزيمة والألم ، كي تنمو عن سبيل ذلك ثروته الفكرية .

يهب الله لكل عقل الخيار بين الحق والراحة . اختر منهما ما شئت — ولن تستطيع أن تظفر بكليهما ، والإنسان بينهما يتذبذب كالبنديل . فمن تغلب عليه محبة الراحة يقبل أول مذهب ، وأول فلسفة ، وأول حزب سياسى يقابله — والأرجح جداً أن يتبع أباه . إنه يظفر بالراحة والمتاع وحسن السيرة ، ولكنه يغلق باب الحقيقة . ومن تغلب عليه محبة الحقيقة يبقى طافياً بعيداً عن كل عرفاً . انه يمتنع عن قبول كل عقيدة ثابتة ، ويعترف بكل ما يناقها ويعارضها . ويتأرجح كيانه بين الفضيلة وما يناقضها كأنهما جداران . إنه يستسلم للقلق الذى ينجم عن التردد والآراء التى لم يتم نضجها ، غير أنه يطلب الحقيقة ، كما لا يطلبها الآخر ، ويحترم أسمى قانون من قوانين وجوده .

لا بد له أن يحب بنعليه دائرة الأرض الخضراء ، باحثاً عن الرجل الذى يستطيع أن يمدّه بالحقيقة . وسوف يعرف عندئذ أن فى الاستماع شيئاً من القداسة ومن العظمة أكثر مما فى الكلام .

ما أسعد الرجل المستمع ، وما أشق الرجل المتكلم . ما دمت أستمع إلى الحقيقة فإنى أغوص فى وسط جميل ، ولا أحس حدوداً طبيعياً . وما أصغى إليه وما أشاهده يوحى إلىّ بآلاف الفكر . إن مياه المحيط العظيم تجدد إلى الروح مدخلا ومنها مخرجا . ولكنى إن تكلمت ، أتحدد ، وأحتبس ، ويقل شأئى . عندما يتكلم سقراط لا يلحق العار بليسس ومنكسنس لأنهما لا يتكلمان . إنهما كذلك من الخيار . وهو أيضاً يدعن لهما ، ويحبهما ، أثناء كلامه . وذلك لأن الرجل الصادق الطبيعى يحتوى الحقيقة — بل هو الحقيقة عينها — التى ينطق بها الرجل العظيم : فى حين أن الحقيقة ترى أن الرجل الفصيح غير جدير بإبوائها ، لأنه يستطيع أن يخرجها من بين شفثيه ، فتراه يتجه إلى هؤلاء الصامتين الذين يتصفون بالجمال ، وهو إليهم أكثر ميلا ، وأشد احتراماً . يقول المثل القديم : دعنا نلزم الصمت ، لأن الآلهة صامته . الصمت قوة تحطم حدود الشخصية ، وتسمح لنا أن نكون عظماء عالميين . يتقدم المرء عن طريق المعلمين المتابعين . ويبدو أن لكل منهم فى إبانة النفوذ الأعظم ، ولكن هذا النفوذ يخلى السبيل فى النهاية إلى نفوذ آخر . وعلى المرء أن يتقبل كل ذلك بإخلاص ، يقول يسوع : اترك أباك وأمك وبيتك وأرضك واتبعنى . من يترك كل شئ يزيد ما يحصل عليه » وتصدق هذه القاعدة عقلياً كما تصدق خلقياً . كل عقل جديد تقترب منه يظهر أنه يتطلب منا أن نتنازل عن كل ماملكننا فى ماضينا وحاضرنا .

والمذهب الجديد يبدو أول الأمر هادما لكل آرائنا وأذواقنا وطرائق معيشتنا . هكذا بدا سودنبرج ، وكانت ، وكولردج ، وهجل أو ابن عمه الذى شرح مذهبه ، لكثير من الشباب فى هذا البلد . خذ عنهم بقلبك شاكرآ كل ما يستطيعون تقديمه إليك . استنفد مآلديهم وصارعهم ، ولا تسمح لهم بالانصراف حتى تظفر بخيرهم ، وبعد فترة وجيزة يتبدد الفزع ، ويتلاشى النفوذ الزائد ، ولا تراهم بعد ذلك شهبأ مرعبة ، ولكنهم أنجم جديدة لامعة تشرق صافية فى سماءك ، وتمزج ضوءها بكل نهارك .

وبينما ترى المرء يستسلم بغير تحفظ لما يجذبه ، لأن ذلك من ملكه ، تجده يأبى أن يرضخ لما لا يجذبه ، مهما يكن ما يحيط به من شهرة وسلطان ، لأن ذلك ليس من ملكه . إن الاعتماد على النفس اعتمادآ كليآ من خصائص العقل . إن الروح الواحدة تعادل جميع الأرواح ، كما أن عمود الماء الذى ينجذب انجذابا شعريا يوازن البحر . وعليها أن تعامل الأشياء والكتب العبقريّة المتسلطة ، كما تعامل نفسها المتسلطة كذلك . وإذا كان ايسكس هو ذلك الرجل الذى عُرف بصفات خاصة ، فإنه لم يؤد واجبه بعد ، حتى ان علم أوربا المتعلمة أُلِف عام . فعليه الآن أن يبرهن انه أستاذ فى الإمتاع بالنسبة إلى كذلك . فإن لم يستطع ذلك ، فإن كل شهرته لن تجديه عندى شيئا . وما كان أشد سخفى لأنى لم أضح بألف ايسكس فى سبيل كمالى العقلى . وقل مثل هذا خاصة فيما يتعلق بالحق المطلق ،

أو علم العقل . ليس باكون أو سبينوزا أو هيوم أو شلنج أو كانت أو غيرهم ممن يعرض عليك فلسفة عقلية سوى مترجم للأشياء التي في وعيك ، والتي لك أنت كذلك سبيلك إلى رؤيتها ، وربما إلى التعبير عنها كذلك ، وترجمته محرفة قليلا أو كثيرا . فقل إذن إنه لم ينجح في أن يرد إليك وعيك ، بدلا من أن تنكب متخاذلا على معانيه الغامضة . إنه لم ينجح ، فدع الآن غيره يحاول . وإذا كان أفلاطون لا يستطيع ، فلربما استطاع سبينوزا . وإذا لم يستطع سبينوزا ، فلربما استطاع كانت . وعلى أية حال ، فلسوف تجد بعد هذا كله أن ما يرده إليك الكاتب ليس أمراً عويصاً ، ولكنه بسيط طبيعي مألوف .

ودعنا الآن نختم هذه التعاليم . لن أتحدث في المشكلة العامة ، مشكلة المفاضلة بين الحب والحقيقة ، وإن كان الموضوع يثيرها . ولست أزعم أنني أنطلق على سياسة السموات القديمة التي تقول : « إن شاروبيم يعرف كثيراً ، وصاروفيم يحب كثيراً » . إن الآلهة سوف تصفي منازعاتها بنفسها . بيد أنني لا أستطيع أن أروى — حق في هذه البساطة — قوانين العقل ، دون أن أذكر تلك الطبقة العليا المنعزلة التي بشرت بها وتكهنت ، أكبر قساوسة العقل الخالص ، الذين يعرفون باسم « المفسرين » ، أو شراح مبادئ الفكر في مختلف العصور . وعندما نقلب صفحاتهم المبهمة في فترات

متباعدة ، فما أعجب ما يبدو لنا من هدوء وعظمة من هذه القالة ، هؤلاء السادة الروحانيون العظماء ، الذين ساروا في هذه الدنيا — أولئك الذين بشروا بالدين القديم — وانكفأوا يعبدون ديناً تبدو أزياءه المسيحية المقدسة شيئاً مستحدثاً شعبياً ، لأن « الإغراء من خصائص الروح ، ولكن الضرورة من خصائص العقل » . هذه العصابة من العظماء ، هرميز ، وهيراقليطس ، واميدوكليز ، وأفلاطون ، وإفلوطين ، وأولبيودورس ، وبروكلس ، وسنسييس ، ومن إليهم ، لديهم قوة في المنطق ، وابتكار في التفكير ، يسبق كل المميزات العادية للبلاغة والأدب ، كما يبدو كأنه شعر وموسيقى ورقص وفلك ورياضة في آن واحد . كنت حاضراً عندما بُذرت بذرة العالم . إن الروح تضع أسس الطبيعة بهندسة من أشعة الشمس . ويدل على صدق تفكيرهم وجلاله مداه وإمكان تطبيقه ، لأنه يهيمن على قائمة الأشياء كلها ومجموعها ليوضحه . غير أن ما يميز علو تفكيرهم ، بل وما يكسبه نظرة ساخرة إلينا ، هو الهدوء البريء الذي يبدو على ملوك الآلهة هؤلاء الذين يشبهون الأطفال ، يبدو عليهم وهم قابعون في سحبتهم ، يتحدث كل منهم إلى الآخر من عصر إلى عصر ، ولا يتحدثون إلى معاصريهم . إنهم على ثقة تامة من أن حديثهم مفهوم ، ومن أنه أكثر شيء طبعياً في هذه الدنيا ، ومن ثم تراهم يضمون بحثاً إلى بحث ، دون أن يلتفتوا لحظة إلى الدهول الذي يصيب أفراد الجنس البشري أجمعين بمن هم دونهم ،

والذين لا يفقهون أشد آرائهم وضوحا . ولا يرضى أحدهم أن يلين
فيقحم عبارة عامة أو تفسيرية ، ولا يُبدى أدنى سخط أو كدر من
غباء مستمعيه الذاهلين . إن الملائكة يهيمون بلغة التخاطب في
السماء ، فلا يشوهون شفاههم بلهجات الناس التي تشبه الصغير
الذي يخلو من النعم ، ولكنهم يتحدثون بلغتهم ، سواء كان هناك
من يفهمهم أو لم يكن .

المقالات المجموعة الثانية

(نشر الكتاب الثانى للمقالات فى عام ١٨٨٤ ،
ثم نشر بعد ذلك بقليل فى انجلترا . وقد استخدمت
المقالات أولا كمحاضرات فى صيغ متنوعة أمام أنواع
مختلفة من الجماهير ، ثم أعيدت كتابتها إعادة كاملة
لاستخدامها فى الكتاب . وكان استقبال هذا
الكتاب أحسن من سابقه)

الشاعر

طفل متقلب وحكيم ساذج
يتابع الشوط بأعين مغتبطة ،
اختارت — كالشهب — طريقها ،
وشقت الظلام بأشعة خاصة :
وتخطت حافة الأفق ،
وبحثت بكل ما عند أبولو من امتياز ،
وخلال الرجل والمرأة والبحر والنجم
رأت رقص الطبيعة عن بعد أمامها ؛
وخلال العوالم والأجناس والحدود والأزمان
رأت نظاما فيه نعم ، وأبياتاً من الشعر فيها قافية

* * *

شعراء الأولمب يسعدونك

أفكاراً إلهية فوق الأرض ،

نجدنا
كلنا دائماً شباباً

وتحفظ لنا الشباب دائماً .

أولئك الذين نحسبهم حكماً في الأذواق غالباً ما يكونون أشخاصاً
حصلوا على بعض العلم بالصور والتماثيل التي نعجب بها ، ولهم ميل

إلى كل ما هو رقيق . ولكنك إن بحثت عما إذا كانت نفوسهم حسنة ، وعما إذا كانت أعمالهم كالصور الجميلة ، علمت أنهم قوم حسيون يحبون أنفسهم . ثقافتهم محلية ، كأنك تسمح كتلة من الخشب الجاف في بقعة واحدة لتحدث بذلك ناراً ، فإن كل ما خلا هذه البقعة يبقى بارداً . معرفتهم بالفنون الجميلة شيء من دراسة القواعد والتفصيلات ، أو حكم محدود على اللون والشكل ، يمارسونه للتسلية أو للتظاهر . وما يدل على ضخوة مذهب الجمال — كما يفهمه هواته عندنا — ان الناس يظهر أنهم لم يعودوا يدركون أن الشكل يعتمد على الروح اعتماداً كلياً . ليس في فلسفتنا مذهب للأشكال . لقد وضعنا في أجسامنا ، كما توضع النار في الوعاء ، لكي نحمل هنا وهناك . ولكن ليس هناك تناسب دقيق بين الروح والجسم ، بله أن يكون الجسم مولداً للروح . وكذلك الحال بالنسبة إلى الأشكال الأخرى ، فإن رجال الفكر لا يعتقدون في أية ضرورة لاعتماد العالم المادى على الفكر والإرادة . ويحسب رجال الدين أن الكلام عن المعنى الروحى للسفينة أو للسحابة ، أو للمدينة أو التعاقد ، من قبيل قصور الهواء الجميلة . ويؤثرون العودة إلى الأرض الصلبة ، أرض الأدلة التاريخية . وحتى الشعراء يقنعون بأسلوب من العيش مدنى تقليدى ، وأن يكتبوا القصائد من الخيال ، وهم على بعد آمن من تجاربهم . بيد ان أرفع العقول في الدنيا لم تكف قط عن اكتشاف المعنى المزدوج — بل إنى لأستطيع أن أقول المعنى

الرابعى ، أو الخامسى ، أو ماهو أكثر من ذلك من المعانى — لكل حقيقة حسية . ومن هؤلاء أورفيس وامبروكليز وهرقليطس وأفلاطون وفلوطينارخس ودانتي وسودنبرج ، وأساتذة النحت والتصوير والشعر . لأننا لسنا أوعية أو عربات ، بل ولسنا حملة للمشاعل ، ولكننا أبناء النار ، منها خلقنا . ولسنا سوى هذه النار المقدسة عينها فى صورة أخرى ، وإنما نحن على بعدين أو ثلاثة منها ، فلا نعرف عنها إلا القليل . وهذه الحقيقة الخفية ، وهى أن الينايع التى يتفجر منها نهر الزمان هذا كاه ، ومخلوقاته ، مثالية وجميلة فى ذاتها — هذه الحقيقة تجرنا إلى التفكير فى طبيعة الشاعر — أو رجل الجمال — ووظيفته ، وتجربنا إلى الوسائل والمواد التى يستخدمها ، وإلى الصفة الغالبة على الفن فى الوقت الحاضر .

وهى مشكلة شديدة العمق ، لأن الشاعر رجل يمثل غيره . وهو يمثل بين الرجال الناقصين الرجل الكامل ، ويطلعنا لا على ثروته ، بل على ثروة المجموع . وترى الشاب يقدر الرجال النابغين ، لأنهم — إن صدقنا القول — يمثلون نفسه أكثر مما يمثلها هو . إنهم ينطبعون بالروح كما ينطبع ، ولكنهم يفوقونه فى ذلك . إن الطبيعة تزدد جمالا ، فى أعين عاشقين ، لأنهم يؤمنون أن الشاعر يرى مظاهرها فى الوقت الذى يرونها فيه . إنه منعزل بين معاصريه ، بما عنده من حق وما لديه من فن ، وإنما يعزيه فى عمله أنه سوف يجذب إليه الناس أجمعين إن عاجلا أو آجلا . لأن الناس جميعاً

يعيشون بالحقيقة ، وفي حاجة إلى التعبير . إننا في الحب وفي الفن والأطعام والسياسة والعمل واللعب ، نحاول أن نعبّر عن خفايانا الأليمة . والرجل نصف نفسه فقط ، ونصفه الآخر تعبيره .

وبالرغم من هذه الضرورة إلى نشر الأفكار ، فإن التعبير السديد نادر عزيز . ولست أدري كيف نحتاج إلى مترجم . غير أن أكثر الناس صغار ، لا يملكون القدرة على التعبير عن أنفسهم ، أو بكم ، لا يستطيعون رواية الحديث الذى يدور بينهم وبين الطبيعة ، وليس هناك إنسان لا يتوقع منفعة تفوق الحس من الشمس والنجوم والأرض والماء . إنها تقف وتنتظر أن تؤدي له خدمة فريدة . غير أن فى بنائنا عائقا ما أو فتورا زائدا لا يسمح لها أن تحدث الأثر المطلوب . وانطباعات الطبيعة تقع فى نفوسنا موقعا ضعيفا جداً فلا تجعل منا رجال فن . إن كل لمسة يجب أن تهز المشاعر . ويجب على كل إنسان أن يكون فنانا بالقدر الذى يمكنه من أن يروى فى الحديث ما وقع له . غير أن الإشعاعات أو الملابس التى تقع لنا فى تجاربنا تبلغ من القوة ما يكفى لأن تبلغ الحواس ، ولكنه لا يكفى أن تصل إلى الصميم وترغم صاحبها على التعبير عنها فى الحديث . والشاعر هو الشخص الذى تتوازن لديه هذه القوى ، هو الرجل من غير عائق ، الذى يرى ويتناول ما يحلم به الآخرون ، ويحتاز مجال التجارب كله ، ويمثل الإنسانية ، لأنه أعظم قوة تستقبل وتذيع .

للكون ثلاثة أطفال ، ولدوا في وقت واحد ، يعود ظهورهم تحت أسماء مختلفة في كل طريقة من طرق التفكير ، سواء يطلق عليهم السبب والعمل والأثر ، أو في عبارة أكثر من ذلك شاعرية چوف وپلوتو ونپتيون ، أو في عبارة دينية الآب والروح والإبن . ولكننا سوف نطلق عليهم هنا العالم والعامل والقائل . ويمثل هؤلاء على التوالي حبّ الحقيقة ، وحب الخير ، وحب الجمال . وهؤلاء الثلاثة على قدم المساواة . وكل واحد من هؤلاء الثلاثة هو من هو بالضرورة ، فلا يمكن قهره أو تحليله . وكل واحد منهم لديه ما لدى الآخرين من قوة كامنة فيه ، ولديه قوته الخاصة التي يتميز بها .

والشاعر هو القائل ، أو من يسمى الأشياء بأسمائها ، وهو يمثل الجمال . وهو سلطان يقف في الوسط لأن الدنيا لم تُصوّر أو تجمّل ، ولكنها جميلة منذ البداية . والله لم يصنع بعض الأشياء الجميلة ، ولكن « الجمال » هو خالق الكون . ومن ثم فالشاعر ليس حاكما يستمد النفوذ من سلطان ، وإنما هو إمبراطور بحقه الخاص . ولكن النقد موبوء بآفة المادية ، التي تفترض أن المهارة اليدوية والحركة هي الميزة الأولى بين الناس أجمعين ، وهو يحط من شأن أولئك الذين يقولون ولا يفعلون ، ويتغاضى عن أن بعض الناس — أعنى الشعراء — قوالون بالطبع ، يُعْثوا في العالم بقصد التعبير ، ويخلط بينهم وبين أولئك الذين ميدانهم العمل ، غير أنهم

يهجرونه لكي يقلدوا رجال القول . ولكن هو مري كلماته غالية
تدعو إلى الإعجاب ، كما يرى أجا ممنون انتصاراته كذلك . إن الشاعر
لا يتخلف عن البطل أو الحكيم ، ولكن كما أن البطل يعمل أولاً
والحكيم يفكر أولاً ، فكذلك الشاعر يكتب أولاً ما سوف يقال
وما ينبغي أن يقال ، ويعتبر الآخرين ، برغم أنهم كذلك أوائل ،
ثانويين أو تابعين بالنسبة إليه . كأنهم قعود أو نماذج في غرفة المصور
أو مساعدون يأتون بمواد البناء لمهندسى المباني .

لأن الشعر كتب كله قبل أن يبدأ الزمان . وكما كان تكويننا
رقيقاً بحيث نستطيع أن ننفذ إلى تلك المنطقة التي يكون فيها الهواء
موسيقى استمعنا إلى تلك التغايد الأولية ، وحاولنا أن ندونها ،
ولكننا نفقد بين الحين والحين كلمة أو بيتاً من الشعر ، ونستبدل
به شيئاً من عندنا ، ومن ثم ترانا نسيء تدوين القصيدة . أما أصحاب
الأذان المرهفة فيكتبون هذا القصيد في صدق وأمانة ، وتصبح
كتاباتهم — رغم ما فيها من نقص — أناشيد الأمم . لأن الطبيعة
فيها من الجمال الصادق بمقدار ما فيها من الحكمة . وينبغي أن
تُصور كما ينبغي أن يؤدي فيها عمل وكما ينبغي أن تُعرف . إنما
الألفاظ والأعمال أسلوبان من أساليب الطاقة لاختلاف البتة بينهما .
والكلمات هي كذلك أفعال ، والأفعال ضرب من ضروب الكلام .
وسمة الشاعر وميزته الكبرى انه يعلن ما لم يتنبأ به إنسان من
قبل . هو الطبيب الصادق الوحيد . إنه يعرف ويقول . وهو وحده

مردد الأنباء ، لأنه كان حاضراً وملاصقاً للصورة التي يصفها . إنه
 يبصر الأفكار ، ويعبر عن الضرورات والأسباب . ولست أتحدث
 الآن عن رجال ذوى مواهب شعرية ، أو عن أصحاب الصناعة والمهارة
 في النظم ، ولكنني أتحدث عن الشاعر الحق . اشتركت في حديث
 منذ بضعة أيام بشأن كاتب من كتاب الأناشيد المحدثين ، وهو رجل
 ذو عقل دقيق ، يبدو رأسه كأنه صندوق موسيقى تصدر عنه الأنغام
 الرقيقة والقوافي ، ومهارته وسيطرته على اللغة يفوقان كل ثناء . ولما
 تساءلنا هل هو منشد فحسب أم شاعر كذلك ، اضطررنا إلى
 الاعتراف بأنه رجل عصره فقط وليس من الرجال الخالدين . فهو
 لا يبرز عن حدودنا الضيقة ، كالشعبورازو الذي يعدو من المنطقة
 الحارة خلال جميع أجواء الكرة الأرضية ، ويتمنطق بأعشاب كل
 خط من خطوط العرض حول جوانبه المرتفعة المرقشة . إنما هذا
 العبقري أشبه بالحديقة الجميلة في البيت الحديث ، تجملها النافورات
 والتمائيل ، ويرودها الرجال والنساء من الأسر الكريمة وقوفاً
 وجالوساً في الممرات والشرفات . فنحن نسمع — خلال كل نغمات
 الموسيقى المتنوعة — النغمة السفلى للحياة التقليدية . إنما شعراؤنا
 رجال موهوبون ينشدون ، وليسوا أبناء الموسيقى . الموضوع عندهم
 ثانوى ، وصقل النظم أولى .

لأن القصيدة لا تتألف من الوزن ، وإنما تتألف من الفكرة
 الموزونة ، الفكرة العاطفية الحية التي — كروح النبات أو الحيوان —

لها هندستها الخاصة ، والى تزين الطبيعة زينة جديدة . الفكرة والصيغة متساويان من حيث القدم فى الزمان ، ولكن الفكرة — من حيث القدم فى النوع — تسبق الصيغة . للشاعر فكرة جديدة ، وله تجربة جديدة بأسرها يبسطها . انه يخبرنا كيف مر بهذه التجربة ، فيسمى كل امرئ أوفر ثروة مما كان . لأن تجربة كل عصر جديد تتطلب اعترافاً جديداً ، ويظهر أن الدنيا تنتظر شاعرها دائماً . أذكر حينما كنت شاباً كيف اهتزت مشاعرى ذات صباح عندما نمتى إلى أن العبقريّة بدت على شاب كان يجلس إلى جوارى على المائدة . لقد تخلى عن عمله وانطلق متجولاً إلى حيث لا يدري أحد ، وكتب مئات السطور ، ولكنه لم يستطع أن يقول إذا كان قد ضمنها ما بنفسه . لم يستطع أن يقول أكثر من أن كل شيء قد تغير — الإنسان والحيوان والسماء والأرض والبحر . لشد ما ابتهجنا لما سمعنا ! وما أسرع تصديقنا له ! وكأن المجتمع قد رضى واطمأن . وجلسنا فى ضوء الفجر عند مطلع الشمس حينما تنطفئ النجوم . وبدت بوسطن كأنها على ضعف البعد الذى كانت عليه فى الليلة السابقة ، أو لعلها كانت أبعد من ذلك . ثم روما ، وما أدراك ما روما ؟ وكأن فلوطارخس وشيكسبير قد آلا إلى الذبول ، ولم يعد أحد يسمع عن هومر . وكفانا أن نعرف أن الشعر قد كُتب هذا اليوم نفسه ، تحت هذا السقف نفسه ، إلى جوارك . عجباً ! إن ذلك الروح العجيب لم يميت ! وهذه الآثار

الحجرية مازالت تتلأأ وتذب فيها الحياة ! وكنت قد تصورت أن الكهان قد صمتوا ، وأن الطبيعة قد خبت نارها ، ثم أنظر ! وسط هذا الليل الحالك ، الذى يخيم فى كل مكان ، يبدو هذا الشفق الجميل . كل فرد يتشوق لظهور الشاعر ، ولا يدرى أحد إلى أى حد يهمه ذلك . إننا نعلم أن سر الدنيا عميق ، ولكننا لا ندرى من ذا أو ماذا سوف يكون مترجما لنا . إن جولة فى الجبل ، أو طرازا جديداً من الوجوه ، أو شخصاً جديداً يضع المفتاح بين أيدينا . وقيمة العبقرية لدينا هى بالطبع فى صدق الرواية . الموهبة قد تُلهى وقد تُخدع ، ولكن العبقرية تحقق وتزيد . وقد أدرك الإنسان الآن إدراكاً جديداً من دراسة نفسه وعمله أن من يسبق إلى القمة هو الذى يعبر عن رأيه ، فتكون كلمته هى أصدق الكلمات التى نطق بها إنسان ، وعبارته أنسب العبارات وأكثرها موسيقى ، وهى فى حينها صوت الدنيا الذى لا يخطئ .

كل ما نسميه التاريخ المقدس يدل على أن مولد الشاعر هو الحادث الأساسى فى سير التاريخ . فالمرء — الذى غالباً لا يُخدع قط — يرقب دائماً وصول أخ يستطيع أن يوقفه فى ثبات أمام حقيقة من الحقائق حتى يجعلها ملكاً له . ما أشد سرورى حيناً أشرع فى قراءة قصيدة أعتقد أنها من الوحي ! والآن تتحطم أغلالى ، فسوف أعتلى هذه السحب وتلك الأجواء المعتمة التى أعيش فيها — فهى معتمة وإن بدت شفافة — ومن سماء الحقيقة سوف أشهد

وأدرك علاقآتى . إن ذلك يجعل بينى وبين الحياة وفاقا ، ويجدد الطبيعة ، فأرى التوافق وقد اتجهت اتجاهها يبعث فيها الحياة ، وأدرك ما أنا صانع . إن الحياة لن تكون بعد الآن ضجيجاً . والآن سوف أرى الرجال والنساء ، وأدرك الدلائل التى يمكن أن يتميزوا بها عن الحمقى والشياطين . ولسوف يكون هذا اليوم خيراً من عيد ميلادى ، إذ أنى يوم ميلادى صرت حيوانا ، أما الآن فإننى أدعى إلى علم الواقع . هذا هو الأمل ، أما الثمرة فمؤجلة إلى حين . وكثيراً ما يحدث أن هذا الرجل ذا الأجنحة الذى سوف يحملنى إلى السماء يهوى بى إلى الضباب ، ثم يقفز ويظفر كأنه يثب من مسحابة إلى أخرى ، مؤكداً لى دائماً أنه إنما يرتفع بى صوب السماء . ولما كنت مستجداً لا أدرك عاجلاً أنه لا يعرف طريقه إلى السماء ، وأنه لا يقصد إلا أن أعجب بمهارته فى الصعود ، كأنه طائر أو سمكة طائرة ، يرتفع قليلاً فوق الأرض أو الماء . ولكن جو السماء النافذ المشبع المبصر لا يسكنه مثل هذا الرجل . فسرعان ما أهوى ثانية إلى ركنى القديم وأعيش عيش المبالغة كما كنت من قبل ، وأفقد إيمانى فى إمكان وجود مرشد يستطيع أن يقودنى إلى هناك ، حيث أحب أن أكون .

ولكن دعنا نترك ضحايا الغرور هؤلاء ، ونلاحظ بأمل جديد كيف أن الطبيعة — بدوافع أكثر من ذلك قيمة — قد وكلت إلى إخلاص الشاعر مهمة التعبير والتأكيد ، وذلك بحال الأشياء ،

الذى يصبح بالتعبير عنه جمالا جديداً أرقى . فالطبيعة تهب كل مخلوقاتنا له ، يتخذها لغة تصويرية . ولما كانت هذه المخلوقات تمتاز فإنها تكتسب قيمة عجيبة أخرى ، أكبر كثيراً من قيمتها الأولى ، كمشار النجار ، إذا أنت أعرته أذنًا مصغية ، ألفت لصوته في النسيم موسيقى . يقول چامبليكس « إن الأشياء التى تفوق كل صورة يُعبر عنها بالصور » . إن الأشياء تسمح باستعمالها رموزاً ، لأن الطبيعة رمز بأكملها وبكل جزء فيها . كل سطر يمكن أن نخطه فى الرمال له تعبير ، وليس هناك جسم بغير روح أو عبقرية . كل شكل أثر من آثار صفاته ؛ وكل ظرف أثر من آثار صفة الحياة ؛ وكل انسجام من آثار الصحة (ومن أجل هذا يجب أن ينطوى إدراك الجمال على العطف ، وأن يختص بالخير فقط) . الجمال يرتكز على أسس الضرورات . والروح تخلق الجسد ، أو كما يعلمنا سينسر الحكيم بقوله :

« إن كل روح — لأنها أظهر
وفى من ضوء السماء أكثر —
توجد الجسم الرقيق لتسكنه ،
وتكتسى كساء جميلاً .
فتبدو رشيقة جميلة ،
منظرها محبب إلى النفوس .
لأن الجسم يتخذ من الروح صورته ،
فالروح صورة ، وهى التى تخلق الجسد .

وطى حين غرة لا نجد أنفسنا متأملين ناقلين ، وإنما نحن في مكان مقدس ، ويجب أن نسير في حذر شديد وفي وقار . إننا نقف أمام سر الدنيا ، حيث يتحول الوجود إلى مظاهر ، والوحدة إلى تنوع .

الكون إخراج الروح إلى العالم الخارجى . وحيثما تكون الحياة فإنها تتفجر في مظاهر حولها . علمنا حسي ولذا فهو سطحي . فنحن نعالج الأرض والأجسام السماوية ، وعلم الطبيعة ، والكيمياء ، علاجا حسيًا ، كأنها موجودة بذاتها . ولكن هذه الأشياء ليست سوى اتباع لذلك الوجود الذى نملكه . يقول بروكس « إن السماء العظيمة تعرض فى أشكالها المتغيرة صوراً واضحة لجلال الإدراك العقلى ، لأنها تلازم فى حركتها طبيعة التفكير التى لا تظهر » . ولذا فإن العلم يتقدم دائماً مع ارتفاع الإنسان الحق ، متمشياً مع الدين والميتافيزيقا . أو ان ما لدينا من علم دليل على علمنا بأنفسنا . كل شيء فى الطبيعة يقابل قوى روحية ، فإذا بقيت أية ظاهرة مجهولة مظلمة فإن ذلك يكون مرده إلى أن القوى التى تناظرها عند المشاهد ، لم تفعل فعلها بعد .

فلا عجب إذن إذا بلغت هذه المياه من العمق ما يجعلنا نحلق فوقها بنظرة دينية . وجمال الأسطورة يدل على أهمية الحس ، للشاعر وللآخرين جميعاً . أو إن شئت فقل إن كل إنسان شاعر بمقدار ما يتأثر بسحر الطبيعة ، لأن الناس جميعاً لديهم الأفكار التى ليس

الكون سوى احتفال بها . وقد وجدت أن الفطنة تكمن في الرمز .
من يحب الطبيعة ؟ ومن لا يحبها ؟ هل هم الشعراء وحدهم ، ورجال
الفراغ والثقافة ، الذين يعيشون معها ؟ كلا . إنما هم كذلك الصيادون
والمزارعون والسائسون والقصابون ، وإن كانوا يعبرون عن حبهم
باختيارهم الحياة دون الألفاظ . إن الكاتب ليحب ما الذي يقدره
سائق العربة أو الصائد في الركوب وفي الخيل وفي الكلاب . إنها
ليست صفات سطحية . إنك حينما تتحدث إليه تجد أنه مثلك لا يقيم
وزنا لهذه الصفات . إنما عبادته عاطفية . ليست لديه تعريفات ،
ولكنه مسير في الطبيعة بالقوة الحية التي يحس وجودها . أنه لا ينع
بتقليد هذه الأشياء أو باللعب بها . إنما هو يحب الجدد في ريح الشمال ،
وفي المطر ، وفي الحجر ، وفي الخشب والحديد . والجمال الذي لا يُفسر
أثمن من الجمال الذي ندرك الغرض منه . أنه يعبد الطبيعة التي ترمز ،
أو الطبيعة التي تدل على ما وراء الطبيعة ، أو الجسم الذي تغمره
الحياة ، يعبد هذه الأشياء بطقوس لا تتم عن تهذيب ولكنها مشبعة
بروح الإخلاص .

وعمق هذه العلاقة وما يكتنفها من غموض تدفع الناس من
جميع الطبقات إلى استخدام الرموز . وليست مدارس الشعراء
والفلاسفة أشد ثملا برموزها من عامة الناس . وتستطيع أن تحصر
قوة الشارات والرموز في أحزابنا السياسية . أنظر مثلا إلى الكرة
الكبرى التي يدحرجونها من بلطيمور إلى تل بنكر ! وفي المواكب

السياسية ترى لوك يسير في منسج ، ولين في حذاء ، وسالم في سفينة . وشاهد برميل شراب التفاح ، والغرفة الحشبية في السفينة ، وساق شجرة الجوز ، والنخيل الهندي ، وكل ما يميز الأحزاب . وانظر إلى قوة الرموز القومية . فإن بضعة أنجم ، أو زهر الزنبق ، والفهود ، والهلال ، والسبع ، والنسر ، وغير ذلك من الأشكال — التي لا يعلم إلا الله وحده كيف اكتسبت قيمتها — على خرقة قديمة نسميها العَلَم ، ترفرف في الريح ، فوق حصن ، في أطراف الأرض ، تجعل الدماء تفور بمظهرها البدائي التقليدي . يحسب الناس انهم يمتقنون الشعر ، وهم جميعاً شعراء متصوفون .

وعلاوة على شيوع هذه اللغة الرمزية في العالم بأسره ، فإننا جميعاً نعلم قدسية المنفعة العظيمة لهذه الأشياء ، فهي تجعل من الدنيا معبداً ، أسواره مغطاة بالرموز والصور والنواهي السماوية ، مما يدل على أنه ليست في الطبيعة واقعة واحدة لا تحمل المعنى الكلي للطبيعة . والفروق التي نقيمها بين الحوادث ، والأمور ، سافلها وعاليها ، خالصها ووضيعها ، تختفي عندما نستخدم الطبيعة كرمز . إن الفكر يجعل كل شيء صالحاً للاستعمال . والألفاظ التي يستعملها رجل عليم بكل شيء تشتمل على الكلمات والصور التي نستبعدها من الحديث المذهب . وما هو وضع ، أو بذىء ، للبذىء ، يخطف السمع إذا استخدم في الحديث عن علاقة فيكرية جديدة . إن تقوى الأنبياء تظهرهم من خشوتهم ، والختان مثال لقوة الشعر في رفع الوضع

والآثم . والأشياء الصغيرة والوضيعة تصلح رموزاً كما تصلح الأشياء العظيمة . وكما زادت بساطة النموذج الذي يعبر عن القانون العام قوى تعبيره واشتد ثبوته في ذاكرة الناس . كما نختار أصغر الصناديق أو الحقائق لنحمل فيها الأداة التي أشد ما نكون حاجة إليها . والقوائم المجردة للكلمات تلهم العقل المتخيل الحساس ، فقد روى عن لورد تشاتهام انه أَلَفَ الإطلاع على قاموس يبلى حينما كان يستعد للكلام في مجلس النواب . وأتفه التجارب تغني غناء كافياً لجميع أغراض التعبير عن الرأي . فلماذا نستهي العلم بالحقائق الجديدة ؟ إن الليل والنهار ، والبيت والحديقة ، وقليلاً من الكتب ، وقليلاً من الأعمال ، تؤدي أغراضنا كما تؤديها جميع الحرف والمشاهد . فما أبعدنا عن استنفاد ما تدل عليه الرموز القليلة التي نستخدمها .

فإننا نستطيع أن نستعملها ببساطة عجيبة . ولا حاجة إلى أن تكون القصيدة طويلة . فكل كلمة كانت قصيدة في وقت ما . وكل علاقة جديدة كلمة جديدة . وكذلك نستخدم العيوب والنقائص لغرض مقدس ، وبذا نعبّر عن إحساسنا بأن شرور الدنيا ليست كذلك إلا للعين الشريرة . ويلاحظ علماء الأساطير أن النقائص — في الأساطير القديمة — تعزى إلى الطبائع المقدسة ، كما يعزى العرج لثُلُكَّان ، والعمى لكيويد ، وما إلى ذلك ، للدلالة على "الهوة والغزارة .

فكما أن الانفصال ، والبعد عن حياة الإله ، هو الذي يجعل

الأشياء قيحة ، فكذلك الشاعر ، الذي يعيد وصل الأشياء بالطبيعة ، و « بالكل » — الذي يعيد وصل حق الأشياء الصناعية ، وخوارق الطبيعة ، بالطبيعة ، بما لديه من عمق البصيرة — هذا الشاعر يتصرف في أبشع الحقائق في يسر شديد . يرى قراء الشعر القرى الصناعية والسكك الحديدية ، ويتصورون أن شعر المناظر الطبيعية تهدمه هذه الأشياء . لأن هذه الأعمال الفنية لم تقدس بعد في قراءتهم . ولكن الشاعر يرى أنها تنخرط في سلك النظام الشامل كما تنخرط فيه خلية النحل أو نسيج العنكبوت الهندسى . فالطبيعة سرعان ما تضمها إلى دواثرها الحيوية ، وتحب قطار العربات المنزلق كما تحب أشياءها . والعقل المركز — فوق ذلك — لا يهمه كم من المخترعات الآلية تعرض له . فلو أضفت إليها مليوناً ، مما يفوق في عجبه كل ما سبق ، فإن حقيقة الآلية لا تكسب مثقال ذرة . وتبقى الحقيقة الروحية دون تغيير ، كثرت الجزئيات أو قلت ، كما أن الجبل مهما علا ارتفاعه لا يهدم تقوس الكرة الأرضية . يذهب الصبي القروى الدكى إلى المدينة لأول مرة ، ولا يرتاح المدنى الهمام لما ييذى هذا القروى من قلة الإعجاب . ولا يعود ذلك إلى أنه لا يرى كل المنازل البديعة ، ويدرك أنه لم ير مثلها من قبل ، وإنما ذلك لأنه يتصرف فيها يرى بالسهولة التى يجد بها الشاعر مكاناً لسكة الحديد . إن القيمة الرئيسية للحقيقة الجديدة هى رفع قيمة حقيقة « الحياة » الدائمة الكبرى ، التى تستطيع أن تصغر إلى جانبها أى ظرف وكل ظرف

آخر ، والتي لا ترى فارقا بين حزام الخرز وتجارة أمريكا .
ولما كانت الدنيا تخضع للعقل هكذا فعلا وإسماً ، فإن الشاعر هو
الذى يستطيع أن ينطق بها . لأن الحياة قد تكون عظيمة ، فائنة ،
أخاذة — والناس جميعاً قد يدركون الرموز التي تسمى بها هذه
الحياة — إلا أنهم لا يستطيعون أن يستخدموا هذه الرموز استخداماً
أصيلاً . إنما نحن رموز ، ونسكن الرموز . العمال والعمل والآلات
والأشياء ، والميلاد والموت ، كل أولئك شارات . ولكننا نعطف
على هذه الرموز . ولما كنا نفتن بالمنافع الاقتصادية للأشياء ، فنحن
لا نعرف أنها آراء . أما الشاعر فإنه — بما لديه من إدراك عقلي
سام — يُكسبها قوة تجعلنا ننسى ما لها من فائدة قديمة ويضع أعينا
ولسانا في كل شيء أبكم للحياة فيه . إنه يدرك استقلال الفكرة عن
الرمز ، واستتباب الفكر ، وما يتصف به الرمز من زوال وعرض .
وكما أنهم يزعمون أن عيني لينسيس كانتا تخرقان الأرض بالنظر ،
فكذلك الشاعر يحيل الدنيا زجاجاً ، ويرينا الأشياء جميعاً في
تسلسلها ووضعها الصحيحين ، لأنه — عن طريق هذا الإدراك
الأقوى — يقترب خطوة نحو الأشياء ، ويرى سير تقلباتها ،
ويدرك أن للفكر صوراً عدة ، وأن صورة كل مخلوق تنطوي على
قوة تدفعه إلى الصعود إلى صورة أعلى ، ويتبع بعينه الحياة ، فيستخدم
الصور التي تعبر عن هذه الحياة ، وهكذا يتدفق حديثه مع تدفق
الطبيعة . كل حقائق الاقتصاد المادى ، والجنسى ، والتغذية ، والحمل ،

والميلاد ، والنمو ، إن هي إلا رموز لمرور الدنيا بروح الإنسان ، كي تتعرض فيها للتغير ، وتعود إلى الظهور حقيقة جديدة أعلى مرتبة . انه لا يستخدم الصور صوراً ، وإنما يستخدمها كرموز للحياة . وهذا هو العلم الحق . الشاعر وحده يعرف علم الفلك ، والكيمياء ، والنبات ، والحيوان ، لأنه لا يقف عند هذه الحقائق ، ولكنه يستخدمها كشارات . انه يعرف لماذا انتشرت هذه الأزهار التي نسميها الشمس والأقمار والنجوم فوق سهل الفضاء أو مرعاه ، ولماذا يتجمل المحيط العظيم بالحيوان والإنسان والآلهة . لأنه في كل كلمة ينطق بها يركب منها كأنها جياذ الفكر .

وبفضل هذا العلم يكون الشاعر هو المسمّى أو صانع اللغة ، يسمى الأشياء أحياناً وفق مظاهرها ، ويسميا أحياناً وفق مغزاها ، ويعطى كل شيء اسمه الخاص لا اسماً آخر . وبذلك يدخل السرور إلى العقل الذي يبتهج بالانفصال أو التحديد . الشعراء هم الذين صنعوا جميع الكلمات ؛ ولذا فاللغة هي سجل التاريخ ، أو — إن صح هذا التعبير — هي نوع من المقبرة لآلهة الشعر . وقد ننسى أصول أكثر الكلمات ، إلا أن كل كلمة كانت في أول أمرها لفظة من لفظات العبقريّة ، ثم اكتسبت المداولة ، لأنها في حينها كانت ترمز إلى الدنيا للتكلم الأول وللمستمع . إن عالم الاشتقاق يجد أن أشد الكلمات موثاقاً كان ذات يوم صورة لامعة . اللغة شعر متحجر . وكما أن الحجر الجيري في القارة يتألف من كتل لا نهاية لها من

أصداف الحيوانات الميكروسكوبية ، فكذلك اللغة تتألف من الصور والمجازات التي لم تعد — في استعمالها الثانوى — تذكرنا اليوم بمنشأها الشعري . ولكن الشاعر يسمي الشيء لأنه يراه ، أو يخطو نحوه خطوة أقرب من أى شخص آخر . وهذا التعبير ، أو هذه التسمية ، ليس فذاً ، ولكنه طبيعة ثانية ، تولدت عن الطبيعة الأولى ، كما تتولد الورقة من الشجرة . إن ما نسميه الطبيعة ليس إلا تحولا أو حركة معينة تنظم نفسها . و « الطبيعة » تعمل كل شيء بيديها ولا تترك غيرها يعتمدها ، ولكنها تعتمد نفسها . ويتم ذلك عن طريق التحول من صورة إلى أخرى مرة ثانية . أذكر أن شاعراً معيناً وصف لى ذلك فقال :

العبقرية هي الحركة التي تعوض موت الأشياء سواء كانت في كل حد أو إلى حد ما مادية محدودة . إن الطبيعة — خلال ممالكها كلها — تؤمن نفسها . إن أحداً لا يعبأ بزراعة الفطريات الحقيرة ، ولذا فهي تساقط من منابل الفطرية الواحدة بذوراً لا عداد لها ، كل واحدة منها — إن حُفظت — تنقل ملايين جديدة من البذور غداً أو بعد غد . والفطرية الجديدة في هذه الساعة لديها فرصة ليست للفطرية القديمة . وهذه الذرة من البذور يُلقى بها في مكان جديد ، لا تخضع للأحداث التي أتلقت البذرة التي ولدتها والتي تقع منها على بعد بضعة أمتار . الطبيعة تخلق الإنسان ، وعندما تبلغ به سن البلوغ ، لا تحاطر حينئذ بفقدان هذه الأعجوبة

بضربة واحدة ، ولكنها تفصل منه نفساً جديدة ، حتى يسمى النوع في أمن من الحوادث التي يتعرض لها الفرد . ولذا فإن روح الشاعر — عندما تبلغ نضوج الفكر — تفصل عنها القصائد والأناشيد وتنشرها — وتلك ذرية لا تخشى ولا تنام ولا تموت ولا تتعرض لحوادث دولة الزمان الكليّة : ذرية حية لا تخاف ، تكتسى بالأجنحة (وتلك كانت ميزة الروح التي نشأت عنها الذرية) التي تحملها على عجل وإلى مدى بعيد ، وتثبتها في قلوب الناس ثبوتاً لا يتزعزع ، تلك الأجنحة هي جمال روح الشاعر . والأغاني التي تنفصل عن مبدعها الفاني وتكتسب الخلود ، تتبعها نزوات من النقد ، تتجمع في حشد يفوقها عدداً ، وتهدد بالتهامها . ولكن هذه النزوات لا أجنحة لها . وفي نهاية وثبة قصيرة جداً تسقط هذه النزوات ثقيلة ، وتفسد ، لأنها لم تتلق من الأرواح التي صدرت عنها أجنحة جميلة . ولكن أناشيد الشاعر تصعد ، وتثبت ، وتخرق أعماق الزمان الذي لا نهاية له .

هذا ما علمنيه الشاعر ، وقد استخدم فيه كلاماً حراً . بيد أن للطبيعة في إنتاجها أفراداً جدداً — هدفاً أعلى من الضمان ، وذلك هو « الصعود » ، أو انتقال الروح إلى صورة أرقى . عرفت في أيام حداشي النحات الذي صنع تمثال الشباب الذي أقيم في الحديقة العامة . وكان — كما أذكر — عاجزاً عن أن يقول مباشرة ما جعله سعيداً أو غير سعيد ، ولكنه استطاع القول بطرق عجيبة غير

مباشرة . نهض ذات يوم — كعادته — قبل الفجر ، وشاهد مطلع
الصباح ، جليلاً كالأبدية التي انشق منها ، ولعدة أيام بعد ذلك حاول
أن يعبر عن اطمئنانه ، فكان أن شكّل بأزميله من المرمم صورة
شاب جميل ، فسُفُورس ، الذي يقال إن عجياه يصيب بالعمت كل
ناظر إليه ، وكذلك الشاعر يستسلم لمزاجه ، والفكرة التي تهز
مشاعره يعبر عنها بأسلوب جديد كل الجدة . التعبير عضوى ، أو هو
الطراز الجديد الذي تتخذ الأشياء نفسها عندما تتحرر . وكما أن
الأشياء — في الشمس — تطبع صورها على شبكة العين فهي كذلك
— لأنها تشارك طموح العالم بأسره — تميل إلى أن تطبع في العقل
صورة من جوهرها أرق منها بكثير . فالتحول إلى الأناشيد شبيه
بتحول الأشياء إلى صور عضوية أرقى . إن لكل شيء شيئاً شبيهاً
أو روحاً ، وكما أن صورة الشيء تعكسها العين ، فكذلك روح الشيء
تعكسه الأنشودة . إن البحر ، وحافة الجبل ، ونيابجارا ، وكل حوض
من حياض الزهر ، سابق في وجوده . أو هو موجود وجوداً أعلى ،
في أغان سابقة ، تسبح كالعطور في الهواء ، وكلما مر بها إنسان ذو
أذن مرهفة إرهافاً كافياً استمع إليها ، وحاول أن يدون النغم دون
أن يفسده أو يدنسه . ومن ثم يرى النقد — الذي يصدر عن
العقل — إن القصائد ترجمة فاسدة لأصل من أصول الطبيعة ، عليها
أن تسجله . إن الوزن في إغنية من أغانيها يجب ألا يقل إمتاعاً عن
العقد المكررة في الصّدف البحرية ، أو ما يشبه ذلك من فروق

كائنة في مجموعة من الزهور . إن تزاوج الطيور قصيدة ، ليست
مملة كقصائدنا ، والعاصفة أنشودة طبيعية ، تخلو من الباطل واللغو .
والصيف ، بمحصول زرعه ، الذى يُجمع ويخزن ، ملحمة غنائية ،
دونها كثير من إنتاج العقل مهما كان أدائه داعياً للعجاب . فلماذا
لا ينساب فى أوراخنا التوازن والصدق الذى يسرى لحنه فى هذه
الأشياء ، ولماذا لانشاط الطبيعة إبداعها ؟

وهذه الفراسة ، التى تعبر عن نفسها بما يسمى « الخيال » ضرب
رفيع من ضروب النظر ، لايتأتى بالدرس ، ولكن بالعقل ، الذى
يوجد حيث يرى ويصبح نفس ما يرى ، والذى يشارك الأشياء
تحولها إلى أشكال ، فيجعلها تشف عن غيرها . إن تحول الأشياء
صامت ، فهل تحتل أن يصاحبها متكلم ؟ إنها لا تحتل من يتجسس
عليها . أما العاشق أو الشاعر ، فهو إنسان يعلو على طبيعتها —
فهى تحتمله . إن شرط التسمية الصحيحة — عند الشاعر — هو
استسلامه للروح المقدسة التى تنفس خلال الأشكال ، ومصاحبته لها .
كل رجل عاقل سرعان ما يدرك هذا السر : وهو أن وراء
طاقة عقله الواعى الذى يملكه ، قدرة على طاقة أخرى (كأنها العقل
يتضاعف) ، يحسها إذا خلّى بين نفسه وبين طبائع الأشياء . وفوق
قدرته الخاصة كفرد قدرة عامة عظمى ، يستطيع أن يستمد منها
إذا هو خاطر بفتح مغاليق أبوابه الإنسانية ، وتعرض للتيارات
الأثرية التى تدور وتتغلغل فى نفسه . انه عندئذ ينخرط فى سلك

حياة « الكون » ، فيصبح كلامه رعداً ، وفكره قانوناً ، ويفهم العالم كله كلماته كما يفهم النبات أو الحيوان . لا يدرك الشاعر أنه يحسن الكلام إلا حينما يصدر عنه الكلام على سجيته أو عندما يتكلم « بزهرة العقل » ؛ ولا يتكلم بالعقل كعضو ، وإنما يتكلم به متحلاً من كل غرض ، ومتخذاً وجهته من حياته السماوية . أو — كما اعتاد القدماء أن يعبروا عن أنفسهم — لا يتكلم بالعقل وحده ، ولكن بالعقل أسكره شراب الآلهة . وكما أن المسافر الذي ضل طريقه يلقي الصرعى على ظهر جواده ، ويستسلم لغريزة الحيوان كى يجد طريقه ، فكذلك ينبغي لنا أن نفعل مع الحيوان المقدس الذى ينطلق بنا خلال هذا العالم ، لأننا إن استطعنا بأية وسيلة أن ننبه هذه الغريزة تفتحت لنا فى الطبيعة طرق جديدة ، وانطلق العقل فى الأشياء وخلالها مهما شقت وعلت ، وأصبح التحول من حال إلى حال ممكناً .

من أجل ذلك أحب الشعراء الخمر ، والشراب المعتق ، والمخدرات ، والقهوة والشاى والأفيون ، ودخان خشب الصندل والتبغ ، وكل ما يجلب البهجة والسرور . وكل إنسان ينتفع بمثل هذه الوسائل ما استطاع كى يضم إلى قدرته الطبيعية هذه القدرة الخالقة . ولتحقيق هذا الغرض تراهم ينشدون الحديث ، والموسيقى ، والصور ، والتماثيل ، والرقص ، والتمثيل ، والأسفار ، والحرب ، والجماهير ، والنيران ، والألعاب ، والسياسة ، والحب ، والعلم ،

وما يُسكر الجسم ، وكلها أشياء مصطنعة آلية — غلظت أورك —
نستعيز بها عن الشراب الإلهي الصادق ، وهو فتنة العقل بزيادة
القرب من الحقيقة . إنما هذه الأشياء مساعِدة لما عند الإنسان من
ميل شديد إلى الخروج عن نفسه ، وإلى انتقاله إلى الفضاء الحر
الفسيح . وهي تعاونه على الفرار من سجن ذلك الجسد الذي يحتبس
فيه ، ومن سجن العلاقات الفردية الذي يضمه . ومن ثم كان عدد
كبير ممن احترقوا التعبير عن الجمال ، كالصوريين ، والشعراء ،
والموسيقين ، والممثلين ، يميلون أكثر ممن سواهم إلى أن يعيشوا
عيشة المتعة والاستهتار . كلهم ما خلا القلة التي تناولت الشراب الإلهي
الخالص . وحيث أن وسيلتهم كانت وسيلة زائفة لبلوغ الحرية ،
وحيث أن تحررهم لم يكن نحو السماء ، وإنما حرية نحو الأماكن
السفلى ، فقد لاقوا عقوبتهم من أجل تلك الميزة التي ظفروا بها ،
وذلك بتشتيت أذهانهم وتأخيرهم ، ولكن الطبيعة لا يمكن أن تستل
منها المنفعة بالعصا . إن روح الدنيا ، وحضرة الخالق الهادئة الجليلة ،
لا تخرج إلى سحر الأفيون أو الخمر . إنما الرؤيا السامية تأتي إلى
الروح الطاهرة الساذجة في الجسم الطاهر العفيف . وليس وحيّاً
ما نستمدّه من المخدرات ، وإنما هي إثارة حسية وفورة زائفة .
يقول ملتن إن الشاعر الغنائى يستطيع أن يشرب الخمر ويعيش عيشاً
كريماً ، ولكن شاعر الملاحم ، الذي بنشد نشيد الآلهة ، ويفنى قصة
هبوطهم إلى الإنسان ، يجب أن يشرب الماء من وعاء خشبي ، لأن

الشعر ليس « خمر الشيطان » ولكنه خمر الآلهة . وما أشبه ذلك بلعب الأطفال . إننا نغلاّ أيدي أطفالنا ودور حضانتهم بكل أنواع العرائس ، والطبول ، والخيول ، فنجذب أعينهم بعيداً عن وجه الطبيعة الصبوح وما فيها من أشياء تكتفى بذاتها ، كالشمس والقمر ، والحيوان والماء والحجر ، التي ينبغي أن تكون اللعب التي بها يلهون . وكذلك عادات الشاعر في حياته ينبغي أن تتبسط حتى تبتهج نفسه لكل مؤثر عادي . يجب أن يكون ابتهاجه هبة الشمس المضيئة ، ويجب أن يكفي الهواء لإلهامه ، ويجب أن يُسكره الماء . إن الشراب الذي يكفي القلوب المهادنة ، والذي يبدو أنه يأتي إليها من كل رابية جافة من الحشائش الذابلة ، ومن كل ساق مبتورة من سوق الصنوبر ، ومن كل حجر نصف مطمور ، تسطع عليه شمس مارس الفاترة ، هذا الشراب يأتي إلى المسكين والجائع ، وإلى أصحاب الأذواق الساذجة . وإذا أنت ملأت عقلك بشراب بوسطن ونيويورك ، وبالطرز الجديدة والشهوات ، وأثرت حواسك المنهوك بالنيذ والقهوة الفرنسية ، لما وجدت شعاعاً من الحكمة في بيداء الغابات الصنوبرية المنعزلة .

وإذا كان الخيال يُسكر الشاعر ، فهو ليس عديم الأثر في غيره من الناس . إن التحول من صورة إلى أخرى يشيع السرور في نفس المشاهد ، ولاستخدام الرموز قدرة خاصة على التحرير وعلى إدخال البهجة إلى قلوب الناس جميعاً . فكان عصا سحرية تمسنا ،

وهذه العصا تجعلنا نرقص ونعدو ومرحين كالأطفال ، ونكون كمن يخرج من كهف أو غار إلى الهواء الطلق . هذا هو أثر الإستعارات والأساطير والكهانة وكل الصور الشعرية فينا . ومن ثم فإن الشعراء آلهة تحررنا ، فيتكون لدى الناس فعلاً إحساس جديد ، ويجدون داخل دنياهم دنيا أخرى أو مجموعة من الدنى . لأننا لمجرد رؤية التحول نتنبأ بأنه لن يقف عند حد . ولن أذكر الآن مقدار ما يخلفه ذلك من سحر في علم الجبر ، والرياضيات ، التى لها كذلك مجازها ، ولكننا نحسه فى كل تعريف ، نحسه مثلاً عندما يعرف أرسطو « المكان » بأنه وعاء ثابت يحتوى الأشياء — أو حينما يعرف أفلاطون « الحظ » بأنه النقطة المتحركة ، أو « الشكل » بأنه تحديد الجسم الصلب ، وما إلى ذلك . ما أشد سرورنا بالإحساس بالحرية عندما يعلن قثروقيس رأى الفنانين القدامى بأن مهندس البناء لا يستطيع أن يحدد تشييد بيت من البيوت إذا لم يعرف شيئاً عن علم التشريح . وعندما نخبرنا شارميدز أن الروح تُشفى من أمراضها بتعاويد خاصة ، وأن هذه التعاويد أسباب جميلة يتولد عنها الاعتدال فى الأرواح ؛ وحينما يسمى أفلاطون الدنيا حيواناً ، ويؤكد تيميس أن النباتات كذلك حيوانات ، أو يؤكد أن الإنسان شجرة سماوية ، ينمو هو وجذره — وهو الرأس — إلى أعلى ، أو كما يقلده جورج تشايمان فيقول :

» كذلك في شجرتنا الإنسانية ،

التي تظهر شعيرات جذورها أعلاها . . »

وحينا يتحدث أوفيس عن بياض الشعر كأنه « تلك الزهرة البيضاء التي تتميز بها الشيخوخة » ، أو حينما يسمى بروكس الكون شمال العقل ، أو حينما يقارن شوسر — في ثنائه على دماثة الأخلاق — الدم الطيب في الظروف السيئة بالنار التي — حتى إن انتقلت إلى أظلم بيت بين هذا المكان وجبل القوقاز — سوف تحتفظ دائماً بوظيفتها الطبيعية ، وتحترق لأمعة كأن عشرين ألف رجل يشهدونها ؛ أو حينما رأى حنا في سفر الرؤيا خراب الدنيا عن طريق الشر ، والنجوم تهوى من السماء ، كما تنبذ شجرة التين فاكهتها في غير إبانها ؛ أو حينما يصور أيسوب العلاقات العادية اليومية كلها على لسان الطير والوحش — إننا نلمس الدلائل البهيجة التي تنم عن جوهر الإنسان ، كما تنم عن تشكل هذا الجوهر في أشكال مختلفة وتحوله من حال إلى حال ، أو كما يقول العجر عن أنفسهم « من العبث أن تشنقهم ، فإنهم لا يموتون » .

فالشعراء إذن آلهة للتحرير . وقد كان المنشدون البريطانيون القداحي يطلقون على طائفتهم « أولئك الأحرار في الدنيا بأسرها » . إنهم أحرار ، وهم كذلك محررون . والكتاب الخيالي يؤدي لنا خدمة أول الأمر — عن طريق إثارته لنا بما فيه من استعارات — أكثر بكثير مما يؤدي لنا فيما بعد حينما نصل إلى المغزى الحقيقي الذي

هدف إليه المؤلف . ولا أحسب في الكتب شيئاً قيمياً سوى ماتوىء
إليه مما يفوق العقل ويخرج عن المؤلف . فإذا ألهمت الفكرة إنساناً
وحلقت به ، فنسى المؤلفين والجمهور ، ولم يعبأ إلا بهذا الحلم
الوحيد ، الذى يستولى عليه كأنه الجنون ، فدعى أقرأ صحيفته ،
وأخلى لك عن كل البحوث والتواريخ والنقد . كل القيمة التى تعزى
إلى فيثاغورس ، وباراكلسس ، وكورنيليس أجربا ، وكاردان ،
وكابر ، وسودنبرج ، وشلنج ، وأوكن ، أو غيرهم ممن يقم فى
نظرياته وقائع تدعو إلى التساؤل ، كذكر الملائكة ، أو الشياطين ،
أو السحر ، أو التنجيم ، أو قراءة الكف ، أو التنويم ، أو ما إلى
ذلك — هذه القيمة هى ما يشهد لنا على ابتعادهم عن المؤلف ، وعلى
أن أمثال هؤلاء شهود جدد . وهذا كذلك هو خير ما يدعو إلى
النجاح فى الحديث ، سحر الحرية ، الذى يضع الدنيا فى أيدينا كأنها
كرة . ما أرخص ما تبدو الحرية نفسها عندئذ ، وما أقل شأن
الدراسة ، حينما تمت عاطفة من العواطف العقل بالقدرة على خلخلة
الطبيعة وقلبها . وما أعظم هذا المشهد ! إن الأمم ، والأزمان ،
والنظم ، تدخل وتختفى ، كالحبوط فى بساط ذى رسم كبير وألوان
عديدة . الحلم يسلمنا إلى حلم آخر ، وما دامت حالة التمثل قائمة فإننا
نبيع فراشنا ، وفلسفتنا ، وعقيدتنا ، فى سبيل هذا الثراء .

ولدينا سبب قوى لتقدير هذا التحرير . إن مصير الراعى الفقير ،
الذى يعنى ويضل طريقه فى العاصفة الثلجية فهلك فى كومة من

الثلج على بعد أقدام قليلة من باب كوخه ، هذا المصير رمز لحالة الإنسان . إننا نموت موتاً يائساً على حافة مياه الحياة والحق . إن استحالة بلوغنا أية فكرة سوى تلك التي تستولى علينا أمر عجيب . وماذا يحدث لو اقتربت منها ؟ سوف تظل بعيداً عنها ، وأنت أقرب ما تكون إليها بعدك عنها وأنت أقصى ما تكون منها . وكل فكرة هي كذلك سجن ، وكل سماء هي كذلك سجن . ولذا فنحن نحب الشاعر ، أو المخترع الذي يقدم لنا فكرة جديدة في أية صورة ، سواء في أنشودة ، أو في عمل ، أو في مرآة ومسلكه . إنه يفك أغلالنا ، ويطلعنا على منظر جديد .

هذا التحرير عزيز على الناس جميعاً ، والقدرة على منحه مقياس للعقل ، لأنه يصدر عن عمق للفكر مسحيق ومدى بعيد . ومن ثم فإن جميع كتب الخيال تبقى ، لأنها جميعاً تصعد إلى الحقيقة ، فيرى الكاتب الطبيعة تحت ناظره ، ويتخذها هادياً له ومرشداً . وكل بيت من الشعر ، وكل عبارة ، تتصف بهذه الميزة ، تضمن لنفسها الخلود . إن ديانات العالم ليست إلا ما ينطق به رجال قلائل من أرباب الخيال .

ولكن صفة الخيال التدفق ، لا التجمد . والشاعر لا يقف عند اللون أو الشكل ، ولكنه يقرأ مغزاهما . ولا يقنع بهذا المغزى ولكنه يجعل الأشياء ذاتها موضحة لفكره الجديد . وهنا تجد الفارق بين الشاعر والتصوف ، وهو أن التصوف يعزو رمزاً واحداً للمعنى

الواحد ، وهو معنى صادق في حينه ، ولكنه سرعان ما عيسى عتيقاً زائفاً . لأن الرموز جميعاً تتصف بالتحول المستمر . وكل اللغات وسائل متعددة ، تصلح للنقل كما تصلح الخيل للسفر ولا تصلح للاستقرار كالزراع والمنازل . ويتميز التصوف بأنه يحسب الرمز العرضي والفردى رمزاً عالمياً . فقد كانت حمرة الصباح الشهاب المفضل لعيني يعقوب بهمن ، وتمثل له الحق والإيمان ، ويعتقد أنها يجب أن تمثل هذه الوقائع لكل قارئ . ولكن القارئ الأول يفضل بطبيعته — مثلما يفضل هذه الحمرة — رمز الأم والطفل ، أو البستاني وأبصاله ، أو الجوهري يصقل جواهره . أى واحد من هؤلاء ، أو من آلاف غيرها ، يؤدى الغرض عينه للرجل الذى يرى فيها دلالة ، وذلك على شريطة أن يتناولها بخفة ، ويترجمها راغباً إلى نظائرها من المصطلحات التى يتخذها غيره . ويجب أن يقال للمتصوف فى ثبات : إن كل ما تقول صادق بغير استخدام الرموز المحلى كما هو صادق به . ولنستبدل بهذه البلاغة الغثة قليلاً من الجبر — لنأخذ الرموز العالمية بدلاً من هذه الرموز القروية — وسوف يكون كلانا من الراجحين . ويبدو أن تاريخ السلطات الدينية يبين أن كل الخطأ الدينى كان مرجعه إلى أنها جعلت الرمز صلباً لا يلين ، حتى لم يعد هذا الرمز آخر الأمر سوى مبالغة فى وسيلة اللغة .

ومن بين رجال العصر الحديث جميعاً يبرز سودنبرج كترجم للطبيعة إلى الفكر . ولست أعرف فى التاريخ رجلاً تمثلت له الأشياء

بانتظام فى كلمات كما تمثلت له . فتحوّل الأشياء من صورة إلى أخرى كان لديه مستمراً بغير انقطاع . كل ما تقع عليه عيناه يخضع لدوافع الطبيعة المعنوية فيصبح التين عبأ وهو يأكله . وعندما يؤكد له بعض ملائكته حقيقة ما ، ترى كأن أغصان الغار التى يمسكون بها تزهى فى أيديهم . والضجة التى تبدو على بعد كأنها صرير الأسنان أو التخبط ، يتبين عند الاقتراب أنها صوت المجادلين . وفى إحدى رؤاه يظهر الناس له — إذا تسلط عليهم ضوء السماء — كالأفعوانات ، وكأنهم فى الظلام ؛ ولكن هذه الأفعوانات كان يرى أحدها الآخر إنساناً ، فإذا ماسطع على مخابئها نور السماء ضجت من الظلام ، وأرغمته على إغلاق منافذها حتى تستطيع أن ترى .

كانت لديه هذه الصفة العقلية ، التى تجعل الشاعر أو المتنبي شيئاً مفزعاً مريعاً ، أعنى أن الرجل عينه ، أو مجموعة الرجال ، قد يتخذون لأنفسهم ولزملائهم صورة ما ، ولكنهم يتخذون فى أعين أصحاب العقول الراجحة صورة أخرى . إن بعض القسوس الذين وصفهم كأنهم يتحدثون معاً عن علم غزير ، ظهوروا للأطفال الذين كانوا على بعد ما كالجياد الميتة : ومن هذه المظاهر الكاذبة الكثير . ويتساءل العقل على الفور إن كانت هذه الأسماك تحت القنطرة ، وتلك الثيران فى المرعى ، وأولئك الكلاب فى الفناء ، هى أسماك ، وثيران ، وكلاب لا تتغير ، أم هل هى تبدو لى كذلك فقط ، وربما بدت لنفسها أناسىً كاملين ؛ وهل أبدوا أنا رجلا فى كل عين ؟

وقد طرح هذا السؤال عينه البراهمة وفيثاغورس ، وليس من شك أن كل شاعر شاهد هذا التحول قد ألفاه متفقاً مع مختلف التجارب . وقد رأينا جميعاً التغير العظيم في نبات القمح وذود القراش . إنما الشاعر هو الذى يرى من خلال الثوب الفضفاض الطبيعة الثابتة ، ويستطيع أن يعبر عنها ، وإنه ليجذبنا إليه بالحب والفزع .

إننى أبحث عبثاً عن الشاعر الذى أصف . إننا لا نوجه كلامنا إلى الحياة ، فى وضوح كاف ، أو فى عمق كاف . ولا نجرؤ على التغنى بأزماننا وظروفنا الاجتماعية . وإذا كنا نملأ النهار بالشجاعة فلا ينبغي أن نجفل من الاحتفال بها . إن الزمان والطبيعة يقدمان إلينا هبات كثيرة ، ولكنهما لم يقدمتا إلينا بعد رجل الساعة ، أو الدين الجديد ، أو الرجل الذى يوفق بين مختلف الأمور ، والذى تنتظره جميع الأشياء . إن دانتى يستحق الثناء لأنه جرؤ على أن يكتب سيرته فى رمز عظيم ، أو فى صيغة عالمية . ولكننا لم نظفر بعد فى أمريكا برجل نابغ ، ذى عين نافذة ، تعرف قيمة ما لدينا من مواد لا نظير لها ، وترى فى وحشية هذا العهد وماديته عيداً آخر للآلهة عينها التى يعجب أشد الإعجاب بصورها عند هومر ، ثم فى العصر الوسيط ، ثم فى مذهب كالثن . إن البنوك وقوائم الأسعار ، والصحف واجتماعات الانتخابات ، ومذهب النظامية ومذهب التوحيد ، مملة سخيفة لقوم مسخفاء ، ولكنها تركز على نفس أسس التعجب التى تركز عليها مدينة طروادة ومعبد دلفس ،

وسوف تزول بنفس السرعة التي زالت بها . إننا لم نتفنن بعد
بوسائلنا في قطع الأخشاب وجذوع الشجر ، ومصائد أسماكنا ،
وعبيدنا وهنودنا ، وسفنتنا وما تنكر من مذاهب ، وغضب الرعاع
وجبن الأمماء ، وتجارة الشمال ، وزراعة الجنوب ، وتفريغ الغرب ،
وأورجن وتكساس . ومع ذلك فأمریکا قصيدة في أعيننا ، وتقويم
بلدانها الفسيحة يهر الخيال ، ولن يطول انتظارها حتى يتغنى بها
الشعراء . وإذا كنت لم أجد بعد ذلك المزيج المختار من الهبات الذي
أبحث عنه في مواطني ، فإنني لن أستطيع كذلك أن أعين نفسي على
تثبيت فكرة الشاعر بالاطلاع بين الحين والآخر على مجموعة تشالمر
للشعراء الإنجليز في خمسة قرون . فلقد كان هؤلاء رجالا ذوي
فطنة أكثر مما كانوا شعراء ، وإن كان من بينهم شعراء . ولكننا
عندما نتعمسك بالمثل الأعلى للشاعر لا نخلو من المشكلات حتى مع
ملتن وهومر . فلقد كان ملتن أدبيا أكثر مما ينبغي ، وكان هومر
حرفيا وتاريخيا أكثر مما يلزم .

ولست أحسب أن لدى من الحكمة ما يكفي للنقد القومي ،
وينبغي لي أن ألجأ إلى التسامح القديم قليلا ما كي أنقل رسالتي من
إله الشعر إلى الشاعر فيما يتعلق بفته .

الفن هو سبيل الخالق إلى عمله . والسبل أو الوسائل مثالية
خالدة . وإن قل من الناس من يراها ، ولا الفنان نفسه لبضع
سنوات ، أو مدى حياته ما لم تنهيا له الظروف . إن المصور والنحات

والملمحن ، وكاتب الملاحم ، والخطيب ، كل أولئك يشتركون في رغبة واحدة وهى أن يعبروا عن أنفسهم تعبيراً متزنأً غزيراً ، لا تعبيراً ناقصاً أو متقطعاً . وقد وجدوا أنفسهم أو وضعوها في ظروف معينة ، كما يفعل المصور أو النحات أمام صورة إنسانية ذات أثر ، أو الخطيب في جماعة من الناس ، والآخرون في المنظر الذى يجده كل منهم مثيراً لذهنه ، فيحس كل منهم في الحال بالرغبة الجديدة . فقد يسمع صوتاً أو يرى إشارة ، فيعرف في عجب ، أى قطعان من الجن تحاصره . فلا يستطيع الراحة بعد ذلك ، ويقول مع المصور القديم « تالله ، إنها في نفسى ، ويجب أن تخرج منى » . انه يتابع جمالاً يفر أمامه ولا يرى منه إلا نصفه . والشاعر يتدفق بالنظم في كل عزلة . وليس من شك في أن أكثر ما يقول مألوف ، ولكنه بين الحين والحين يقول شيئاً مبتكراً جميلاً . وذلك يفتنه . وانه ليود ألا يقول شيئاً آخر غير هذه الأشياء . إننا في أسلوب كلامنا نقول : « هذا ملكك ، وهذا ملكى » . بيد أن الشاعر يعرف جيداً أن هذا الشيء ليس ملكاً له ، وإنما هو غريب عنه وجميل في عينه كما هو غريب عنك جميل في عينيك . وإنه ليسره أن يسمع مثل هذه الفصاحة في النهاية . وما إن تذوق هذا الرحيق الحالد ، حتى يزداد جشعاً إليه . ولما كانت قدرة خالقة عجيبة تكمن وراء هذه المعقولات فإن التعبير عن هذه الأشياء لا يهم كثيراً بعد ذلك . ألا ما أقول ما يقال مما نعرف ! وما أقول القطرات التى تنضح من بحر علومنا !

وما أعجب للمصادفات التي تدعو إلى عرض ما نعرف ، وما أكثر الأسرار التي تكمن في الطبيعة ! ومن ثم كانت ضرورة الحديث والغناء ، ومن ثم كانت هذه النبضات وضربات القلب عند الخطيب ، عند مدخل الاجتماع ، كي يعبر عن الفكرة تعبيراً يشبه الكلمة المقدسة .

لا تشكّ أيها الشاعر ، بل أيها القسيس . وقل « انه بنفسى ، وسوف يصدر عني » . قف مكانك مكبوح الجراح ، أبكم تتلعم وتتردد في الكلام ، تصفر وتنقع . قف وجاهد حتى يجتذب الغضب منك في النهاية تلك القوة الحاملة التي تظهرك كل مساء ملكاً لنفسك . تلك القوة التي تتخطى كل الحدود وكل خلوة ، والتي بفضلها يكون المرء سائق بحر الكهرباء كله . لا شيء يمشى أو يزحف أو ينمو أو يوجد إلا يتحتم بدوره أن ينهض ويسير أمامه ليوضح له معناه . وإذا ما بلغ هذه القوة فإن عبقريته لا تنفد بعد ذلك . كل المخلوقات ، أزواجاً وقبائل ، تتدفق في عقله ، كأنها تتدفق في سفينة نوح ، كي تخرج للناس مرة أخرى عالماً جديداً . وما أشبه ذلك بكمية الهواء التي تنففسها ، أو تحترق بها مدفئتنا . إنها لا تقاس بالميزان ، ولكنها تشمل الجو كله إن أردنا . ولذا فإن الشعراء المجيدين ، كهو مر ، وشوسر وشيكسبير ورفايل ، ليس — من الواضح — لأعمالهم حد ، اللهم إلا حد أعمارهم . وهم يشبهون المرأة تمر بالطريق ، مستعدة لأن تكون صورة لكل شيء مخلوق .

أيها الشاعر ! إن بالأحراش والمراعى شرفاً جديداً ، لا تجده
بعد اليوم على القلاع ، أو على شفرات السيوف . والظروف قاسية ،
ولكنها متكافئة . وسوف تترك الدنيا ولا تعرف سوى إله الشعر .
لن تعرف بعد اليوم العهود ، والعادات ، والنعم ، والسياسة ، أو آراء
الناس . ولكنك سوف تستمد كل شيء من آلهة الشعر ، لأن عصر
المدائن قد ولى من الدنيا ودق ناقوس نعيه وشيعت جنازته .
ولكن الساعات العالمية تُعد في الطبيعة بتوالي قطمان الحيوان
وفصائل النبات وبتضاعف السرور فوق السرور . ويريد الله
كذلك أن تتنازل عن حياة متعددة النواحي متنوعة ، وأن تقنع
بأن يتحدث نيابة عنك الآخرون . سيكون غيرك نيابة عنك الرجال
المهذبين الذين يمثلون المجاملات والحياة الدنيوية . وكذلك سيقوم
غيرك بالأعمال العظيمة ذات الرنين . أما أنت فسوف تستلقي في
أحضان الطبيعة ، لا تملك أن تنتمى إلى مجالس النواب أو دوائر
المال . الدنيا مليئة بالمنبوذين والأتباع ، وأنت من هؤلاء . يجب أن
يحسبك الناس من الغافلين والحمقى دهرأ طويلاً . فذلك هو الستار
والغمد الذي وقى فيه « بان » زهرته المحبوبة ، ولن يعرفك إلا
نفسك وحدها ، وسوف يواسونك بالحب الرقيق . ولن تستطيع
أن تردد أسماء أصدقائك في نظمك ، فذلك عار كبير إزاء المثل الأعلى
المقدس . وهذا جزاؤك : أن يكون المثالي حقيقياً لك ، وأن تسقط
على روحك التي لا تنلّم مؤثرات العالم الواقعي كما تسقط أمطار الصيف

غزيرة ولكنها لا تؤذى . سوف تكون الأرض كلها حديقتك
وموطنك ، والبحر مغسلك ومجال ملاحتك ، لا يفرض عليك ذلك
ولا تحسد عليه . وسوف تكون لك الغابات والأنهار ، وسوف
تملك ما يقيم فيه غيرك مستأجراً عابراً . أنت مالك الأرض الحق ،
ومالك البحر ، ومالك الهواء ! وحيثما سقط الثلج ، أو تدفق الماء ،
أو حلق الطير ، وكلما التقى الليل بالنهار في الشفق ، وكلما علت في
السماء الزرقاء السحب ، أو انتشرت فيها الكواكب ، وحيثما كانت
الصور ذات الحدود الشفافة ، وحيثما وجدت المنافذ في الفضاء
العلوى ، وحيثما حل الخطر ، والفرح ، والحب ، هنا يكون الجمال
وافراً كالطر ، يهطل من أجلك ، ولو اخترقت العالم كله سيراً على
قدميك ، فلن تستطيع أن تجد ظرفاً مشيناً لا يليق .

الخبرة

سادة الحياة ، وما أدراك من هم —
لقد رأيتمهم يمرون
في أزيائهم الخاصة بهم
متشابهين وغير متشابهين ،
على سياهم الوقار والعبوس ،
منهم من ينفع ومنهم من يثير الدهشة ،
ومنهم من يظهر ، ومن يختفي كالأحلام ،
يتتابعون مسرعين ، كاذبين كالأشباح ،
طبائع بغير لسان ،
ومخترع الألعاب
موجود في كل مكان ، بغير عنوان .
ترى بعضهم ، وتقدر الآخرين ،
وهم يسرون من شرق إلى غرب :
والرجل صغير الشأن .
بين سيقان ولاته الطويلة ،
يسير في آخر الصفوف ، بنظرة حائرة —
فتأخذه الطبيعة العزيزة من يده .

ما أعز الطبيعة ، وما أقواها وما أرحمها !
إنها تهمس وتقول : « عزيزى ، لا تأبه !
غداً يبدلون وجوههم ،
أنت للمؤسس ! وهؤلاء بنوك ! » .

أين نجد أنفسنا ؟ فى سلسلة لا نعرف لها طرفا ، ونعتقد أن
ليس لها . نستيقظ فنجد أنفسنا فوق درّج ، وتحتنا درج ، يبدو
أننا قد صعدناه ، وفوقنا درج ، خطواته كثيرة ، يتجه إلى أعلا ثم
يختفى عن الأنظار . ولكن العبقرية التى — بناء على العقيدة القديمة —
تقف عند الباب الذى ندخل منه ، وتقدم لنا ماء النسيان نشربه ،
حتى لا نقص القصص ، قد مزجت الكأس مزجا قويا ، ولا نستطيع
أن ننفذ عن أنفسنا السبات الآن فى وضوح النهار . ان النوم يطوف
طوال حياتنا حول أعيننا ، كما يحلق الليل طول النهار فوق أغصان
شجر الشوح . كل شيء يعوم ويتلأل . وليست حياتنا مهددة مثل
إدراكنا . إننا نزلق خلال الطبيعة كالأشباح ، ولا ينبغى لنا أن
نعرف مكاننا مرة أخرى . فهل حل موعدنا فى لحظة من لحظات
العوز والاقتصاد فى الطبيعة ، فقترت علينا فى نارها ، وجادت علينا
بترابها ، حق إنه يبدو لنا أننا نفتقر إلى مبدأ الإيجاب ، وقد تتوفر
لنا الصحة والعقل ، ولكننا نفتقد فيض الروح لخلق جديد ؟ لدينا
ما يكفى أن نعيش وأن نقضى العام ، ولكن ليست لدينا ذرة تقدمها

أو نسهم بها . آه لو كانت عبقريتنا أكثر قدرة ! ما أشبهنا بعمال
الطواحين في المستويات الدنيا من تيار الماء حينما تكون المصانع
العليا قد استنفدت كل ما هنالك من ماء . فنحن كذلك نتصور أن
القوم في الطبقة العليا لابد أن يكونوا قد رفعوا سدودهم .

لو عرف أحدنا ماذا نحن صانعون ، أو إلى أين نحن ذاهبون ،
إذن لأجدنا المعرفة حينما نفكر ! إننا لا نعرف اليوم هل نحن
مشغولون أو خاملون . ففي أوقات حسبنا أنفسنا فيها خاملين تبين
لنا فيما بعد أننا قد أنجزنا الكثير ، وأن نفوسنا قد بدأ فيها الكثير .
كل أيامنا عديمة الجدوى وهى تمضى ، حتى إننا لنعجب أنى ومتى
ظفرنا بشيء مما نسميه الحكمة أو الشعر أو الفضيلة . إننا لم نظفر
بها في يوم مؤرخ من أيام التقويم . ولابد وأن تكون بعض الأيام
السموية قد انضمت إلى التقويم العادى فى وقت ما ، كذلك الأيام
التي ظفر بها هرمز من القمر بالزرد كى يولد أوزيريس . يقال إن
كل استشهاد يبدو تافهاً عند تجربته . كل سفينة شيء خيالى ، إلا
حينما نلقم فيها . فإذا نحن أبجرنا ، تخلى الخيال عن سفينتنا ، وعلق
بكل سفينة أخرى تبدو فى الأفق . إن حياتنا تبدو تافهة فتتفادى
تسجيلها . وكأن الناس تعلموا من الأفق فن التقهقر الدائم والتأجيل .
يقول الفلاح المتذمر : « تلك الأراضي المرتفعة مرعى خصب ،
ويعلك جارى أرضاً غنية ، أما حقلى فيكاد لا يدر إلا ما يقيم أود
العيش » .

إننى أروى قول غيرى . ولسوء الحظ هذا الآخر يقوم بنفس التصرف ويروى عنى . إنها حيلة الطبيعة أن تحط من شأن الحاضر هكذا . طنين شديد ، ونتيجة تتم بطريقة سحرية فى مكان ما . كل سقف محبب إلى العين ، حق يرتفع . حينئذ نجد المأساة والنساء اللأئى يولولن ، والأزواج ذوى العيون الجامدة ، وطوفان النسيان ، فيتساءل الناس « أى شىء هناك جديد ؟ » كأن كل قديم خبيث . كم فرد نستطيع أن نعد فى المجتمع ؟ وكم عمل ؟ وكم رأى ؟ إن جزءاً كبيراً من وقتنا تحضير ، وجزء آخر كبير ينفق فى العمل المألوف ، وآخر فى تدبر الماضى ، حتى إن خلاصة عبقرية كل امرئ تنقلص إلى ساعات قلائل . إن تاريخ الأدب — إذا أخذنا النتيجة الصافية لثرابوشى وورتن أو شلجل — مجموع أفكار قليلة جداً ، وقصص مبتكرة قليلة كذلك — وكل ما عدا هذا تحوير فى هذه الأفكار وتلك القصص . وكذلك فى هذا المجتمع العظيم الذى ينبسط حولنا ، نجد بالتحليل الدقيق أن الأعمال التلقائية قليلة محدودة . وتكاد كل الأعمال أن تكون عادات وإحساساً مألوفاً . بل إن الآراء ذاتها قليلة كذلك ، وهذه الآراء تبدو من طبيعة المتكلمين ، وكأنها لا تؤثر فى الحياة العامة .

أى مخدر ينصب فى كل كارثة ! إنها تبدو مريعة حينما تقترب منها ، غير أنه ليس هناك فى آخر الأمر احتسك مؤذخشن ، ولكنها

سطوح زلقة منحدره : إننا نعثر في يسر شديد على فكرة من الفكر ، فهون المصاب .

« ويسير فوق رؤوس الناس محلقاً

بأقدام رقيقة خفيفة الوطأ »

وإن الناس ليحزنون ويندبون على أنفسهم ، ولكن الأمر لا يبلغ معهم كل هذا المبلغ من السوء كما يقولون . هناك من الحالات العقلية ما يجعلنا نرحب بالآلام أملاً في أن نجد فيها الواقع على الأقل ، وأطراف الحقيقة وقمها البارزة . ولكن الأمر ينتهي على أنه زور وتقليد لا أصالة فيه . إن الشيء الوحيد الذي علمنيه الأسى هو أن أعرف مقدار ضحوكته . فإنه — كغيره من الأمور — يطفو على السطح ، ولا يقدمنى أبداً إلى الحقيقة ، التي نود من أجل الاتصال بها لو دفعنا ثمناً غالياً ، يكلفنا أبناءنا ومن نحب . هل هو بوسكوفتش الذي اكتشف أن الأجسام لا تتصل قط ؟ إن الأرواح كذلك لا تبلغ أهدافها . إن بحراً لا يصلح للملاحة تتلاطم أمواجه الصامته بيننا وبين الأشياء التي نهذف إليها ونتحدث إليها . والحزن كذلك يجعلنا مثاليين . عندما فقدت ولدى منذ أكثر من عامين ، بدا لي كأنى فقدت ضيعة جميلة ، وليس أكثر من ذلك . لا أمتطيع أن أقرّ بها منى . ولو أخبرت في غدى عن إفلاس المدينين لي ، فإن فقدان ملكي يسبب لي ضيقاً شديداً ، ربما لعدة سنوات . ولكنه يتركني كما وجدني ، لا أحسن ولا أسوأ . وكذلك الحال في هذه

المصيبة . إنها لا تمنى . إن شيئاً تصورته جزءاً منى ، ولا يمكن أن ينتزع منى دون أن يمزقنى ، ولا يمكن أن يكبر دون أن يغنينى ، يسقط منى ، ولا يترك أثراً . ولقد سقط قبل الأوان . إنما أحزن لأن الحزن لا يستطيع أن يعلمنى شيئاً ، ولا يحملنى خطوة واحدة نحو الطبيعة الحقة . إن الرجل الهندى الذى دُعى إليه بالأتهب عليه ريح ، وألا يتدفق إليه ماء ، أو تحرقه نار ، مثال منا جميعاً . إن أعز الأحداث هى أمطار الصيف ، ونحن معاطف البار التى تنبذ كل قطرة . ولم يبق لنا الآن إلا الموت . ونحن نتوقعه مستسلمين متجهمين ، ونقول : هنا على الأقل تكون الحقيقة التى لا تتحاشانا .

وصفة الإنزلاق والزوال هذه التى تتصف بها جميع الأشياء ، والى تجمعها تفر من أيدينا كلما شددنا عليها القبض ، هذه الصفة أسوأ جانب فى ظروفنا . إن الطبيعة لا تحب أن تراقب ، وتحب أن نكون سخريتها وألعوبة فى يدها . وقد نتخذ الكرة الأرضية كرة للعب ، ولكننا لا نستطيع أن نتخذ ثمرة من ثمار التوت لفلسفتنا . إنها لم تمدنا بالقوة التى نضرب بها الضربات المباشرة . كل ضرباتنا خاطئة ، وكل خبطاتنا عارضة . وعلاقة أحدنا بالآخر عارضة لا تستقيم .

ويُسلمنا حلم إلى حلم ، وليس للوهم آخر . والحياة سلسلة من الحالات العقلية تشبه صفّاً من الخرز ، عندما نمر بها يتبين لنا أنها

عدسات متنوعة الألوان تلون العالم بلونها . وتبين كل منها ما يقع في بؤرتها فقط . من الجبل نشهد الجبل . ونبعث الحياة فيما نستطيع ، ولا نرى إلا ما نبعث فيه الحياة . والطبيعة والكتب تتعلق بالأعين التي تراها . وعلى الحالة العقلية للمرء يتوقف إن كان يرى غروب الشمس أو القصيدة الرائعة . وهناك دائماً غروب للشمس ، وهناك دائماً عبقریات . ولكن قل من الساعات الهادئة ما نستسيغ فيها الطبيعة أو النقد . إن ذلك يتوقف إلى حد كبير على التكوين أو المزاج . والمزاج هو السلك الحديدي الذي ينخرط فيه الخرز . وما فائدة الحظ أو الموهبة لطبيعة باردة معيبة ؟ ومن ذا الذي يأبه بما يبيده في وقت ما من إحساس أو تمييز ، إذا أغرق في النوم فوق كرسیه ؟ أو إن هو ضحك أو سخر ؟ أو إن اعتذر ؟ أو أصيب بالأنانية ؟ أو فكر في ماله ؟ أو لم يكفه طعامه ؟ أو ظل طفلاً في صباه ؟ وما فائدة العبقرية إن كان العضو شديد التقعر أو شديد الاحدياب ولا يستطيع أن يجد مسافة بؤرية في حدود الأفق الحقيقي للحياة الإنسانية ؟ ما الفائدة إذا كان الذهن شديد البرودة أو شديد الحرارة ، وإذا لم يعبأ المرء كثيراً بالتأرجح ، فلا يحثه ذهنه على التجربة ، ويدفعه إليها ؟ أو إذا كان النسيج رقيقاً جداً ، شديد الحساسية للذة والألم ، حق إن الحياة لتركد من كثرة ما تستقبل دون أن تجد لها مخرجاً كافياً ؟ وما جدوى العهود الوثيقة بالاستقامة إذا كان الخارج على القانون فيما سبق هو عينه الذي يتعهد بها ؟

أى سرور تبعته فينا العاطفة الدينية ، إذا كنا نلمس أن هذا السرور يتوقف في الخفاء على فصول العام ، وعلى المزاج الخاص ؟ عرفت طبيياً فطناً وجد عقيدته في القناة الصفراوية ، ولم يفتأ يؤكد أنه إذا كانت بالكبد علة أصبح الرجل كالثنية ، وإن صح هذا العضو منه صار موحداً . من المؤلم جداً أن يدرك المرء كارهاً أن الإفراط الزائد أو البلاهة تحد مما تبشر به العقبرية . إننا نرى شباناً يدينون لنا بعالم جديد ، ونأمل من ورائهم خيراً جزيلاً عاجلاً ، ولكنهم لا يؤدون الدين قط . إنهم يموتون صغاراً ويتفادون الحساب ، وإن عاشوا ضلوا وسط الزحام .

وللمزاج كذلك أثره الشديد فيما لدينا من أوهام ، وهو يحبسنا في سجن من الزجاج لا نراه . فحول كل شخص نلاقه وهم نظرى . ولكل فرد في الواقع مزاج خاص يظهر في شخصيته خاصة ، لا يتخطى حدودها : بيد أننا ننظر إليه ، فيبدو لنا حياً ، ونتوهم أن لديه قوة دافعة ، إنها تبدو في تلك الخطة قوة دافعة ، ولكنها بعد عام ، وبعد العمر ، يظهر أنها نعمة مطردة معينة ، لا بد أن تعزفها الأسطوانة التي تدور في صندوق الموسيقى . إن الناس يعارضون في الصباح الفكرة التي تقول بأن المزاج يسود كل شيء زمنى أو مكاني أو ظرفي ، ولا يتلاشى في نيران العقيدة الدينية ، فإذا ما أقبل الليل آمنوا بها . وقد ينبجح الإحساس الخلقى في إدخال شيء من التعديل ، غير أن نسيج كل فرد يبقى على طبيعته ، فإذا لم يستعمل

إليه الأحكام الخلقية ، فإنه يحدد مدى النشاط والمتعة .
 إننى بهذا أعبر عن القانون كما يسن فوق منصة الحياة العادية ،
 ولكن لا ينبغي أن أتركه دون أن أشير إلى الاستثناء الأساسى .
 لأن المزاج قوة لا يستمع المرء راغباً إلى أحد يثنى عليها سوى نفسه .
 اننا فوق منصة علم الطبيعة لا نستطيع أن نقاوم المؤثرات التى لامفر
 منها لما نسميه العلم . والمزاج يهزم كل ما هو مقدس . وأنا أعرف
 الميل العقلى للأطباء ، وأسمع ضحكات علماء فراسة الدماغ . وخطاف
 الرقيق وتجاره يحسبون كل امرئ فريسة لآخر ، يقبله بين أنامله
 لأنه يعرف قانون بقائه ، ويعرف كل شئ عن نصيبه من الدنيا وعن
 صفاته من دلائل بسيطة كلون لحيته ، أو ميل قذاله . إن أشد جهالة
 لا تنفر كما تنفر هذه المعرفة السليطة . يقول الأطباء إنهم ليسوا
 ماديين ، ولكنهم كذلك فإن الروح مادة تحولت إلى رقة بالغة ، يالها
 من رقة ! بيد أن تعريف « الروحانى » يجب أن يكون « ذلك
 الذى يدل على نفسه » . أى آراء ينسبونها للحب ! وأى آراء
 ينسبونها للدين ! إن المرء لا يحب طوعاً أن ينطق بهذه الكلمات فى
 أسماعهم ، ويعطيهم الفرصة لتدنيسها . رأيت رجلاً وقوراً مهذباً
 يشكّل حديثه على هيئة رأس الرجل الذى يوجه إليه الحديث !
 وكنت أتصور أن قيمة الحياة فى إمكانياتها التى لا يسبر غورها ،
 وفى كونى لا أعرف قط ما قد يقع لى حينما أوجه حديثى إلى فرد
 جديد . إنى أحمل مفاتيح قلعتى فى يدى ، مستعداً لإلقائها عند

قدى سيدى كلا بدالى وعلى أية صورة تنكر . وأنا أعلم أنه إلى
إلى جوارى مختبىء بين المتشردين . فهل أقف فى سبيل نفسى
باتخاذى مقعداً مرتفعاً ، وتشكيل حديثى فى رفق على صورة الرؤوس ؟
فإن فعلت ذلك اشتراى الأطباء بيضعة دريهمات . « ولكن التاريخ
الطبي يا سيدى ؛ والتقرير المقدم للمعهد ؛ والحقائق الثابتة ! » . إننى
لا أثق فى الحقائق وما يترتب عليها . المزاج هو الفيتو أو قوة الكبح
فى تكوين الأشياء ، يحسن استعماله إذا استخدم فى كبسح الإفراط فى
الناحية الأخرى من التكوين ، ولكنه لا يجدى نفعاً إذا حسبته
قوة تكافى الاعتدال الأصيل . إذا حضرت الفضيلة نامت كل القوى
الثانوية . المزاج نهائى فى مستواه أو بالنسبة إلى الطبيعة . ولست
أرى — إن وقع الإنسان فى هذه المصيدة التى يسمونها العلوم —
أى مفر له من حلقات سلسلة الضرورة الطبيعية . إنك إن أعطيت
مثل هذا الجنين ، فإن مثل هذا التاريخ لابد أن يتلو . فوق هذه
المنصة يعيش المرء فى دائرة حسية ، وسرعان ما يبلغ الإنتحار .
ولكن يستحيل على القوى الخالقة أن تستبعد نفسها ، ففى كل ذكاء
منفذ لا ينسدّ ينفذ منه الخالق . إن العقل — وهو الذى يبحث عن
الحق المطلق — أو القلب — وهو الذى يعشق الخير المطلق ،
يتدخل لإنقاذنا ، وعندما تصغر إحدى هذه القوى العليا نستيقظ
من نضال لا يجدى مع هذا الكابوس ، فنقذف به فى جحيمة الخاص
ولا نستطيع أن نعيد أنفسنا مرة أخرى إلى مثل هذه الحالة الوضيعة .

وسر خديعتنا ينحصر في أننا نعتقد في ضرورة تتابع الأحوال العقلية أو الموضوعات . إننا نحب أن نرسو بسرور ، غير أن المرسى أرض غير ثابتة . وهذه الحيلة البادية من الطبيعة أقوى مما نختمل . حينما أنظر في المساء إلى القمر والنجوم أبدو ساكناً ، وتبدو مسرعة . إن حبنا لما هو واقعي يجذبنا إلى الثبات ، ولكن صحة البدن لا تتوفر إلا مع الحركة ، وصحة العقل لا تتوفر إلا في التنوع أو في سهولة الربط بين الأشياء . إننا نحتاج إلى تغير الأشياء . وإذا وهبنا أنفسنا لفكرة واحدة فسرعان ما يدب الملل في نفوسنا . إننا قد نساكن الهجانين ، ويتحتم علينا أن نمازجهم ، حينئذ يُقتل الحديث . اشتد إعجابي مرة بمونتينى حتى حسبت أنى لن أحتاج إلى كتاب آخر ، وقبل ذلك بشيكسبير ، ثم بفلوطارخس ، ثم بأفلوطين . ومرة بالفيلسوف يكون ، وبعدئذ بجيته ، بل وببيتين* ، ولكنى الآن أقلب صحف أى منهم بفتور ، وإن كنت مازلت أقدر لهم عبقرياتهم . وكذلك الحال في الصور . كل منها تجتذب الانتباه بشدة في وقت ما ، بيد أنها لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الجاذبية ، وإن كنا نود لو لبثنا مستمتعين على هذا الوجه . ما أقوى شعورى نحو الصور ، حتى إنك لو أنعمت النظر في واحدة منها لابد أن تستأذنها في الانصراف ، لأنك لن تراها مرة أخرى . تعلمت دروساً طيبة من الصور التي أصبحت من ذلك الحين أشاهدها دون عاطفة أو ملحوظة . يجب أن يستنتج المرء شيئاً من رأى الذى يعاين عنه حتى الحكماء

بشأن كتاب أو حادث جديد . إن آراءهم تعطيني أنباء عن حالاتهم العقلية ، وحدثاً غامضاً بعض الشيء عن الحقيقة الجديدة . ولكن لا ينبغي لى أن أثق فيها باعتبارها العلاقة الدائمة بين تلك العقلية وذلك الشيء . يسأل الطفل أمه قائلاً « لماذا لا أحب القصة يا أماء كما أحببتها حينما قصصتها لى بالأمس ؟ » . وأسفاه يا بنى ، ان الأمر كذلك حتى مع أقدم ملائكة المعرفة . ولكن هل يجيب سؤالك أن نقول : ذلك لأنك ولدت للكل ، وهذه القصة مسألة فردية ؟ إن سبب الألم الذى يسببه لنا هذا الكشف (وهو كشف لا يتم إلا متأخراً فيما يتعلق بأعمال الفن والفكر) هو عينه المأساة التى تنجم عنه فيما يتعلق بالأشخاص والصدقة والمحبة .

هذا الجود وانعدام المرونة الذى نجده فى الفنون ، نجده كذلك عند الفنان ، وهو عندئذ أشد إيلاماً . ليست فى الناس قدرة على التوسع . يبدو أصدقاؤنا لنا أول الأمر كممثلين لآراء معينة ، ولكنهم لا يتخطونها أو يتجاوزونها قط . انهم يقفون على حافة محيط الفكر والقوة ، ولكنهم لا يتقدمون قط تلك الخطوة الوحيدة التى تأتى بهم إلى هناك .

ما أشبه المرء بقطعة من سارية لبرادور ، لا تجد لها بريقاً إذا قلبتها بين يديك ، حتى تبلغ زاوية معينة . حينئذ تجد لها ألواناً غزيرة جميلة . ليس بين الناس اتفاق أو قاعدة عامة . وإنما لكل امرئ موهبته الخاصة ، وإنما تفوق الرجال الناجحون لأنهم يحددون

الوقوف حيثما وحينما يغلب استخدام هذه الموهبة . إننا نفعل ما ينبغي لنا أن نفعله ، ونطلق عليه أحسن ما نستطيع من أسماء ، ونود أن نظفر بالثناء على أننا كنا نرمي إلى النتيجة التي ترتبت . لا أستطيع أن أذكر أية صورة لإنسان لم يكن زائداً عن الحاجة في وقت ما . ولكن ، أليس هذا مما يدعو إلى الحسرة ؟ إن الحياة لا تستحق أن تُنال ، إذا كنا نعبث بها .

إن الاتزان الذي ننشده يحتاج بالطبع إلى المجتمع بأسره . إن العجلة ذات الألوان المتعددة يجب أن تدور بسرعة زائدة كي تبدو بيضاء . إننا نتعلم شيئاً ما حينما نتحدث في حماسة شديدة أو نقص معيب . وموجز الكلام أننا مهما فقدنا في ناحية ما فنحن دائماً من فريق الفائزين . والقداسة تقع كذلك خلف فشلنا وحماقاتنا . إن ألعاب الأطفال عبث لا معنى له ، ولكن هذا العبث له قيمة تربوية كبرى . وكذلك الحال في أضخم الأشياء وأكثرها جدّاً ، في التجارة ، والحكومة ، والكنيسة ، والزواج ، وكذلك في تاريخ خبز كل إنسان ، والطرق التي يحصل بها . إن القوة التي لا تسكن في رجل أو امرأة ، ولكنها تصدر في لحظة من هذا ، وفي لحظة أخرى من ذاك ، أشبه ما تكون بالطائر الذي لا يستقر في مكان ، ولكنه يثب دائماً من غصن إلى غصن .

ولكن أى عون لنا من هذه الزخرفة في الكلام وهذه الخدلة ؟ أى عون لنا من الفكر ؟ ليست الحياة جدلاً . وقد تلقينا

— فيما أحسب — في هذه الأيام دروساً كافية عن سخافة النقد .
 ما أكثر ما فكر وكتب شبابنا في العمل والإصلاح ، وبرغم كل
 ما كتبوا ، فإن العالم — وهم أنفسهم — لم يتقدم خطوة إلى الأمام .
 إن تذوق الحياة تذوقاً فكرياً لن يحل محل النشاط العضلي . إن المرء
 إذا فكر في سهولة انزلاق كسرة الخبز في حلقه ، مات جوعاً . في
 « ميدان التربية » احتلت أنبل نظرية عن الحياة أجمل أجسام
 الشبان والعداري ، فكانت عاجزة كل العجز ، مكتئبة حزينة . إنها
 لا تجمع ولا تفرق طناً واحداً من الحشائش الجافة ، ولا تجهز
 جواداً ، ثم إنها تترك الرجال والعداري شاحبي اللون جياً .
 ما أفكه المقارنة التي عقدها أحد الخطباء السياسيين بين وعود
 أحزابنا وطرق الغرب ، التي تبدأ نخمة ، تنبت على جوانبها الأشجار ،
 كي تغري المسافر ، ولكنها سرعان ما تضيق ثم تضيق ، حتى تنتهي
 بآثار أقدام السنجاب ، وتتسلق إحدى الأشجار . وهذا شأن الثقافة
 معنا . إنها تنتهي بدوار الرأس .

ما أشد كآبة الحياة وما أشد عقمها عند أولئك الذين كان بريق
 الوعود في إبانهم يهر عيونهم منذ أشهر قلائل . « لم يعد الآن هناك
 طريق مستقيم للعمل ، ولم يبق بين أهل إراني أي ثقة في النفس » .
 لقد شعبنا من الاعتراضات والنقد . لكل طريق من طرق الحياة
 ما يعترضه ، والحكمة العملية تتخذ لها وسط الاعتراضات التي
 تحوطها من كل جانب طريقاً لا يعبأ بشئ . إن هيكل الأشياء كله

يعلمنا ألا نأبه بشيء . لا تربك نفسك بالتفكير ، واشرع في أداء عملك في أى مكان . ليست الحياة ذهنية أو نقدية ، ولكنها صلبة شديدة . خيرها الأكبر يناله قوم اعتدل مزاجهم فاستطاعوا أن يستمتعوا بما وجدوا ، بغير سؤال . إن الطبيعة تمتعت بالتطلع ، وتعبير أمهاتنا عن حكمتها حينما يقلن لأطفالهن « كلوا طعامكم ، ولا تتحدثوا عنه » . السعادة أن تملأ ساعتك . تملأها فلا تترك فيها ثغرة لندم أو رضى . إننا نعيش بين السطوح ، وفن الحياة الحق هو أن نحسن الانزلاق عليها . فى ظل أعتق التقاليد وأشدّها قدما يفلح المرء ذو القدرة الطبيعية كما يفلح فى أحدث عالم ، وذلك بمهارته فى تناول الأشياء وعلاجها . إنه يستطيع أن يقف ثابتاً فى أى مكان . والحياة نفسها مزيج من القوة والصورة ، ولا تحتل أية زيادة فى أحدها . والحكمة فى أن تقضى لحظتك ، وأن تجد نهاية الرحلة فى كل خطوة من خطوات الطريق ، وأن تعيش أكبر عدد من الساعات الطيبة : ليس من شأن الناس ، ولكنه من شأن المتعصبين ، أو قل — إن شئت — إنه من شأن علماء الرياضة ، أن يقولوا إننا إذا نظرنا إلى قصر الحياة ، لم نأبه فى هذا الأمد القصير أن نهبط إلى ذل الحاجة أو نعلو عن الأنظار . وما دام شأننا باللحظات ، فلنحسن تديرها . إن خمس دقائق اليوم توازى عندى خمس دقائق فى العصر الذهبى المرتقب . لنكن اليوم مترنين حكاء مالكين لأنفسنا . ولنحسن معاملة الرجال والنساء : نعاملهم كأنهم حقائق — وربما كانوا كذلك .

يعيش الناس في الأوهام ، كأنهم سكارى ، أيديهم مرتخية مرتجفة لا تقوى على عمل ناجح . إنها عاصفة من الأوهام ، والثقل الوحيد الذى أعرف أنه يوازنها هو تقدير الساعة الراهنة . وبغير أى ظل من ظلال الشك ، ووسط هذا الدُّوَار من المظاهر وشئون السياسة ، يزداد يقينى بأنه لا ينبغي لنا أن نؤجل أو نهمل أو نؤمل ، بل يجب علينا أن نعدل في أحكامنا حيث نحن ، ومع أى ممن نعامل ، فنقبل ظروفنا كما هى ورفاقنا كما هم ، مهما كانوا متواضعين أو منفرين ، فهم الوسطاء المجهولون الذين وكلت إليهم الدنيا إبلاغ كل مسراتها لنا . فإن كان هؤلاء على ضعة وخبث ، كان لإسعادهم — وهو آخر ما تصبو إليه العدالة — صدى فى القلب أوقع من صوت الشعراء ومن العطف العابر الذى يديه الأشخاص الذين نرمق إليهم بإعجاب . وأعتقد أنه مهما احتمل الرجل المفكر من عيوب رفقائه وسخافاتهم ، فإنه لا يستطيع — دون تكلف — أن ينكر على أية جماعة من الرجال والنساء نوعاً من الإحساس له قيمته الكبرى . إن الأجلاف والمستهترين لديهم شعور بالسمو ، إن لم يكن لديهم عطف ، وإنهم ليجدون هذا الشعور بطريقتهم الهوائية العمياء ، ويخلصون له الولاء .

إن الشباب الرقيق يحتقر الحياة ، ولكنى وأمثالى ممن لا يشكون التخمة ، وممن يحسبون يومهم خيراً خالصاً محسوساً ، نرى أنه من فرط الأدب أن يبدو المرء مستخفاً وأن يطلب الرفاق . إن العطف

يبحث في شيئاً من القلق ورقة الإحساس ، ولكنك إن تركتني وحيداً ، استمتعت بكل ساعة وما تجلبه لى ، واستمرت ما أجد من طعام ، كما أستمريء الأحاديث العتيقة فى الحان . وإنى لشكور للقليل من الرحمة يهينى . إننى وازنت بينى وبين أحد أصدقائى الذى يتوقع من الدنيا كل شيء ، ويخيب رجاءه إذا قصر أى شيء عن خير ما يكون عليه ، فألفيتنى أبدأ عند الطرف الآخر ، لا أتوقع شيئاً ، وأنا دائماً شاكر جداً لقدر معتدل من الطيبات . أنا أقبل طنين الاتجاهات التى تعترضنى ورنينها . وأستطيع أن أحتمل مدمنى الحُمور وثقال الظل . إنهم يصفون ظلام الواقع على الصورة المجاورة التى لا يستغنى عنها المظهر الذى سرعان ما يختفى كالشهاب . أستيقظ فى الصباح ، وأجد الدنيا القديمة ، والزوجة ، والأطفال ، والأم ، وكنكورد وبوسطن ، والعالم الروحى العزيز الحبيب ، بل والشيطان العزيز الحبيب على مقربة منى . إذا نحن أخذنا ما وجدنا من الطيبات ، دون سؤال ، فسوف نجد الكثير المتراكم . إن الهدايا العظيمة لا تتمال بالتحليل . كل شيء طيب فى الطريق العام . والمنطقة الوسطى من السكون هى المنطقة المعتدلة . نستطيع أن نتسم الذروة الرقيقة الباردة ، ذروة الهندسة البحتة والعلم الذى لا حياة فيه ، كما نستطيع أن نستغرق فى الحياة الحسية . وبين هذين النقيضين خط استواء الحياة ، والفكر ، والروح ، والشعر — وهو نطاق ضيق . ثم إن كل شيء طيب — فى الحياة العملية العامة — تجده فى الطريق

العام . إن جامع الصور يتطلع في جميع محلات الصور في أوروبا ،
باحثاً عن منظر طبيعي لپوسان ، أو عن رسم بالرصاص لسلقاتور ،
في حين أن « التحول » و « الحكم الأخير » و « تناول القديس
جيروم » وما شابه ذلك من صور لما وراء العقل ، تجدها على
حوائط الفاتيكان وأوفيزي واللوفر حيث يستطيع كل عابر أن
يشاهدها . ولا أذكر بالطبع صور الطبيعة في كل طريق ، أو مغرب
الشمس أو مشرقها كل يوم ، والتماثيل الطبيعية لجسم الإنسان
الذي لا يغيب عن أنظارنا قط .

في مزاد عام في لندن اشترى حديثاً أحد الهاوين كلمة بخط
شيكسبير بمبلغ مائة وسبعة وخمسين جنياً ، في حين أن التلميذ في
المدرسة يستطيع أن يقرأ « هاملت » دون مقابل ، ويستطيع أن
يكشف أسراراً لها أهميتها القصوى في هذه المسرحية لم تنشر بعد .
أظن أنني لن أقرأ سوى أشد الكتب ألفة للناس — الإنجيل وهو مر
ودانق وشيكسبير وملتن . فلماذا إذن نعدو هنا وهناك باحثين عن
الأركان والخفايا ؟ إن الخيال يستمتع بالصناعات الهندية الخشبية ،
وبمن يتصيدون النحل والحيوانات ذات الفراء . إننا نتوهم أننا
غرباء . ولسنا مستأنسين استثناساً صمياً فوق هذا الكوكب
كالرجل الممجى والوحش الكاسر والطير ، ولكننا نستبعد هؤلاء
كذلك ؛ نستبعد كل مخلوق متسلق أو طائر أو زاحف أو مريش
أو يمشى على أربع . إنك إن شاهدت الثعلب والفأر الجبلي والصقر

والشئب والعجاج عن كُشْب لم تجد لها جذوراً في الأرض أعمق من جذور الإنسان ، وألفتها مجرد مخلوقات ساكنة عابرة فوق هذه الأرض . ثم تأتي الفلسفة الذرية الجديدة فتُظهر فجوات حقيقة بين ذرة وأخرى ، وتبين أن الدنيا كلها في الخارج ، وليس لها داخل .

الحياة الوسطى خير حياة . الطبيعة كما نعرفها ليست قديساً . وهي لا تؤثر بالفضل أضواء الكنيسة ، أو الزاهدين ، أو الجنتو ، أو آكل الحنطة . فهي تأتي آكلة شاربة آثمة . وأعزأؤها العظماء والأقوياء والجُبال ، ليسوا أبناء سنّتنا ، ولم يتخرجوا في مدرسة الأحد ، ولا يزنون طعامهم ، ولا يستمعون إلى الوصايا في كل حين . فإن أردنا أن نكون أقوياء مع قوتها ، فلا ينبغي لنا أن نخفي ضمائر مكتئبة ، نستعيرها كذلك من ضمائر الأمم الأخرى . يجب أن نقيم الفعل الحاضر القوي في وجه كل إشاعات الغضب ، ماضياً ومستقبلاً .

هناك أشياء كثيرة لم تستقر بعد ، ومن المهم جداً أن تستقر — وإلى أن تستقر يجب أن نفعل كما نفعل . وبينما يستمر الجدل على موازنة التجارة ، ولا ينتهي قبل انقضاء قرن أو قرنين ، تستطيع « نيو انجلند » وانجلترا القديمة أن تفتح محلها التجاري . وقد ناقش قانون حق التأليف ، وحق التأليف الدولي ، وفي خلال

ذلك نبيع كتبنا بقدر ما نستطيع . وقد نبحت في ضرورة الأدب ،
وفما ييرره ، وفي قانونية تسجيل فكرة من الأفكار . وقد يتحدث
الجدال في موضوع ما ، وبينما تستعر المعركة فعليك أيها الباحث
العزیز أن تنكب على عملك السخيف ، وأن تضم سطرأ في كل ساعة ،
وتضيف سطرأ بين الحين والحين . وقد يدور النزاع حول امتلاك
الأرض ، وحق الملكية ، وقد نبحت في التقاليد ، وقبل أن نستقر
على رأى عليك أن تحرث بستانك ، وأن تنفق ما تكسب هبات
وعطايا في كل غرض جدی جميل . الحياة نفسها فقاعة وشك
وسبات في سبات . ههها ، بل وهب أكثر مما تريد . أما أنت
يا حبيب الله ، فعليك أن تهتم بحملك الخاص : ولا تضل طريقك
وسط من يزدرون الدنيا أو يشكون فيها . ومهما يكن من أمر ،
فلتلتزم غرفتك ، ولتعمل حتى يتفق الآخرون عما نعمل بحياتنا .
يقولون أن مرضك وعاداتك التافهة تتطلب منك أن تعمل هذا
أو تتجنب ذاك ، ولكن اعلم أن حياتك حالة عابرة ، أو هي قباء
تقضى فيه الليل ، وعليك — مريضاً أو معافى — أن تتخطى هذه
الحدود . إنك مريض ، ولكن حالتك لن تسوء ، والدنيا ، التي
تعزك ، سوف تتحسن .

الحياة الإنسانية تتألف من عنصرين ، القوة والصورة ، ويجب
أن نحفظ بالتناسب بينهما دائماً ، إن أردناها حلوة سليمة . كل
واحد من هذين العنصرين إن زاد نجم عنه أذى يضر كما يضر نقصانه .

كل شيء يسير نحو الزيادة ؛ كل صفة طيبة بغیضة ، إذا هی لم تختلط
بضدها . والطبیعة تجعل كل صفة خاصة عند المرء طاغية كي تبلغ
بالخطر حافة الدمار . وهنا بین الحقول نسوق العلماء أمثلة لهذه
الحقیقة المرة . إنهم ضحایا التعبير فی هذه الطبیعة . وأنت یا من ترى
الفنان والخطیب والشاعر عن كسب ، وتجده أن حیاتهم لا تفوق
حياة الصناع والمزارعين ، وتجدهم ضحایا التشیع لفكرة واحدة ،
أجوافاً أعجافاً ، وتحكم علیهم بالفشل وتصممهم بالدجل لا بالبطولة ،
تستنتج بحق أن هذه الفنون لیست للانسان ولكنها مرض من
الأمراض . ومع ذلك فالطبیعة لن تسندك . الطبیعة التي لا تقاوم
خلقت الناس علی هذه الصورة ، وتخلق ألوفاً منهم كل يوم علی
ما هو أكثر من هذه الصورة . إنك قد تحب الصبی یقرأ فی کتاب
أو يتأمل فی صورة ، أو تمثال ، ومع ذلك فلماذا عسى أن تكون
هذه الملايين التي تقرأ وتشاهد سوى كتّاب أو نحّاتین مبتدئین ؟
وإذا ما زادت قليلاً هذه الصفة التي تطالع الآن وتشاهد ، أمسكوا
بالقلم والأزمیل . وإذا تذكر المرء كيف بدأ فی بساطة أن يكون
فناناً ، أدرك أن الطبیعة انضمت إلى خصومه . الإنسان استحالة
ذهبية . والطریق الذي ینبغی له أن یسلک فی دقة الشعرة .
والحكیم یصاب بالغفلة إذا أمعن فی حکمته .

وما أیسر — إن شاءت الأقدار — أن نلتزم دائماً هذه الحدود
الجمیلة ، وأن نخضع أنفسنا ، للمرة الأولى والأخيرة ، للحساب

الدقيق ، حساب دولة الأسباب والمسببات المعروفة . وفي الطريق
وفي الصحيفة تبدو الحياة أمراً واضحاً بحيث يكفل للمرء النجاح أن
يعتزم التزام جدول الضرب في جميع الأجواء . ولكن سرعان
ما يأتي اليوم ، أو لعله نصف ساعة ، الذي يهمس في آذاننا همس
الملائكة ، ويحبط ما وصلت إليه الأمم والسنون من عبر ! وفي الغد
مرة أخرى يدرك كل شيء حقيقةً ومحددًا ، وتعود المعايير المألوفة ،
ويندر الإدراك السليم ندرة العبقرية — بل هو أساس العبقرية ؛
والخبرة بالنسبة إلى كل رأي جديد هي الأيدي والأرجل — وبرغم
ذلك فإن من يؤدي عمله على أساس هذا الفهم سرعان ما يفلس .
إن القوة تسير في طريق آخر لا تقف في سبيله حواجز الاختيار
والإرادة ، وأقصده به نَفَق الحياة وقنواتها التي تختفي في طبقات
سحيفة الغور . ومما يبعث على الضحك أننا رجال سياسة وأطباء
وقوم عقلاء : ليس هناك من يفوق هؤلاء غفلة . الحياة سلسلة من
المباغطات ، ولولا ذلك ما استحققت أن نحصل عليها أو نظفر بها .
إن الله يسره أن يعزلنا كل يوم ، وينحفي عنا الماضي والمستقبل .
وإننا نود لو تلفتنا حولنا ، ولكنه بأدب جم يسدل أمامنا ستاراً
لا يُخترق من السماء الصافية ، ويسدل خلفنا ستاراً آخر من السماء
الصافية . وكأنه يقول لنا « لن تذكروا ولن تتوقعوا شيئاً » . كل
حديث طيب ، وأدب ، وعمل ، يصدر عن حالة تلقائية تتغافل
المألوف ، وتجعل اللحظة الراهنة لحظة عظمى . الطبيعة تمتع

الحاسبين ، ووسائلها وثابة مندفة . يعيش المرء بالنبض ، وحركاتنا العضوية كذلك ؛ والعوامل الكيميائية والأثرية متموجة متناوبة ؛ ويسير العقل إلى الأمام معاديا ، ولا يفلح قط إلا في نوبات مفاجئة . إن نجاحنا يأتي طارئاً . وأهم ما جمعنا من تجارب إنما جاء عرضاً . وأشد طبقات الناس جاذية أولئك الذين تأتتهم القوة منحرفة ولا تأتتهم مستقيمة : هؤلاء عباقرة لم يُعترف بهم بعد : يظفر المرء بسنا ضيائهم ، دون أن يدفع في ذلك ثمناً غالياً . جمالهم جمال الطير ، أو إشراق الصباح ، وليس جمال الفن . في فكرة النبوغ تكمن المفاجأة دائماً . والإحساس الخلقى يصح أن يسمى « الجدة » لأنه لا يكون غير ذلك ، جديد على أقدم العقول جدته على الطفل الصغير ، « المملكة التي تأتي بغير ملاحظة » . وكذلك النجاح العملي لا يأتي مع التصميم الدقيق . إن المرء لا يُلاحظ وهو يؤدي أحسن ما يستطيع أداءه . إن حول أصح أعماله سحر خاص ، يذهل قوى الملاحظة ، حتى إنك لا تلقى إليه بالا برغم أنه يؤدي أمام ناظريك . إن لفن الحياة خفر يأبى عليه الظهور . كل امرئ أمر مستحيل حتى يولد ، وكل شيء مستحيل حتى نشهد نجاحا . وللتحمسون للدين يتفقون في نهاية الأمر مع أشد المتشككين برودة على أنه ليس هناك شيء منا أو من عملنا ، إنما كل شيء من الله . إن الطبيعة لا تستغنى لنا عن أدق أوراق شجر الغار . كل كتابة تهبط علينا بفضل من الله ، وكذلك كل عمل وكل

امتلاك . وانه ليسرنى أن أكون أخلاقياً ، وأحافظ على الحدود
والتخوم الصحيحة ، التى أحبها وأعزها ، وأعزو الكثير إلى إرادة
الإنسان ، ولكنى آثرت لنفسى الإخلاص فى هذا الفصل من
الكتاب ، ولا أستطيع أخيراً أن أرى شيئاً ، من نجاح أو فشل ،
إلا ما ينبعث إلى حد كبير عن القوى الحيوية التى يمدنا بها
الخلود . إن نتائج الحياة لم تُحسب ولا يمكن حسابها . والسنون
تعلم الكثير مما لا تعرفه قط الأيام . والأشخاص الذين تتألف منهم
صحبتنا ، يتحدثون ويحيثون ويذهبون ، ويصممون وينفذون
الكثير ، وينجم عن كل هذا أى شىء إلا ما تتوقع من نتائج .
إن الفرد دائماً على خطأ . انه يصمم الكثير ، ويجذب إليه
الأعوان ، ويتشاجر مع بعضهم أو كلهم ، ويرتكب الأخطاء
الجسيمة ، وينتهى إلى شىء ما ، وكل أمر يتقدم قليلاً ، ولكن
الفرد دائماً على خطأ . ويخرج شىء جديد ، ولكنه يختلف كل
الاختلاف عما وعد به نفسه .

وقد أذهل القدماء عدم خضوع عناصر الحياة البشرية للحساب
كما ذكرنا ، فألّوها المصادفة . بيد أن هذا بمثابة من يطيل الوقوف
عند الشرارة — التى يتلأأ بريقها فى نقطة واحدة — فى حين أن
الكون يدفأ بحرارة النار عينا التى تكمن فيها . إن معجزة الحياة
التى لا يمكن تفسيرها ، والتى سوف يبقى إعجازها أبداً ، تدخل
عنصراً جديداً . وأظن أن سير اقراردهوم قد لاحظ فى نمو الجنين

إن التطور لم يكن من نقطة مركزية واحدة ، ولكنه كان فعالا في نقط ثلاث أو أربع في وقت واحد . إن الحياة ليست لها ذاكرة . لأن ما يتتابع في سيره قد يُذكر ، أما ما يوجد مع غيره في وقت واحد ، أو ما يصدر عن سبب أعمق ، بعيد عن الوعي ، فإنه لا يعرف لنفسه اتجاهًا . وكذلك حالنا ، نكون مرة في رية من أمرنا ، أو على غير اتحاد ، لأننا غارقون في الصور والمسببات ، وكلها يبدو ذا قيم متساوية متعادية ، ومرة نكون متدينين ، حينما نستقبل قانون الروح . وبرغم هذا التشبث ، وهذا النمو للأجزاء في وقت واحد ، فإنها سوف تصبح « أعضاء » ذات يوم ، وتخضع لإرادة واحدة . وإلى هذه الإرادة الواحدة ، وهذا السبب الخفي ، توجه انتباهنا وأملنا . إن الحياة بذلك تنصر في أمل أو في عقيدة . وخلف التفصيلات التافهة التي ليس بينها انسجام كمال موسيقى ، و « المثل الأعلى » يلازمنا دائماً ، والسماء بغير شقوق أو ندوب . وما عليك إلا أن تراقب أسلوب استنارتنا . حينما أتحدث إلى عقل عميق ، أو إذا كانت لدى أفكار طيبة عندنا أكون وحيداً في أي وقت من الأوقات ، لا أبلغ حد الرضى دفعة واحدة ، مثلما أشرب الماء وأنا صاِدٍ ، أو أقرب النار وأنا مقشعر . كلا ! بل انى أول الأمر أدرك اقترابي من منطقة من مناطق الحياة جديدة رائعة . وبإصرارى على القراءة أو التفكير تزيد هذه المنطقة دلالة على نفسها ، كأنها قبس من نور ، ويتكشف لى فجأة جمالها واطمئنانها ،

وكان السحب التي تغطيها تنقشع في فترات ، وتبدى للرحالة المقرب الجبال الداخلية ، تنتشر عند سفوحها المراعى المهادئة الخالدة ، حيث ترى القطعان ، ويزمر الرعاة ويرقصون . غير أن كل تبصر من جانب هذه المملكة الفكرية . يبدو كأنه مبتكر جديد ، ويبشر بما يتلوه . إننى لا أخلقه ، وإنما أبلغه ، وأشهد ما كان كائناً هناك من قبل . كلا لست بالخالق ! إننى أصفق براحتى في دهشة الأطفال وسرورهم ، إزاء الفتح الأول الذى يتبدى لى في هذه العظمة الشاهقة ، العتيقة بما حبتها به العصور العديدة من حب وولاء ، الحديثة بما يدب فيها من حياة الحياة ، وكأنها مكة المشرقة وسط الصحراء . وأى مستقبل تفتحه لى ! إننى أحس قلباً جديداً ينبض بحب الجمال الجديد . إننى مستعد لأن أموت من أثر الطبيعة ، وأولد مرة أخرى في هذه القارة الأمريكية الجديدة التي لم بقرها أحد من قبل ، والتي وجدتها في الغرب .

« فلا اليوم ولا الأمس بداية هذه الأفكار

التي كانت منذ الأزل ، بل ولا يمكن أن يوجد الإنسان

الذى عرف أول دخولها » .

وإذا كنت قد وصفت الحياة بأنها سلسلة من الحالات العقلية ، فلا بد لى أن أضيف إلى ذلك أن فينا شيئاً لا يتغير ، تنخرط تحته جميع الإحساسات وحالات العقل . إن الوعي عند كل إنسان مقياس متحرك يجعله مرة شيئاً واحداً مع « السبب الأول » ، ومرة مع

لحم جسمه ؛ حياة فوق حياة ، في درجات لانهاية لها . والعاطفة التي صدر هذا الوعي عنها تعين قيمة أى فعل . والمسألة دائماً ليست هي ما فعلت أو ما تجنبت ، وإنما هي بأمر من تفعل أو تجتنب .

إن « الحظ » و « منقرا » و « آلهة الفن » و « الروح القدس »

إن هي إلا أسماء عجيبة أضيق من أن تشمل هذه المادة التي لا تحد .

والعقل المتحير يجب أن يخضع لهذا المسبب ، الذي لا يقبل التسمية

— هذا المسبب الذي يفوق الوصف ، والذي حاولت كل عبقرية

رقيقة أن تمثله برمز مؤكد ، فمثله طاليس بالماء ، وانكسيمانيس بالهواء ،

وانا كساجوراس بالفكر ، وزرادشت بالنار ، ويسوع والمحدثون

بالحبة . والاستعارة التي استخدمها كل منهم أصبحت ديناً قومياً .

ولم يكن منكيس الصيني بأقل من ذلك نجاحاً في تعميمه . فلقد قال :

« إنني أفهم اللغة تمام الفهم ، وأحسن تغذية ما عندي من قدرة

عظيمة » فسأله رفيقه عما يسميه القدرة العظيمة ، فأجاب منكيس

« التفسير عسير ، هذه القدرة عظيمة جداً ، لاتلين بتاتاً . إن أنت

غذيتها غذاء صحيحاً ، ولم تصبها بأذى ، ملأت ما بين السماء

والأرض من فراغ . هذه القدرة تسير مع العدالة والعقل ، وتعاونهما

ولا تسمع بالجوع » . وفي تعبيرنا الأصح نسمى هذا التعميم باسم

« الوجود » ، وبذلك نعترف بأننا قد بلغنا إلى أقصى ما نستطيع

الذهاب إليه . ويكفي لابتهاج الكون اننا لم نبلغ سداً ، وإنما وصلنا

إلى محيطات لا تحد .

إن حياتنا لا تبدو حاضرة بمقدار ما تبدو مستقبلية ، لا في الشؤون التي تُتفق فيها هذه الحياة ولكن كأشارة إلى هذه القدرة العظيمة . إن أكثر الحياة يظهر أنه مجرد اعلان عن القدرة العقلية . إن المعرفة لا تُعطى لنا لكي نبيع أنفسنا بضمن بنحس . إنما نحن في قمة العظمة . وكذلك في التفصيلات ، تكون عظمتنا دائماً ميلاً أو اتجاهاً ولا تكون في العمل . علينا أن نعتقد في القاعدة لا في الاستثناء . وهكذا يُعرف النبيل من الحقير . وكذلك عند إحساسنا بالعاطفة الدينية ، لا تكون الأهمية القصوى ، أو الحقيقة الأساسية في تاريخ الأرض ، في ما نعتقد بشأن خلود الروح أو ما إلى ذلك ، وإنما في « الدافع العام إلى الاعتقاد » . فهل نصف هذا المسبب بأنه ذلك الذي يؤثر تأثيراً مباشراً ؟ إن الروح ليست عاجزة أو بحاجة إلى أعضاء وسيطة . إن لها قوى وافرة وآثاراً مباشرة . فأنا مفهوم بغير تفهيم ، ومحسوس بغير عمل ، وحيث لا أكون . ومن ثم فإن كل امرئ عادل يقنع ببناء نفسه على نفسه ؛ ويرفض أن يشرح نفسه ، ويقنع بأن تقوم له بهذه المهمة أعمال جديدة . إنه يعتقد أننا نتصل بغير كلام ، وبما فوق الكلام ، وأن ليس من أعمالنا الصميمة ما يندعم تأثيره بتاتاً على رفاقنا ، مهما بعدت الشقة ، لأن أثر العمل لا يقاس بالأميال . لماذا اغضب نفسي لأن حادثاً وقع خال دون وجودي حيث كان ينبغي أن أكون ؟ إذا لم أشهد الاجتماع ، فإن وجودي حيث أنا يجب أن يكون في منفعة الحكمة والصدقة

المشتركة كما يكون وجودى فى ذلك المكان . فإنى أبذل القوة عينها فى كل مكان . هكذا يسير « المثل الأعلى » العظيم أمامنا . فإنه لم يُعرف عنه قط انه تخلف إلى الوراء . ولم يحصل أحد على خبرة مشبعة ، ولكن صالحه ينبىء بخبرة أوسع . فإلى الأمام دائماً ! فى لحظات التحرير ، نعلم أن صورة جديدة من صور الحياة والواجب كانت ممكنة ، فإن فى كثير من العقول التى حولنا توجد بالفعل عناصر عقيدة فى حياة سوف تتخطى حدود أى سجل مكتوب لدينا . وهذه الصورة الجديدة سوف تشتمل على ما يشك فيه المجتمع ، كما تشتمل على ما يؤمن به ، فيتكون من انعدام العقيدة مذهب جديد لأن الشكوك ليست اعتباطية أو متمردة ، وإنما هى حدود للعقيدة الإيجابية ، ويجب على الفلسفة الجديدة أن تتقبلها ، وأن تستوحىها الآراء الموجبة ، كما ينبغى لها أن تشتمل على أقدم العقائد .

عندما اكتشف الإنسان أنه موجود جلب على نفسه الشقاء ، ولم يعد له من هذا الشقاء منفذ . هذا الاكتشاف هو ما نسميه « سقوط الإنسان » . إننا منذ ذلك الحين نرتاب فيما لدينا من قدرات .

لقد تعلمنا أننا لا نرى رؤية مباشرة ، ولكننا نرى بالوساطة ، وانه ليست لدينا وسيلة نصلح بها هذه العدسات . ربما كانت لهذه العدسات الإنسانية قوة خالقة ، وربما لم تكن هناك مراثيات ، ولكننا عشنا ذات يوم فيما رأينا . أما الآن فإن ضراوة هذه القدرة

الجديدة التي تهدد بالاستيلاء على كل شيء ، تشغلنا . فالطبيعة ،
والفن ، والأشخاص ، والآداب ، والديانات — وغير ذلك من
أشياء ، يتلاشى على التتابع ، وليس الإله إلا فكرة من أفكارها .
وتكون الطبيعة والأدب ظواهر ذاتية . وكل شر وكل خير ظل
نلقيه . إن الطريق مليء بمظاهر الإذلال للمتكبرين . وكما أن
المتحذلق قد حاول أن يكسو خدمه في زيه ويجعلهم يخدمون ضيوفه
على المائدة ، فكذلك الكروب التي تصدر عن القلب السيئ
كفقاعات ، تتخذ في الحال أشكال السيدات والسادة في الطريق ،
وأصحاب الحوانيت والحانات في الفنادق ، وتهدد أو تهين كل ما يقبل
التهديد أو الإهانة فينا . وكذلك الحال مع الأوثان التي نولع بها .
إن الناس ينسون أن العين هي التي تخلق الأفق ، وعين العقل
الباحثة هي التي تجعل من هذا الرجل أو ذاك طرازاً أو ممثلاً
للإنسانية باسم البطل أو القديس . إن يسوع « الإنسان المؤله »
رجل طيب اتفق كثير من الناس على أن هذه القوانين البصرية
تنطبق عليه . وبالحجة من جانب ، وبالإمساك عن الاعتراض من
جانب آخر ، استقر الأمر مؤقتاً على أن ننظر إليه وسط الأفق ،
ونعزو إليه الخواص التي يتصف بها أي امرئ ننظر إليه هذه النظرة .
غير أن الحب أو الكراهية مهما طال أمده له نهاية سريعة . إن
النفس العظيمة الوهاجة التي تمتد جذورها إلى الطبيعة المطلقة ، تقتلع
كل الوجود النسبي وتدمر مملكة المحبة والصداقة الفانية . إن الزواج

« فيما يُسمَّى العالم الروحي) أمر مستحيل ، بسبب المفارقة بين كل ذات وكل موضوع . فالذات تستقبل الألوهية ، ولا بد أنها تحس عند كل موازنة أنها تعظم بتلك القوى الخفية . ولا بد من الإحساس بأثر المادة ، بوجودها إن لم يكن بطاقها ، ولا يمكن لأية قوة من قوى العقل أن تنسب إلى الموضوع الألوهية الصحيحة التي تغفو أو تتيقظ دائماً في كل ذات . ولا تستطيع المحبة قط أن تسوى بين قوة الوعي وقوة حلوله في الأشياء . وسوف توجد دائماً الفجوة بين كل « أنا » و « أنت » ، كما توجد بين الأصل والصورة . إن الكون هو عروس الروح . وعطف الفرد عطف من جانب واحد . الكائنات البشرية كالكرتين لا يتساكن إلا في نقطة واحدة . وطالما هما على اتصال فإن جميع النقط الأخرى في كل من الكرتين تكون في حالة سكون . لا بد أن يأتي دورها كذلك ، وكلما طال بقاء نوع من أنواع الاتحاد ، زاد ما تحصل عليه الأجزاء التي لم تتحد من شدة الشوق .

للحياة أن تتخذ لنفسها صورة ، ولكنها لا يمكن أن تتجزأ أو تتضاعف . وأى غزو لوحدها يكون مدعاة للفوضى . إن الروح ليست توأماً ، ولكنها فريدة ، وهي — وإن تكشفت كطفل في الزمان ، وطفل في المظهر — ذات قوى فاصلة عالمية ، ولا تسمح بحياة أخرى إلى جانبها . إن كل يوم ، وكل عمل يكشف عن الألوهية التي ساء اختفاؤها . إننا نعتقد في أنفسنا بما لا نعتقد في

غيرنا . ونسمح بكل شيء لأنفسنا ، وما نسميه إنمّا عند الآخرين هو بالنسبة إلينا تجربة . وممّ أمثلة إيماننا بأنفسنا أن الناس لا يتحدثون قط عن الجريمة باستخفاف كما يظنون . أو أن كل امرئ يفسح لنفسه في مجال الأمن ، بدرجة لا يسمح لغيره بها . إن العمل يبدو مختلفاً كل الاختلاف في داخله عن خارجه ؛ وفي نوعه عن عواقبه . إن القتل عند القاتل ليس من الأفكار المخربة كما هو عند الشعراء وأصحاب الخيال . إنه لا يزعزعه ، ولا يصرفه عن ملاحظته العادية للتوافه . إنه عمل من اليسير جداً تأمله ، ولكنه يدل في عاقبته على أنه ضجيج مزعج ، وانه يدعو إلى اضطراب جميع العلاقات . والجرائم التي تصدر عن الحب خاصة تظهر عدلاً وحللاً في عين مرتكبها ، ولكنها — بعد ارتكابها — تبدو مدمرة للمجتمع . وفي النهاية لا يعتقد إنسان أنه يمكن أن يضل ، أو أن الجريمة سوداء كما هي عند الأثيم . لأن العقل في حالتنا الخاصة يشكل الأحكام الخلقية . إذ أنه ليست هناك جريمة للعقل . فهو مناقض للشرائع أو فوقها ، ويحكم على القانون كما يحكم على الحقيقة . يقول نابليون معبراً بلغة العقل « إن ذلك أسوأ من الجريمة ، إنه خطأ فاحش » . الدنيا لدى العقل مشكلة في الرياضة أو في علم العدد ، وليس له شأن بالثناء أو الهجاء وبكل العواطف الضعيفة . كل سرقة أمر نسبي . فإن تعرضت للمطلق ، فبربك من ذا الذي لا يسرق ؟ إن القديسين يحزنون لأنهم ينظرون إلى الإثم (حتى حيناً يتأملون) من وجهة

نظر الضمير ، ولا ينظرون إليه من وجهة نظر العقل ، وهو اضطراب في الفكر . إنك إن نظرت إلى الإثم بالفكر وجدته شيئاً صغيراً أو قليل الشأن ، وإن نظرت إليه بالضمير أو الإرادة ، ألفتته فساداً أو سوءاً . العقل يسميه ظلاً ، أو انعداماً للضوء ، ولا يراه جوهرأ . أما الضمير فيحسه جوهرأ ، أو شراً لا بد منه . انه ليس كذلك : له وجود موضوعي ، وليس له وجود ذاتي .

وهكذا فلا بد للكون من أن يتلون بلوننا ، ولكل شيء أن يخضع بدوره للذات . والذات موجودة ، وهي تتضخم . وكل شيء يتخذ مكانه إن عاجلاً أو آجلاً . أنا كائن ، ولذا فإنني أرى . وأيا كانت اللغة التي نستخدمها ، فإننا لا نستطيع أن نقول شيئاً إلا ما نحن عليه .

كان هرميز وكادمس وكولبس ونيوتن وبوناپرت وزراء عقولهم . وبدلاً من أن نحس الفقر عندما نلتقي برجل عظيم ، دعنا نعامل القادم الجديد كأنه عالم بطبقات الأرض عابر ، يمر بضيعتنا ، ويطلعنا على نوع جيد من الازدواز أو حجر الجير أو فخم الأثرسيت في أحرشنا ومراعينا . والعمل الجزئي لكل عقل جبار في اتجاه ما عبارة عن منظار مقرب للأشياء التي يتسلط عليها . وكل جانب آخر من جوانب المعرفة لا بد أن يصل إلى المبالغة عينها قبل أن تكمل استدارة الروح .

هل تشهد تلك القطيعة تتابع ذيئها في حركة رشيفة ؟

إن استطعت أن تنظر بعينها ربما رأيته محاطة بمئات الأشخاص الذين يمثلون مسرحيات معقدة ، من مهازل ومآسى ، فيها أحداث مطولة ، وشخصيات عديدة ، وكثير من تقلبات القدر — وفي الوقت ذاته ليست سوى قطيعة وذيلها . متى يسقط عنا القناع ، فيتلاشى صوت الدفوف والضحكات ، والصياح ، فنتبين أننا كنا نمثل وحدنا ؟ ذات وموضوع — ما أروع أن تم الدورة الكهرية ، ولكن الجسامة لا تزيدها شيئاً . فماذا يهم لو كان الموضوع عن كبر والكرة ، أو كولبس وأمريكا ، أو عن قارئ وكتابه ، أو القطيعة وذيلها ؟ .

حقاً إن آلهة الفنون جميعاً والحب والدين تمتعت هذه التطورات ، وأنها تحاول أن تجازى الكيمائي الذي ينشر في الصالون أسرار العمل . ولا نستطيع أن نقلل من شأن الضرورة التي يحتملها تكويننا لرؤية الأشياء على أوجه شخصية أو ملونة بلون مزاجنا . ومع ذلك فإن الله يستوطن هذه الصخور الجرداء . وهذه الحاجة هي التي تودع في الأخلاق الفضيلة الكبرى ، فضيلة الثقة بالنفس . يجب أن نستمسك بهذا العيب ، مهما جلب علينا من عار ، وأن يشدد استمساكنا بمحورنا بعودتنا إلى أنفسنا في قوة وعزم بعد اندفاعنا إلى العمل . إن حياة الحق باردة ، وهي حق الآن مفعجة ، ولكنها لا تخضع للدموع والندم والاضطراب . إنها لا تحاول أن تعمل

عمل شخص آخر ، وأن تتخذ لنفسها حقائق فرد آخر . ومن
دروس الحكمة الأساسية أن تميز مالك مما لغيرك . تعلمت أنى لا أستطيع
أن أنصرف فى حقائق الآخرين . ولكنى أملك لحقائق المفتاح
الذى يشجعنى ضد كل ما ينكرون ، وتعلمت كذلك أنهم يملكون
المفاتيح لحقائقهم . إن الشخص العطوف يقع فى ورطة السابح بين
جماعة من العرقى . كلهم يتشبثون به ، فإن هو قدم ساقاً أو إصبعاً
أغرقوه . إنهم يرغبون فى النجاة من أضرار رذائلهم ، لا من
رذائلهم نفسها . إن البر يضع هباء إذا نحن بذلناه فى سبيل هذه
الأعراض الضعيفة . والطبيب الحكيم المتمكن يقول « اخرج من
هذا » كأول شرط من شروط النصيحة .

وفى بلادنا هذه أمريكا التى يكثرفىها الكلام تفسدنا طبيعتنا
الطيبة واستماعنا إلى كل جانب . وهذا الإذعان يزيل القدرة على
أن يكون المرء عظيم الفائدة . لا ينبغى للمرء أن يتمكن من النظر
إلا رأساً وإلى الأمام . وانصراف الانتباه هو الرد الوحيد على
إصرار الآخرين على الاستهتار . وقد نعر هؤلاء آذاننا ، ولكن
لكى نستخف بما يطلبون . هذارء مقدس ، ولا يترك مجالاً للعدول
عنه أو لجمود التفكير . ترى فى تصوير فلاكسمان ليومنديز ، الذى
ذكره ايسكلس ، أن أورستيز يتضرع إلى أبولو بينما تنام آلهة
الغضب عند الأعتاب . إن وجه الآلهة يعبر عن شىء من الندم
والرافة ، ولكنه هادى لاعتقاده فى عدم إمكان التوفيق بين

الاتجاهين . لقد ولد في ظروف سياسية أخرى ، في عالم الخلود والجمال . والرجل الذي عند قدميه يطلب إليه أن يهتم باضطراب الدنيا ، وهو مالا تستطيعه طبيعته . ويومئذ يزيعر باستملاقته عن هذا الفارق تعبيراً قوياً . إن الإله مثقل بمصيره المقدس .

الوهم ، والمزاج ، والتابع ، والظاهر ، والمباغته ، والواقعية ، والداتية — هذه كلها خيوط في نسيج الزمن ، وهي سادة الحياة . ولا أجرؤ على التفكير في ترتيبها ، ولكني أذكرها كما تخطر لي . وأنا أعلم من أن أزعم الكمال لصورتى . إنما أنا جزء ، وهذا جزء منى . وأستطيع في ثقة كبرى أن أعلن قانوناً من القوانين ، يتخذ لنفسه صورة وهيئة ، ولكني ما زلت أصغر بقرون من أن أضع دستوراً . إننى ألفت لساعى فيما يتعلق بالسياسة الأبدية . ولم يكن عبثاً ما رأيت من صور كثيرة جميلة . ولقد عشت في زمن عجيب ، ولست كما كنت ناشئاً في سن الرابعة عشرة ، بل ولست كما كنت منذ سبع سنوات . ولست أعبأ بمن يسأل وأين الثمرة ؟ إننى أكتفى بالثمرة الخاصة . هذه ثمرة من الثمار — وهى أنى لا أتوقع نتيجة كبرى من التأملات والمشورات وجمع الحقائق . وإنى لأشعر بالحسرة لو توقعت نتيجة لهذا البلد ولهذه المقاطعة ، أو أثراً واضحاً في الشهر الحالى والسنة الراهنة . إنما الأثر عميق عالمى كالسبب نفسه . إنه يفعل فعله في عصور لا تكون فيها الفترة القصيرة من حياة المرء شيئاً يذكر . كل ما أعرف هو الاستقبال . أنا كائن

وأنا مالك ، ولكنى لا أحصل على شيء ، وحينما أتصور أنى ظفرت بشيء أجد أنى لم أظفر به . إننى أعبد « الحظ » الأعظم معجباً به . وما أكثر ما استقبلت ، حتى أصبحت لا أضيق باستقبال هذا أو ذاك من الأمور مهما تكن غزارته . وإنى لأقول للعقل العبقري هذا المثل بعد استئذانه ، « ما يدخل الطاحون يستحيل إلى ملايين الأجزاء » . وعندما ألتقى هبة جديدة لا أميت شهوة جسدى بالتقشف لكى يحصل التعادل ، لأننى إن مت لا أستطيع هذا التعادل . لقد جاوزت المنفعة القيمة فى اليوم الأول ، وظلت تجاوزها منذ ذلك الحين . وما أحسب هذه القيمة عينا إلا جزءاً مما أتلقيها .

وكذلك يبدو لى أن التلهف على أثر ملموس أو عملى ضرب من ضروب الكفران . وأنا جاد جداً فى رغبتى فى الاستغناء عن هذا الأثر الذى لا ضرورة له . إنما تظهر لى الحياة خيالا لا أثر له . إن أشق عمل وأشدّه خشونة خيالى كذلك ، والأمر كله اختيار بين أحلام هادئة وأحلام مزعجة . إن الناس يحطون من قدر المعرفة والحياة العقلية ويحثون على العمل . وأنا قانع جداً بالمعرفة لو استطعت أن أعرف . وتلك تسلية عظمى ، وتكفينى أمداً طويلا .

إن قليلا من المعرفة يساوى قيمة هذه الدنيا . إننى أستمع دائماً إلى قانون (ادراسيا) الذى يقول « بأن كل روح حصلت على

حقيقة ما ، يجب أن تكون في مأمن من الأذى حتى فترة أخرى .

أنا أعلم ان العالم الذي اضطرب فيه في المدينة وفي المزرعة ليس هو العالم الذي « أفكر » فيه . ولسوف أعرف ذات يوم قيمة هذه المفارقة وناموسها . ولكني لم أجد أنني أفدت كثيراً من محاولاتي العملية لتحقيق عالم الفكر . كثير من الأشخاص المتحمسين يقومون بالتجارب المتوالية في هذا السبيل ، فيضعون أنفسهم في مكانة تبعث على الضحك والسخرية . إنهم يكتسبون عادات شعبية ، ويرغون في أفواههم ، ويكرهون وينكرون . وأسوأ من ذلك أنني ألاحظ أن ليس في تاريخ البشر مثل فريد للنجاح — إذا اتخذنا مقاييسهم للنجاح . وإنني أذكر ذلك جدلاً ، أو إجابة على هذا السؤال : لماذا لا تحقق عالمك ؟ ولكن ما أبعدني عن اليأس الذي يتعجل الحكم على القانون العام بتجربة تافهة — لأن كل محاولة صحيحة لابد أن تنجح . صبراً ، صبراً ، وسوف تكسب في النهاية . يجب أن نرتاب أشد الريبة في خداع عامل الوقت . فالأكل ، أو النوم ، أو اكتساب مائة دولار ، يستنفد وقتاً طويلاً ، في حين أن الترحيب بالأمل وبالبصيرة التي تضيء حياتنا لا يتطلب إلا وقتاً وجيزاً . إننا نهذب بستاننا ، ونتناول غذاءنا ، ونناقش شؤون المنزل مع زوجاتنا ؛ بيد أن هذه الأمور لا تترك أثراً ، وتنسى في الأسبوع التالي . أما في العزلة التي يأوي إليها كل

إنسان دائماً ، فإنه يجد فيها صحة العقل والإلهام الذى يحمله معه
فى رحلته إلى عوالم جديدة . وكأنها تقول : « انهض مرة أخرى
أيها القلب العجوز ولا تعباً بالسخرية ، ولا تعباً بالهزيمة ! فالنصر
آت تحقيقاً للعدالة » . والقصة الخيالية التى توجد الدنيا لتحقيقها ،
هى تحول العقل العبرى إلى قوى عملية .

الشخصية

غربت الشمس ؛ ولكن أمله لم يغرب :
وأشرقت النجوم ؛ وسبقها إلى الإشراق إيمانه :
وحدق في المجرة العظمى
فبدت عينه أشد عمقاً وأطول عمراً ؛
إن آلامه العظمى تعادل صموت الزمن .
ثم تكلم ، فعادت كلماته ، وهى أشد رطوبة من قطرات المطر
بعضر الذهب مرة أخرى :
واكتسبت أعماله عذوبة وجلالا
كسفا إلى جوارها قيمة كل عمل عظيم .

إنه لا يُثنى ولا يحزن
على ما قدمت يده .
لأن الحقيقة تدافع عن نفسها ،
كما تترك الطبيعة كل عمل لها
غير نادمة .

قرأت أن أولئك الذين استمعوا إلى لورد تشاتهام أحسوا أن
هناك شيئاً في الرجل أرق من كل ما ذَكَرَ . وقد شك بعض

القراء مؤرخنا الانجليزى النابه للثورة الفرنسية قائلين إن كل الحقائق التى ذكرها عن ميرابو لم تبرر تقديره لعبقريته . إن الحقائق التى رويت عن جراثى ، وآجس ، وكليومينس وغيرهم من أبطال فلوطارخس ، لا توازى شهرتهم . ولقد كان سير فيليب سدنى ايرل اسكس ، وسير والتر رالى رجلين ذوى شخصية كبرى وأعمال قليلة . إننا لا نستطيع أن نجد أدنى جزء من الوزن الشخصى ل واشنطن إذا رويناه أعماله الباهرة . كما أن سلطان اسم شار أعظم من كتبه . وهذه المفارقة بين السمعة والأعمال أو القصص التى تروى لا يبررها القول بأن صدق الشئ أقوى من وقعه . ولكن شيئاً يكمن فى هؤلاء الرجال ويبعث فينا أملاً أعظم من كل ما قاموا به من أعمال . إن الجانب الأعظم من قوتهم كان خفياً . وهذا هو ما نسميه الشخصية — قوة حبيسة تعمل مباشرة بوجودها وبغير وسيط . وهى قوة لا تتصور ظهورها ، هى شئ مألوف أو ضرب من العبقرية ترشد دوافعه صاحبها ، ولكنه لا يستطيع أن ينقله إلى غيره . وهى رفيقه حتى ان أمثال هؤلاء الرجال كثيراً ما يجنون العزلة ، فإن كان من بينهم رجل اجتماعى ، رأيته فى غنى عن المجتمع ، ويمكنه أن يجد أحسن الساوى وهو فريد . إن أخلص المواهب الأدبية قد يبدو عظيماً فى وقت ما ، صغيراً فى وقت آخر ، ولكن الشخصية لها عظمة كوكبية لا تتضاءل . وما ينجزه الآخرون بالموهبة أو بالفصاحة ، ينجزه هذا الرجل بنوع من المغناطيسية .

« إنه لا يستغل نصف قواه » . ويخونه النصر بإظهار تفوقه ، ولا يحرزه بقراع السيوف . وهو يهزم غيره لأن وصوله يغير وجه الأمور . (« أى أيول ! كيف عرفت أن هركيوليز إله ؟ ») فأجاب أيول « عرفت ذلك لأننى اقتنعت فى اللحظة التى وقعت عليه فيها عيناي . عندما شهدت تأسيس ، تمنيت أن أراه يتطوع للقتال ، أو على الأقل يقود خيله فى سباق العربات . ولسكن هركيوليز لم ينتظر نضالا ، انه كان يهزم غيره سواء وقف أو سار أو جلس أو أيا كان مايعمل ») .

إن الإنسان عادة يتعلق بالحوادث ، ويرتبط بالعالم الذى يعيش فيه نصف ارتباط ، وذلك فى غير لباقة ، ولكنه فى هذه الأمثلة يبدو كأنه يقاسم الأشياء حياتها ، ويكون تعبيراً لنفس القوانين التى تسيّر تيارات البحر والشمس ، والأعداد والكميات .

ولأضرب مثلاً آخر أشد تواضعاً وأقرب إلى الأفهام : إننى ألاحظ أننا فى انتخاباتنا السياسية ، حيث لا يظهر هذا العنصر — إن ظهر بتاتاً — إلا فى صورة ساذجة ، ألاحظ أننا ندرك أثره الذى لا يبارى إدراكاً كافياً . فالناس يعرفون أنهم يطلبون فيمن يمثلهم شيئاً أعظم بكثير من المواهب العقلية ، انهم يطلبون فيه القدرة على أن يجعل مواهبه موضع الثقة . انهم لا يحققون أغراضهم إذا هم بعثوا إلى الكنجرس خطيباً عالماً ذرب اللسان طلق الحديث ، إذا لم يكن رجلاً قبل أن يعينه الناس ليمثلهم قد عينه الله

جل جلاله كى يمثل حقيقة من الحقائق — حقيقة يؤمن بها فى نفسه
إيماناً لا يقهر — حتى يعلم أشد الناس ثقة وأشدهم عنفاً أن فى شخصه
مقاومة تذهب معها هباء كل جرأة وكل فزع — وأعنى بها الإيمان
بحقيقة ما .

إن الرجال الذين ينجحون ليسوا بحاجة إلى أن يستفسروا من
ناخبهم عما يقولون ، إنما هم أنفسهم البلد الذى يمثلون . وليست
عواطف هذا البلد أو آراؤه أشد تأهباً أو صدقا فى أى مكان منها
لديهم ، وليست فى أى موضع آخر غيرهم فى مثل ما هى لديهم من
صفاء من تلويث الأنانية . إن الناخبين فى موطنهم يصغون إلى كلماتهم ،
ويرقبون لون خدودهم ، وعلى هذه الصورة — كأنها المرأة —
يكيفون أنفسهم . إن مجتمعاتنا العامة مقاييس طيبة جداً لقوى
الرجولة . إن مواطنينا المخلصين من أهل الغرب والجنوب يتذوقون
الشخصية ، ويحبون أن يعرفوا إن كان الرجل من أهل «نيو انجلند»
متين البناء ، أم تستطيع الأيدي أن تخترقه .

وهذه القوى الدافعة عنها تظهر فى التجارة . فى التجارة نوابغ ،
كما فى الحرب ، والسياسة ، والآداب . ولا نذكر السبب لماذا يكون
هذا الرجل أو ذاك سعيد الحظ . إنما يرجع السبب إلى الرجل نفسه .
هذا ما يستطيع أن يثبتك به أى إنسان . راقبه وسوف تعرف فى
سهولة لماذا نجح ، كما تعرف حينما تراقب نابليون علة ما أصاب من
حظ . إننا نلمس فى الأشياء الجديدة الميزة القديمة ، وهى اعتياد

مجاهدة الحقيقة ، دون النظر إليها بعد ابتدائها ، أى عن طريق إدراك شخص آخر . والظاهر أن الطبيعة تعزز التجارة ، عندما ترى التاجر الطبيعى ، الذى لا يبدو كأنه وكيل خاص ، بمقدار ما يبدو كأنه عاملها ووزيرها . إن أمانته الطبيعية تتحد مع إدراكه كنه تكوين المجتمع كى تضعه فوق الجبل ، وهو يقنع الناس جميعاً بعقيدته الخاصة ، وبأن العقود لا يختلف معناها من فرد إلى فرد . إن عادة عقله تشير إلى قيم الإنصاف الطبيعية والمنفعة العامة ؛ وهو يوحى بالاحترام ، وبالرغبة فى التعامل معه ، لروح النبل الهادئة التى تحوطه ، وللمتعة الذهنية التى يبعثها منظر هذه القدرة العظيمة . هذه التجارة بعيدة المدى التى تجعل رؤوس المحيط الجنوبى مرافئ له ، والمحيط الأطلنطى ميناءه المألوف تتركز فى ذهنه وحده ، ولا يستطيع أحد فى الكون أن يحسن القيام بعمله . وفى صالونه أشاهد جيداً انه كان مجهداً بالعمل فى الصباح ، من جبينه المقطب وفكاهته الفاترة ، التى لا تستطيع كل رغبة فى المجاملة أن تزيلها . إننى أرى بوضوح كم عمل حازم أدى ، وكم « لا » نطق بها فى يومه هذا ، فى حين كان غيره لا ينطق إلا « بنعم » التى تحطم وتهدم .

إننى أرى بفخر الفن ومهارة الرياضة العليا وقوة الربط البعيدة ، إحساسه بأنه ممثل لقوانين العالم الأصيل ولاعب بها . وهو كذلك يعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يمد به شئ ، وأن الرجل ينبغى أن يولد تاجراً ، وإلا فإنه لا يستطيع أن يتعلم التجارة .

وهذه الميزة تكون أشد اجتذاباً للعقل حينما تظهر في عمل يهدف إلى أغراض أشد من هذه صفاء ونقاء . إنها تعمل بنشاط وافر في أصغر الجماعات وفي العلاقات الخاصة . وهى فى جميع الأحوال عامل غير عادى ولا يمكن حسابه . وهى تشل القوة البدنية الفائضة .

إن الطبائع العليا تتسلط على الطبائع الدنيا بتأثيرها فيها بضرب من ضروب النوم ، فترى القدرات العقلية مغلقة لاتستطيع المقاومة ، وربما كان هذا هو القانون العام . وإذا ما عجز العاوى عن جذب السفلى إليه فإنه يخدره ، كما يشل الإنسان مقاومة الحيوانات الدنيا . وكذلك الناس يفرض بعضهم على بعض مثل هذه القوى الخفية . ما أكثر ما حقق الأستاذ الحق بنفوذه كل أقاصيص السحر ! وكأن نهراً من التسلط يتدفق من عينيه نحو كل من ينظر إليه ، أو فيضاً من الضوء القوى الحزين ، كأنه الأوهابو أو الدانوب ، يغمرهم بفكره ، ويلون الحوادث كلها بلون عقله . سئلت زوجة كونسى فيما يتعلق بمعاملتها لمارى مدايسى « أية وسيلة اتخذت » فأجابت « ذلك النفوذ الذى يملكه كل عقل قوى ويتسلط به على العقل الضعيف » . ألا يستطيع قيصر المكبل بالحديد أن ينزع الحديد من يديه لينقله إلى شخص هب أو ثراسو السبجان ؟ وهل الأصفاد الحديدية قيد ثابت لا ينحل ؟ هب أن تاجرآ من تجار الرقيق على ساحل غينا استصحب على ظهر السفينة عصابة من الزنوج تتضمن

أشخاصاً من طراز توسان لوثير ، أو دعنا نتخيل أنه تحت هذه الأقنعة القائمة يأتى بعصابة من أمثال واشنطن فى السلاسل . فهل عندما يبلغون كوبا يكون نظام رفاق السفينة كما هو ؟ أليس هناك غير الجبال والحديد ؟ أليس هناك حب ، واحترام ؟ أليس هناك قبس من الحق فى عقل قائد الرقيق وإن ضعف هذا العقل . وهلا يمكن أن نفترض ان هذه القوى يمكنها أن تفلت أو تنطلق ، أو أن تتغلب بأية صورة على جذب بوصلة أو بوصتين من حلق الحديد ؟

هذه قوة طبيعية ، كالضوء والحرارة ، والطبيعة كلها تتعاون معها . والسبب فى أننا نحس وجود إنسان ما ، ولا نحس وجود الآخر يسير كسبب الجاذبية . إن الحقيقة هى قوة الوجود ، والعدالة تطبيقها على الأمور . وإرادة الأصفياء تتدفق منهم نحو الطبائع الأخرى ، كما يتدفق الماء من الإناء الأعلى إلى الإناء الأسفل . وهذه القوة الطبيعية لا يمكن أن تقاوم ، شأنها فى ذلك شأن القوى الطبيعية الأخرى . إننا نستطيع أن نقذف بالحجر إلى أعلى لحظة فى الهواء ، ولكن من الحق ان الأحجار كلها سوف تسقط دائماً . ومهما ذكرنا من أمثلة السرقات التى لم تلق جزاءها ، أو الأكاذيب التى استند إليها إنسان ما ، فإن العدالة لابد أن تسود ، ومن مزايا الحق أن يجعل نفسه مصداقاً . والشخصية هى هذا القانون الخلقى مشاهداً خلال طبيعة فرد واحد . فالفرد بمثابة الحظيرة المسورة . والزمان

والمكان ، والحرية والضرورة ، والحق والفكر ، لا تخرج عن نطاقها . وكذلك الكون حظيرة أو فناء محجوز . وكل شيء يوجد في المرء مصبوغا بصبغة روحه ، ووفقاً لصفاته تراه يلون كل ما اتصل إليه يداه من الطبيعة ، وهو كذلك لا يميل إلى أن يضل في الفضاء ، ولكن نظراته تعود في النهاية إلى مصلحته ، مهما طال مداها . انه يبعث الروح في كل ما يستطيع ، وهو لا يرى إلا ما يبعث فيه الروح . انه يجعل العالم أساساً مادياً لشخصيته ومسرحاً لنشاطه ، كما يجعل الحب لوطنه بلاده مجال نشاطه .

إن النفس السليمة تتحد مع كل ما هو عادل وصادق ، كما يتصل المغناطيس بالقطب ، فتراها تبدو لكل من يشاهدها كالجسم الشفاف بينه وبين الشمس ، ومن يتجه إلى الشمس يتجه صوب ذلك الشخص . ولذا فهو الوسيط ذو الأثر الأكبر لكل من ليس في مستواه . إن الرجال ذوي الشخصيات هم ضمير المجتمع الذي ينتمون إليه .

والمقياس الطبيعي لهذه القوة هو مقاومة الظروف . والرجال الناقصون ينظرون إلى الحياة كما تتمثل في الآراء والحوادث والأشخاص ، ولا يستطيعون أن يروا العمل حقاً يتم . ومع ذلك فإن العنصر المعنوي لهذا العمل كان موجوداً من قبل ، وصفته من حيث الصواب والخطأ كان من اليسير التنبؤ بها . كل شيء في الطبيعة له طرفان ، أحدها إيجابي والآخر سلبي . فهناك الذكر

والأثنى ، والروح والأمر الواقع ، والشمال والجنوب . والروح هي للوجوب ، والحادث هو السالب . الإرادة هي القطب الشمالى ، والعمل هو القطب الجنوبي ؛ ويمكن أن تتخذ الشخصية مكانتها الطبيعية فى الشمال . إنها تشارك هذا النظام تياراته المغناطيسية . أما الأرواح الضعيفة فتنجذب نحو القطب الجنوبى أو السلبى . انها تنظر إلى العمل من حيث منفعة أو ضرره ، وهى لا ترى المبدأ حق يتمثل فى إنسان . وهى لا تحب أن تكون فاتنة ، ولكنها تحب أن تُعشق .

إن أصحاب الشخصيات يحبون أن يسمعوا عن أخطائهم ، أما الفئة الأخرى فلا تحب أن تسمع عن أخطائها . إنهم يعبدون الحوادث ، وينسبون إليها الحقائق ، والروابط ، وسلسلة الظروف . ولا يطلبون أكثر من ذلك . أما البطل فيرى الحادث أمراً ثانوياً ، لا بد أن يكون تابعاً له . وليس لنظام معين من الحوادث قوة تجلب إليه الرضا الذى ينسبه إليه خياله . إن روح الخير تفر من كل مجموعة منظمة من الظروف ، فى حين أن السعادة تتعلق بعقل معين ، وتدخل فى أى نظام من نظم الحوادث تلك القوة وذلك النصر لأنهما من ثمارها الطبيعية . إن تغير الظروف لا يمكن أن يصلح عيباً من عيوب الشخصية . إننا نفخر بتحررنا من كثير من الحرافات ، بيد أننا إذا كنا قد حططنا صنمنا من الأصنام ، فإن ذلك إنما كان لانتقالنا إلى عبادة صنم آخر . إذا كنت لا أضحى اليوم بعجل

لجوف ، أو لنبتيون ، أو بفأر لهكيت ، أو لا أرتعد أمام يومئذ ،
أو المظهر الكاثوليكي ، أو يوم الحساب عند كالثن ، فما جدواى
من ذلك إذا كنت أتزلزل للرأى ، أو الرأى العام كما نسميه ،
أو أخشى التهديد بالهجوم ، أو التعبير ، أو جيران السوء ، أو الفقر ،
أو التشويه ، أو إشاعة الثورة ، أو القتل ؟ إذا كنت أتزلزل ،
فليس يهم ما أتزلزل له . ان رذيلتنا الأصلية تتشكل على صورة ما ،
وفقاً للجنس أو السن أو المزاج الشخصى ، وإذا كان لدينا استعداد
للخوف ، فإننا سرعان ما نجد ما يُفزعنا . إن الشهوة أو العداوة
التي تحزننى هي من نفسى ، حتى ان عزوتها الى المجتمع . اننى دائماً
محاط بنفسى . والاستقامة من ناحية أخرى نصر دائم ، لا نخفل
بها بصيحات السرور ، ولكن بالرصانة ، وهى سرور ثابت
أو مألوف . ومن العار أن نظير إلى الحوادث لكي نعزز صدقنا
وقيمتنا . إن صاحب رأس المال لا يُهرع كل ساعة الى سمسار لكي
يحول أرباحه الى العملة السائدة فى البلاد ، وإنما يكفيه أن يقرأ فى
أبناء السوق أن بضاعته قد ارتفعت أثمانها . والطرب عينه الذى
يُدخله فى نفسى وقوع خير الحوادث فى خير نظام ، يجب أن أتعلم
كيف أنذوقه أشد صفاء بإدراكى أن مركزى يتحسن كل ساعة ،
ويسيطر بالفعل على تلك الحوادث التى أشتهى . ولا يقل من هذا
الجدل إلا أن نتوقع للأشياء نظاماً يبلغ من الامتياز حداً يجعله يُلقى
كل أسباب سعادتنا فى أعماق الظلال .

وعندى أن الوجه الذى تبدو فيه الشخصية هو الاكتفاء الذاتى .
إننى أحترم الرجل الثرى ، فلا أتصوره وحيداً ، أو فقيراً ، أو منفياً ،
أو شقيماً ، أو طالباً ، ولكنى أتصوره نصيراً لغيره دائماً ، نافعا ،
موفقاً فى حياته . الشخصية تركيز ، ويستحيل عليها أن تترشح
ليحل محلها شئ آخر أو أن تنقلب . ينبغى أن يعطينا الرجل
الإحساس بأنه كتلة ثقيلة .

الجماعة طائشة مستهترة ، وتمزق يومها إرباً إرباً ، وتنفق حديثها
فى ذكر الحفلات وأسباب الهروب من النفس . ولكنى إن توجهت
لمقابلة رجل عبقرى ، فإنى أحسب لقائى فاتراً إذا هو قدم إلى ألوانا
من العطف الرقيق والمجاملة . وخير لى أن أراه واقفاً فى مكانه
راسخاً كالطود ، ويشير فى الرعب ، على الأقل من مقاومته . وأحب
أن أعلم أنى التقيت برجل ذى صفة فريدة موجبة . إن فى ذلك
إنعاشاً عظيماً لى وله ، وليس قليلاً انه لا يقبل الآراء والعادات
التقليدية . إن هذا التفرد فى شخصه سيدبقى دائماً حافظاً ومذكراً ،
وعلى كل مائل أن يعرف كيف يتصرف معه أولاً . كل أمر واقعى
أو نافع فيه مجال للنضال . إن بيوتنا ترن بالضحك ، ويتردد فيها
اللغظ بالحديث الشخصى والنقدى ، وليس فى ذلك ما يعين إلا القليل .
أما الرجل المستوحش الذى لا يتيسر بلوغه ، الذى يعد فى المجتمع
مشكلة وتهديداً ، والذى لا يسع المجتمع أن يجعله يمر وهو صامت ،
وإنما لابد له من أحد أمرين : فإما أن يقده أو يمقته — الرجل

الذى تحس الأحزاب كلها أنها تنتمى إليه ، سواء فى ذلك قادة الرأى والرعاى والشواذ — هذا الرجل يصدر عنه العون . انه ينسب الخطأ إلى أوروبا وأمريكا ، ويهدم رأى المتشككين الذى يزعم « أن الرجل دمية ، فلنتناول طعامنا وشرابنا ، فهو خير ما نستطيع أن نفعله » . وذلك بإلقائه الضوء على غير المطروق والمجهول . إن الخضوع للأمر القائم ، والرجوع الى الجمهور ، إنما يدل على إيمان ضعيف ، وعلى رؤوس غير صافية ، رؤوس لابد لها أن تشهد البيت قائماً قبل أن تستطيع إدراك تصميمه . إن الرجل الحكيم لا يُبعد عن ذهنه الكثرة فحسب ، ولكنه يبعد عنه القلة كذلك . ان الينايع ، وكل من يتحرك من نفسه ، ويستغرق فى ذاته ، ويأمر لأنه يأتمر ، والواثق من نفسه ، والمبتدع — كل أولئك خير ، لأنهم يدلون لتوهم على وجود قوة عليا .

إن أعمالنا يجب أن تقوم على أساس مادتنا بحساب رياضى دقيق . فإن الطبيعة ليس فيها تقديرات خاطئة . وليس فى رطل من الماء فى المحيط الخضم من الجاذبية أكثر مما فى هذا الوزن من الماء فى بركة من الماء فى منتصف فصل الصيف . كل شئ يسير وفقاً لطبيعته وكميته تماماً ، ولا يحاول شيئاً لا يستطيعه ، اللهم إلا الإنسان وحده . انه مدع : يريد أموراً فوق طاقته ويحاولها . قرأت فى كتاب يحوى مذكرات انجليزية « قال مستر فوكس (لورد هولاند فيما بعد) : يجب أن أحصل على الكنز ، فقد جاهدت فى سبيل الحصول عليه ،

ولا بد لي من الظفر به . إن زينفون ورجاله العشرة آلاف كانوا متكافئين تماماً مع ما حاولوا ، فقاموا بأدائه . كانوا جد متكافئين معه ، فلم يحسب أحد انه عمل جليل أو لا يبارى . ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لم يتكرر حدوثها ، وهى نقطة بارزة فى التاريخ الحربى . وكم من الناس حاول هذا العمل بعدئذ ، ولم يكن له كفتاً . إن قوة العمل لا يمكن أن تستند إلا على الأمر الواقع . إن المؤسسة لا يمكن أن تكون خيراً من مؤسسها .

عرفت رجلاً محبباً مهذباً تعهد بإصلاح عملى ، ولكنى مع ذلك لم أمتنع قط أن أمس فى شخصه مشروع الإصلاح الذى تناوله . انه اتخذ بالسمع وبفهمه من الكتب التى كان يطلعها . كل عمل قام به كان تجريبياً ، أو قطعة من المدينة سبقت إلى المزارع ، ولكنها ما برحت مدينة ، ولم تنقلب حقيقة أخرى ، ولم تستطع أن توحى بالحماسة . ولو كان عند الرجل شئ كامن ، لو كانت لديه عبقرية رائعة لم يبدها ، تؤثر فى سلوكه وتوجهه ، لترقبنا ظهورها . وليس يكفى أن يرى العقل الشرور وعلاجها . اننا بذلك لانزال نرجى وجودنا ، ولا نقف على الأرض التى يحق لنا أن نستقر فوقها ، ما دامت الفكرة — دون الروح — هى التى تسيرنا . إننا لم نعمل بعد وفقاً لوحيا .

هذه الصفات من خواص الحياة . ومن الخواص الأخرى ملاحظة النمو المطرد . يجب أن يكون الناس أذكاء جادين . ويجب

عليهم كذلك أن يجعلونا نحس أن لديهم مستقبلاً سعيداً ذا نفوذ ،
 ينبسط أمامهم ، وتضىء بالفعل تبشير نوره في الساعة الراهنة . ان
 البطل يساء فهمه وتساء رواية حديثه : ولذا فإنه لا يستطيع أن
 ينتظر لكي يكشف عن أخطاء أى إنسان : انه في طريقه مرة
 أخرى ، يضيف قوى جديدة وتكريماً جديداً للمجال الذى يصول
 فيه ، ويكلفك أزماء واجبات جديدة ، تفلس نفسك ، إذا أنت
 تلكأت عند الأشياء العتيقة ، ولم تحافظ على صلتك به ، باستزادتك
 لثروتك . إن الأعمال الجديدة هى وحدها التى تبرر وتفسر الأعمال
 البالية ، التى يطبق النبلاء القيام أو التأثير بها . إذا أساء إليك
 صديق فإنك لا تجلس لكي تتدبر الأمر ، لأنه ينسى ذكر ما حدث
 ويضعف قوته لخدمتك ، وقبل أن تنهض ثانية تراه يثقل كاهلك
 بخيراته .

لا يسرُّ المرء أن يفكر فى الخير الذى لا يقاس إلا بأعماله .
 ان الحب لا ينفد ، وإذا ما تلاشت ضيعته ، وفرغت مخازن غلاله ،
 فإنه برغم ذلك يدخل على النفوس البهجة والغنى ، والرجل — وإن
 استغرق فى النوم — يظهر كأنه ينقى الهواء ، وكأن بيته يحتمل
 مناظر الطبيعة ويقوى قانونها ، والناس دائماً يدركون هذه المفارقة .
 إننا نعرف رجل الخير بوسيلة تختلف جد الاختلاف عن مقدار
 ما يتبرع به لجمعيات البر . إنما المزايا الوضيعة هى التى يمكن تعدادها .
 ولتخش حيناً يذكر لك أصدقاؤك ما أحسنت صنعه ، ويذكرون

كل شيء . ولكنهم حينما يقفون وعليهم سيما الانكماش والتردد في التقدير وثى من الكراهية ، وحينما يرجئون حكمهم لعدة سنوات مقبلة ، حينئذ تستطيع أن تشرع في الأمل .

إن أولئك الذين يعيشون للمستقبل لابد أن يظهروا دائماً محبين لأنفسهم في أعين أولئك الذين يعيشون للحاضر . ولذا فإنه مما يبعث على الضحك في الرجل الطيب « ريمر » الذي كتب مذكرات جيته أن يعد قائمة بعطاياه وأعماله الطيبة ، كذكره أن مئآت من الدراهم قد وهبت لستلنج وهجل وتشبين : وإن عملاً مدراراً قد عُهد به إلى الأستاذ قوس ، وأنه أوجد وظيفة لنهردر عند الدوق العظيم ، ومعاشاً لماير ، وأنه رشح أستاذين للجامعات الأجنبية ، إلى غير ذلك . إن أطول قائمة من المنافع المخصصة تبدو قصيرة جداً . وما أفقر الإنسان من مخلوق ، إذا قيس كذلك . لأن هذه كلها بالطبع أمور استثنائية ، والقاعدة في حياة الرجل الطيب والمألوف فيها هي فعل الخير . والبر الصادق من جيته يُعرف من القصة التي أملاها لدكتور اكرمان ، عن الطريقة التي أنفق بها ثروته . « كل عبارة طريفة مني كلفتني كيساً من الذهب . إن نصف مليون من مالى ، والثروة التي ورثت ، وراتبي ، والدخل الكبير الذي ربحته من مؤلفاتي الخمسين عام خلت ، كل ذلك قد أنفق في سبيل معرفتي ما أنا اليوم عالم به . وقد رأيت غير ذلك ... الخ » .

وإنى أقر أنه من لفظ القول والحديث أن أعدد صفات هذه

القوة الساذجة الخاطفة ، فإننا بذلك نكون كمن يصور البرق بالفحم . ولكنى أحب أن أنسلى بهذه الطريقة في هذه الليالى المحالولة وهذه الأيام الفارغة . ليس هناك ما يمكنه أن يحاكي هذه القوة . ان كلمة حارة تصدر عن القلب تغني . وإنى أستسلم لها بمشيئى ، والعبقريّة الأدبية إزاء نار الحياة هذه باردة كالمت ، وهناك من اللسات ما يبعث الحياة فى روى الثقلية ، ويمنحها الأعين التى تخترق ظلمات الطبيعة . وإنى لأجد أنى فى غاية الثراء حينما كنت أحسبنى فقيراً . ويترتب على ذلك سمو عقى ، يقلل من شأنه فى فترة أخرى وجه جديد من أوجه الشخصية . ما أعجب هذا التبادل بين الجذب والتنافر ! إن الشخصية تنبذ العقل ، ولكنها تثيره ، وهى كذلك تتحول إلى فكر ، وتبدو فى صورته ، ثم ينطق نورها أمام الوميض الجديد للقيمة الخلقية .

الشخصية هى الطبيعة فى أعلى صورها ، ومن العبث أن يقلدها أو أن ينازعها أحد ، فهى قوة لديها شئ من المقاومة ، ومن الإصرار ، ومن القدرة على الإبداع ، مما يحبط كل محاولة لمحاكاتها .

هذه التحفة النادرة تكون على خير صورة حينما لا تمسها يد غير الطبيعة . ويُراعى أن أصحاب المصائر العظيمة ينسلون إلى الحياة فى الظلال ، فلا ترقب ولا تهمل أثينا ذات الأعين الألف لكل فكرة جديدة ولكل عاطفة ملتبة من عواطف الشباب النابغ . أتاح لى

فرصة التفكير أخيراً شخصان ، وكلاهما من أيفاع الإله العلى القدير .
ولما اكتشفت مصدر قداستهما ، وسحر ما أوحيا من خيال ، بدا لى
كأن كلا منهما أجاب بقوله « ذلك من نشازى . فإنى لم أستمع قط
إلى ناموس قومكم ، أو لما يسمونه إنجيلهم ، فأضيع بذلك وقى ،
ولكنى قنعت بفقرى الساذج الريفى الخاص . ومن ثم كانت هذه
العدوبة . إن عملى لا يذكرُك بذلك قط — إنه خلو من ذلك » .
وتعلن لى الطبيعة فى شخص هذين الرجلين ، أنها لن تتصف
بالديمقراطية فى أمريكا الديمقراطية . ما أبعد تكوينيهما — وما أشد
عزلتهما — عن اضطراب السوق وعن الفضيحة ! وفى هذا الصباح
قطق بهت يضع زهور حوشية من آلهة الغابات هؤلاء . ان فيهم
ترفيهاً عن الأدب — هذه الجرعات السائعات من ينايع الفكر
والعاطفة ، فكأنتا تقرأ فى عصر الصقل والنقد الأسطر الأولى من
النثر والنظم المكتوب لأمة من الأمم . ما أشد ما يفتن المرء فى
اخلاصهم للكتب التى يؤثرون ، سواء كانت لايسكس أو دانى
أو شيكسبير أو سكُت ، فهم يشعرون أن لهم فى هذا الكتاب ،
أو ذاك ضلعاً ، فمن يمس الكتاب يمسهم — وبخاصة العزلة التامة
للناقد ، أو برج الفكر الذى يكتب منه ، لا يحس بالعيون التى قد
تقرأ هذه الكتابة . هل يستطيعون بعد ذلك أن يحملوا كالملائكة
ولا يتيقظون للموازنات ، ولما يقوله المنافقون لهم ! ومع ذلك فإن
من الطبايع ما يطيب فلا يفسدها الثناء ، وكما بلغ وتر التفكير

الأعماق ، فليس ثمت خطر من الغرور . إن الأصدقاء الموقرين
يحذرونهم من خطر انقلاب الرأس من أثر دق الطبول ، بيد أنهم
يستطيعون الابتسام .

أذكر سخط رجل فصيح من طائفة «النظاميين» من التحذير
الريق الذي ألقاه دكتور في اللاهوت ، وذلك حينما قال الرجل :
« إن الرجل — يا صاح — لا يمكن أن يُثنى عليه أو يُساء إليه » .
ولكن علينا أن نتسامح في النصائح ، فهي طبيعية جداً . وأذكر
أن الفكرة التي طرأت لي حينما أتى إلى أمريكا رجال غرباء عنها
عباقرة روحانيون ، أذكر أن تلك الفكرة كانت : هل وقعتم
فريسة بمحضوركم إلى هنا ! بل — وقبل هذا — أجيئوني عن هذا
السؤال « هل يمكن لأحد أن يفترسكم ؟ » .

وكما قلت من قبل إن الطبيعة تحتفظ بين يديها بهذه الميزات
الكبرى ، ومهما زعمت خطتنا الدينية وتربيتنا أن لها نصيباً من
الفضل ، ومهما علمتنا أن النواميس تشكل المواطن ، فإن الطبيعة
تسير سيرتها ، وتخطىء أحكم الحكماء . إنها تستخف بالأناجيل
والأنبياء ، كرجل لديه الكثير مما يستطيع أن ينتج ، وليس لديه
من الوقت فسحة لشيء منه .

هناك طائفة من الناس ، يظهر منها أفراد في فترات متباعدة ،
وهبوا بدرجة عظيمة البصيرة والفضيلة ، فأجمع الناس على تلقيهم

« بالمقدسين » ، وهم يدون كأنهم تجمع هذه القوة التي ذكرناها .
إن الأشخاص المقدسين يولدون شخصيات ممتازة ، أو إذا استعرنا
تعبير نابليون قلنا إنهم النصر المنظم . والناس يستقبلونهم عادة بنية
سيئة ، لجدتهم ، ولأنهم يضعون حداً للمبالغة التي أحاطت بشخصية
الرجل المقدس الذي سبقهم . ان الطبيعة لا تخلق أبناءها على غرار
واحد ، ولا تشابه قط بين رجلين . اننا حينما ننظر إلى رجل عظيم
نتصور شيئاً بينه وبين شخصية تاريخية أخرى ، ونتنبأ بما يصدر
عن شخصه وما أصابه ، بيد أن النتيجة حتماً تخيب آمالنا . ولا يستطيع
أحد البتة أن يحل مشكلة شخصية وفقاً لأهوائنا ، إلا بأسلوبه العالي
الذي لم يسبقه إليه أحد . إن الشخصية تحتاج إلى فسحة من المكان ،
ولا ينبغي أن يزاحمها آخرون ، أو أن يُحكم عليها بنظرات خاطفة
نرسلها ونحن تحت تأثير ما نضطرب فيه من أعمال أو في مناسبات
قليلة . إنها تحتاج في الحكم عليها إلى الابتعاد عنها ، كأنها البناء
الشامخ ، وهي ربما لا تسارع في إنشاء الصلات بينها وبين غيرها ،
والأرجح ألا تفعل ذلك . ويجب علينا ألا نتطلب لأعمالها تفسيراً
عاجلاً ، وفقاً لمعاييرنا الخلقية ، أو للقواعد الخلقية الشائعة .

إنني أنظر إلى التماثيل المنحوتة باعتبارها من التاريخ ، ولا
أحسب أن تماثل أبولو وچوف يستحيل أن يكونا لحماً ودماً . كل
صفة سجلها الفنان في الحجر سبق له مشاهدتها في الحياة ، وهي في
الأصل خير منها في محاكاته . رأينا كثيراً من الزيف ، ولكننا

ولدنا مؤمنين بعطاء الرجال . وما أسهل ما نقرأ في الكتب القديمة — حينما كان الرجال قلائل — عن أدنى أعمال الآباء الأولين .

إننا نتطلب في الرجل أن يكون ضخماً بارزاً في هيئته حتى يستحق أن نذكر عنه أنه نهض وتمنطق وارتفع إلى مكانته . إن أقرب الصور إلى التصديق هي صور الرجال الأجلاء الذين ساروا عند مدخلهم وأشبعوا حواس غيرهم ، كما حدث للمجوسى الشرقى الذى بُعث لى يختبر مزايا زرادشت ، ولما وصل الحكيم اليونانى الى بلخ — كما يحدثنا الفرس — عين جشتاسب يوماً يجتمع فيه « الموبد » من كل بلد ، وقد أعد مقعد ذهبى للحكيم اليونانى ، ثم تقدم حبيب يزدام ، النبى زرادشت ، وسط الاجتماع . ولما رأى الحكيم اليونانى هذا السيد قال : « ان صاحب هذه الصورة وهذه المشية لا يمكن أن يكذب ، ولا يمكن أن يصدر عنه إلا الصدق » .

وقال أفلاطون : من المستحيل ألا تؤمن بأنباء الآلهة » حتى إن تكلموا بمنطق غير محتمل وغير ضرورى . وإنى أعد نفسى شقياً جداً بين رفاقى إذا لم أستطع أن أقدر خير ما فى التاريخ . يقول ملتن « إن جون برادشو يبدو كالتفصيل الذى لا يتخلى عن عصا الحكم بانقضاء العام ، ولذا فإنك تنظر إليه وكأنه قائم على حكم الملوك ، لا فى يوم الحكم وحده ، ولكن خلال حياته كلها » .

وانه لأقرب إلى الصدق عندى أن يعرف الرجل الواحد السماء — كما يقول الصينيون — ما دامت هذه المعرفة سابقة ، من أن

يعرف الدنيا عدد من الرجال عديد . إن الأمير الفاضل يجابه الآلهة دون أن تخامرهُ الشكوك ، وهو ينتظر مائة جيل حتى يأتي حكيم ، دون أن يشك . ومن يجابه الآلهة دون ارتياب يعرف السماء ومن ينتظر مائة جيل حتى يأتي حكيم ، دون أن يشك ، يعرف الناس . ومن ثم فإن الأمير الفاضل يسير ، ويدل دولته على الطريق عدة أجيال » ولكن ليست بنا حاجة إلى التماس الأمثلة البعيدة . والرجل الذي لا تعلمه تجاربه حقيقة السحر وقوته كما تعلمه حقيقة الكيمياء وقوتها أعمى البصيرة . ان أشد الحنابلة زمناً لا يستطيع أن يرحل إلى الخارج دون أن يقابل مؤثرات لا يستطيع تفسيرها ، فقد يحدق فيه إنسان فتخرج مقابر ذاكرته موتاهها ، ولا مناص له من أن يفشو الأسرار التي تسبب له الشقاء إما بكتماها أو إفشائها . ثم يلتقي بآخر ، فيرتج عليه ، وكأن عظامه تفقد غضاريفها . إن دخول صديق يزيده جلالاً وجرأة وفصاحة ، ولا يسعه إلا أن يذكر أن هناك أشخاصاً وسّعوا من فسكره سعة لا يتصورها العقل ، وأشعلوا في صدره حياة أخرى .

وهل هناك ما يبلغ في الروعة علاقات المودة حينما تصدر عن هذا المنبع العميق ؟ إن الإجابة الكافية للمشكك الذي يرتاب في قدرة الإنسان وإعداده هي في إمكان هذا الاتصال السار مع الناس ، وهو ما يخلق الإيمان ومجال العمل عند كل إنسان عاقل .

ولست أعرف شيئاً مما تمنحه الحياة فيرضى النفس مثل التفاهم الحسن العميق ، الذى يمكن أن يقوم بعد كثير من تبادل الخدمات الطبية ، بين رجلين فاضلين ، كل منهما واثق من نفسه وواثق من صاحبه . إنها مساعدة تفوق كل سبب آخر من أسباب رضى النفس ، وتقلل من شأن السياسة والتجارة والكنائس . لأن الناس عندما يتقابلون كما ينبغي لهم ، كل منهم فاعل خير ، وكأنهم ثريات من الفكر والعمل والتهذيب ، يكون ذلك عيداً للطبيعة يعلنه كل شئ . والحب الجنسى فى مثل هذه الصداقة هو الدليل الأول ، كما أن الأشياء الأخرى جميعاً دلائل حب ، وهذه الصلات بخيار الناس التى حسبنها فى وقت ما قصص الشباب الخيالية ، تصبح بتطور الشخصية أقوى المتع .

آه لو أمكن أن يعيش المرء على صلات صحيحة بالناس ! — وآه لو استطعنا أن نمتنع عن أن نطلب أى شئ منهم ، أو أن نطلب ثناءهم ، أو معونتهم ، أو شفقتهم ، ونقتنع بإرغاهم بفضل ما فى أقدم القوانين من مزايا ! هلا نستطيع أن نتعامل مع أفراد قلائل — بل مع فرد واحد — طبقاً للسنن غير المكتوبة ، ونختبر تأثيرهم ؟ هلا نستطيع أن نقدم لصاحبنا تحية الصدق والصمت والاحتمال ؟ وهل لابد لنا من التحمس للبحث عنه ؟ إذا كانت بيننا صلة فسوف نلتقى . كان من تقاليد العالم القديم أن تطور الظروف لا يمكن أن

ينحني إلهاً عن إله ، وهناك بيت من الشعر الإغريق يقول :

« لا يجهل الآلهة بعضهم بعضاً » .

والأصدقاء يتبعون كذلك قوانين الضرورة الإلهية ، يجذب
أحدهم الآخر ، ولا يسعهم إلا هذا : —

« إذا اجتنب الناس بعضهم بعضاً

استمتع كل امرئ بأخيه .

إن الصلة بين الصديق والصديق لا تخلق ، ولكنها تيسر .
يجب على الآلهة أن يأخذوا مقاعدهم بغير وسيط فوق الأولمپ ،
وأن يضعوا أنفسهم ما استطاعوا وفقاً لدرجاتهم في التقديس . إن
المجتمع يفسد إذا تكلفنا أو إذا التقى الرفاق على بعد ميل بينهما .
وإذا لم يكن مجتمعاً فهو ضجيج خبيث وضع منحنط ، حتى إن كان
من خيار الناس . إن عظمة كل منهم كلها تحتبس ، وتنشط كل
نقيصة بدرجة مؤذية ، كأن أهل الأولمپ يلتقون لتبادل النشوق .

إن الحياة تسير قدماً ، ونحن نطاردها فكرة عابرة ، أو يطاردنا
خوف أو أمر من ورائنا . أما إذا التقينا فجأة بصديق فإننا نقف ،
ويبدو لنا سخف حرارتنا وتعجلنا . فالآن نحتاج إلى الوقوف ،
وإلى التملك ؛ وكذلك إلى القدرة على الإفادة في اللحظة الراهنة
مما يكنه القلب من مصادر الثروة . إن اللحظة الراهنة هي كل شيء ،
في جميع العلاقات النبيلة .

الرجل المقدس نبوءة العقل ، والصديق أمل القلب . وإنما يبلغ المرء منتهى الغبطة إذا تحقق هذان في رجل واحد . والعصور تفتح هذه القوة المعنوية . وكل قوة ظل أو رمز لها . والشعر بهيج قوى لأنه يستمد وحيه منها . ويكتب الناس أسماءهم في الدنيا بمقدار ما لديهم منها . كان التاريخ شحيحاً ، وأمننا جماهير ، ولم نر قط رجلاً : تلك الصورة المقدسة لم نعرفها بعد ، وإنما نعرف حلماً منها أو نبوءة . إننا لانعرف الصفات الجليلة التي تتصف بها ، التي تهدي الرأي وتسمو به . ولسوف نرى يوماً أن أخص الطاقات أعمها ، وأن النوع يكفر عن السكم ، وأن جلال الشخصية يعمل في الظلام ، ويعين من لم يره قط . وما ظهر حتى الآن من عظمة إنما هو بداية وتشجيع لنا في هذا الاتجاه .

إن تاريخ أولئك الآلهة والقديسين الذي دونه العالم ، ثم عبده ، إنما هو وثائق تدل على الشخصية . لقد ابتهجت العصور بآداب شاب لم ينل من الحظ شيئاً ، وقد شُنق تحت مقصلة بلاده ، شاب ألقى بمجرد نوع طبيعته جلالاً مسرحياً حول وقائع موته التي حولت كل دقيقة إلى رمز عالمي أمام أعين البشر . هذه الهزيمة الكبرى هي أعظم الوقائع لدينا حتى اليوم . بيد أن العقل يتطلب نصراً للحواس ، أو قوة شخصية تحوّل القاضى والحكم والجندى والملك ، قوة تتحكم في خواص الحيوان والمعادن ، وتختلط بمسير عصارة النبات ، والأنهار ، والرياح والنجوم ، والقوى المعنوية .

وإذا لم نستطع أن نبلغ طرفاً من هذا الجلال ، فدعنا على الأقل ندين له بالولاء .

إن المزايا العظمى — في المجتمع — تحسب على صاحبها مثالب . ويتطلب الأمر منا عناية كبرى في تقديرنا الخاص . وأنا لا أعفو عن أصدقائي إذا هم فشلوا في معرفة الشخصية الرقيقة ، وفي تحيتها بالكرم وعرفان الجميل . إننا إذا جاءنا في النهاية ما كنا نتمنى دائماً ، وأشرق علينا بأشعة بهيجة من تلك البقعة السماوية البعيدة ، إننا إذا جاءنا ذلك وكنا بعدئذ جافين أو ناقيدين وعاملنا هذا الزائر بثرثرة الطرقات وريبتها ، برهنا على سوقية تكاد تغلق أبواب السماء . إنما هذا خلط ، وجنون تام ، إذا كانت الروح لا تعرف قدرها ، ولا تعرف من هو الجدير بولائها وإيمانها . وهل هناك دين غير أن يعرف المرء أن العاطفة المقدسة التي يعزها حينما تفتحت زهرتها في بيداء الوجود إنما تنفتح له ؟ إذا كان لا يراها أحد ، فهو يراها . وهو يدرك عظمة هذه الحقيقة ، حتى إن كان في ذلك وحيداً . وطالما تكون الزهرة يانعة فإنه يجعل أيامه دينية وزمانه مقدساً ، ويرجى كآبته وحماقته وهزله . إن الطبيعة تنهمك في وجود هذا الضيف . وهناك أعين كثيرة تستطيع أن تبين الفضائل الحكيمة المألوفة وتكرّمها . وهناك كثيرون يستطيعون أن يفظنوا إلى العبقري وهو يسير في طريقه المرصع بالنجوم ، حتى إن عجزت عن ذلك الجماهير ، ولكن عندما تأتي إلى طرقاتنا

ويؤتينا تلك المحبة التي تتحمل العناء ، وتنكر الذات وتسمو في
الطموح ، وتؤثر لنفسها الشقاء والحماقة في هذه الدنيا ، على أن
تلوث يديها البيضاء بالإذعان والخضوع — حينئذ لا يعرف
وجهها إلا الأصفاء الطموحون ، والتحية الوحيدة التي يستطيعون
تقديمها هي الاعتراف بها .

الآداب

« ما أقرب الجمال من الخير !

إننا لا نكاد نراه

حتى تذهل حواسنا

بتخطيطه وصورته الظاهرة .

* * *

أصلحوا أنفسكم

واكتسوا بكل جمال

يستطيع اللون أو التناسب

أن يضيفه على أجسامكم .

فإن فقدتم هذه الفنون الصامتة

من رسوم وصور

فقد تحتاجون إلى صفات أخرى

يميزها سمو الإحساس باحترام النفس والكرامة

الذين تلقاها في الحركات الصادقة .

(بن جونسن)

يقال إن نصف العالم لا يعرف كيف يعيش النصف الآخر ،

ولقد رأى رجال حملتنا الكشفية أهل جزيرة فيجي يتناولون

عشاءهم من العظام البشرية ، وقيل إنهم يأكلون زوجاتهم وأطفالهم .
والاقتصاد المنزلى عند سكان جورنو المحدثون (غربى طيبة القديمة)
فيه فلسفة خاطئة . إعداد المنزل عندهم لا يتطلب سوى اثنتين أو ثلاثة
من الخبز ، وحجر لطحن الطعام ، وحصيرة هى الفراش . والبيت
وهو المقبرة ، مستعد ، لا يدفع عنه صاحبه أجراً أو ضريبة .
لا تتسرب إليه مياه الأمطار من السقف ، وليس له باب ، إذ ليست
إليه حاجة ، فليس هناك ما يخشى ضياعه . فإذا ضاقوا ذرعاً ببيوتهم
خرجوا منها ودخلوا غيرها ، إذ أن تحت تصرفهم مئات عديدة .
ويضيف إلى ذلك بلزوني الذى ندين له بهذا الوصف « ان الكلام
عن السعادة فيه شئ من الغرابة بين قوم يعيشون فى القبور بين
الجثث والحرق التى خلفتها أمة قدمة لا يعلمون عنها شيئاً » . وفى
صحارى بورجو لا يزال قوم « تبو » الجبليون يعيشون فى الكهوف
كالسنونو الجبلى ، ولغة هؤلاء الزنوج يشبهها جيرانهم بصراخ
الوطاويط وشقشقة العصافير . ثم إن أهل برنو لا يتسمون بأسماء
الأعلام ، إنما يسمى الأفراد بارتفاعهم أو بدانتهم أو أية صفة عارضة
أخرى ، وليست لهم إلا أسماء مستعارة . غير أن الملح والبلح والعاج
والذهب التى من أجلها يرتاد الرحالة هذه المناطق المرعبة تجدد سيلها
إلى بلاد من العسير أن تسوى المشتري والمستهلك فيها بهذا الجنس
الذى يأكل لحوم البشر ويسرق الآدميين ، بلاد يخدم الناس فيها
أنفسهم بالمعادن والأخشاب والحجر والزجاج والصمغ والقطن

والحرير والصوف ، ويكرّم الناس فيها أنفسهم بفن البناء ، ويسنون القوانين ، ويحاولون تنفيذ إرادتهم بأيدي أمم كثيرة ؛ وهم ينشئون — بنوع خاص — طبقة ممتازة ، تجدها شائعة في كل بلد به رجال أذكاء ، وهي ارستقراطية قائمة بذاتها ، أو أخوة بين الحيار ، تتخذ نفسها بغير قانون مدون أو عادة محكمة من أى نوع ، وتستعمر كل جزيرة حديثة الزراعة ، وتتخذ لنفسها — وتصنع — أى ضرب من ضروب الجمال أو أية صفة عجيبة قومية ممتازة حينما ظهرت .

أية حقيقة في التاريخ الحديث أشد بروزاً من خلق الرجل المذهب ؟ إن الفروسية هى ذاك ، والإخلاص هو ذاك . ونصف المسرحيات وكل الروايات في الأدب الإنجليزي من سر فيليب سدنى إلى سر والتر سكت يصور هذه الشخصية . إن لفظة الرجل المذهب (الجنتلمان) التى ينبغى منذ اليوم — كلفظ المسيحية — أن تميز هذا القرن والقرون القليلة القادمة ، نظراً للأهمية التى تعزى إليها ، هذه اللفظة تشير إلى بعض الخصائص الشخصية التى لا يمكن انتقالها . لقد ارتبطت بهذه الكلمة صفات طائشة خيالية ، إلا أن اهتمام الناس الثابت بها يجب أن يُردّ إلى الخواص القيمة التى تتضمنها . ان العنصر الذى يوحد بين جميع الأشخاص الأقوياء في كل البلدان ، ويجعلهم متفاهمين على وفاق ، عنصر محدد ، يحس المرء لأول وهلة إذا كان الفرد لا يتسم بميسمه الذى يشبه الأخوية الماسونية . هذا العنصر لا يمكن أن يكون ثمرة عرضية ، ولكنه لابد أن يكون

نتيجة مستخلصة من مميزات الشخصية والصفات التي تتوفر في الرجال .
ويبدو أن هذه النتيجة ثابتة معينة ، كما أن الجو مركب ثابت ، في
حين أن كثيراً من الغازات لا تتحد إلا لكي تتحلل . يصف الرجل
الفرنسي المجتمع الطيب بأنه « ما ينبغي أن يكون » ، إنها ثمرة
تلقائية للمواهب والمشاعر التي تتصف بها تلك الطبقة عينها التي تتوفر
لديها أكبر قسط من النشاط ، وتترغم العالم في هذه الساعة ، وربما
كانت هذه الخلاصة بعيدة عن الطهارة ، بعيدة عن أن تؤلف أبهج
أنعام المشاعر الإنسانية وأعلاها ، ولكنها خلاصة طيبة بالمقدار
الذي يسمح به المجتمع بأسره . انها تتألف من الروح أكثر مما تتألف
من مواهب الناس ، وهي نتيجة مركبة يدخل في تركيبها كل قوة
عظمى ، كالفضيلة ، والفتنة ، والجمال ، والثراء ، والنفوذ .

في كل الكلمات التي تستعمل في التعبير عن الآداب الممتازة
والتهذيب الاجتماعي شيء من الإبهام ، لأن الكميات دأمة التغير ،
وتفترض الحواس أن الأثر الأخير هو الباعث الأول ، ولفظة
« چنتلمان » ليس لها معنى يناظرها ويعبر عما تقصد من صفات .
وكلمة « چنتلى » أو السكياسة لفظة وضیعة ، كما أن كلمة « چنتلِسْ »
أو الرقة لفظة بائدة . غير انا يجب أن نؤكد الفرق في لغتنا العامية
بين « الطراز الجديد » وهي عبارة كثيراً ما يكون معناها ضيقا
بغیضا ، وبين صفة البطولة التي يعنها الجنتلمان . ومهما يكن من
أمر فإن الكلمات المألوفة يجب أن تحترم : فسوف تجد أنها تحتوى

على جذور الموضوع . والنقطة البارزة في كل هذه الطائفة من الكلمات ، كالمجاملة ، والفروسية ، والطاراز الجديد ، وما إليها ، هي أننا نتدبر الزهرة والثمرة ، دون بذرة الشجرة . إنما هدفنا هذه المرة هو الجمال دون القيمة . وموضع السؤال الآن هو النتيجة ، وإن كانت ألفاظنا تشير إشارة كافية إلى الإحساس العام بأن المظهر يفرض وجود المادة .

الجتلمان رجل صادق ، سيد أعماله ، ويعبر بمسلكه عن تلك السيادة ، بطريقة لا تتوقف البتة على الأشخاص أو الآراء أو الملك ، ولا تسير في أثرها . وفوق هذه الصفة ، صفة الصدق والقوى الحقيقية تدل كلمة الجتلمان على الطبيعة الطيبة والخير ، والرجولة أولاً ثم الرقة . ومن المؤكد أن الفكرة العامة تضيف إلى ذلك شرط اليسر والثراء ، غير أن ذلك نتيجة طبيعية للقوة والمحبة الشخصية ، فترى الرجال المهذبين يمتسكون مافى العالم من خير ويتصرفون فيه . كل شخص بارز يجب في أوقات الشدة أن ينتهز كثيراً من الفرص كي يدل على ضخامته وقيمه . ومن ثم فإن كل اسم من أسماء الرجال برز من بين الجماهير في عهود الإقطاع يرن في آذاننا كدق الطبول . ولا يزال هذا سائداً اليوم ، وفي الزحام الزاحف من المجتمع الكريم يُعرف الرجال البواسل الصادقون ، ويرفعون إلى مكانتهم الطبيعية . وقد تنتقل المنافسة من الحرب إلى السياسة والتجارة ، غير أن القوة الشخصية سرعان ما تظهر في هذه الميادين الجديدة .

القوة أولا أو تنعدم الطبقة المتزعمة . وفي السياسة والتجارة نجد أن المقاتلين من أجل الجوائز والقراصنة أشد تبشيراً بالنجاح من المتحدثين والكتاب . ويعلم الله أن كل صنوف الرجال المهذبين يقرعون الباب ، ولكن لفظة « الرجل المهذب » إذا استعملت بدقة وجدنا أنها تشير إلى الطاقة الأصيلة . إنها تصف الرجل متمسكا بالحق ، ويعمل بوسائل لم يلقنه إياها أحد . ان السيد الكريم يجب أن ينطوى على حيوان كريم ، على الأقل إلى الحد الذى يجعله يسفر عن مزايا الروح الحيوانية التى لا تبارى . أما الطبقة الحاكمة فيجب أن تتصف بأكثر من ذلك ، ولكنها يجب أن تكون لها هذه الصفات ، فيشيعون فى كل جماعة الإحساس بالنفوذ ، الذى ييسر أداء الأشياء التى تفزع الحكماء . إن مجتمع الطبقة قوية العزم فى اجتماعاتها الودية البهيجة ، مجتمع مليء بالشجاعة والمحاولات التى يجبن أمامها العالم الشاحب . إن الشجاعة التى تبديها البنات أشبه بمعركة لنديزلين أو بمعركة بحرية . ان العقل يعتمد على الذاكرة يستمد منها ما يواجه به هذه الفرق البحرية المرتجلة . غير أن الذاكرة كالمسؤول الوضع الذى يحمل السلة والشارة فى حضرة هؤلاء السادة المفاجئين .

إن حكام المجتمع يجب أن يكونوا أكفاء لعمل الدنيا ، ونظراء لواجباتهم المتنوعة : رجالا من الطراز القيصرى الصحيح ، لهم علاقات بعيدة المدى . وما أبعدنى عن الاعتقاد فى المبدأ المتخاذل

الذى يقول به لورد فوكلند وهو « ان الحفل يجب أن يذهب إليه اثنان ، لأن الرجل الجرىء سوف يجتاز أدق امتحان » ، ومن رأيي أن الجنتلمان هو الرجل الجرىء الذى لا يهزم ، ولا يسود حقاً إلا تلك الطبيعة الغزيرة التى تتمم أى شخص تتحدث إليه . الرجل المذهب عندى يصدر القانون الذى يسير عليه . انه يفوق القديسين صلاة فى الكنائس ، وقواد الجيش المستميتين فى الميدان ، وهو أشد إشراقاً من المتطرفين فى القاعات . انه رفيق طيب للقرصان ، وهو يساير رجال العلوم ، ولذا فمن العبث أن تحصن نفسك ضده . انه يملك المدخل الخاص لكل القول ، وإن استطعت أن أفر من نفسى استطعت أن أفر منه .

كان الرجال المهذبون المعروفون فى آسيا وأوروبا من هذا الطراز القوى : صلاح الدين وساپور وسيد ويوليوس قيصر وسيبو والاسكندر وبركليز وأعظم الشخصيات سلطاناً ونفوذاً ، كانوا يجلسون فى مقاعدهم بإهمال شديد ، وكانوا فى أنفسهم أعلى من أن يقيموا وزناً لأى موقف من المواقف .

ويحسب الناس فى حكمهم العام أن الثراء الطائل أمر لازم لكمال رجل الدنيا هذا ، ولكنه تابع مادى يسير فى حلبة الرقص التى بدأها الأول . فالمال ليس ضرورياً ، ولكن هذه الصلات الواسعة لازمة ، وهى صلات تتخطى العادات الطائفية والمذهبية ، وترغم الناس من جميع الطبقات على الإحساس بها . وإذا كان الرجل

الأرستقراطية صالحاً في الدوائر العصرية فقط ، وليس صالحاً في الأوساط العادية ، فلن يكون زعيماً من الطراز الجديد . وإذا كان الرجل من عامة الناس لا يستطيع أن يتحدث إلى « الرجل المهذب » حديث الند للند ، حتى يدرك هذا الرجل المهذب انه فعلاً من درجته فإن هذا الأخير لن يُخشى له بأس .

كان ديوجينيس وسقراط وأپا مِنداس رجالاً مهذبين تجرّى في صروقهم أظهر الدماء ، وقد آثروا حالة الفقر ، في حين أن حالة الثراء كانت ميسورة لهم كذلك . اننى أستخدم هذه الأسماء العتيقة ، ولكن الرجال الذين أتحدث عنهم معاصرون لى . إن القدر لا يمن على كل جيل بواحد من هؤلاء الفرسان المبرزين ، غير أن كل جماعة من الناس تقدم مثالا من طبقتها : وسياسة هذا البلد ، وتجارة كل مدينة ، يوجهها هؤلاء العاملون الأشداء الذين لا يعبأون بالتبعات ، الذين لديهم من قوة الابتكار ما يؤهلهم للقيادة ، ومن سعة العطف ما يجعلهم يزاملون الجماهير ، ويحبب أعمالهم إليهم .

إن أصحاب الذوق السليم يراعون ما تتجمل به هذه الطبقة من آداب ويتمسكون بها مخلصين . واجتماع هؤلاء السادة بعضهم ببعض واجتماعهم بأناس يدركون مزاياهم محبب إلى الفريقين وحافز لهما . والصورة الرائعة والعبارات السعيدة التى تصدر عن كل منهم يكررها الآخرون ويحاكونها . وفي رضى خاطف تتلاشى النوافل وتتجدد الجلائل .

إن الآداب الرفيعة تبدو مريضة للرجل الذي لم ينل شيئاً من التهذيب . إنها علم رقيق بوسائل الدفاع لكي يدرأ المرء عن نفسه الشرور ويدخل في روع غيره الفزع . فإذا قابلها الطرف الآخر بما يناظرها من مهارة فإنها تفقد حدة سلاحها ، فلا تكون هناك مبارزة أو لعب بالسيوف ، ويجد الشاب نفسه في وسط شفاف ، تكون فيه الحياة لعبة هينة ، ولا ينشأ بين اللاعبين أى ضرب من ضروب سوء التفاهم .

إن الآداب تهدف إلى تيسير الحياة ، وإلى الخلاص من العقبات ، وإلى تمهيد السبيل أمام المرء لكي يبدل نشاطه خالصاً من كل شائبة . إنها تعين على ما بيننا من تعامل وحديث ، كما تعين السكك الحديدية على السفر ، وذلك بالتخلص من كل عقبات الطريق التي يمكن تفاديها ، بحيث لا نترك لنا شيئاً نتغلب عليه سوى الفضاء المطلق . وسرعان ما تثبت هذه الصيغ ، ويزداد الناس اهتماماً بالعود على دقة الإحساس بالصواب ، حتى تصبح هذه الدقة وساماً مميزاً اجتماعياً وقومياً . وهكذا ينشأ « الطراز الجديد » ، صورة مبهمه ، قوية التأثير ، عجيبه ، لا تأبه بشيء ، يخشاها الناس ويتبعونها ، وعبثاً ما تحاول الأخلاق أو العنف أن تهاجمها .

وهناك علاقة وطيدة بين طبقة المقتدرين ، والفئة المصقولة المنتقاة من الناس ، هذه الفئة التي تستمد من تلك الطبقة دائماً أو تمدها . إن أقوىاء الرجال عادة يتسامحون ببعض الشيء حتى فيما يجدونه في

الطراز الجديد من نزع ، نظراً لهذه العلاقة التي يلمسونها فيها . إن نابليون ، ابن الثورة ، ومحطم طبقة النبلاء القديمة ، لم يكف قط عن التودد إلى فوبور سنت جرمان ، وهو يحس من غير شك أن الرجال العصريين مدينون لأمثاله من الرجال . إن طراز العصر يمثل كل فضائل الرجولة ، ولو بطريقة عجيبة ، وهو ثمار الفضيلة ، أو هو شرف يناله صاحبه بعد الموت . إنه في كثير من الأحيان ليس من صفات العظماء ، ولكنه من صفات أبنائهم ، هو موئل للماضى ، وهو عادة يعترض عظماء هذه الساعة . ولا يرود عظماء الرجال عادة قاعاته ، بل يتخفون في الميدان . فهم ما زالوا يعملون ولم يجنوا بعد ثمار أعمالهم . الطراز الجديد يتألف من أبنائهم ، من أولئك الذين يحصلون — عن طريق ما لشخص آخر من قيمة أو فضيلة — على بريق لأسمائهم ، وعلى شارات مميزة ، ووسائل للتهذيب والكرم ، وعلى شئ من الصحة والوجاهة في تكوينهم الجثمانى ، مما يكفل لهم نفوذاً كبيراً يستمتعون به ، إن لم يكن أعظم نفوذ يعملون به . أما طبقة الأقوياء ، أما الأبطال العاملون من أمثال كورتز ونلسن ونابليون ، فإنهم يرون أن هذا هو الابتهاج أو الاحتفال الدائم بما هم عليه من صفات ، ويرون أن الطراز الجديد هو ثمار المواهب ؛ هو المكسيك ومارنجو والطرف الأغر مهزومة هزيمة منكورة ، وأن الأسماء العصرية اللامعة إنما ترجع إلى أسماء عاملة كأسمائهم ، ظهرت منذ خمسين أو ستين عاماً .

هم الزارعون ، وأبناؤهم الحاصدون ، وأبناؤهم — كما هو معهود — لا بد أن يسلّموا ما يملكون من محصول لمنافسين جدد ذوى أعين أشد حدة وأجسام أقوى بناء .

إن المدينة تستمد أنبائها من الريف . ويقال إن كل ملك شرعى فى أوربا فى عام ١٨٠٥ كان معتوهاً ، ولولا أن المدينة كانت تتلقى المدد من الحقول لفنيت من عهد بعيد وفسدت وتفجرت . إنما هو الريف الذى قصد الحضر أول من أمس ، فأصبح اليوم المدينة والبلاط .

إن الأرستقراطية والعصرية تتأجج معينة لا مفر منها . وهاتان الفئتان المتبادلتان لا ينهدمان . إذا أثارا الغضب بين أفراد أقل الطبقات امتيازاً ، وانتقمت الأكثرية المبعدة لنفسها من الأقلية المستبدة ، بقوة اليد ، ثم قتلها ، صعدت فوق القمة فى الحال طبقة جديدة ، كما يطفو الزبد فى إناء اللبن . وإذا هدم الناس طبقة بعد طبقة ، حتى يبقى رجلان اثنان ، أمسى أحدهما زعيماً ، وقام الآخر بخدمته . ومحاكاته على غير إرادته . وقد تبعد هذه الأقلية عن الأنظار وعن العقل ، ولكنها تمسك بزمام الحياة ، وهى إحدى ضياع المملكة . وأنا أشد ما أكون دهشة لإمساكها بالزمام عندما أرى عملها . إنها تقدر إدارة صغائر الأمور حتى أنا لا أتوقع لحكمها بقاء ونحن أحياناً نقابل رجالاً متأثرين بفكرة معنوية قوية ، بخركة وطنية ، أو أدبية ، أو دينية ، ونحس أن الإحساس الخلقى يتحكم فى

الإنسان والطبيعة . ونحسب أن كل ميزة وكل رابطة أخرى تافهة عرضية ، كالطبقة الممتازة أو الطراز الجديد مثلاً . ولكن تعال من عام إلى آخر ، وانظر إلى ثبات ذلك في حياة المرء في بوسطن أو نيويورك ، حيث لا يكون له ، كذلك ، أدنى طابع من قانون البلاد . إنك لن تجد في مصر أو في الهند خطأً أثبت منه أو أشد مناعة . هنا تجد جماعات تتعقد أو اصرها فوق هذا الحاجز أو تحته أو خلاله ، بجمعية من التجار ، أو فرقة حرية ، أو فصل في الجامعة ، أو معسكر حول النار ، أو جماعة مهنية ، أو حزب سياسى أو دينى . — الأشخاص هنا يبدو كأنهم يقتربون بعضهم من بعض اقتراباً لا ينقسم . ولكن إذا ما انفض هذا الجمع ، فإن أعضائه لن يتقابلوا أثناء العام مرة أخرى . ويرجع كل منهم إلى درجته في سلم المجتمع الصحيح ، فيبقى الحزف خزفاً والفخار فخاراً . إن أهداف العصرية قد تكون تافهة ، أو قد تكون العصرية بغير هدف ، ولكن طبيعة هذا الاتحاد وهذا الامتياز لا يمكن أن تكون تافهة أو عارضة . إن مرتبة كل فرد في ذلك التدرج الكامل تتوقف على شيء من التوازن في بنائه ، أو على شيء من الاتفاق بين بنائه وتوازن المجتمع . وإن أبواب المرتبة العليا لتفرض قضبانها لتوها إذا أقبل عليها طالب طبيعى من نوع أبنائها . يجد الجنتلمان الطبيعى طريقه إلى الداخل ، ويترك وراءه أقدم النبلاء في الخارج ، مادام قد فقد مرتبته الدائمية . إن الرجال العصريين يعرف بعضهم بعضاً . وكرام الأصل وأصحاب

التفوق الشخصى من أى بلد سرعان ما يتآخون مع أمثالهم فى أى بلد آخر . وقد ميز زعماء القبائل المتوحشة أنفسهم فى لندن وباريس بطهارة أذيالهم .

وإذا ذكرنا محاسن العصرية بقدر ما نستطيع قلنا إنها تقوم على الحقائق ولا تمتث شيئاً مثلما تمتت الأدياء . إنها تبتهج لإبعاد المدعين ونعتم بالإبهام وتفادى الاختلاط بهم إلى الأبد . ونحن بدورنا نزدري كل موهبة أخرى من مواهب رجال الدنيا هؤلاء ، ولكن عادة الاعتماد فى كل شيء — حتى فى أصغر الأمور وأقلها شأنًا — على إحساسنا بصحة نفوسنا وحده ، هو أساس القروسية كلها . لا يكاد يكون هناك ضرب من ضروب الاعتماد على النفس ، مادام معقولا متناسباً ، لاتتخذ العصرية من حين إلى حين ، وتعطيه حرية صالوناتها .

إن الروح المقدسة رشيقة دائماً ، وإن شاءت ، انضمت دون احتكاك إلى أقوى الحلقات سياجاً . ولكن چوك راعى الماشية كذلك يمكن أن ينضم ، فى أزمة تأتى به إلى هذا المكان ، فيلقى قبولاً حسناً ، ما دام رأسه لا يصاب بالدوار من الظروف الجديدة . ولا يميل الحذاء الحديدى إلى رقص الوالترز والكوتلون . لأن الآداب ليس فيها شيء ثابت ، وإنما يخضع قانون السلوك لنشاط الفرد . وتعتقد الفتاة عند أول ظهورها فى قاعات الرقص ، والفلاح عندما يتناول الغداء فى المدينة ، أن هناك طقوساً ينبغى أن تراعى

عند أداء كل عمل أو النطق بأية عبارة من عبارات الثناء ، وإلا
أبعد الفاشل عن مكان الاجتماع . ولكنهما يتعلمان فيما بعد أن
الشخصية ، وحسن الإدراك ، تتخذ صورتها الخاصة في كل لحظة
فتتكلم أو تكف عن الكلام ، وتتناول النبيذ أو ترفضه ، وتلبث
أو تنصرف ، وتجلس فوق المقعد أو تتمرغ مع الأطفال فوق الأرض ،
أو تقف على رأسها ، أو تفعل شيئاً آخر ، بطريقة جديدة أصيلة ؛
وتلك الإرادة القوية هي الطراز الجديد دائماً ، وليكن من شاء غير
عصرى . كل ما تتطلبه العصرية رباطة الجأش ، ورضى النفس .
إن جماعة من الرجال كلمة التربية تكون جماعة من الأشخاص
العاقليين ، تظهر فيها شخصية كل فرد وآدابه الطبيعية . وإذا كان
العصرى يعدم هذه الصفة فإنه لا يساوى شيئاً . اننا نحب الاعتماد
على النفس إلى حد يجعلنا نتسامح في كثير من الخطايا عند الفرد
إذا أظهر لنا رضاه التام عن موقفه ، فلا يطلب حسن ظنى أو ظن
أى إنسان آخر فيه . في حين أن أى انقياد لرجل بارز أو امرأة
نابهة في هذه الدنيا يضيّع كل ميزة من مزايا النبيل . ان المرء يكون
حينئذ تابعاً ، ليس لى به شأن ، فسوف أتحدث إلى سيده . لا ينبغي
للمرء أن يذهب إلى حيث لا يستطيع أن يصطحب دائرته أو جماعته
كلها معه — يصطحب جماعة أصدقائه كلها ، لا بأجسادهم ولكن
بجوهم . يجب أن يحتفظ في الجماعة الجديدة بحالته العقلية وحقيقة
صلاته عينا التي يعرضها عليه رفاقه كل يوم ، وإلا حرم خير ماله

من دعائم ، وبدا يتما في أشد المجتمعات مرحا . « لو استطعت أن ترى قش إيان قوهر بذيله ! » . ولكن قش إيان قوهر لابد أن يحمل خصائصه على صورة ما ، فإذا لم تكن شرفا يكسبه ، فهي عار يتخلص منه .

في المجتمع دائماً أشخاص معينون هم الكواكب المرموقة ، تحدد لفتاتهم في كل لحظة لكل متطلع مراكرهم في الدنيا . هؤلاء هم أتباع صغار الآلهة . وعليك أن تقبل بروبتهم دليلاً على قربهم من عظماء الآلهة ، واعترف لهم بكل مزاياهم . انهم واضحو الأهداف ، ولا يمكن أن يكونوا على هذه الرهبة دون أن تكون لهم مزاياهم الخاصة . ولكن لاتقس أهمية هذه الفئة بما تزعم لنفسها ، أو تتوهم أن المنحذلق يمكن أن يتصرف في الشرف والعار . إنما هؤلاء يُقدرون قدرهم الصحيح . وهل يمكن أن يكونوا غير ذلك في جماعات كأنها مكاتب أقيمت لفحص الشخصيات فحساً دقيقاً ؟ .

وبما أن أول ما يتطلبه المرء من الإنسان هو الحقيقة ، فإنها تظهر في كل صورة من صور المجتمع . إننا نقدم أحد الفريقين إلى الآخر في دقة وبالإسم . وكأنا نقول : اعلم أمام الأرض والسماء جميعاً أن هذا هو أندرو وذاك هو جريجورى . إن كلا منهما ينظر إلى أخيه في عينيه ، وبقبض على يديه ، كي يعرف كل منهما الآخر ويميزه . وإن ذلك لرضى عظيم . والرجل المهذب لا يتنصل أبداً . إن عينيه تنظران أمامهما على خط مستقيم ، وهو يؤكد للجانب الآخر

— قبل كل شيء — أنه قد يستقبله . إذ ما الذى نبحث عنه فى كثير من الزيارات وحسن الضيافة ؟ هل نسأل عن ملبسك ، أو صورك ، أو زينتك ؟ ألسنا نسأل أولاً : هل كان فى البيت إنسان ؟ قد أستطيع أن أُلج بسهولة بيتاً فخماً ، فيه كثير من المواد ، ومدد فاخر للراحة ، والترف وحسن الذوق ، ولكنى برغم ذلك لا ألاقى هناك أى مضيف يجعل هذه النوافل أموراً ثانوية . وقد أُلج كوخاً وأجد فلاحاً يحس انه الرجل الذى أتيت لأراه ، ويحاجبني طبقاً لذلك . ومن ثم كان من الطبيعى جداً فى المجاملات الإقطاعية العتيقة ان الرجل المذهب الذى يستقبل زائراً — حق إن كان ملكه — لا يترك مسكنه ، بل ينتظر ضيفه عند باب بيته . إن البيت — حق إن كان التويلرى أو الأسكوريال — لا يساوى شيئاً إن خلا من سيده . ولكننا مع ذلك كثيراً ما لا نقنع بهذه الضيافة . إن كل من نعرف يحيط نفسه ببيت جميل ، وكتب قيمة ، ويوت من الزجاج للنبات ، وحدائق ، ومعدات ، وبكل صنوف اللعب ، وكلها حجب تحول بينه وبين ضيفه . ألا يبدو ذلك كأن المرء ذو طبيعة ماكرة مراوغة ، ولا يخشى شيئاً مثلما يخشى لقاء تاماً لزميله وجهاً لوجه ؟ وأنا أعلم انه من القسوة الشديدة أن يزيل المرء بتاتاً استخدام هذه الحجب ، التى تمد صاحبها بالراحة القصوى ، سواء كان الضيف عظيماً جداً أو حقيراً جداً . إننا ندعو كثيراً من الأصدقاء الذين يشغل أحدهم الآخر باللعب ، أو نعهد إلى تسلية

الشباب بأسباب الترف والزينة ، ونحافظ على الاعتزال . إذا أتى إلى بابنا مصادفة رجل واقعى باحث ، لا يهمننا أن يرمقنا بنظراته ، اندفعنا ثانية إلى الاحتجاب ، وأخفينا أنفسنا كما فعل آدم عندما سمع صوت ربه فى الفردوس .

كان الكردنال كابرارا ، مبعوث البابا فى باريس ، يحمى نفسه من نظرات نابليون بنظارة ضخمة خضراء . وقد التفت إليها نابليون ، وسرعان ما استطاع أن يعمل على إزالتها ، ومع ذلك فإن نابليون بدوره لم تبلغ عظمتة — برغم ثمانمائة ألف جندى وراءه — حداً يمكنه من مجابهة عينين متحررتين منذ ولدتا ، بل كان يقى نفسه بالمجاملات ، وفى حواجز مثلثة من التحفظ ؛ وقد تعود — كما يعرف العالم كله من مدام دى ستيل — حينما كان يجد نفسه ملحوظاً أن يعفى وجهه من كل تعبير . غير أن الأباطرة والأثرياء ليسوا بأية حالة أمهر أساتذة الآداب الطيبة .

إن قوائم الإيجار ومراتب الجيش لا تبعث الكرامة فى رجل يوارى ويتوارى . وأهم وجه من وجوه المجاملة يجب أن يكون الصدق دائماً كما تشير إلى ذلك حقاً كل صورة من صور التربية الصحيحة .

كنت أقرأ منذ عهد قريب ، فى ترجمة المستر هازلت ، قصة موتينى لرحلته فى ايطاليا ، ولم أعجب لشيء قط عجبى لطرز ذلك العصر التى تحترم ذاتها . كان وصوله إلى كل مكان ، وصول الرجل

المهذب الفرنسى ، حدثاً له نتائج . فقد كان حيثما حل يقوم بزيارة لأى أمير أو رجل مهذب له وجاهته يقطن فى طريقه ، كواجب نحو نفسه ونحو المدينة . وعندما يترك بيتاً أقام فيه بضعة أسابيع كان يطلب أن تُطلى أسلحته وتعلق كعلامة دائمة لهذا البيت ، كما كانت عادة الرجال المهذبين .

وإنما تتم الكرامة هذا الاحترام الجليل للنفس ، وهو أشد ما أطلب وأصر عليه من بين جميع صفات التربية الحسنة . وإنى لأحب أن يكون كل كرسى عرشاً فوقه ملك ، وأوثر الميل إلى العظمة على المبالغة فى الزمالة . ولعلمنا الاستقلال ما فى الطبيعة من أشياء لا يمكن بلوغها وما لدى الإنسان من عزلة ميتافيزيقية . لا أحب أن يُعرف الواحد منا معرفة وثيقة .

وخير للرجل عندى أن يدخل بيته خلال قاعة مليئة بتأثيل الأبطال والقديسين ، كى لا تنقصه لمحة من رباطة الجأش واتزان النفس .

يجب أن نلتقى كل صباح كأن كلا منا من بلد أجنبى ، وبعدما نقضى نهارنا معاً ، نفترق فى المساء كأن كلا منا راحل إلى بلد غريب . أحب ألا تُعزى جزيرة المرء من أية ناحية من النواحي . ولنجلس متباعدين كآلهة ، يتكلم كل منا من فوق قمته ، وكلنا حول أولب . ولا ينبغى أن تضعف هذه السنة أية درجة من درجات المحبة . إنما ذلك هو المر وحصا البان الذى يحفظ غيره حلواً .

وعلى العاشق أن يحتفظ بغيراته . فإذا ما بالغ العشاق في التهاون ، انزلق كل شيء نحو الاضطراب والوضاعة . ومن اليسير أن ندفع هذه الكرامة إلى حد المجاملات الصينية ؛ بيد أن البرودة وانعدام الحرارة والعجلة كلها من دلائل الصفات الطيبة . ان الرجل المهذب لا يحدث ضجة ، والسيدة الكريمة تتصف بالرزانة . ان أولئك الغزاة الذين يملأون البيت المنهمك في العمل بالصياح والعدو كي يظفروا بالقليل التافه من أسباب الراحة إنما يُقَابِلُونَ منا بما يلائم مسلكهم من تأفف . ولست أقل كرهاً للعطف الشديد الذي يبيده الجار إزاء حاجات جاره . هل لابد لكل منا أن يدرك ذوق صاحبه تمام الإدراك ؟ كما يدرك الغافلون الذين طالت عشرة بعضهم لبعض متى يريد كل منهم السكر أو الملح . وإني لأرجو رفيق إن أراد خبزاً ، وإن أراد نبات الغار أو الزرنيسخ أن يطلبهما مني ، ولا يمد طبقه إلى كَأَنِّي أعرف من قبل ما يطلب . كل عمل طبيعي يمكن بالتروى والعزلة أن يكون كريماً . ولنتخل عن العجلة للعبيد . إن مزايا تربيتنا وقيمتنا ، تستدعى عظمة مصيرنا مهما بعد هذا المصير ! .

إن زهرة المجاملة لا تحمل كثرة التقلب بين أيدينا . ولكننا إذا جرؤنا على فتح ورقة أخرى واكتشفنا من أى الأجزاء تتألف وجدنا كذلك صفة ذهنية . إن الدهن — كاللحم والقلب — لابد أن يكون جانباً من جوانب قادة الرجال . والنقص في الآداب هو

عادة نقص في دقة الإدراك ، والناس في تكوينهم أشد غلظة من رقة السلوك والعادات الجميلة . إن اتحاد الشفقة بالاستقلال لا يكفي التربية الصحيحة تماماً . إنما نحن نتطلب حتما إدراكا للجمال في رفاقنا وولاء له . إن الفضائل الأخرى مطلوبة في الحقل وفي ميدان العمل ، ولكن درجة معينة من الذوق لا يُستغنى عنها عند أولئك الذين يجالسونا . وإني لأؤثر أن أتناول طعامي مع رجل لا يحترم الحق أو القانون على أن أتناوله مع شخص سيء البزة قبيح المندام . إن الصفات المعنوية تحكم العالم ، ولكن الحواس تستبد بنا في المسافات القصيرة . وإنك لتجد في جميع نواحي الحياة هذا التمييز عينه لكل ما هو لائق وجميل ، وإن يكن أقل عنفاً وشدة . إن الروح العامة بين أفراد الطبقة الناشطة هي الحس المرهف الذي يتأثر بحدود معينة ويهدف إلى أغراض معينة . وهو يضم كل موهبة طبيعية . ولما كان هذا الحس اجتماعياً في طبيعته فإنه يقدر كل ما يؤدي إلى الوحدة بين الناس ، وهو يتهيج للقياس الصحيح . وليس حب الجمال في أساسه سوى حب القياس أو التناسب الصحيح . إن الشخص الذي يصيح ، أو الذي يستعمل صيغة المبالغة ، أو يتحدث في حرارة ، ينفّر منه رواد الصالونات جميعاً . إن أردت أن تحب أحب القياس الصحيح . وإن أردت أن تخفي عجزك عن القياس الصحيح فلا بد أن تكون نابغاً أو ذا نفع عظيم . إن هذا الإدراك إنما يصقل أجزاء الأداة الاجتماعية ويؤدي بها إلى الكمال . إن الجماعة تتسامح كثيراً

مع النابغين وأصحاب المواهب الخاصة . ولكن لما كانت بطبيعتها تقليدية فإنها تحب التقليد ، أو ما يتعلق بالتضامن . وذلك هو ما يخلق الطيب والحديث من الآداب ، أعنى ما يعين على الزمالة أو يعوقها . لأن النمط الجديد ليس هو الحس المرهف مطلقاً ، ولكنه حس نسبي : ليس حساً مرهفاً خاصاً ، ولكنه حس مرهف يدخل في حسابه الرفاق . إنه يمتد الزوايا وصفات الشخصية البارزة ، يمتد الأشخاص المشاغبين المحبين لأنفسهم المنعزلين المكتئبين ، يمتد كل ما يعوق الامتزاج الشامل بين فريق وآخر ؛ في حين أنه يعتبر كل الصفات التي تتفق والزمالة الصحيحة صفات يانعة إلى أقصى الحدود . وإلى جانب شيوع النكتة في الحديث لتوكيد المجاملة ، فإن السناء المباشر يشع من القوى الذهنية أمر يرحب به المجتمع الرقيق ويعده أعلى صفة من صفات سلطانه وامتياز .

يجب أن يشرق في حفلنا الضوء الجاف لكي يجمّله ، ولكنه يجب أن يُخفف وأن يُظلل ، وإلا أساء إلينا . الدقة لازمة للجمال ، والإدراك السريع لازم للأدب ، ولكنه لا ينبغي أن يكون سريعاً جداً . فالمرء قد يكون مواظباً ودقيقاً أكثر مما ينبغي . ويجب عليه عندما يُقبل على قصر الجمال أن يتخلى عند مدخله عن العلم التام بالأعمال . إن المجتمع يحب الطبايع المهجنة ، والآداب الناعسة المترخية ، بحيث تنطوي على الإحساس ، والجلال ، والنية الحسنة : جو القوة للمسترخية التي تنزع عن النقد السلاح ؛ وربما كان ذلك لأن مثل

هذا الشخص يبدو كأنه يحتفظ بنفسه خير أدوار المباراة ، ولا يبدل ذاته فوق السطوح ؛ انه كالعين المتغافلة ، التي لا ترى أسباب الضيق ، والحيل ، والقلق ، مما يجلب الغم ، ويكبت صوت كل امرئ حساس .

ولذا فإن المجتمع — فوق القوة الشخصية وقدر من الإدراك يكفي لخلق الذوق الذي لا يخطئ — يتطلب في الطبقة الأصيلة عنصراً آخر أشرنا إليه من قبل ، عنصراً تطلق عليه « الطبيعة الطيبة » وهي تسمية لها دلالتها ، وهي تعبر عن كل درجة من درجات الكرم ، من أدنى رغبة وقدرة على صنع الجميل ، إلى قمم النخوة والمحبة . ولا بد أن تتوفر لدينا البصيرة ، وإلا عارض أحدنا الآخر ، وضللنا الطريق إلى طعامنا ؛ ولكن الدهن ضحل محب لذاته .

إن سر النجاح في المجتمع إحساس قلبي معين ونوع من العطف . إن الرجل الذي لا يسعد بالرفاق لا يستطيع أن يجد كلمة في ذاكرته تلائم المناسبة . كل ما لديه من معرفة فيه شيء من الفظاظة . أما الرجل الذي يسعد في الجماعة فإنه يجد في كل لون من ألوان الحديث فرصاً طيبة متكافئة تقدم لما يريد أن يقول . إن المفضلين في المجتمع ومن يسميهم المجتمع « النفوس الكاملة » رجال قادرين ، لديهم من الروح أكثر مما لديهم من الفطنة ، تعوزهم الأنانية البغيضة ، ولكنهم يملأون الساعة والجماعة تماماً ، قانعين مُقنعين ، سواء في

زفاف أو مأتم ، في مرقص أو محكمة ، في رحلة مائية أو مباراة في الصيد . وقد أخرجت إنجلترا ، الغنية بالرجال المهذبين ، في بداية هذا القرن ، مثالا طيباً لهذا النبوغ الذي تجبه الدنيا ، وذلك في شخص المستر فوكس ، الذي ضم إلى جانب قدراته الفائقة ميلا اجتماعياً شديداً ، ومحبة حقيقية للناس . وليس في تاريخ المجالس النيابية أقوال أروع مما جاء في المناقشة التي افترق فيها برك عن فوكس في مجلس العموم ؛ حينما ناشد فوكس صديقه القديم حق الصداقة القديمة في شيء من اللطف استدر دموع النواب جميعاً . وهناك حادثة أخرى وثيقة الصلة بموضوعي ولا بد لي أن أخطر بروايتها : كان هناك تاجر يلح عليه كثيراً في طلب دين له عليه مقداره ثلثمائة جنيه ، وقد ألفاه ذات يوم يعد ذهباً ، فطلب إليه أن يدفع الدين ، فأجابه فوكس قائلاً : « كلا ، إني مدين بهذا المال لشريدان ، وهو دين وعدت أدائه بكلمة الشرف ، فإن وقع لي حادث فلن يجد لديه ما يبرره » . قال الدائن « إذن فإني أحول ديني إلى دين شريف » ، ومزق الصك إرباً إرباً . فشكر فوكس الرجل على ثقته وأدى له دينه قائلاً « إن دينه قديم ، وعلى شريدان أن ينتظر » . وكان يتمتع بسمعة طيبة جداً بين الجماهير ، كمحب للحرية ، وصديق للهندوس ، ونصير لرقيق أفريقيا . وقد قال عنه نابليون بمناسبة زيارته باريس في عام ١٨٠٥ « إن مستر فوكس سوف يمثل الصدارة دائماً في أي اجتماع بالنويلري » .

ومن اليسير أن نبذو مضحكين في إطارنا على المجاملة ، كما
أصررنا على أن فعل الخير هو أساسها . إن الصورة الوهمية الملونة
للطراز الحديث ترتفع لكي تُلقى ضرباً من ضروب السخرية على
ما نقول . ولكني لن أنزل عن شيء من التسامح لاعتبار الطراز
العصرى أساساً رمزياً ، ولن أنزل كذلك عن الاعتقاد بأن المحبة
هي أساس المجاملات . يجب علينا أن نحصل على « هذا » إن
استطعنا ، كما يجب علينا أن نوكد « ذاك » بأية وسيلة من الوسائل .
إن الحياة تدين بالكثير من روحها لهذا التباين الشديد . فالطراز
العصرى الذى يزعم أنه الشرف ليس فى أكثر الأحيان فى خبرة
الناس جميعاً سوى قانون صالة الرقص ، ولكن ما دام ذلك هو
أعلى الدوائر ، كما تتصور خير الرؤوس فى هذا الكوكب ، فلا بد
أن يكون فيه شيء ضرورى وفائق ، لأننا لا يصح أن نفترض أن
الناس قد اتفقوا على أن يكونوا مخدوعين لأى شيء سخيف ؛
والإحترام الذى توحى به هذه الألغاز إلى أشد الشخصيات غلظة
وسذاجة ، والشغف الذى نقرأ به تفصيلات الحياة الرفيعة ، كل
ذلك يدل على حب الآداب المهذبة فى كل مكان . وأنا أعلم أننا نحس
مفارقة مضحكة إذا ولجنا « الدوائر العليا » المعترف بها ، وطبقنا
هذه المعايير المزعجة ، معايير العدالة والجمال والمنفعة ، على الأفراد
الموجودين هناك فعلاً . فالملوك والأبطال ، والحكام والعاشقون ،
هؤلاء ليسوا قوماً شهماً . للطراز العصرى طبقات متعددة وقواعد

كثيرة للتمرين والانتساب ، وهو لا يضم الخيار وخدمهم . لا يُشترط حق الغزو فقط ، الذى يزعم النوابغ — وإنما الفرد الذى يظهر ارستقراطيته الطبيعية يكون من خيار الخيار — بل ان هناك صفات أقل من هذد يمكن قبولها فى الوقت الحاضر ؛ لأن الطراز الحديث يحب الأسد ، ويشير — مثل كيرشى الساحرة — إلى رفيقها ذى القرنين . هذا الرجل المهذب وصل هذا المساء من الدنمارك ، وهذا سيدى رايد عاد بالأمس من بغداد ، وهنا كابتن فريزر من رأس تيرناجين ، وكابتن سَمَز من باطن الأرض ، ومسيو چوثير الذى هبط هذا الصباح فى بالون ، ومستر هبنيل المصلح ، والمقدس چول بات الذى آمن على يديه كل أبناء المنطقة الحارة فى مدرسة الأحد التى يملكها ، وسنيور تور دل جريكو الذى أطفأ نيران فيزوف بمياه خليج نابلى التى صبها فيه ، وسافى السفير الفارسى ، وتل ول شان ، أمير نپول المنفى من بلاده ، الذى يُعد سرجه الطراز الجديد . غير أن هؤلاء أشخاص يبرزون فى يوم ، ويُردُّون فى غد إلى جحورهم وكهوفهم ؛ لأن كل مقعد فى هذه الحجرات له من يترقبه . إن الفنان والعالم ومن إلى هؤلاء عامة يصعد إلى هذه الأمكنة ، ويمثل هنا ، على أساس هذا الغزو إلى حد ما . وثمت طريقة أخرى : وهى أن يمر المرء خلال جميع الدرجات ، وينفق عاماً و يوماً فى ميدان سنت ميشيل ، مغموراً فى مياه كولونيا ، معطراً ،

متناولاً عشاءه ، ومُقدِّماً إلى المجتمع ، ومؤسساً تأسيساً صحيحاً في
مسير السيدات وسياستهن ونوادرهن .

ومع ذلك فهذه الزخارف قد يكون لها جلالها وحصافتها .
ولتكن هناك تماثيل تثير الضحك عند مداخل المعابد وأبهائها . بل
ليكن للمذاهب والوصايا العشر الهزل الذي يحاكيها ويخضع لها ولو
في سفاهة ووقاحة . إن صيغ الأدب تعبر في كل مكان عن فعل الخير
بدرجة شديدة المبالغة . ألا يمكن أن تكون في أفواه المحبين لدنواتهم ،
الذين يستخدمونها وسائل لأنانيتهم ؟ وهل يمكن أن يُخرج
الاجتلمان الكاذب أخاه الصادق من الدنيا ؟ هل يمكن أن يحاول
الاجتلمان الكاذب أن يخاطب زميله في لباقة يستبعد بها كل من عداه
من محيط حديثه ، ويجعلهم يشعرون كذلك بالاستبعاد ؟ إن الخدمة
الحقيقية لا تفقد نبلها . ليس كل الكرم فرنسياً وهوائياً فحسب ؛
ولا يصح أن يخفى أن الدم الحى وعاطفة الشفقة تميز في النهاية بين
الاجتلمان الربانى والاجتلمان المصطنع . إن العبارة المكتوبة على قبر
سر جنكن جروت ليست غامضة كل الغموض لأبناء العصر الحديث
وهي « هنا يرقد سر جنكن جروت الذى أحب صديقه وأغرى
عدوه . ما طعمه فمه دفعت ثمنه يده ، وما اغتصبه خدمه رده . إذا
أمتعته امرأة أعانها في الألم . لم ينس أطفاله قط ، ومن مس أصبعه
جر وراءه جسده كله » . وحق سلاله الأبطال لم تنقرض تماماً .
ما زال هناك شخص يدعو إلى الإعجاب في ثياب عادية ، يقف على

المرفأ ، ويقفز إلى الماء لإيقاظ رجل غريق . ما زال هناك رجل
يفتعل الأسباب لدفع الصدقات . هناك من يرشد ومن يعزى العبيد
الآبقين . هناك من يحب بولندا ، ومن يحب اليونان . هناك المتحمس
الذى يزرع الشجر ليظلل الجيل الثانى والثالث من بعده ، ومن
يزرع بساتين الفاكهة فى شيخوخته . هناك الوركع المختفى تماماً .
هناك الرجل العادل ذو السمعة السيئة ، والشاب الذى ينجل من
فضائل الثراء ، فيلقى بها جِزْعاً على عواتق الآخرين . هؤلاء هم
مراكز المجتمع ، التى يدور عليها ليجد البواعث الجديدة . هؤلاء هم
خالقو الطراز العصرى ، وهو محاولة لتنظيم جمال السلوك . إن
الجميل والكريم كلاهما نظرياً من رجال الكنيسة ورسلاها . هم
سپيو وسيد وسر فيليب سدنى وواشنطن وكل قلب نقى باسل بمن
قدس الجمال قولاً وعملاً .

إن الأشخاص الذين تتألف منهم الأرستقراطية الطبيعية
لا يوجدون فى الأرستقراطية الواقعية ، أو هم على حافتها فقط ، شأنهم
فى ذلك شأن الطاقة الكيماوية للطيف الضوئى تكون على أشدها
خارج الطيف قليلاً . ومع ذلك فإن كبار الحجاب لا يعرفون مليكهم
عندما يظهر لما فى نفوسهم من خور . إن نظرية المجتمع تفترض
وجود هؤلاء كما تفترض سلطانهم . إنها تسكن بمقدمهم من بعيد ،
وهى تنشد مع الآلهة القدامى :

« كما أن السماء والأرض يفوقان جمالا
الهيولى والظلام المطلق — ومنهما انبعثا ؛
وكما نفوق هذه السماء وتلك الأرض تماسكا وجمالا
من حيث الشكل والصورة ؟
فكذلك يأتى فى إثرنا كمال جديد ؛
قوةً ، أشد جمالا ، وقد تولدت عنا ،
وقدّر لها أن تبرزنا نوراً
كما نبرز ذلك الظلام القديم جلالاته :
ذلك هو القانون الأبدى :
ما بز جمالا بز نفوذاً » .

ومن ثم فإن فى داخل دائرة المجتمع الطيب التى تقوم على أساس
السلالات دائرة أضيق وأعلى ، هى ضوءها المركز ، وهى زهرة
المجاملات ، تتم دائماً فى مخبرها عن الكرامة والأصالة ، كأنها
الصفوة الممتازة التى لا تتال ، أولئك هم النواب الذين يمثلون المحبة
والشهادة . وإنك لو اجد ذلك كله فى أولئك الذين يكون الميل إلى
البطولة فيهم أمراً طبعياً ، الذين يحبون الجمال ، ويتجهجون للرفاق ،
ويقدرّون على زبرجة الساعة الراهنة . إذا استعرضنا اليوم الأفراد
الذين تتألف منهم أنقى دوائر الأرستقراطية فى أوربا ، أصحاب الدماء
التي صانها القرون ، على صورة تمكنا من فحص مسلكهم ، ناقدين

أحراراً ، فقد لانبجدرجلا مهذباً أو امراة مهذبة . لأنهم قد يكونون أنماطاً ممتازة في الكياسة وحسن التربية ، نرضى عنهم جماعات ، إلا أنا نكشف عن سوءاتهم فرادى ، لأن الرشاقة لاتأتى بالتربية ، وإنما تاتى بالطبيعة .

لابد أن يكون للشخصية رونقها ، وإلا فلا جدوى من استبعاد النقائص مهما دق هذا الاستبعاد إنما تتجه العبقريّة هذا الاتجاه ؛ ولا يكفى أن يكون الرجل كيتساً ، إنما ينبغى أن يكون الكياسة عنها . والسلوك الرفيع نادر في القصص الخيالية ندرته في الواقع . إنما يحمد لسكت الإخلاص الذي صور به مسلك الطبقات العليا وأحاديثها . وليس من شك في أن الملوك والملكات ، والنبلاء وكرائم السيدات ، كان لهم بعض الحق في الشكوى من سخف الكلام الذي نسب إليهم قوله قبل أيام ويقرلى ، بيد أن محاورات سكت لا تحتمل النقد كذلك . كان اللوردات في قصصه يجروأ أحدهم على الآخر في أحاديثه المقتضبة الحازمة ، ولكن الحوار ينساق في أسلوب عادى ، ولا يسر إذا قرىء للمرة الثانية ؛ انه لا ينبض بحرارة الحياة . عند شيكسبير وحده لا ترى المتكلمين يتبخثون زهواً أو يتشاحنون ، والحوار عظيم في سهولة ، وهو يضم إلى الألقاب الكثيرة لقب أحسن الناس تربية في انجلترا وفي العالم المسيحى . إن الفرد لا يجد في حياته إلا مرة أو مرتين فرصة التمتع بسحر الآداب النبيلة في حضرة رجل أو امراة لا يقف أمام طبيعتهما حاجز ، ولكن

شخصيتيهما تعبر عن نفسيهما بحرية فى الكلمات والحركات . إن القوام الجميل أحسن من الوجه الجميل ، والسلوك الجميل أحسن من القوام الجميل . انه يعطينا متعة أعظم من التماثيل والصور ، إنه أجمل ما فى الفنون الجميلة . ليس الرجل إلا شيئاً صغيراً وسط ما فى الطبيعة من أشياء ، ولكنه بالصفة المعنوية التى تشع من طلعته يستطيع أن يهدم كل اعتبار من اعتبارات العظمة ، ويستطيع بآدابه أن يضارع جلال الدنيا .

رأيت رجلاً آدابه تدخل كلها فى نطاق تقاليد الطبقة الرفيعة ، ولكنه — برغم ذلك — لم يتعلمها هناك ، وإنما كانت آدابه أصيلة متسلطة ، تتصف بالوقاية والنجاح . انه رجل لم يكن بحاجة إلى معونة زى البلاط ، ولكنه يشع جلال التقديس من عينيه . لقد أبهج الخيال لأنه فتح أبواب الوسائل الجديدة للعيش على مصاريحها ، ونقض عن نفسه أسر الرسميات فى آداب المعاشرة ، بمسلكه الموفق القوى ، وطبيعته الطيبة ، وحرية التى يحاكي بها حرية روبن هود . ومع ذلك فطلعه طلعة الملوك — وإن اقتضت الضرورة فهو هادئ رزين قادر على أن يقاوم تحديق الملايين .

الهواء الطلق والحقول ، والشارع والقاعات العامة هى الأماكن التى ينفذ فيها الرجل إرادته . وعليه أن يسلم الصولجان أو يقتسمه عند باب البيت . والمرأة بغريزة سلوكها سرعان ما تكشف فى الرجل حب التوافه ، وأى برودة أو غباء ، أو — فى عبارة موجزة —

أى نقص فى ذلك السلوك الطبيعى الكريم الذى لا يستغنى المرء عن التحلى به فى الصالون . وقد توددت إلى المرأة نظمنا الأمريكية ، وفى هذه اللحظة ، أعد تفوق النساء فى هذا البلد ميزة كبرى . إن نوعاً من الإحساس الشاذ عند الرجال بنقصهم قد ينشأ عنه ضرب من ضروب الشهامة الجديدة التى تدافع عن « حقوق المرأة » . إن المرأة قد تتحسن مكانتها قطعاً فى القوانين وفى الأوضاع الاجتماعية ، ولكنى أثق كل الثقة فى طبيعتها الملهممة الموسيقية ، حق إنى لأعتقد أنها هى وحدها التى تستطيع أن ترينا كيف تقدم لها الخدمات . إن كرمها العجيب فى عواطفها ينقلها أحياناً إلى مناطق البطولة والألوهية . ويحقق صور منزقا أو چونو أو پولنيا . وإنما لتتقنع أغلظ الحاسبين بأن هناك طريقاً آخر غير الطريق الذى تطأه أقدامهم وذلك بالثبات الذى ترتقى طريقها به . ولكن إلى جوار أولئك اللأئى يحلين فى خيالنا مكانة آلهات الشعر وكاهنات دلفى ، أليس هناك من النسوة من يملأن كؤوسنا ومزاهرنا بالخمير والورد حتى حافاتها ، فيجرى الخمر أنهاراً ويمتلئ البيت بالعطور ، ومن يلهمنا حسن المعاشرة ، ومن يفككن عقدة فى ألسنتنا فننطق بها ، ويكملن أعيننا فترى بها ؟ .

إننا نقول عبارات ما كنا نحلم بالتفوه بها ، لأن جدران تحفظنا الذى ألفناه تنهار لأول مرة وتتركنا أحراراً . كئنا أطفالاً نلعب مع أطفال فى حقل من الزهور فسيح . ثم صحننا : أغمرونا بهذه

المؤثرات أياماً وأسابيع نصبح شعراء لامعين ، ونكتب القصص الخيالية — التي تتمثل فيكن — في كلمات متنوعة الألوان . هل هو حافظ أو الفردوسي الذي قال عن ليلاه الفارسية إنها كانت قوة من قوى الطبيعة الأصلية وأذهلتني بمقدار ما عندها من حياة عندما شهدتها تشع يوماً بعد يوم — في كل لحظة — فرحاً زائداً وجلالاً فائقاً على كل من كان حولها ؟ لقد كانت عنصراً من عناصر التحليل يوفق بين كل الأشخاص المتنافرين في مجتمع واحد ، عنصراً — كالماء أو الهواء — له من بعد الصلات ما يجعله يتحد فوراً بآلاف المواد . إذا حضرت ارتفع كل من عداها عما كان عليه . كانت وحدة وكانت كلا ، حتى إن كل ما فعلت كان يلائمها . كان عطفها ورغبتها في إدخال السرور على غيرها أشد مما تستطيع التعبير عنه ، وكانت آدابها تتميز بالكرامة ، ومع ذلك فلم تستطع أن تتفوق عليها أميرة في مسلكها الواضح المستقيم في أية مناسبة من المناسبات . لم تتعلم قواعد اللغة الفارسية ولا قصائد المعلقة السبع ، ولكن لكأن المعلقة السبع كلها قد نظمت فيها . لم تكن بطبيعتها تميل إلى التفكير ، وإنما تميل إلى العطف ، ولكنها برغم ذلك قد بلغت في طبيعتها حداً من الكمال يمكنها من مقابلة رجال الفكر بقلبها المليء ، فتدفعهم بعواطفها ، مؤمنة بأن معاملتها النبيلة للجميع ، سوف تجعل الجميع يبدو نبيلاً .

وأنا أعلم أن هذه الكومة البيزنطية من صفات الشهامة والعصرية ، التي تبدو جميلة رائعة لأولئك الذين ينظرون إلى الحقائق المعاصرة باحثين عن العلم أو التسلية ، أعلم أن هذه الصفات لا تسر الناظرين إليها بدرجة واحدة . إن تكوين مجتمعنا يجعلها قلعة عملاق للشباب الطموح الذين لم يجدوا أسماءهم مدونة في كتابها الذهبي ، والذين أبعدتهم عن مزاياها وألقابها الشرفية المشتهة . إن هذا الشباب لم يدرك بعد أن خاتمها الظاهرية نسبية غامضة . إنها عظيمة لأنهم متساحون ، وإن أشد أبوابها خامة لينفتح فوراً إذا اقتربت منها شجاعتهم وفضائلهم . وعلى أية حال فإن هناك دواء ميسوراً يشفي من الألم الحالى أولئك الذين يعانون من قسوة هذه الصفة المميزة .

إن البعد بالمسكن ميلين أو أربعة على الأكثر يخفف عادة أقصى ضروب الحساسية . لأن المزايا التي يقدرها المصريون نباتات تزهو في موضع محلي جد محدود ، وخاصة في شوارع معدودة . فإذا بعدت عن هذه البيئة أصبحت عديمة القيمة ، فهي لا تفيد في الحقل ، أو الغابة ، أو السوق ، أو الحرب ، أو الحياة الزوجية ، أو في الدوائر الأدبية والعلمية ، أو في البحر ، أو الصداقة ، أو في سماء الفكر والفضيلة .

ولكننا تلكأنا طويلاً في هذه الدور المزخرفة . إن قيمة الشيء

الذى نرمر له لابد أن تبرر لنا استساغة الرمز . إن كل ما نسميه بالعصرى أو المجاملة يخضع أمام مبعث الشرف ومنبعه ، وخالق الألقاب والكرامات ، أقصد قلب الحب . هذا هو الدم الملكى ، وهو النار التى تترك أثرها فى جميع البلدان وفى كل المناسبات ، وتغزو كل ما يقترب منها وتمدده . وهو الذى يُكسب كل واقعة معان جديدة . انه يفقر الغنى ، لأنه لا يحتمل عظمة غير عظمتة . ما معنى الغنى ؟ هل يكفي غناك أن تعين إنساناً ما ؟ وأن تساعد العامة من الناس وشواذهم ؟ هل يكفي غناك أن تجعل الكندى فى عربته ، والمتجول الذى يحمل توصية من قنصله « لكل محسن » ، والإيطالى الأسمر بكلماته الإنجليزية القليلة المتعثرة ، والسائل الأعرج الذى يطارده المراقبون من بلد إلى بلد ، بل والأبله الفقير أو الرجل المخبول المحطم أو المرأة المسلوقة العقل المتهدمة ، هل يكفي غناك أن يجعل أمثال هؤلاء يحسون أن وجودك وبيتك استثناء نبيل من الزمهرير السائد والتجبر المنتشر . وأن يجعل أمثال هؤلاء يحسون أنهم يتلقون التحية منك بصوت يدفعهم إلى تذكر الماضى والأمل فى المستقبل ؟ .

إنما الانحطاط أن ترفض الطلب بسبب الحواجز والموانع ، وليس السمو إلا أن تسمح به ، وأن تحرر قلبهم وقلبك يوماً من الحذر القومى . إنما الثرى متسول دنىء إذا لم يكن له قلب غنى .

كما أن ملك شيراز لم يستطع أن يسخو كما سخا عثمان الفقير الذي كان يسكن عند بابيه . كانت لعثمان إنسانية واسعة عميقة . ومع أن كلامه عن القرآن كانت فيه جرأة ، وكانت فيه حرية اشماز لها الدراويش ، إلا أن كل منبوذ فقير ، وكل شاذ أو أبله ، أو معتوه قص لحيته ، أو فقد طرفا من أطرافه تنفيذاً لعهد ، أو كان في رأسه مس من جنون ، كل هؤلاء كانوا يهرعون إليه — فذلك القلب العظيم كان يستلقي هناك وسط البلاد مشمساً جواداً — وكأن غريزة كل مكابد تجذبه إلى جواره ، ولكنه لم يقتبس شيئاً من الجنون الذي كان يأويه . أليس هذا غنى ؟ إنما هذا وحده هو الثراء الحق .

ولا يؤلمني أن أسمع أنى لا أحسن القيام بدور جليس الأمير ، وإنى أتكلم عن أمور لا أحسن فهمها . ومن اليسير أن ترى أن ما نطلق عليه الامتياز ، من مجتمع وذوق عصري ، له قوانينه الطبية كما أن له قوانينه السيئة ، وفيه كثير مما يلزم وكثير مما لا يلزم فهو أحسن من أن نبعده ، وأسوأ من أن نباركه . وهو يذكركنا بتقليد معروف في الأساطير الوثنية كلما حاولنا أن نحدد صفته . قال سبيلنس « استمعت إلى خوف ذات يوم وهو يتحدث عن تحطيم الأرض . قال إنها قد هوت ، فالناس جميعاً سفلة أو غاد يسرون من سيء إلى أسوأ كلما توالى الأيام .

وقالت منيرفا « إنها لاتظن ذلك ، فليس الناس سوى مخلوقات صغيرة مضحكة ، تتميز بهذه الصفة العجيبة ، وهى أن فيها شيئاً من الإبهام ، وأن لها وجهاً غير محدود ، يتوقف على نظرك إليه من بعيد أو من قريب . إن قلت إنهم خبيثاء ظهروا كذلك ، وإن قلت إنهم طيبون بدوا كذلك . وليس بينهم شخص واحد أو عمل واحد لا يحير بومها — بل ويحير أولمبس كله أكثر مما يحيره — فلا يعرف إن كان طيباً أو خبيثاً فى أسامه » .

السياسة

لا يصلح الذهب والحديد
إلا لشراء الذهب والحديد .
وإنما يباع بما يساويه
كل ما فوق الأرض من صوف الغنم أو من طعام .
إن مرلن التنبيء الحكيم
برهن على أن نابليون عظيم —
كل سلعة وكل عملة
لا تشتري أكثر من قيمتها شيئاً .
الخوف ، والدهاء ، والجشع
لا تقوم عليها دولة من الدول .
وهل تبني من التراب
ما يفوق التراب —
لا بد لفيدس أن يقيم
أسوار أمفيون المترامية .
عندما تلتقي آلهات الفن التسع
بآلهة الفضائل ،
ثم يجردون جميعاً مقعداً أطلنطياً

على ما يهوون من طراز
يتقى الحرارة
بأغصان البساتين الزاهرة
حيث يحرث رجل الدولة
الأخاديد للقمح ،
حينما تكون للكنيسة قيمة في المجتمع ،
وحينما يكون مقر الحكم عند موقد النار ،
حينئذ تسود الدولة الكاملة ،
ويشعر الجمهورى بالأمان .

عندما نعالج موضوع الدولة ، يجب أن نذكر أن نظمها ليست أزلية ، بالرغم من أنها قد وجدت قبلما نولد : يجب أن نذكر أن كل نظام من هذه النظم كان ذات يوم عمل رجل بمفرده ، وأن كل قانون وكل عادة كان حيلة رجل يقابل بها موقفاً بعينه . يجب أن نذكر أنها جميعاً يمكن أن تحاكي ، ويمكن أن تتغير . نستطيع أن نسن مثلها ، بل وأحسن منها . المجتمع وهم الشاب . انه يمتد أمامه صورة جامدة لا تتحرك ، وفيه أسماء ورجال ونظم تمتد جذورها وسط الصورة كأنها شجر البلوط ، وينظم الجميع أنفسهم حولها على أحسن ما يستطيعون من نظام . ولكن السياسى العجوز يعرف أن الجماعة مائعة ، ليست بها جذور ولا أوساط ،

وإنما تستطيع أية ذرة أن تصبح فجأة مركز الحركة . وترغم ما دونها على أن يدور حولها ، كما يفعل كل رجل ذى إرادة قوية ، مثل زمستراتس أو كرمويل ، لفترة ما ، وكل رجل صادق ، مثل أفلاطون أو بولس ، إلى الأبد . غير أن السياسة تقوم على أسس ضرورية ، ولا يمكن أن تعامل باستخفاف .

ما أكثر الجمهوريات التى يتوهمها المدينون ، الذين يعتقدون أن القوانين تصنع المدن ، وأن التعديلات الجوهرية فى السياسة وفى أساليب المعيشة ، وأعمال السكان ، وأن التجارة والتربية والدين يمكن أن يصوت لها أو عليها ، وأن كل إجراء — حتى إن كان سخيفاً — يمكن فرضه على شعب من الشعوب إذا استطعت أن تحصل على الأصوات التى تكفى أن تجعله قانوناً . ولكن الحكماء يدركون أن التشريع السخيف جبل من الرمال يتلاشى عند لفه ، ويدركون أن الدولة يجب أن تتبع ، — لا أن تقود — شخصية المواطن وتقدمه ، وإن أقوى معتصب يجب التخلص منه فوراً . فلا يبنى بناء أبدياً سوى أولئك الذين يشيدون على أساس الآراء ؛ كما يدركون أن شكل الحكومة الذى يسود إنما هو تعبير عن لون الثقافة الذى يسود بين السكان الذين يسمحون به . ليس القانون إلا تذكرة . والناس يعتقدون فى الخرافة ، ويهابون الدستور بعض الشيء ، وقوة هذا الدستور تتناسب ومقدار حياته فى تكوين الأحياء .

إن الدستور يقوم بيننا ليقول : بالأمس اتفقنا على كيت وكيت ،
ولكن كيف تحس يا صاح اليوم إزاء هذه المادة من مواده ؟
دستورنا عملة ندمغها بصورتنا ؛ وسرعان ما تمحى الصورة ،
فلا تُعرف العملة ، وبمرور الزمن تعود إلى دار السكة . ليست
الطبيعة ديمقراطية ، وليست ملكية مقيدة ، ولكنها مستبدة ،
ولا يخذعها أو يغل ذرة من سلطانها أشد أبنائها سلاطة وقحة .
وكما اشتد الوعي القومى إدراكا تبين أن القانون همجى يتلهم . إنه
لا ينطق بفصاحة ، ويجب أن نجعله فصيحاً . وفى الوقت عينه لا تقف
تربية الوعي القومى عند حد . إن أحلام الصادقين السذج تنبئ
بما سوف يحدث . إن ما يحلم به الشباب الشاعر الرقيق ، وما يتمناه ،
وما يصوره اليوم ، ولكنه يتفادى السخرية من ذكره علناً ،
سوف يكون قريباً مما تصمم عليه الهيئات العامة ، ثم يصبح ضياء
وحقوقاً يطالب بها عن طريق النزاع والقتال ، ويمسى بعدئذ قانوناً
ظافراً ومؤسسة تبقى مائة عام ، حتى تتخلى بدورها لأمان جديدة
وصور جديدة . إن تاريخ الدولة يصور فى رسم تخطيطى تقدم
الفكر ، ويتبع من بعيد الخطوط الدقيقة التى تتألف منها الثقافة
والأمانى .

إن نظرية السياسة التى استولت على عقول الناس ، والتى
عبروا عنها أحسن ما استطاعوا من تعبير فى قوانينهم وفى ثوراتهم ،
تعتبر الأشخاص والأملاك الشئيين اللذين من أجل وقايتهما تقوم

الحكومة . أما الأشخاص فلهم جميعاً حقوق متساوية ، لأنهم متكافئون في الطبيعة . وهذا الرأي يتطلب — بطبيعة الحال — بكل ما فيه من قوة نوعاً من الديمقراطية . وبينما تكون حقوق الجميع — كأشخاص — متساوية ، بسبب إمكانهم بلوغ العقل ، فإن حقوقهم في الملك تختلف كل الاختلاف . فهذا رجل لا يملك إلا ثيابه ، وذاك آخر يملك قطراً بأسره . وهذه المصادفة تتوقف أولاً على مهارة كل فريق ومزاياه ، مهارته التي تنقسم درجات لا حصر لها ، وتتوقف ثانياً على الميراث . ولذا نراها تقع وقوعاً لا مساواة فيه ، ومن ثم فإن ما تجلب من حقوق لا تتوفر فيه بالطبع المساواة . ولما كانت الحقوق الشخصية هي عنها في كل مكان فإنها تتطلب حكومة تقوم على أساس نسبة الملك والمالكين . فمثلاً لابان الذي يملك قطعان الغنم والماشية يود أن يرعاها ضابط عند الحدود خشية أن يطردها مديانز ، ويدفع ضريبة لهذا الغرض . أما يعقوب فإنه لا يملك قطعاناً من الغنم أو الماشية ، ولذا فهو لا يخشى مديانز ولا يدفع ضريبة للضابط . وقد تبين أن لابان ويعقوب يجب أن يتساويا في حق انتخاب الضابط الذي يحمي شخصيهما ، في حين أن لابان وحده — دون يعقوب — هو الذي يجب أن ينتخب الضابط الذي يحمي الأغنام والماشية . فإذا أثير موضوع زيادة الضباط أو مراكز الحراسة ، أفلا يجب أن يكون لابان وإسحق وأولئك الذين يتحتم عليهم أن يبيعوا جانباً من قطعانهم لكي يشتروا

حماية بقيتها ، أحسن في الحكم ، وأحق به ، من يعقوب الذي — بحكم كونه شاباً رحالة — يأكل خبزهم دون خبزه ؟ .

كان المالكون في المجتمع الأول يكوّنون ثروتهم بأنفسهم ، وما دامت تأتى إلى المالكين بالطريق المباشر ، فإن أى جماعة منصفة لا يمكن أن يظهر فيها رأى غير أن المالكين يجب أن يضعوا قانون الملكية ، والأشخاص قانون الأشخاص .

ولكن الثروة تنتقل بالهبة والميراث إلى أولئك الذين لم يجمعوها . والهبة — في الحالة الأولى — تجعل الثروة حقاً للمالك الجديد كما كانت بالعمل ملكاً للمالك الأول : أما في الحالة الثانية — حالة الميراث — فإن القانون يجعل الملكية حقاً يثبت شرعاً في نظر كل إنسان طبقاً لتقديره للأمن العام .

غير أنه لم يكن من اليسير أن يتجسم المبدأ الذي يسلم به الجميع دون مشقة ، وهو المبدأ الذي يقرر أن المالكين يجب أن يسنوا قانون الملكية ، ويسن الأشخاص قانون الأشخاص : ذلك لأن الأشخاص والأملاك قد امتزجوا في جميع المعاملات . وأخيراً يظهر أن الرأى العام استقر على أن العدل يقضى بأن تكون للمالكين حقوق انتخابية أكثر مما يتمتع به غير المالكين ، وفقاً للمبدأ الاسبرطى الذى « يسمى كل عدل مساواة ، ولا يسمى كل مساواة عدلاً » .

ولا يبدو هذا المبدأ اليوم واضحاً كما بدا في سالف الأيام ، وذلك

من ناحية لأننا بتنا نشك في هذا الاهتمام الزائد بالملك في القوانين ، وهذا الاتجاه في تقاليدنا الذي يسمح للغنى بأن يعتدى على الفقير ، وأن يقيه على فقره ؛ ومن ناحية أهم لأن هناك إحساساً غريزياً مهما يكن غامضاً مبهماً بأن نظام الملك بأسره — بقواعده الراهنة — ضار ، وتأثيره على الأشخاص محط بهم مؤخر لهم ، وأن الأشخاص حقاً هم وحدهم الجديرون باهتمام الدولة : وأن الملك سوف يتبع الأشخاص دائماً ، وأن الغرض الأسمى للحكومة هو تثقيف الناس ، وإذا أمكن تعليم الناس فإن النظم السائدة سوف تسهم في إصلاحهم ، وإحساسهم الخلق سوف يكتب لهم قانون الأراضى . فإذا لم يكن من اليسير أن نحكم بالإنصاف في هذا الموضوع ، فإن الخطر يقل إذا وجهنا التفاتنا إلى دفاعنا الطبيعي . إنا بذلك نكون أحسن حراسة لأنفسنا من رعاية أمثال هؤلاء الحكام الذين نختارهم عادة .

إن الجانب الأكبر من المجتمع يتألف دائماً من أشخاص صغار غافلين . أما الشيوخ الذين شاهدوا نفاق المحاكم ورجال الحكم فإنهم يموتون دون أن يتركوا حكمة لأبنائهم . فهؤلاء يصدقون صحيفتهم الخاصة كما كان آباؤهم يفعلون وهم في مثل سنهم . وبمثل هذه الأغلبية الجاهلة المخدوعة سرعان ما تنهار الدول . بيد أن هناك حدوداً لا تستطيع حماقة الحكام وأطماعهم أن تتخطاها . فللاشياء قوانينها ، كما للرجال ، وتأتى الأشياء التلاعب بها . والملكية سوف

تُحمى . والقمح لا ينمو إلا إذا زرع ووضع له السماد ، ولكن
الفلاح لن يزرعه أو يفلحه إلا إذا كان الترجيح بنسبة المائة إلى
إلى الواحد بأنه سوف يجمعه ويحصده . فالأشخاص والملوك — تحت
أية هيئة من الهيئات — لابد أن يظفروا بالحكم العادل ، وسوف
يظفرون به . إنهم يمارسون قواهم باطراد كما تمارس المادة جاذبيتها
فإنك إن أخفيت رطلا من التراب بطريقة ماكرة لم يسبقك إليها
أحد ، وإن شتته أجزاء وجزيئات ، وإن أذبتة هائلا ، وإن حولته
إلى غاز ، فإنه سوف يزن الرطل دائماً ، وسوف يجذب ويقاوم غيره
من المواد دائماً بمقدار ثقل الرطل كاملاً — وصفات الشخص ،
وذاكؤه وقواه المعنوية ، لابد أن تمارس قوتها كاملة ، تحت أى
قانون من قوانين الاستبداد المطلق ، إن لم يكن صراحة فى الخفاء ؛
وإن لم يكن مع القانون فضده ، وإن لم يكن بطريقة سليمة فبأخرى
مسمومة ، بالحق أو بالقوة .

ومن المستحيل أن نبين حدود التأثير الشخصى ، لأن الأشخاص
أعضاء ذوو قوى معنوية وخارقة . وقوى الأشخاص لا يمكن أن
تكون موضعاً للحساب تحت سلطان فكرة تستولى على عقول
الجمهير ، كالحرية المدنية ، أو العاطفة الدينية . إن أمة أبنائها
يميلون بالإجماع نحو الحرية ، أو الغزو ، تستطيع بسهولة أن تحيّر
حساب الإحصاء ، وتنجز أعمالاً مسرفة ، لا تتناسب البتة وما لديها
من وسائل . كما فعل الإغريق ، والعرب ، والسويسريون ،

والأمريكان ، والفرنسيون .

وكذلك لكل ذرة من ذرات الملكية جاذبيتها الخاصة . ويمثل
السنت كمية معينة من القمح أو غيره من السلع . وقيمته في ضرورات
الجانب الحيواني من الإنسان . أنه يساوى قدرأ معيناً من الدفء ،
ومن الخبز ، والماء ، والأرض . وقد يفعل القانون ما يشاء بصاحب
الملك ، ولكن قواه العادلة سوف تظل ملتصقة بالسنت . ويستطيع
القانون في صيحة جنونية أن يقول إن لكل شيء قوة ما خلا أصحاب
الملك : لن تكون لهم أصوات . غير أن الملكية بقانون أسمى
— بالرغم من ذلك — سوف تدون ، عاماً بعد عام ، دستوراً
شاملاً يحترم الملكية ، وسوف يصبح غير المالك مسجلاً للمالك .
وما يريد الملاك أن يفعلوه سوف تفعله قوى الملكية بأسرها ، سواء
عن طريق القانون ، أو عن طريق مخالفة القانون . وإنى طبعاً
أتحدث عن كل الملكيات ، ولا أتحدث فقط عن الضياع الكبرى .
وإذا ما غلب الأثرياء في الانتخاب ، كما يحدث غالباً ، فإنما يكون
ذلك لأن ملكية الفقراء المشتركة تفوق ما جمع الأثرياء ، فإن كل
فرد يملك شيئاً ما ، حتى إن كان بقرة ، أو عربة ، أو أسلحته ، ولذا
فإن لديه هذا الملك يتصرف فيه .

والضرورة عينها التي تضمن حقوق الأشخاص والملكيات ضد
خبت الحاكم وحماقته ، تحدد صورة الحكم ووسائله ، التي تلائم كل
أمة ، وطرق تفكيرها ، ولا يمكن نقلها إلى ألوان أخرى من المجتمع .

ونحن في هذا البلد غثخون جداً بنظمنا السياسية ، التي تتفرد بأنها نشأت — في حدود ما يذكر الأحياء من الرجال — عن صفات الشعب وظروفه ، التي ما زالوا يعبرون عنها بإخلاص كاف . ونحن نظهر إشارنا لها على غيرها مما رواه التاريخ . إنها ليست أحسن ، ولكنها أشد ملاءمة لنا فحسب . وقد يكون من الحكمة أن نفرض في العصور الحديثة مزايا الشكل الديمقراطي . ولكن في ألوان أخرى من المجتمع ، التي يقدس فيها الدين الشكل الملكي ، كان هذا الشكل دون غيره هو اللائق بها . الديمقراطية خير لنا لأن العاطفة الدينية في العصر الحديث أكثر اتفاقاً معها . ولما كنا ديمقراطيين مولداً ، فلسنا أهلاً للحكم على الملكية ، التي كانت صحيحة نسبياً عند آبائنا الذين عاشوا في الفكرة الملكية . غير أن نظمنا — رغم تطابقها مع روح العصر — لا تخلو البتة من العيوب العملية التي وُصفت بها الأشكال الأخرى . فكل دولة تفسد عند تطبيقها . والرجال الصالحون لا ينبغي لهم ألا يخضعوا للقانون خضوعاً تاماً . وأية سخرية من الحكومة يمكن أن تساوى قسوة النقد الذي تتضمنه كلمة (السياسة) التي كانت تدل لعدة عصور حلت على (المكر) ، مشيرة إلى أن الدولة إن هي إلا خدعة وحيلة ؟ .

وهذه الضرورة البريئة عينها وهذه الإساءة في التطبيق ذاتها تظهر في الأحزاب التي تنقسم إليها كل دولة ، من معارضين ومؤيدين لإدارة الحكومة . والأحزاب تقوم كذلك على الغرائز ،

ولها مرشدون خير من حكمة زعمائها يقودونها إلى أغراضها الخاصة المتواضعة . وليس في نشأتها أى اعوجاج ، ولكنها تحدد في شئ من الجمود نوعاً من العلاقة الواقعية الدائمة . ولا نعدو الحكمة إذا نحن أنحنينا باللائمة على حزب سياسى لا يستطيع أعضاؤه ، فى الأغلب — أن يبرروا موقفهم ، ولكنهم يقفون موقف الدفاع من تلك المصالح التى يجدون أنفسهم فى غمارها ، إلا بمقدار مانعدها إذا أنحنينا باللائمة على الرياح الشرقية أو الصقيع . إنما يبدأ نضالنا معهم حينما يهجرون هذا الأساس الثابت الطبيعى بإشارة من زعيم ، وعندما يخضعون للاعتبارات الشخصية فيتشبثون بالمحافظة على أمور معينة والدفاع عنها ، أمور لا تتعلق البتة بمبادئهم . إنما تفسد الأمور الشخصية الحزب دائماً .

وقد نبرى الجماعة من الخيانة ، بيد أنا لا نستطيع أن نشمل الزعماء بهذا التسامح عينه ، فهم يحددون مزايا الانصياع والحماسة عند الجماهير التى يوجهونها . وأحزابنا فى العادة أحزاب ظروف لا أحزاب مبادئ ؛ كالصراع القائم بين مصلحة المزارعين ومصلحة التجار ؛ وبين أصحاب رؤوس الأموال والعمال ؛ وهى أحزاب متفقة فى صفتها المعنوية ، ويمكنها بسهولة أن تتبادل الأوضاع فى تأييد الكثير من أعمالها . أما أحزاب المبادئ ، مثل الطوائف الدينية ، أو حزب حرية التجارة ، أو الانتخاب العام ، أو إلغاء الرق ، أو إلغاء حكم الإعدام ، فهى تنحدر إلى خلافات شخصية ، أو توحى بالحماسة .

إن عيب أحزابنا الرئيسية في هذا البلد (الذى يمكن أن تُذكر مثلاً حسناً لهذه الجماعات الفكرية) هو أنها لا تستند إلى الأساس المتين الضروري الذى ينتمى كل منها إليه ، ولكنها تتحمس أشد الحماسة لاتخاذ إجراء محلى وقى ، لا يفيد المصلحة العامة فى شئ .

أما عن الحزبين الكبيرين اللذين يكادان فى هذه الساعة أن يقتسما الأمة بينهما فإنى أقول إن أحدهما يضم أحسن المبادئ ، ويضم الآخر خير الرجال . يود الفيلسوف والشاعر ورجل الدين بطبيعة الحال أن يدلى بصوته للديمقراطى ، ولحرية التجارة ، والانتخاب العام ، وإلغاء القساوة الشرعية فى قانون العقوبات ، والتيسير بكل الوسائل للشباب والفقراء بالظفر بمصادر وسائل الثروة والنفوذ ، ولكنه قلما يقبل الأشخاص الذين يقترحهم له ما يسمونه بالحزب الشعبى ممثلين لهذه الحريات . فهم لا يؤمنون بقلوبهم بالأهداف التى تعطى كلمة الديمقراطية ما تنطوى عليه من معانى الأمل والفضيلة . إن روح الراديكالية الأمريكية هدامة لا ترمى إلى غرض . إنها لا تحب ، وليست لها أهداف بعيدة أو مقدسة ؛ ولكنها هدامة فقط لما تنطوى عليه من كراهية وأنانية . والحزب المحافظ من ناحية أخرى يتألف من أكثر السكان اعتدالاً وقدرة وثقافة ، ولكنه جبان ، لا يهمة إلا أن يدافع عن الملكية . إنه لا يبرر حقاً ، ولا يتطلع إلى خير حقيقى ، ولا يصم جرماً ، ولا يقترح سياسة كريمة . إنه لا يبنى ، ولا يكتب ، ولا يحمى الفنون ، أو يحتضن الدين ، أو يؤسس

المدارس ، أو يشجع العلم ، أو يحرر العبيد ، أو يصادق الفقير ، أو الهندي ، أو المهاجر . ولا يتوقع العالم من أى الحزبين — حينما يظفر بالسلطة — نفعاً فى علم أو فن أو إنسانية ، نفعاً يتفق وموارد الأمة .

ولست من أجل هذه العيوب يائساً من ديمقراطيتنا . لسنا تحت رحمة أية موجة من موجات المصادفة . فى نضال الأحزاب الكاسرة تجد الطبيعة الإنسانية دائماً نفسها معززة ، كما وُجد أن أطفال المجرمين فى خليج بوتانى لهم من الإحساس الخلقى السليم ما لغيرهم من الأطفال .

إن المواطنين فى الولايات الإقطاعية يزعمهم أن تهوى مؤسساتنا الديمقراطية إلى الفوضى . وقد تعلم الشيوخ والحذرون منا عن الأوربيين أن ينظروا بشئ من الفرع إلى حريتنا المضطربة . يقال إننا فى تسامحنا فى تفسير الدستور ، وفى استبداد الرأى العام ، لا نرسو على صرفاً . وقد يظن مشاهد أجنبي أنه يجد صمام الأمن فى قدسية الزواج عندنا ، ويظن غيره أنه واجدها فى مذهبنا الكلفنى .

أما فِشَر آمز فقد عبر عن الضمان الشعبى بطريقة أحكم حينما وازن بين الملكية والجمهورية فقال : « إن الملكية كالسفينة التجارية ، تشق الأبحار ، ولكنها قد ترتطم أحياناً على صخرة وتهوى إلى القاع . فى حين أن الجمهورية كالعوامة ، لا تغطس أبداً ، غير أن قدميك تكونان فى الماء دائماً » . لا يمكن أن تكون للأشكال أهمية خطيرة ، ما دامت قوانين الأشياء تصادقنا ، ولا يهمننا البتة كم طناً يكون ثقل الجو الذى يضغط على رؤوسنا ، ما دام فى داخل رئيتنا

ضغط مساو له يقاومه . إنك إن ضخمت الكتلة ألف ضعف فلن تسحقنا ما دام رد الفعل يساوى الفعل .

إن حقيقة القطبين ، والقوتين ، الطاردة والجاذبة ، قاعدة عامة ، وكل قوة بفعلها الخاص تنمى القوة الأخرى . الحرية الهمجية تقوى الضمير الحديدى . وانعدام الحرية — بتقوية القانون والتقاليد — يميت الضمير ، ولا يسود الحكم العرفى إلا إذا زادت شدة الزعماء وقدرتهم على الاحتفاظ بذواتهم أكثر مما ينبغى . ولا يمكن أن يدوم حكم الرعاع : فإن مصلحة كل فرد تتطلب زواله ، ولا يرضى الجميع سوى العدالة .

يجب أن نشق ثقة لآحد لها فى الضرورة النافعة التى تضىء خلال جميع القوانين . إن الطبيعة البشرية تعبر عن نفسها فيها تعبيراً مميزاً كما تعبر عن نفسها فى التماثيل أو الأغانى أو الخطوط الحديدية ، وخلاصة قوانين الأمم ليست سوى تسجيل للضمير العام . إن الحكومات قد نشأت عن تشابه الناس فى التفكير . فالسبب عند أحدهم سبب عند الآخر ، وعند كل من عداه . وهناك طريق وسط يرضى جميع الأحزاب ، مهما كثر عددها ، ومهما اشتد تعصبها . يجد كل فرد تصديقاً لأبسط مطالبه وفعاله فى قرارات من عقله يسميها « الحق » و « العدل الإلهى » . ويجد جميع المواطنين اتفاقاً تاماً فى هذه القرارات ، وفيها وحدها ؛ لا فيما يطيب أكله أو ارتداؤه ، وفى حسن استخدام الوقت ، وفى مساحة الأرض أو المعونة العامة

التي يستحق أن يطالب بها كل فرد . وسرعان ما يحاول الناس تطبيق هذا الحق وهذه العدالة على قياس الأرض ، وتقسيم الخدمات ، وحماية الحياة والمال . وليس من شك في أن محاولاتهم الأولى ملتوية معوجة ، ومع ذلك فالحق المطلق هو الحاكم الأول ؛ أو قل إن كل حكومة هي حكومة دينية لا تخلو من الشوائب . إن الفكرة التي تهدف كل جماعة إليها كي تسن قانونها وتعده هي إرادة الرجل الحكيم . ولا تستطيع الجماعة أن تجد الرجل الحكيم في الطبيعة ، فهي تبذل جهداً ملتويا وإن يكن جاداً كي تحقق حكمه بالحيلة ، وذلك مثلاً بأن تدفع الشعب كله إلى التصويت على كل إجراء ، أو بالانتخاب على صرتين تجريه كي تحصل على من يمثل الجميع ؛ أو بانتخاب خير المواطنين ، أو بالحصول على مزايا الكفاية والأمن الداخلي بتحويل الحكم رجلاً واحداً يستطيع أن يختار بنفسه معاونيه .

إن كل أشكال الحكومات ترمز إلى حكومة أبدية ، مشتركة بين كل الجماعات ، بغض النظر عن عدد أفرادها ، فهي كاملة إذا وُجد من الرجال اثنان ، وكاملة إذا لم يوجد غير رجل واحد . إن طبيعة كل فرد إعلان كاف له عن صفة زملائه . الصواب والخطأ عندي ، هما الصواب والخطأ عندهم . وما دمت أعمل ما يلائمني وأمتنع عما لا يلائمني ، فإنني وجاري سوف تتفق غالباً في وسائلنا ، ونعمل معاً مدة من الزمن لهدف واحد . ولكني

حينما أجد أن سلطاني على نفسي لا يكفي ، وأتعهد بتوجيه جاري كذلك ، أتخطئ الحقيقة ، وأفسد علاقتي به . وقد يتوفر لي من المهارة أو القدرة ما لا يتوفر له ، فلا يستطيع أن يحسن التعبير عن شعوره بالإساءة ، ولكن ذلك خداع ، يصيبه بالأذى ويصيني ككل خداع آخر . والحب والطبيعة لا يمكن أن يؤيدا هذه الدعوى : وإنما يجب أن تنفذ بالخداع العملي ، أقصد بالقوة ، وهذا التعهد بعمل الآخرين هو الخطأ الجسيم الذي تقع فيه حكومات العالم فيجعلها مرذولة ممقوتة . والأمر يختلف في الأعداد الكبيرة عنه في الزوج ، ولكنه لا يفهم في الحالة الأولى بالوضوح الذي يفهم به في الحالة الثانية .

إنني أستطيع أن أرى جيداً فرقاً كبيراً بين أن أقصر نفوذى على نفسي ، وبين أن أحاول أن أجعل غيرى يعمل وفقاً لآرائى : ولكن إذا زعم ربع الجنس البشرى انه يوجهنى إلى ما ينبغي لى عمله فقد يجبرنى هذا الظرف إلى درجة لا أرى معها بجلاء سخف ما يدعوننى إليه . ومن ثم فإن الأهداف العامة كلها تبدو غامضة خيالية إلى جانب الأهداف الشخصية . لأن أى قانون ، ما خلا ذلك الذى يسنه الناس لأنفسهم ، مدعاة للضحك . إذا وضعت نفسى موضع طفلى ، ووقفت وإياه إزاء فكرة واحدة ، ورأينا أن الأمور هى كذا أو كذا ، فإن هذا الذى نرى هو القانون لى وله . فكلانا هناك ، وكلانا يعمل . أما إذا كنت أتدبر أمره — دون

أن أشركه في الفكر — وأحدس كيف يكون الأمر معه ، وأقضى بهذا أو ذاك ، فإنه لن يطيعني . هذا هو تاريخ الحكومات — رجل واحد يعمل شيئاً يربط به غيره . رجل لا يمكنه أن يتعرف بي يفرض علىّ ضريبة ؛ وينظر من بعد إلىّ ، ويحكم بأن ينصرف جانب من عملي إلى ذلك الغرض الهوائى ، الذى يترأى له دون أن يترأى لى . الضرائب هى الدين الذى أشد ما يكون الناس ميلا عن دفعه . وما أشد هذه السخرية من الحكومة ! إن الناس يعتقدون أنهم يحصلون على ما يساوى ما لهم فى كل شأن سوى هذا .

ولذا فكلما ضعف سلطان الحكومة كان ذلك خيراً لنا ، وكذلك كلما قلت القوانين وقل النفوذ الذى نوليه ثقتنا . والبلسم الذى يقى من شر هذه الحكومة الرسمية هو تأثير شخصية الفرد ، ونمو الفرد ؛ وظهور الأصل ليحل محل الصورة ؛ أو ظهور الرجل الحكيم الذى يجب أن نقر بأن الحكومة القائمة ليست سوى محاكاة ممسوخة له .

إن ذلك الذى تميل الأشياء جميعاً إلى استخلاصه ، وذلك الذى تتآزر الحرية ، والثقافة ، وتبادل الصلات ، والثورات ، على تكوينه وإخراجه هو الشخصية ؛ ذلك هو هدف الطبيعة : أن تبلغ تنويع ملكها هذا . إنما تقوم الدولة لتربية الرجل الحكيم ؛ وبظهور الرجل الحكيم تنتهى الدولة . إن ظهور الشخصية يجعل الدولة

أمراً لا ضرورة له . الرجل الحكيم هو الدولة . إنه ليس بحاجة إلى جيش أو حصن أو أسطول — إنه شديد الحب للناس . لا يجذب الأصدقاء إليه رشوةً ، أو وليمةً ، أو قصر ؛ ولا أساس المنفعة أو الظروف المواتية . إنه ليس بحاجة إلى مكتبة لأنه لم يفكر ، أو كنيسة لأنه نبي ، أو كتاب قانون لأن لديه واضع القانون ، أو مال لأنه القيمة ، أو الطريق لأنه في بيته حينما يكون ، ولا خبرة لأن حياة الخالق تخترقه وتطل من عينيه . ليس له أصدقاء شخصيون لأن من يملك السحر الذي يجذب دعاء الناس جميعاً وتقواهم لا يحتاج إلى زوج وقل من يربهم ، كي يشاطروه حياة شاعرية مستقاة . علاقته بالناس ملائكية ، وذكره دواء لهم ، ووجوده عطر وزهر .

إننا نحسب أن مدينتنا قد اقتربت من ذروتها ، ولكننا ما زلنا عند صياح الديك ونجم الصباح . إن تأثير الشخصية في مجتمعنا الهمجي لا يزال في طفولته . ويكاد وجوده لا يُحس كقوة سياسية أو كسيد شرعي يُنزل كل حاكم عن عرشه . وقد فات ذلك مالتس وريكاردو تماماً ؛ « والسجل السنوي » صامت ، ولم يدوّن ذلك في « قاموس المحادثات » ، ولم يرد له ذكر في رسالة الرئيس ، أو خطاب الملكة ؛ ولكنه — برغم ذلك — لا يكون عدما قط . كل فكرة يُلقى بها النبوغ والتقوى في هذا العالم تغير وجه الأرض . ويحس المقاتلون بالسيوف وهي بين صفوف الجيش وجود القيمة الحقّة ،

برغم ما يرتدون من ثياب القوى التي تنعدم فيها الإصالة . وأعتقد أن النضال نفسه في سبيل التجارة والأطماع ليس سوى اعتراف بهذه الصفة المقدسة ؛ والنجاح في هذه الميادين هو العوض القليل ، أو ورقة التين التي تحاول أن تغطي بها عريها النفس المستحية . وإنى أجد مثل هذا الاتجاه الملتوى في كل صقع من الأصقاع . إنا نسارع إلى إظهار شيء من قدرتنا العقلية عوضاً عن القيمة الحقيقية لأننا نعرف مقدار ما يجب علينا أدائه . إن الإحساس بحق عظمة الشخصية هذه يطاردنا ، ولكننا لا نخلص له . غير أن لكل منا نوعاً من القدرة العقلية ، ويستطيع أن يؤدي شيئاً نافعاً ، أو جليلاً أو سريعاً ، أو مسلياً ، أو مرححاً . إنا نقوم بذلك ، اعتذاراً لغيرنا ولأنفسنا ، لأننا لم نبلغ حد الحياة الطيبة المتساوية . بيد أن ذلك لا يرضينا ، وإن كنا نلقي به تحت ملاحظة الرفاق . وقد يعنى بصائرهم ، ولكنه لا يبسط أسارير وجوهنا ، أو يعطينا اطمئنان الأقوياء حينما نسير في الخارج .

إننا تقدم الكفارة حينما حللنا . وقدرتنا العقلية نوع من الاستغفار ، ونحن مكرهون على التأمل في أية لحظة من اللحظات يتم فيها عمل عظيم ، ونحن لها خاشعون ، كأنها أمر جليل ، وليست فصلاً من عدة فصول ، وتعبيراً صادقاً عن طاقتنا الدائمة . إن أكثر الأشخاص القادرين يلتقون في المجتمع بشيء من التجاذب الخفي . وكان كلا منهم يقول « لست هنا بكليتي » . وأعضاء مجلس الشيوخ

ورؤساء الولايات قد تسنموا الذروة بكثير من الألم ، لا لأنهم يعتقدون أن المكانة العليا تريحهم خاصة ، وإنما فعلوا ذلك اعتذاراً عن القيمة الحقيقية ، ولكي يبرروا رجولتهم في أعيننا . هذا المقعد البارز هو تعويضهم لأنفسهم عن طبيعتهم الضعيفة الباردة الجامدة . يجب أن يفعلوا ما يستطيعون . وما أشبههم في ذلك بنوع من حيوان الغاب ليس له سوى ذنب قابض : ولا بد له أن يتسلق أو أن يزحف . وهل إذا وجد المرء نفسه غنياً في طبيعته إلى درجة تمكنه من الدخول في علاقات دقيقة مع خير الأشخاص ، فيجعل الحياة صافية حوله بما في مسلكه من كرامة وعدوبة ، هل يستطيع مثل هذا الرجل أن يرضى بالمزايا الكاذبة للصحافة واجتماعات الانتخابات النيابية ، ويشتهي العلاقات الجوفاء التي تنم عن الأبهة والعظمة ، علاقات رجال السياسة ؟ ليس من شك في أن من يستطيع أن يكون مخلصاً لا يرضى أن يكون دجالاً .

إن اتجاهات العصر الحاضر تؤيد فكرة الحكم الذاتي ، وتترك الفرد — في كل الشرائع — إلى ما يوقعه عليه دستوره الخاص من جزاء وعقوبة ، وهذا الدستور يعمل بنشاط لا تنصوره ، في حين أنا نعتمد على القيود المصطنعة . وقد ظهرت في التاريخ الحديث الحركة التي تسير في هذا الاتجاه ظهوراً واضحاً . وما أكثر ما فيها من طيش وانحطاط . غير أن طبيعة الثورة لا تتأثر برذائل الثائرين ، لأن الثورة قوة معنوية بحتة . لم يتميز بها قط أى حزب في التاريخ ،

ولا يمكن أن يتميز بها . لأنها تفصل الفرد من كل حزب ، وتوحده — في الوقت نفسه — بالجنس كله . إنها تبشر بالاعتراف بحقوق أسمى من حقوق الحرية الشخصية ، أو ضمان الملكية . لكل امرئ الحق في أن يعمل ، وأن يكون محل ثقة ، وأن يُحَبَّ وأن يُحترم .

إن قوة الحب لم تُجَرَّب قط كأساس للدولة . يجب ألا تتصور أن كل شيء يسير نحو الفوضى ، إذا كان كل بروتستانتى رقيق الحس لا يُرغم على القيام بنصيبه في الأوضاع الاجتماعية المعروفة ، ولا ينبغي كذلك أن نشك في أنه ليس من الممكن أن تُعبد الطرق ، وأن ترسل الخطابات ، وأن تكفل للعمل ثمرته ، إذا انتهى حكم القوة . وهل بلغت وسائلنا الآن حدّاً من الامتياز يجعل كل منافسة عديمة الجدوى ؟ بل هل لا تستطيع أمة من الأصدقاء أن تخترع وسائل أحسن من هذه ؟ ومن ناحية أخرى ، لا يخشى أشد الناس تحفظاً وجبناً شيئاً من إلقاء السلاح ونظام القوة قبل الأوان . فإنه طبقاً لنظام الطبيعة ، الذي يسمو كثيراً على إرادتنا تسير الأمور في هذا الاتجاه . وتقوم حكومة القوة دائماً إذا اتصف الناس بحب الذات . وعندما يصفّون إلى درجة تجعلهم ينكرون ناموس القوة ، يبلغون من الحكمة ما يجعلهم يدركون كيف يمكن أن تؤدي هذه الأغراض العامة ، أغراض البريد ، والطرق العامة ،

والتجارة ، وتبادل الملك ، والمتاحف ، والمكتبات ، ومؤسسات
الفن والعلم .

إننا نعيش في حالة وضعية جداً من الدنيا ، وندين بالولاء
— بالرغم منا — لحكومات تقوم على أساس القوة . وليس عند
أشد الناس تديناً وعلماً في أكثر الأمم ديناً ومدنية ، اعتماد على
الإحساس الخلقى ، واعتقاد كاف في وحدة الأشياء . مما يدفعهم
إلى الاعتقاد بأن المجتمع يمكن أن يسير بغير قيود مصطنعة ، كما
يسير النظام الشمسى ، أو أن المواطن الفرد يمكن أن يكون عاقلاً ،
وجاراً طيباً ، دون التلويح بالسجن ، أو مصادرة الأملاك . ومن
عجب كذلك انه لم يكن بنفس أى إنسان إيمان كاف بالقدرة على
الإصلاح ، مما يوحى إليه خطة عامة لتجديد الدولة على مبادئ الحق
والحبة . كل من زعموا هذه الخطة كانوا مصلحين جزئيين ،
اعترفوا بسلطان الدولة على صورة من الصور . ولست أذكر
إنساناً واحداً أنكر بإيمان سلطة القوانين ، على هذا الأساس
البسيط ، أساس طبيعته الخلقية الخاصة . أمثال هذه الخطط ، قد
تنم عن منتهى النبوغ وغاية التقدير ، ولكننا لا نرحب بها كصور
مثالية إلا نفاقاً . وإذا اجتراً الفرد الذى يعرضها على احتسابها خطأً
عملية فإنه ينفر منه العلماء ورجال الكنيسة ؛ ولا يستطيع الرجال
ذوو المواهب ، أو النساء ذوات العواطف السامية ، أن يخفوا

ازدراء هم لها . ولا يقل عن ذلك ما تدأب الطبيعة عليه من ملء
قلوب الشباب بالإيماء بالحماسة ، فهناك الآن جماعة من الرجال
— إن جاز لى أن أتكم بصيغة الجمع — أو إن نشدت الدقة
قلت إني كنت أتحدث منذ حين إلى رجل واحد ، لا يحمل من
عبء الهوى والتعيز ما يظهر له فى لحظة واحدة استحالة أن يتبادل
ألف البشر أسمى العواطف وأبسطها ، كما تتبادلها ثلة من الأصدقاء ،
أو زوج من العاشقين .

DATE DUE

J. Lib.

~~1 OCT 1987~~

JAFET LIB.

~~1 OCT 1978~~

~~13 OCT 1987~~

J. Lib.

~~1 JUN 1979~~

JAFET LIB.

~~1 JUN 1982~~

J. Lib.

~~12 APR 1984~~

JAFET LIB.

~~28 SEP 1990~~

محمود، محمود

مختارات من مقالات امرسن

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030512

818:E53essa

امرسن

818

E53essa

